The Islamic University–Gaza
Bean ship of and Postgraduate
Faculty of Arts
Master of History



الجامعـــة الإســلامية – غـــــزة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
كليــــــــــــــــة الآداب
مــاجستيـــــــــر تاريــــــــخ

عوامل النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهد أسرة المنصور قلاوون (678-783هـ/1279م-1382م)

Causes for victory and Empowerment of Mamlouks State In the Era of Mansuors Qalawoon Family Time(678-783AH)

إعدَادُ البَاحِثِ

إياد أحمد عبد العزيز مغاري

إشرَافُ الدُكتُور

غسان محمود وشاح

قُدمَ هَذا البحثُ اِستِكمَالاً لِمُتَطلباتِ الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الْمَاجِستِيرِ
فِي التَّاريخِ الإِسْلامِيِّ بِكُليةِ الآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الإِسلامِيةِ بِغَزة

أغسطس 2018م/ذي القعدة 1439هـ

إقـــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

عوامل النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهد أسرة المنصور قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)

Causes for victory and Empowerment of mamlouks State In the Era of mansuors Qalawoon family time(678-783AH)

أقر بأن ما اشتملت عليه هـذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقـــــدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the Universit's Policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own, and has not been submitted by others elsewhere for Any other degree or qualification.

student's name:	**إياد أحمد عبد العزيز مغاري**	**اسم الطالب:**
Signature:		**التوقيع:**
Date:		**التاريخ:**







The Islamic University of Gaza

عمـادة البحث العلمي والدراسات العليا

هاتف داخلي: 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:

التاريخ: 2018/08/07م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **اياد احمد عبدالعزيز مغاري** لنيل درجة الماجستير في كلية **الآداب**/ برنامج **التاريخ** وموضوعها:

عوامل النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهد أسرة المنصور قلاوون (678-783هـ 1279-1382م)

Causes of Victory and Firm Establishment for Mamlouks at Mansours Family Time(1382-1279 - 783-678)

وبعد المناقشة التي تمت اليوم **الاربعاء 19 ذو القعدة 1439**هـ الموافق **2018/08/01**م الساعة **الواحدة مساءً**، في قاعة مبنى **طيبة** اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. غسان محمود وشاح	**مشرفاً ورئيساً**	....
د. إبراهيم أحمد أبو شبيكة	**مناقشاً داخلياً**	....
د. عبد الحميد جمال الفراني	**مناقشاً خارجياً**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية الآداب/برنامج التاريخ**.

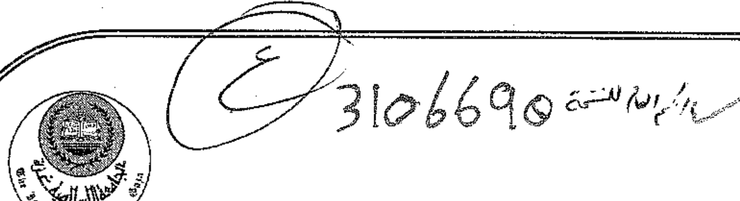
واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ. د. مازن إسماعيل هنية

نموذج رقم (4)



التاريخ: 26 / 8 / 2018 م

الموضوع/ مطابقة مواصفات النسخة الإلكترونية

بعد الإطلاع على الأسطوانات التي تحتوي على رسالة الطالب/........................

رقم جامعي:.................. كلية: .... قسم:........................

فإننا نحيطكم علماً بأنها مطابقة للمواصفات المطلوبة المبينة أدناه:

جميع فصول الرسالة في ملف (WORD) واحد وليست ملفات متفرقة.

تحتوي الأسطوانة على ملف (PDF + WORD).

مطابقة التنسيق في جميع الصفحات (نوع وحجم الخط) بين النسخة الورقية والإلكترونية.

مطابقة النص في الصفحة الورقية مع النص في الصفحة الإلكترونية لجميع صفحات الرسالة.

ملاحظة: ستقوم عمادة المكتبات بنشر الرسالة العلمية كاملة (PDF) على موقع المكتبة.

والله ولي التوفيق،

توقيع الطالب ....

توقيع المكتبة المركزية ....

ملخص الدراسة

جاءت هذه الدراسة بعنوان: عوامل النصر والتمكين للدولة المملوكية في عهد أسرة المنصور قلاوون (678-783هـ/1279-1382م)، وهي توضح حجم النجاح الإسلامي الذي حققته دولة أسرة قلاوون، رغم ما أحاط بها من أخطار داخلية وخارجية.

فبدأت حديثي بفصل تمهيدي للتعريف عن دولة المماليك، وأسرة قلاوون، ونجاحها في إقامة الدولة، وتوطيد أركانها، ثم قمت بتعريف عام عن سلاطين أسرة قلاوون، وصفاتهم الشخصية فبدأت بالتعريف عن السلطان قلاوون، وزوجاته، وأولاده، ثم التعريف بالسلطان الأشرف خليل، وزوجاته، وأولاده، ثم التعريف بالسلطان الناصر محمد، وزوجاته، وأولاده.

وتلا الفصل التمهيدي الفصل الأول، وكان بعنوان: الأسباب الإيمانية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد أسرة قلاوون، وقسمته إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول: التربية الدينية لأسرة قلاوون، والمبحث الثاني: التنمية الأخلاقية للمجتمع المملوكي، والمبحث الثالث: التمسك والحفاظ على مبادئ الإسلام الثابتة.

وتطرقت إلى الفصل الثاني، وكان بعنوان: العوامل الإدارية والحضارية والسياسية لنصر وتمكين الدولة المملوكية، وقسمته إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول: تطوير العمران المدني، المبحث الثاني: تنمية الحياة الفكرية والثقافية، المبحث الثالث: تنظيم الدولة وإدارتها بكفاءة.

وجاء الفصل الثالث، وكان بعنوان: العوامل الاقتصادية لنصر وتمكين الدولة المملوكية، وقسمته إلى مبحثين، المبحث الأول: تحقيق الازدهار الاقتصادي، وقسمته إلى قسمين، القسم الأول: تحقيق نهضة تجارية، القسم الثاني: تحقيق النهضة الزراعية والصناعية، وكان المبحث الثاني بعنوان: دور الاقتصاد في دعم المؤسسة العسكرية.

وانتهت الدراسة بذكر الفصل الرابع، وهو بعنوان: العوامل العسكرية لنصر وتمكين الدولة المملوكية، وانقسم إلى ثلاثة مباحث، المبحث الأول: تحقيق الأمن والاستقرار الداخلي، وذلك بإبرام الاتفاقات، والمعاهدات مع الدول العربية والإسلامية، والدول الخارجية، وجاء المبحث الثاني: التخطيط والتنظيم العسكري، وجاء الحديث فيه عن إعداد الجيش وبنائه، والأسلحة التي استخدمها في حروبه، وجاء المبحث الثالث: الجهاد العسكري الإسلامي على الثغور، وتحدثت فيه عن المعارك الحاسمة التي خاضها الجيش المملوكي بقيادة سلاطين أسرة قلاوون.

وخلصت الدراسة أنه لولا أسرة قلاوون، وتصديها للصليبيين من دول الفرنجة، والمغول؛ لغرق الإسلام والمسلمين في بحر الاستعمار طويلا؛ ذلك لأنهم تربوا على الجهاد، وطبقوا الإسلام، ونشروه، فنصرهم الله وانتصروا.

Abstract

This study is entitled: Factors of Victory and Empowerment of the Mamluk State in the Period of the Dynasty of Mansur Qalawoon (678 AH -783 AH / 1279 AD-1382 AD). It illustrates the extent of Islamic success achieved by the Qalawoon family, despite the internal and external dangers.I began with an introductory chapter on the introduction of the Mamluks and the Qalawoon family and their success in establishing and consolidating the state. I then gave a general definition of the sultans of Qalawoon family and their personal characteristics. Istarted by introducing Sultan Qalawoon, his wives and children,and then the definition of Sultan Al-Ashraf Khalil, his wives and children , And then the definition of Sultan Nasser Mohammed, his wives, and his children.chapter deals with the religious reasons for the victory and empowerment of the Mamluk state under the Qalawoon family. It divided it into three sections: the first topic: religious education of the Qalawoon family; the second topic: the oral development of the Mamluk society.he second chapter deals with the administrative, cultural and political factors of the victory and empowerment of the Mamluk state and its division into three fields: the first topic: the development of civil urbanization; the second topic: the development of intellectual and cultural life.chapter, entitled Economic Factors for the Victory and Empowerment of the Mamluk State, divided it into two topics. The first topic: Achieving economic prosperity and dividing it into two parts. The first section: achieving a commercial enaissance.Economy in support of the military.The study concluded with the fourth chapter, entitled: Military Factors for the Victory and Empowerment of the Mamluk State, divided into three sections. The first topic: achieving security and internal stability by concluding agreements and treaties with Arab and Islamic states and foreign countries. The third topic: Islamic military jihad on the gaps, and talked about the decisive battles fought by the Mamluk army led by Sultans Aslara Qalawoon.The study concluded that without the Qalawoon family, and confronting the Crusaders from the Franks and the Mongols, Islam and Muslims would plunge into the colonial sea for a long time; because they raised the jihad, applied Islam, and spread it.



" وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [التوبة: 105]

الإهـــــداء

إلى الشعب الفلسطيني المجاهد الصامد، إلى المرابطين على ثغور الوطن.

إلـــى شـــهدائنا الأبطـــال الـــذين رووا بـــدمائهم الطـــاهرة الزكيـــة ثـــرى هـــذا الـــوطن الحبيب.

إلى جرحانا الميامين الذين دافعوا عن حياض الأمة وعزتها وكرامتها ومجدها.

إلى أسرانا البواسل في سجون الاحتلال.

إلى والدي الحبيب رحمه الله يا من أحمل اسمك بكل فخر، يا من يرتعش قلبي لذكرك، يا من أودعتني لله كم تمنيت أن تكون بيننا لترى غرسك الذي زرعت وتشاركني فرحتي ولحظة نجاحي.

إلى حبيبة قلبي أمي الغالية الحنونة التي دعت لي بالتوفيق والنجاح.

إلى من أضاء ليلي، وسامرني مشواري زوجتي الغالية.

إلى سندي إخواني، وأخواتي، وأخص بالذكر أخي الكبير، والحبيب هشام رحمه الله، والذي كان له الفضل بعد الله بالتحاقي في الجامعة الإسلامية، والذي عشت معه أحلامي عبر كل الأوقات، والذي كان يتمنى أن يراني، ويشاركني فرحتي، ولحظة نجاحي.

إلى عائلتي الكريمة التي أكن لها كل التقدير والاحترام.

إلى أصدقائي، وأحبابي، وأصحابي الذين حفزوني في مسيرتي التعليمة أهدي لكم جميعًا ثمار عملي المتواضع.

عسى الله عز وجل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وينفع به رواد العلم، وورثة الأنبياء، ومنارة العلماء الذين يلتمسوا علمًا في سبيله.

الباحث

إياد أحمد مغاري

شكر و تقدير

أشكر الله رب العالمين صاحب المنة والعطاء أن وفقني لإتمام هذا البحث، وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه﴾([1])، ومن قوله ﷺ: "مَنْ لَمْ يَشْكُر النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وجَلَّ"([2]).

وإقرارًا وعرفانًا بالفضل لأهل الفضل فإنني أتقدَّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي ومشرفي الدكتور:

"غسان محمود وشاح"، الذي تجشم العناء والمتاعب في سبيل إخراج هذا البحث إلى النور، ولم يبخل عليّ بوقته، وجهده، وتوجيهاته، ومكتبته؛ ليخرج البحث بالصورة التي بين أيدينا. أسأل الله العلي القدير أن يديم عليه تمام الصحة والعافية، وجزاه عني كل خير.

وأشكر عضوي لجنة المناقشة كل من:

الدكتور: عبد الحميد جمال الفراني.

الدكتور: إبراهيم أحمد أبو شبيكة.

لتفضلهما بمناقشة رسالتي فجزاهما الله كل خير.

وأشكر كل من تفضل عليّ بمراجعة الرسالة من الناحية اللغوية، وساعد في تنسيقها وكتابتها وأخص بالذكر الأستاذ القدير مسلم رجب المغاري.

ويسعدني أن أتقدم بالشكر لكل من أسهم بإمدادي بالمعلومات القيمة، لإتمام بحثي، وأخص بالذكر مكتبة: الجامعة الإسلامية والعاملين فيها.

حفظهم الله تعالى جميعًا، على تكرّمهم وما قدَّموه من توجيهات مفيدة، ونصائح سديدة. داعيًا الله– سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– أن يلهمني التوفيق والسّداد، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا أجمعين، وأن يكتب له القبول في الدنيا والآخرة، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

الباحث/ إياد أحمد مغاري

([1]) سورة النمل: آية 40.

([2]) أبو داود، سنن أبي داود–كتاب الأدب–باب في شكر المعروف؛ الترمذي، سنن الترمذي– كتاب البر والصلة – باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك.

فهرس المحتويات

فهرس المختصرات و الرموز

يُشار إلى المصادر والمراجع في الهوامش على النحو التالي:

1- يشار للمصدر كالآتي: اسم المؤلف، أو شهرته، فاصلة، ثم الكلمة الأولى من اسم الكتاب، ثم فاصلة، الجزء، شرطة مائلة، ثم الصفحة، مثال: البلاذري، أنساب، (ج20/1).

2- إن كان للمؤلف أكثر من كتاب يبتدئ باسمه، أو شهرته، اسم الكتاب، الجزء، الصفحة، مثلًا: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (ج55/5)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، (ج220/4).

3- إذا كان المؤلف مجهولًا، يُذكر : مجهول، ثم فاصلة، أول كلمة من اسم الكتاب، الجزء، شرطة مائلة، الصفحة، مثال: مجهول، تاريخ الدولة العباسية، (ج332/1).

4- الرموز التالية تعني ما يلي:

ت	توفي
تح	تحقيق
ج	جزء
د.ت	دون تاريخ
ص	صفحة
(د.ط)	دون طبعة
ط	طبعة
ق	قسم، قرن
ع	عدد
م	ميلادي
مج	مجلد
(د.ن)	دون دار نشر
هـ	هجري
د.م	دون مدينة
صفحة	p
الصفحات.	pp
جزء	vol
المصدر السابق	Ibid

المقدمة

يعد عصر أسرة قلاوون في دولة المماليك هو العصر الذهبي، فهو عصر الانتصار على أكبر خطرين واجهتهما الأمة الإسلامية المغول والصليبيين، فلهذه الأسرة يعود الفضل في هزيمة المغول وترويضهم في معركة شقحب الشهيرة، كما يعود لهذه الأسرة الفضل في تدمير دول وكيانات الصليبيين في الشام، فهم من حرر طرابلس 688هـ/1289م، وهم من طهر بلاد الشام تمامًا من الوجود الصليبي في عهد الأشرف خليل بن قلاوون 700هـ/1291م، فهذه الانتصارات والقوة والتمكين كان له أسباب واضحة جلية التزم بها سلاطين وقادة هذه الأسرة ، فوصلوا إلى تلك الانتصارات، مثل: الأسباب الدينية، والإيمانية، إضافة إلى الأسباب السياسية، والإدارية، والحضارية، فضلًا عن الأسباب الأمنية، والعسكرية، من أجل ذلك طرق الباحث هذا الموضوع؛ لتجلية هذه الأسباب وإبرازها، والخروج بالعبر، والعظات، والخلاصات.

أهمية الدراسة:

1. ندرة الدراسات التي تناولت الموضوع تحديداً، بالرغم من وجود دراسات حول دولة المماليك.
2. إنصافًا لدولة المماليك في عهد أسرة قلاوون، والتي وفرت الأمن، والحماية للعالم الإسلامي، ضد هجمات الصليبيين والمغول.
3. تميز عصر أسرة المنصور قلاوون بنجاح إصلاحي كبير على كافة المستويات الدينية، والإدارية، والعسكرية، حققت به دولة المماليك، نصرًا للإسلام، والمسلمين.
4. الاستفادة من تلك الأحداث التاريخية لتقديم رؤية واضحة، بإعداد سياسات، وخطط، وبرامج عمل صالحة؛ للتطبيق يحتذى بها؛ لإعادة وحدة الأمة، ولم شملها في العالم المعاصر، وتحقيق النصر، وإحياء، وتطبيق برنامج التغيير، والإصلاح.
5. الحاجة الماسة إلى دراسة تجارب النهضة الناجحة السابقة، والإفادة منها، في ظل فشل أغلب تجارب حركات الإصلاح المعاصرة، بالرغم من صعوبة الظروف، والأوضاع التي مر بها قادة الأمة السابقين الناجحين، كما هو الحال مع المعاصرين.
6. فهم سنن الله الكونية التي تسري على المجتمعات، والشعوب والدول في التاريخ، والاستفادة منها في معرفة أسباب النجاح في بناء الدول، وتكوين عصرها الذهبي.

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

حدود الدراسة:

الحد الزماني: هو قرن من الزمان فترة حكم أسرة قلاوون(**678-783هـ/1279-1382م**).

الحد المكاني: مصر وبلاد الشام.

الدراسات والمراجع السابقة:

هناك بالتأكيد ندرة لدى المكتبة العربية في التخصص في هذا الموضوع، وهذا مما لا شك فيه من الأسباب التي دفعت الباحث لاختيار هذا الموضوع؛ لأهميته، ولإثراء المكتبة العلمية التاريخية به، بأسلوب يجمع ما بين التربية الدينية، والحقيقة التاريخية، والمنهجية العلمية، في أسرة إسلامية متميزة كان لها دور ريادي، وحضاري، وعسكري على مستوى العالم الإسلامي، وبخاصة مصر، وبلاد الشام، ومن أهم الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع، أو جزءًا من جوانبه.

1- **كتاب بعنوان:** المنصور قلاوون "بناء حضارة" للأستاذ: نور الدين خليل، مصر، دار الكتب المصرية، سنة النشر (1428هـ/2007م). لقد قام الباحث بذكر أحوال مصر وبلاد الشام، في عهد السلطان منصور قلاوون، وركز على الجانب الحضاري من دراسته، أما هذه الدراسة فقد تناولت عوامل النصر والتمكين في مرحلة أسرة المنصور قلاوون بأكملها، وركزت على العوامل الدينية، والحضارية، والإدارية، والسياسية، والعسكرية، والأمنية.

2- **كتاب بعنوان:** السلطان المنصور قلاوون "تاريخ – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية"، للباحث: محمد حمزة الحدَّاد، مصر، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ط2، سنة النشر(1418هـ/1997م). حيث تناولت الدراسة الجوانب الأثرية، والمعمارية في عهد السلطان المنصور قلاوون، وقد ركز الباحث في ذلك على بلاد مصر، كما أنه تناول أحوال مصر الداخلية، إضافة إلى علاقتها الخارجية من الناحية السياسية بالدول الأخرى؛ لكن هذه الدراسة قامت بتناول جميع الفترة التي حكمت فيها أسرة السلطان المنصور قلاوون، وعالجت عوامل النصر، والتمكين بمنهج علمي تربوي، يبرز عملية النهضة الحقيقية للدولة في عهد أسرة السلطان منصور بأكملها، على كافة المستويات السياسية،

والعسكرية، والإدارية، والحضارية، والدينية، بأسلوب يجمع بين الحقيقة التاريخية، والمنهجية العلمية، والتربية الإيمانية.

3- **دراسة بعنوان:** عصر سلاطين المماليك "التاريخ السياسي والاجتماعي"، للأستاذ الدكتور: قاسم عبده قاسم، دار الشروق العربي، مصر، ط1، سنة النشر (1419هـ/1998م)، وقد تناولت الدراسة الأوضاع السياسية، والاجتماعية لدولة المماليك منذ قيامها إلى انهيارها، فتعرضت لجميع الأسر، والسلالات منذ نهاية العصر الأيوبي، وبداية الخلافة العثمانية؛ لكنها لم تتناول الجوانب الحضارية المدنية، والثقافية، والفكرية، والعسكرية بشكل واضح، إضافة إلى أنها تناولت جميع العهد المملوكي بشكل عام، وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة، حيث تناولت فترة حكم أسرة قلاوون من الناحية الاجتماعية، والسياسية؛ ولكن الباحث وظف دراسته بأن تناول عهد أسرة قلاوون فقط؛ ليظهر مدى تقدم المستويات الإدارية، والدينية، والحضارية، والسياسية، والعسكرية، والأمنية في حقبة تعد العصر الذهبي لدولة المماليك.

4- **كتاب بعنوان:** أسواق مصر في عهد سلاطين المماليك، للأستاذ الدكتور: قاسم عبده قاسم، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، سنة النشر(1398هـ/1978م)،وقد تناولت الأوضاع الاقتصادية في عهد الدولة المملوكية، وركزت على الجانب التجاري، وفئة التجار، فلم تغطِ الدراسة سوى هذا النوع من الجوانب، والأوضاع، وعليه قد استفاد الباحث من الأوضاع الاقتصادية في هذه الفترة؛ ليبني عليها في فهم الأوضاع الاقتصادية، والحضارية في عهد أسرة السلطان منصور قلاوون، إضافة إلى أن دراسته تغطي كافة الأوضاع العسكرية، والدينية، والسياسية، والحضارية في العصر الذهبي المملوكي.

5- **دراسة بعنوان:** العصر المملوكي "من التصفية للهجمة الأوروبية الثانية"، للباحثة نادية محمود مصطفى وآخرون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، سنة النشر (1417هـ/1996م)، حيث تناولت دراسة الباحثة العلاقات الدولية التي كانت تربط دولة المماليك مع أطراف أخرى في ظل الصدام الحضاري على حلبة الصراع بين عدة قوى إسلامية، وغير إسلامية وفق التسلسل التاريخي للصليبيين، والمغول، والصفويين، والعثمانيين، فهي تهدف بشكل أساسي إلى دراسة متغيرات الصراع داخل المماليك، وتأثيره على البنية الدولية لداخل دولتهم، كما توضح أن العلاقات السياسية التي حكمتها أدوات الصراع الإقليمية عكست صورة تغير قوى الموازين الدولية في منطقة البحر المتوسط وغرب آسيا، وقد استفاد الباحث من هذه الدراسة في تناول الصراع، والمعارك العسكرية في

عهد أسرة قلاوون، وقام بالبناء عليها؛ لكن دراسة الباحثة ركزت في الجانب الأساسي على الجانب السياسي، والعسكري، فعوض الباحث ذلك بأن تناول الجوانب الإدارية، والحضارية، والأمنية، والدينية، في عهد أسرة قلاوون.

تقسيمات الدراسة:

لقد قسم الباحث الدراسة إلى: مقدمة، وفصل تمهيدي، ثم أربعة فصول رئيسة، كما يلي:

الفصل التمهيدي :تعريف بدولة المماليك، وأسرة قلاوون.

الفصل الأول: الأسباب الإيمانية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد أسرة قلاوون:

المبحث الأول: التربية الدينية لأسرة قلاوون.

المبحث الثاني: التنمية الأخلاقية للمجتمع المملوكي.

المبحث الثالث: التمسك والحفاظ على مبادئ الإسلام الثابتة.

الفصل الثاني: العوامل الإدارية والحضارية والسياسية لنصر وتمكين الدولة المملوكية:

المبحث الأول: تطوير العمران المدني.

المبحث الثاني: تنمية الحياة الفكرية والثقافية.

المبحث الثالث: تنظيم الدولة وإدارتها بكفاءة.

الفصل الثالث : العوامل الاقتصادية لنصر وتمكين الدولة المملوكية:

المبحث الأول: تحقيق الازدهار الاقتصادي.

أولًا : تحقيق نهضة تجارية.

ثانيًا : تحقيق النهضة الزراعية والصناعية.

المبحث الثاني : دور الاقتصاد في دعم المؤسسة العسكرية.

الفصل الرابع : العوامل العسكرية لنصر وتمكين الدولة المملوكية:

المبحث الأول: تحقيق الأمن والاستقرار الداخلي.

المبحث الثاني: التخطيط والتنظيم العسكري.

المبحث الثالث: الجهاد العسكري الإسلامي على الثغور (معارك حاسمة).

الفصل التمهيدي

التعريف بدولة المماليك وأسرة قلاوون

(678-783هـ/1279-1382م).

أولًا: أصل المماليك وقيام دولتهم: المماليك، جمع مملوك([1])، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون، ويستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم، ويعد الرقيق الأتراك أول من أُستخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار، والي الأمويين على خراسان، اشترى: ألف مملوك من الترك، وأعطاهم السلاح، وحملهم على الخيل([2]). وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيس للرقيق الأتراك([3])، وفي العصر العباسي تزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة، واستخدامهم في الجيش([4])، وتوسعت أسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، والقفجاق – أو القبجاق –([5])، آسيا الصغرى، وتركستان([6])، وبلاد ما وراء النهر([7]).

([1]) كلمة المملوك معناها العبد، الذي سبي فملك، ولم يملك أبواه، إي أنهم استعبدوا وهم أحرار، والعبد القن هو الذي ملك هو وأبواه، ثم أخذ لفظ المماليك لفظًا اصطلاحيًّا في التاريخ الإسلامي، فأصبح معناه جموع الرقيق الأبيض. ابن منظور، لسان العرب، (ج270/3)؛ الحميري، شمس العلوم، (ج2348/4).

([2]) تاريخ الطبري، (ج224/7).

([3]) وهم من أهم العناصر السكانية، وأقدمها، وأكثرها عددًا في ما وراء النهر، فهم يعدون من السكان الأصليين في مجتمعهم؛ وهؤلاء الترك قد تركوا موطنهم الأصلي في مناطق منغوليا، ونزحوا إلى وراء النهر، وذلك على شكل مجموعات قبلية كثيرة، أبرزها: الخزلجية، والخرجزية، والكيماكية، والغزية، والبجناكية، والطغزغزية، والخلخية، والقلجية، والغورية. الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج518/1)؛ وانظر: عبد الله، دور العرب الحضاري في سمرقند، (ص84).

([4]) القزويني، آثار البلاد، (ص514)؛ الغزي، نهر الذهب، (ج102/3).

([5]) بلاد القفجاق: القفجاق جنس من الترك، انتشروا في السهول، ما بين بحر قزوين، والبحر الأسود؛ أي بلادهم في إقليم في حوض الفولقا في الجنوب الشرقي من بلاد روسيا السابقة، وشمالي البحر الأسود، والقوقاز. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج456/4)؛ البستاني، دائرة المعارف، (مج/254)؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، (ص374)؛ طقوش، تاريخ المماليك البحرية ، (ص21).

([6]) هو اسم جامع لجميع بلاد الترك في شرق أسيا. ياقوت، معجم البلدان، (ج23/2)؛ القزويني، آثار البلاد، (ص514)؛ الغزي، نهر الذهب، (ج102/3).

([7]) بلاد ما وراء النهر أو ما يعرف الآن بوسط آسيا، أو آسيا الوسطى، يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان. وقد كانت بلاد ما وراء النهر تُعرف في الماضي ببلاد تركستان الكبرى، وعندما فتحها المسلمون العرب في القرن الأوَّل الهجري أطلقوا عليها: بلاد ما وراء النهر، ومعناها البلاد الواقعة خلف نهر جيحون (أموردريا)، وسيحون (سيردريا)، وهي منطقة شاسعة عظيمة الاتِّساع. البكري، المسالك والممالك، (ج442/1)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج45/5–46).

وكان فيهم عنصر الأتراك، وفيهم: الشراكسة، والروم، والأكراد، وبعضهم من البلاد الأوربية أيضًا([1]).

وكان الخليفة المعتصم العباسي (218 –227هـ/ 833 – 842م)([2]) أول من شكل فرقًا عسكرية ضخمة منهم، وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماءهم من ديوان الجند([3])، وقد بلغت مماليك الخليفة المعتصم بضعة عشر ألفًا، كما قلد البعض منهم مناصب عليا بعدما أسقط العرب من وظائف الديوان، فولى الكثير منهم فيها، كوضعه أشناس([4]) نائبا عنه في بلاد المغرب([5]). وامتلأت بهم بغداد ما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات، وأثار سخط أهل العاصمة، فبنى لهم مدينة سامراء([6])؛ لتكون عاصمة لهم، وقد استخدم المعتصم الجيش التركي، ومعظمه من المماليك؛ تخلصًا من النفوذ الفارسي، والعربي في الجيش، والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء، والتربية، والإعداد؛ اعتقادًا منه بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبية التي عرف بها العرب؛ وأصبح المماليك يتدخلون في شئون الدولة، وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة (247هـ/861م) في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه، وإن شاؤوا قتلوه([7])، وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء، فأساؤوا التصرف في شئون الإدارة، والحكم، فانفضت الولايات من حول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية، بعد أن صار منهم الجيش، والقادة، فلما ضعف سلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش، وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء

([1]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج44/2)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، (ص61–62).

([2]) أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ثامن الخلفاء العباسيين، ولد سنة((179هـ/796م)، وتوفي بمدينة سامراء في (18 من ربيع الأول سنة 227 هجرية / 4 من فبراير سنة 842 ميلادية)، ابن سعد، الطبقات (ج31/1)؛ البغدادي، تاريخ (ج547/4).

([3]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج44/2)؛ النظر، تاريخ بيت المقدس، (ص47).

([4]) أشناس التركي الأمير، (ت:251– 260هـ). قائد تركي مشهور. ابن العديم، بغية الطلب، (ج1919/4–1920)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج54/6).

([5]) الكندي، الولاة والقضاة، (ص111).

([6]) سامراء أو مايسمى قديما: سر من رأى، وسر من رأى بناها المعتصم من بني العباس. خربت وبقي منها قصور وضياع. الهروي، الإشارات، (ص65)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج173/3–177).

([7]) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، (ص220).

للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العباسية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة، والوزراء، وأرباب الدولة[1]، والواقع فمنذ العصر العباسي الأول اتخذ مصطلح مماليك معنى إصطلاحيًا خاصًا عند المسلمين، إذ اقتصرت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشترى من أسواق النخاسة، ويستخدم كفرق عسكرية خاصة، ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة، مثل: الطولونيين الذين حكموا من : (254 – 292هـ/868–905م)[2]، والإخشيديين(268-334هـ/882-946م) [3] في مصر [4]، والصفاريين(254-298هـ/868-911م)[5]، والسامانيين(261هـ–389هـ/875م – 999م)[6] في خراسان[7].

---

(1) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، (ص220)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول، (ص62).

(2) الدولة الطولونية: دولة حكمت مصر والشام وتنتسب إلى ابن طولون (220–270هـ/835– 884م)، ومؤسسها أحمد بن طولون الذي تقلد ولاية مصر سنة (254هـ/868م)، بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة. ومن آثاره قلعة يافا (بفلسطين). توفي أحمد بن طولون سنة 270هـ/883م ، فخلفه ابنه خمارويه. ابن الأثير، الكامل، (ج136/7)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج55/1).

(3) تنتسب الدولة الإخشيدية إلى: محمد بن طغج ، الملقب بالإخشيد(268 – 334 هـ /882 – 946 م): مؤسس الدولة الإخشيدية. تركي الأصل، مستعرب، من أبناء المماليك. ابن مسكويه، تجارب الأمم، (ج104/6)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج41/2)؛ ابن الأثير، الكامل، (ج150/8).

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار، (84).

(5) الإمارة الصفارية(254 –298هـ/868–911م) مؤسسها هو يعقوب بن الليث الصفار، كان يعقوب ابن الليث الصفار، من أفراد المطوعة ، ثم تطوع في قتال الشراة. الطبري، تاريخ، (ج253/11)؛ ابن الأثير، الكامل، (ج60/7–107)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج312/2.

(6) نسب السامانيين: ينتسب السامانيون إلى جد الأسرة سامان خداه، ويصل نسبهم عند مؤرخين آخرين إلى كيومرث أول ملوك العجم، اشتهروا في عهد الخليفة هارون الرشيد(170–193هـ / 796–808م). انتهى ملك السامانية سنة 389هـ / 999م، على يد الغزنويين والأتراك الأيلك خانيون. ابن مسكويه، تجارب الأمم، (ج37/7–38)؛ ابن الأثير، الكامل، (ج324/6)؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، (ج329/1).

(7) القلقشندي، مآثر الأنافة، (ج329/1)؛ إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، (ص97، 167).

ويعد نظام الملك الطوسي الوزير الكبير ([1]) للسلطان السلجوقي ألب أرسلان([2]) وملكشاه([3]) هو أساس النظام التربوي المملوكي في كتابه سياسة نامة([4])، ونظم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكًا بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه، ويعد نظام الملك أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقدًا صار يعطى إقطاعًا([5])، فتسلم الأرض إلى المقتطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فتحت القلاع، والمدن، والولايات للقادة من مماليكهم الذين سموا بالأتابكة([6])، والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك([7])، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تدبير أمور الدولة سنة (465هـ/1072م)([8]).

([1]) أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور بنظام الملك، ولد في (10 أبريل 1018م/21 ذو القعدة 408هـ)- (10 رمضان 485هـ/14 اكتوبر 1092م)، ارتبط اسمه بالمدارس التي أنشأها، قُتل الوزير نظام الملك في أصبهان في(10 رمضان 485هـ/14 اكتوبر1092م) على يد أحد غلمان فرقة الباطنية المعروفة بالحشاشين. ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج2/128-130)؛ الذهبي، سير، (ج14/144).

([2]) ألْب أرسلان بن جغْري بك، واسمه داود بن ميكائيل بن سلجوق بن تُقاق بن سلجوق، السلطان عَضُد الدولة أبو شجاع، الملقَّب بالعادل، واسمه بالعربي مُحَمَّد بن دَاوُد. ، أصله من قرية يقال لها النور. قُتل "ألب أرسلان" في (10 ربيع الأول 465هـ/ 29 نوفمبر 1072م) على يد يوسف الخوارزمي، ودُفن بمرْو. الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج10/212).

([3]) ولي ملكشاه السلطنة بعهد من أبيه، وتولى الوزير نظام الملك أخذ البيعة له، تُوفي في (15 شوال 485هـ/ 18 نوفمبر1092م)، وكان قد سبقه إلى ربه بخمسة وثلاثين يومًا وزيره النابغة نظام الملك. ابن خلكان، وفيات، (ج5/283-285)؛ الذهبي، سير، (ج19/54، 57).

([4]) الأصفهاني، دولة آل سلجوق، (ص113)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، (ص65).

([5]) الأصفهاني، دولة آل سلجوق، (ص76)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، (ص66).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/18)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، (ص66).

([7]) أتابك: لقب يتكون من لفظين، أتا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير. انظر: ابن خلكان، وفيات، (ج1/365)؛ القلقشندي، صبح، (ج4/18)؛ الباشا، الألقاب، (ص122-123)؛ العريني، الشرق، (ص20-21).

([8]) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج3/137، 170)؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، (ص196-197)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول، (ص66).

وهكذا اتخذ السلاجقة[1] أشخاصًا من كبار المماليك؛ ليكونوا مربيين لأولادهم في القصر، ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشئونهم، وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب؛ ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات؛ وبخاصة عندما ضعفت الدولة، وتفككت، فاستقلوا بولاياتهم شيئًا فشيئًا[2]، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: دويلات الأتابكة، وكان عماد الدين زنكي[3] أقوى هؤلاء الأتابكة، وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود[4]، وتوسع بالدولة، وضم دمشق، وقضى على الدولة الفاطمية، وأصبحت مصر من ضمن الدولة الزنكية، وبعد الزنكيين جاء الأيوبيون؛ فأكثروا من المماليك الأتراك، واستخدموهم في الجيش، وتجدر الإشارة أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه[5] إلى مصر كان معظمه يتكون من المماليك، والأمراء النورية[6]، وقد سمي مماليك صلاح الدين الأيوبي[7] بالمماليك الصلاحية، كما سمي

---

[1] السلاجقة هم الغز الأتراك، أو ما يعرف بالتركمان، وشاع تسميتهم بالسلاجقة الذين انضووا تحت راية الدولة الأيوبية. ابن واصل، مفرج الكروب، (ج137/3، 170).

[2] ابن واصل، مفرج الكروب، (ج137/3، 170)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، (ص66).

[3] عماد الدين زنكي: (478-541هـ/1085-1146م) زنكي (عماد الدين) بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر: أبو غازي ومودود ومحمود. قُتل غيلة . ابن المستوفي، تاريخ إربل، (ج63/2)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج327/2)؛ الذهبي، سير، (ج189/20).

[4] ولد نور الدين محمود سنة (511هـ/ 1118م)، وقد نشأ على الخير والصلاح، ففي سنة (569هـ/1174م)، توفي بعلة الخوانيق، يوم الثلاثاء (11 شوال 569هـ/ مايو (حزيران) 1174م) . ابن خلكان، وفيات، (ج184/5)؛ الذهبي، سير، (ج531/20)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج320/16).

[5] أسد الدين شيركوه: شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني، أبو الحارث، أسد الدين، الملقب بالملك المنصور: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، توفاه الله فجأة (564هـ/1169م). ابن خلكان، وفيات، (ج479/2)؛ الذهبي، سير، (ج587/20).

[6] أبو شامة، عيون الروضتين، (ج155/1).

[7] هو يوسف بن أيوب بن شاذي ، ولد سنة (567هـ/1171م)، بقلعة تكريت، حرر القدس من الصليبيين سنة (583هـ/1187م) في معركة حطين، توفى صلاح الدين في دمشق في يوم الأربعاء (27 صفر 589هـ/3 مارس(آذار) 1193م). ابن شداد، النوادر، (ص60-64). ابن أيوب، المنتخبات، (ص289-290)؛ البنداري، سنا البرق، (ص291-299).

مماليك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسدية، وفي عهد الملك العادل(1) سمي المماليك بالعادلية نسبة إلى العادل، ولما توفي خلفه أبناؤه الأشرف: موسى العادل(2). وكذلك الكامل(3)، وغيرهم، ونسب عدد من المماليك إلى الأشرف(الأشرفية)، وإلى الكامل(الكاملية)(4).

ثانيًا: قيام دولة المماليك في مصر: ظهر الشقاق بين أبناء البيت الأيوبي بوفاة الملك صلاح الدين الأيوبي سنة (589هـ/1193م)، فأدى إلى النزاعات، والحروب الداخلية، فضلًا عن المنازعات التي ظلت قائمة بينهم، وبين بقايا السلاجقة(5)؛ لكن الأوضاع استقرت أواخر الكامل محمد إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى سنة (635هـ/1238م)، فخلفه ابنه إلا أنه لم يستقر في الملك، فنصب الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (637هـ/1240م)(6).

وقد ذكر المؤرخون أن الصالح نجم الدين أيوب أكثر الخلفاء شراء للمماليك حتى صار معظم جيشه منهم بعد أن تخلى عنه الأكراد، وغيرهم(7)، وكانوا نحو الألف كلهم أتراك(8).

---

(1) هو السلطان الكبير الملك العادل سيف الدين أبو الملوك، توفى في (615هـ / 1218م). ابن خلكان، وفيات، (ج260/1)؛ ابن واصل، مفرج ، (ج271/3)؛ الذهبي، سير، (ج115/22).

(2) الملك المفضل قطب الدين موسى الذي لقب فيما بعد بالمظفر، ولد سنة (573هـ/1177م)، لقب فيما بعد بالمظفر، توفي سنة(631هـ/1234م). ابن واصل، مفرج، (ج67/3)؛ الذهبي، سير، (ج18/23)؛ ابن كثير، البداية، (ج4/13)؛ ابن تغري بردى، النجوم، (ج62/6).

(3) هو السلطان الكبير الكامل ناصر الدنيا والدين، أبو المعالي، وأبو المظفر محمد ابن العادل أبي بكر ابن أيوب صاحب مصر، ولد في سنة (576هـ/1181م)، توفى بدمشق، في الحادي والعشرين من رجب، سنة (635هـ/1238م)، ودفن في تابوت. ابن خلكان، وفيات، (ج81/5، ص19-91)؛ الذهبي، سير(ج127/16)؛ الكتبي، الوافي، (ج158/1-159)؛ السبكي، طبقات، (ج838/1).

(4) السبكي، طبقات، (ج838/1)؛ عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، (ص69).

(5) الذهبي، سير(ج127/16)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص3)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص7).

(6) الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب ولد سنة (603هـ/1206م) بالقاهرة ، وتوفي في مصر ليلة النصف من شعبان سنة (647هـ/1249م). ابن الجوزي، مرآة، (ج774/8)؛ الخزرجي، عيون الأنباء، (ج724/1)؛ ابن العميد، أخبار، (ص37)؛ ابن خلكان، وفيات، (ج86/5)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج433/1).

(7) أبو الفدا، المختصر، (ج217/3)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ص70)؛ المقريزي، السلوك، (ج441/1).

(8) المقريزي، الخطط، (ج122/3)؛ مبارك باشا، الخطط التوفيقية، (ج26/1).

وقد جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)[1]، فأعطى لهم الحرية التي استغلوها في مضايقة الناس، والعبث، والاعتداء على ممتلكاتهم[2].

وقد ذكر المقريزي، والنويري أن سبب الحرية التي منحها لهم كانت نتيجة المساعدة، والمساندة التي تلقاها منهم، وإدراكه مدى أهميتهم في استمراره بالحكم؛ خاصة بعد المؤامرة التي دبروها لخلع الخليفة العادل، وإحلاله محله[3]. وبعد الشكاوى التي تلقاها من الناس رأى أن يبعدهم عن العاصمة، سنة (638هـ/1241م) في قلعة قريبة من المقياس[4]، وأمرهم بالإقامة فيها، وكانت عدتهم ألف مملوك[5].

وقد اتخذها مقرا لملكه، وزودها بالعتاد الحربي؛ ليكونوا على أهبة الاستعداد لأي طارئ[6].

1- جهود المماليك في دحر الصليبيين(الحملة السابعة): عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة، بقيادة لويس التاسع[7]، توفى الله سبحانه وتعالى الملك الصالح أيوب، وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وذلك في سنة (647هـ/1249م)، وكانت محنة عظيمة ألمت بالمسلمين[8].

---

[1] خوارزم: أو مدينة خيوة كانت قديمًا تابعة لإقليم مدينة خراسان الكبرى، وتحدها من الشرق بلاد الروس، وسبب تسميتها بهذا الاسم؛ لأنها بلاد طيبة، وأهلها علماء، وفقهاء، أذكياء، أغنياء. ياقوت، معجم البلدان، (ج2/395).

[2] ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج6/319).

[3] المقريزي، السلوك، (ص295)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج29/167).

[4] أطلق على هذه القرية عدة. تسميات، منها: قلعة المقياس، قلعة الروضة، قلعة الجزيرة، والقلعة الصالحية. السيوطي، حسن المحاضرة، (ج1/381).

[5] الملواني، تحفة الأحباب، (ص59).

[6] ابن إياس، بدائع الزهور، (ص27).

[7] ولد لويس التاسع في 25 أبريل سنة (1215م)، في مدينة بواسي في فرنسا، ينتمي إلى الأسرة الأكابية، توج ملكا في 29 نوفمبر 1226م، دخلت فرنسا في ولايته حقبة متميزة، قام بعدة حملات على بلاد الشام، ومصر وتونس، وتوفى خلالها سنة 1270م. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/199)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج10/313)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج8/38).

[8] ابن الجوزي، مرآة، (ج8/774)؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج1/724)؛ ابن خلكان، وفيات، (ج5/86).

وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه([1]) ولم يكن موجودًا في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجر الدر([2])، وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، خوفًا من اضطراب المسلمين([3])، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة، وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين تورنشاه قائدًا عامًا للجيوش، ونائبًا للسلطان أثناء مرضه([4]).

أ- **معركة المنصورة:** ولما علم الصليبيون بموت الملك الصالح نجم الدين، انتهزوا الفرصة، وبدءوا يزحفون نحو المنصورة؛ لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، ثم بادر باقتحام المنصورة([5])، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع، وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري([6])، فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي اتخذها المصريون مقرًا لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع، والحارات، والدروب، وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلًا إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان، ولم يفلت من القتل

([1]) المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولاه أبوه على حصن كيفا في الشرق، وكان يستدعيه فلا يجيبه، لذلك كان يكرهه، قتل في محرم (648هـ/1250). للمزيد انظر: ابن خلكان، وفيات، (ج5/89)؛ ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، (ص184-185).

([2]) شجر الدر، هي تركية الأصل، وقيل: أرمينية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين، نالت من العز الرفعة ما لم تنله امرأة، حكمت مصر بعد مقتل الملك تورانشاه، وصفت بعدة صفات: كالغيرة، والشهامة. تزوجت من الأمير عز الدين أيبك بعد تنازلها عن العرش، توفيت سنة (656هـ/1285م). انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج9/186)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/459)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ص75-76)؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج6/232).

([3]) ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، (ص184-185).

([4]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ص69)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج29/218).

([5]) الذهبي، سير، (ج23/191)؛ الكتبي، فوات الوفيات، (ج1/231).

([6]) الملك الظاهر بيبرس بن عبد الله السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح الصالحي، مملوك من قواد السلطان قطز، ولد بأرض القبجاق (625هـ/1228م) تقريبا. وتوفي (676 هـ/1277م) ، بعد أن حول دولة المماليك من دولة ناشئة إلى دولة قوية. الكتبي، فوات، (ج1/251)؛ الطرسوسي، تحفة، (ج1/75).

إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقًا، أو كان يقاتل في أطراف المدينة[1]، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي[2]، وأول ابتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة؛ لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، فوزع رماته على الطرف البعيد لنهر النيل حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك؛ لكن المماليك لم يتركوه وشأنه، وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي، وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه، وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة، وعلى الرغم من الانتصار الصليبي، إلا موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءًا بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملًا بأن يحدث انقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي[3].

ب- تورانشاه يقود المعركة: وصل تورانشاه إلى المنصورة في (17 ذو القعدة 647هـ/21 شباط 1250م) بعد أن أُعلِن سلطانًا في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب، وسلمته شجر الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[4]. وكان وصوله إلى مصر إيذانًا بإعادة ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين، وبين صفوف المماليك، وتيمّن الناس بطلعته[5]. وأمر بإنشاء أُسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى، وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها، وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط[6]، لذلك لجأ الملك قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان طبيعيًا أن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح، وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك

---

(1) الذهبي، سير، (ج191/23)؛ الكتبي، فوات، (ج231/1)؛ العريني، الشرق الأدنى، (ص150).

(2) المقريزي، السلوك، (ج448/1)؛ قاسم، تاريخ الأيوبيين، (386).

(3) المقريزي، السلوك، (ج448/1)؛ الصلابي، الحملات الصليبية، (ص356).

(4) المقريزي، السلوك، (ج449/1).

(5) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج367/6).

(6) المصدر السابق.

لويس التاسع، وفي صباح (المحرم عام 648هـ/ نيسان عام 1250م) بدأت عملية المهندسين الصليبيين على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه؛ لاجتياز البحر الصغير، فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموهم من كل ناحية([1])، وبفضل ثبات الملك الفرنسي، وحُسن إدارته لعملية الانسحاب، وصل الصليبيون عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط؛ ولكن كان هذا الملك مريضًا، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجومًا عامًا في فارسكور([2])، ولم يستطع الملك على القتال، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريبًا بين قتلى، وجرحى، وأسرى، حيث سيق مكبلًا إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان([3])، وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته، وخُصّص من يقوم بخدمته([4])، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدَّة القتلى عشر آلاف في قول المقل، وثلاثين ألفًا في قول المكثر، وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم، وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل، والبغال، والأموال ما لا يحصى، وأبلت الطائفة المملوكية البحرية؛ لا سيما بيبرس البندقداري في هذه المعركة بلاء حسن، وبان لهم أثر جميل([5]).

2 . صور من شجاعة المماليك، وغدر تورانشاه بهم: تعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصدي لأعداء الإسلام، وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة

([1]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة (ج6 /364).

([2]) مدينة فارسكور هي إحدى المدن الكبرى في دمياط هي مدينة من مدن مصر القديمة، ويوجد فيها: جامع الحديدي وهو من أقدم المساجد في مصر، وكذلك تتواجد مبرة العبد باشا، وهى مبنى يتم فيه تربية الأيتام ومن فقد ذويهم. دارت امامها المعركه الحاسمه لآخر الحروب الصيلبييه. الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج339/1)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ج506/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج407/1).

([3]) إبراهيم بن لقمان(612-692هـ/1216-1294م)، هو قاضي ووزير عاصر الأيوبيين، والمماليك، صاحب الدار التي أسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا. وتُوُفّي فِي (الثالث والعشرين من جُمادي الآخرة عام 693هـ/الثامن والعشرين من أبريل (نيسان) 1294م) بمصر. الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج770/15)؛ الكتبي، فوات الوفيات، (ج43/1)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج64/6)؛ المقريزي، السلوك، (ج257/2).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج448/1)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج376/7).

([5]) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج356/29).

الصليبيين، فذكر جوانفيل آن، الكونت بواتييه، والكونت فلاندر، وبعض قادة قواتهم كانوا يتوسلون إلى الملك لويس التاسع أن يقصر عن الجريمة؛ لضغط المماليك الشديد عليهم([1]).

ويقول ثم جاء للكونت أبل جندي كان يعمل صولجانًا([2])، ويرتجف خوفًا، وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك، وأنه في خطر عظيم فرجعنا، وأبصرنا بيننا، وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك، والملك قريب من النهر، والمماليك يدفعون قواته، ويضربون السيوف، والصولجانات، وأرغمت القوات الأخرى على القهقرى([3]). وبالرغم من النجاحات التي حققها المماليك ضد لويس التاسع، والحملة الصليبية، لم يقدر تورانشاه هذه النجاحات؛ بل حسدهم على ما حققوه([4])، وأعرض عنهم، وقرب إليه مماليكه، وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق، وأحلهم محل مماليك أبيه، فأصبح يغدق عليهم بالرواتب، والإقطاعات([5])، ولم يقتصر الملك تورانشاه على مناوأة أمراء جيشه، وكبار رجال الدولة؛ بل تنكر لشجر الدر، فبعث إليها يهددها، ويطالبها بمال أبيه، فأرسلت إلى الأمراء والمماليك لقتله([6]). أما المستشرق الألماني السير وليم موير يذكر أن سبب حقد المماليك على الملك تورانشاه هو إطلاق سراح الملك لويس التاسع([7])، في حين ذكر المؤرخ ابن تغري بردى أن الملك الفرنسي بقي أسيرا إلى أن قتل الملك تورانشاه([8]).

ونحن مع رأي ابن تغري بردي في أسر الملك لويس التاسع، مادام هناك تعدٍ، واحتلال لأرض ليست أرضه.

([1]) المقريزي، السلوك، (ج450/1)؛ الصلابي، الحملات الصليبية، (ص358).

([2]) لعبة الصولجان المسماة بالفارسية جوگان، وهي: عصاة معقوفة يلعب بها الفارس وهو فوق حصانه بضرب الكرة على الأرض. العمري، مسالك الأبصار، (ج431/3).

([3]) النويري، نهاية الأرب، (ج233/29)؛ كيرة، الجواري والغلمان في مصر، (ص403-406).

([4]) المقريزي، السلوك، (ص457)؛ عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، (ص9).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج233/29)؛ المقريزي، السلوك، (ص457).

([6]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ص72)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج382/7).

([7]) تاريخ دولة المماليك، (ص42).

([8]) النجوم الزاهرة، (ج326/6).

فقد أرسلت شجر الدر إلى الأمراء، والمماليك تذكرهم بما فعلته من ضبط المملكة، وما هي عليه من خوف، فشق ذلك عليهم[1]، كذلك ذكرت لهم السياسة التي انتهجها تورانشاه تجاه المماليك، فقام هؤلاء بتدبير مؤامرة لقتله تحت قيادة الأميرين فارس الدين أقطاي[2]، وبيبرس البندقداري، فتم لهم ما أرادوا[3]. وبمقتل الملك تورانشاه أوجدوا فراغا في السلطة، فكان عليهم ملئه قبل فوات الأوان، خصوصًا بعد أن حاول بعض أمراء البيت الأيوبي السعي للحكم من جديد، وكذلك خشية المماليك من مجيء نجدة للصليبيين إلى مصر للانتقام لما حل بحملة الملك لويس التاسع، لذا وقع الاختيار على شجر الدر للسلطنة، ووضعوا الأمير أيبك التركماني[4] مدبرا للملكة[5].

وقد أخذت شجر الدر تتقرب من الخاصة والعامة، وتعمل على إرضائهم بشتى الوسائل، ولاسيما الإقطاعات والرواتب[6]، إلا أنها واجهت معارضة من الشعب، الذي قام بالنهب، والتشويش في ربوع القاهرة، فغلقت أبوابها خوفا من تسرب الاضطراب[7]، الذي أرجعه السيوطي إلى رجال الدين الذين عابوا حكم امرأة[8]، كما تلقت شجر الدر اعتراضا من الخلافة

([1]) المقريزي، الخطط، (ج123/3).

([2]) زعيم المماليك البحرية، فاقت سطوته ونفوذه سطوة أيبك ونفوذه. الدواداري، كنز الدرر، (ج8/24–25).

([3]) ابن خلدون، العبر، (ص361)؛ المقريزي، السلوك، (ص458).

([4]) هو المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي، تركي الأصل، ولفظة أيبك يتركب من كلمتين، هما:أي، ومعناها القمر، وبك ومعناها الأمير، فمعنى الاسم: (الأمير القمر). وكان في الأصل مملوك لأولاد التركماني، وهم بنو رسول في اليمن، فعرف أيبك التركماني، ثم انتقل لخدمة الملك الصالح أيوب. أصبح أحد الأمراء الصالحية، ثم أتابك العساكر بعد مقتل الملك تورانشاه، ثم سلطانا سنة (648هـ/1250م)، بعد زواجه من شجر الدر، دام حكمه سبع سنوات. ابن إياس، بدائع، (ص74)؛ ابن تغري بردى، موارد، (ص25).

([5]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج6/330–332)؛ المقريزي، السلوك، (ج459/1).

([6]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ص89)؛ المقريزي، السلوك، (ج462/1).

([7]) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج13/8).

([8]) حسن المحاضرة، (ص34).

العباسية، خاصة من الخليفة العباسي المستنصر بالله(623-640هـ/ 1226م-1242م)([1])، وهددهم، وأمرهم بالعدول عن ذلك، وخلعت شجر الدر نفسها بعد زواجها من الأمير عز الدين أيبك التركماني، حيث تولى السلطنة([2]). لم يكن اختيار المعز أيبك نابعا عن قناعة المماليك لجدارته، وبأسه([3])؛ بل على العكس، فقد ظنوا أنه سيكون أداة في أيديهم، كلما أرادوا عزله، فكان لهم ذلك؛ لضعف شأنه، وضآلة نفوذه، فهو كان من أواسط الأمراء مكانة، وليس من أعيانهم([4])؛ لكن سيظهر العكس من ذلك؛ حيث أبرز كفاءته، ومقدرته من خلال تخطيه للعقبات التي واجهته؛ وما كاد السلطان المعز أيبك (648-655هـ/1250-1257م) يقيم في سدة الحكم حتى أحاطت به الصعاب من الداخل والخارج، والمخاطر:

الخطر الأول: كان الخطر الأيوبي بالشام بعد ما رفضوا الاعتراف بحكمه ؛ لاعتقادهم أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم([5]). وتكتل الأيوبيون تحت قيادة الناصر يوسف الأيوبي، ثم زحفوا على مصر لاسترداد ملكهم([6])؛ ولتهدئة الوضع لجأ المماليك لوضع الملك مظفر الدين الأشرف موسى سلطانًا حيث كان يبلغ من العمر ست سنوات، وشريكًا للسلطان المعز أيبك([7])، كما أعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية ببغداد، وأنه نائب الخليفة بمصر([8]). وعلى الرغم من الحل السياسي الذي توصل إليه المماليك لتهدئة المعارضة؛ إلا أن الناصر الأيوبي واصل المعارضة، فاضطر السلطان لإرسال جيش، والقيام بحركة اعتقالات واسعة، عبَّر عن شدتها المؤرخ المقريزي، عندما قال: "لو ملك الفرنجة بلاد مصر ما عاثوا فيها فسادًا، كما عاث فيها

([1]) أبو جعفر "المستنصر بالله" المنصور بن محمد الظاهر(588-640هـ/1192-1243م) خليفة عباسي حكم في بغداد بين عامي 1226و1242م. توفي المستنصر في بغداد في سنة (640هـ/1242م). ابن تغري بردى، النجوم، (ج345/6-346)؛ ابن العماد، شذرات، (ج209/5).

([2]) الصفدي: الوافي بالوفيات، (ج252/24)؛ المقريزي، السلوك، (ص464).

([3]) المقريزي، السلوك، (ص464)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص9).

([4]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج7/7).

([5]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج7/7)؛ عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، (ص159).

([6]) النويري، نهاية الأرب، (ج243/29-244)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج17/8-18).

([7]) المقريزي، السلوك، (ج465/1)؛ المقريزي، الخطط، (ج124/3).

([8]) أبو الفدا، المختصر، (ج184/3-1854)؛ المقريزي، السلوك، (ج465/1).

البحرية"([1]). وخلا الجو للسلطان المعز أيبك، فانفرد بالحكم بعد ما عزل الملك الأشرف موسى عام (650هـ/1252م)، وقطع الخطبة له([2])، ثم بعثه إلى القسطنطينية سنة (653هـ/1255م)([3])؛ ومهما يكن من أمر، فقد تدخل الخليفة العباسي لإصلاح ما بين مصر والشام؛ إثر ظهور خطر المغول، ونهبهم ميافارقين([4])، وديار بكر([5])، وتقرر الصلح سنة(651هـ/1253م) بأن تبسط مصر سلطانها على ما يقع غرب الساحل كله، ويطلق السلطان المعز أيبك جميع أسرى الملك الناصر يوسف، وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين([6]). الخطر الثاني: هو تمرد المماليك البحرية([7]). إلا أنه تخلص منهم بمجرد القضاء على زعيمهم الأمير فارس الدين أقطاي([8])، فتشتت مماليكه([9]).

الخطر الثالث: كانت ثورة البدو، أو الأعراب([10])؛ إذ قام هؤلاء الأعراب بقطع الطرق التجارية بعد أن اعتبروا المماليك عبيدًا، وأنهم ليسوا من أصل البلاد؛ إنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية وصلوا إلى الحكم عن طريق الاستبداد([11]). فقاموا بحث الأيوبيين لغزو مصر؛ لكن

([1]) المقريزي، الخطط، (ج124/3).

([2]) ابن خلدون، العبر، (ص363)؛ المقريزي، السلوك، (ص477).

([3]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج37/7)؛ ابن كثير، البداية، (ج388/17).

([4]) ميَّافارقين: بلد معروف بديار بكر(تركيا)، ابن خرداذبة، المسالك، (ج215/1)؛ ابن حوقل، صورة الأرض، (ج353/2)؛ خسرو، سفر نامة، (ج44/1،41)؛ البكري، معجم، (ج1286/4).

([5]) ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، قصبتها الموصل وحران وبها دجلة والفرات. القزويني، آثار البلاد، (ص368)؛ النويري، نهاية، (ج275/29)؛ المقريزي، السلوك، (ج477/1).

([6]) النويري، نهاية الأرب، (ج275/29)؛ المقريزي، السلوك، (ج479/1).

([7]) سميت بدولة المماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، المقريزي، الخطط، (ج124/3)؛ العبادي، قيام دولة المماليك، (ص11)؛ طقوش، تاريخ المماليك، (ص23).

([8]) كبير الأمراء، فارس الدين التركي، الصالحي، النجمي. قُتل على يد قطز وجماعة بتدبير من شجر الدر وزوجها المعز(650هـ/1252م). الذهبي، تاريخ ، (ج722/14)؛ الصفدي، الوافي، (ج185/9).

([9]) أبو الفدا، المختصر، (ج198/3)؛ المقريزي، السلوك، (ص483)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز، (ج25/8).

([10]) المقريزي، السلوك، (ج479/1)؛ قاسم، علي، الأيوبيين والمماليك، (ص129).

([11]) النويري، نهاية، (ج276/29)؛ الذيابات، القبائل العربية في بلاد الشام، (ص126).

السلطان المعز أيبك[1] أرسل إليهم جيشًا هزمهم، وحبس زعيمهم، وفرض عليهم الضرائب، وعاملهم بقسوة بالغة[2].

الخطر الرابع: وهو الخطر الأخير الذي أودى بحياته، هي زوجته شجر الدر، التي اختلف المؤرخون في ذكر سبب قتلها له؛ فهناك من قال: أنها أحست بالندم لتنازلها عن العرش، كما وردت إليها إشاعات بأنه يريد الزواج من ابنة أمير الموصل[3]، وهناك من ذكر بأنها حرمته من زيارة أم ولده، فسئم منها[4]، وهناك من قال: بأنه كره سيطرتها على الأمور، فلم يطق احتمالها، وهمَّ بقتلها[5]. ويبدو أن السبب الأقرب للصواب، أنها تنازلت عن العرش رغما عنها، وبعد تحققها من ذلك دبرت مؤامرة لقتله تزعمها الأمراء البحرية، وتم ذلك سنة (655هـ/1257م)[6]؛ وبوصول خبر مقتل السلطان إلى المماليك المعزية قتلوها[7].

بمقتل السلطان المعز أيبك سنة (655هـ/1257م) خلي العرش، فصممت المماليك وضع ابنه نور الدين علي بن أيبك سلطانًا (655هـ-658هـ/1257-1259م)، والذي كان في الخامسة عشر من عمره، ولقب بالمنصور، وعين الأمير سيف الدين قطز[8] نائبًا له في السلطنة[9].

3- وصول سيف الدين قطز للحكم: ومهما يكن من أمر استطاع الأمير سيف الدين قطز الوصول للحكم بعد اضطراب الأوضاع بمصر، فتم عزل المنصور علي؛ كي يتم مواجهة

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/19).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/479)؛ النويري، نهاية، (ج29/276)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج7/19).

(3) المقريزي، السلوك، (ص493-494)؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، (ج7/463).

(4) ابن دقماق، نزهة الأنام، (ص131-133).

(5) ابن العبري، تاريخ ، (ص260)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/493)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج29/292).

(6) المقريزي، السلوك، (ص493)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج8/31-32).

(7) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، (ص260).

(8) قطز بن عبد الله الشهيد الملك المظفر سيف الدين المعزي، كان من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلا شجاعا مقداما، قتله مجموعة من الأمراء سنة (658هـ/1260م)، ودفن بالقصير، ونقل قبره إلى جهة مجهولة. الذهبي، سير، (ج23/200)؛ الكتبي، فوات، (ج2/224).

(9) المقريزي، السلوك، (ص495).

المغول([1]) بحاكم قوي مثل: قطز، الذي أصبح سلطانًا عام (658هـ/1259م)، وتلقب بالمظفر([2])، واستفحل أمر المغول، فسيطروا على حلب بقيادة هلاكو سنة (657هـ/1258م)، أيضًا في هذا الوقت سقطت دمشق سنة (658هـ/1259م)، وانهارت الدولة الأيوبية([3]).

قبض السلطان قطز على زمام الأمور، فاعتقل من توهم خطره من الأمراء، وبدأ يستعد للتتار([4]). كان اللقاء بين المسلمين وبين المغول قرب مدينة بيسان في موضع يقال له: عين جالوت([5]) في (25 رمضان سنة 658هـ/ سبتمبر 1265م)، انتصر فيها المسلمون، وفر التتار من دمشق([6])، كان من نتائج هذه المعركة: اعتراف الأيوبيين بالتبعية للمماليك؛ لكن جماعة من الأمراء لم يتركوه؛ ليفرح بهذا النصر، وقتلوا قطز المظفر؛ وقيل: أن بيبرس قتله؛ لأنه رفض إعطاءه نيابة حلب التي وعده بها([7])، مما سبق يتضح أن السلطان قطز قُتل؛ لأنه شارك في قتل زعيمهم([8])، وتم لهم ما أرادوا، وقتل قطز سنة (658هـ/1260م)([9]).

4- جلوس الظاهر بيبرس على سدة الحكم: بايع الأمراء الأمير بيبرس(658-676هـ/1260-1277م) قرب الصالحية، ودخلوا القاهرة، وجلس بيبرس على سدة الحكم([10])، وأول ما قام به بيبرس هو التقرب من الخاص والعام، إذ خفف عن الأهالي الضرائب، وعفا عن

([1]) ابن واصل، مفرج، (ج4/36)؛ الذهبي، سير، (ج16/192)؛ الصفدي، الوافي، (ج11/152-153)؛ الكتبي، فوات ، (ج1/301-302)؛ ابن العجمي، كنوز الذهب، (ج1/604).

([2]) النويري، نهاية الأرب، (ج29/468).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج1/508)؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج7/54).

([4]) النويري، نهاية الأرب، (ج29/300).

([5]) عين جالوت : تقع بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ، وهي وفيرة المياه وكثيرة الأحراش، ياقوت: معجم، (ج4/177)؛ عطية الله، القاموس، (ج1/1963)؛ فياض، الغزو المغولي، (ص61).

([6]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج7/41-42)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج17/399)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج8/49).

([7]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج7/76-77).

([8]) ابن خلدون، تاريخ، (ص380)؛ عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، (ص39).

([9]) ابن العبري، تاريخ ، (ج3/307)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/519)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج29/306).

([10]) المقريزي، السلوك، (ج1/520)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج30/3-4).

المحبوسين، وأفرج عنهم([1])، كما قام بالقضاء على الاضطرابات التي أثارتها حركات التمرد([2])، وأحيا الخلافة العباسية التي كانت شاغرة منذ سنة (656هـ/1258م)، وكان الهدف من كل ذلك الحصول على تفويض شرعي لحكمه([3])، مع إضفاء مكانة أعلى لسلطة المماليك بوجود الخليفة في مصر([4])، وكذلك تخوفه من قيام الشيعة بإحياء الدولة الفاطمية([5]).

وقد عمل الظاهر بيبرس على الفتك بالمماليك المعزية، وقضى على مؤامراتهم، وأذل الفرنجة، وهزم السلاجقة، وفتح جملة من البلاد([6])، منها: الكرك([7])، قيسارية([8])، أرسوف([9])، وغيرها([10])، كما أنه رتب أمور الدولة، وقام بعدة إنجازات، منها: تجديد الحرم الشريف، عمارة قبة الصخرة في بيت المقدس، وعمّر دار الذهب بقلعة الجبل([11]). أما عن علاقاته الخارجية فقد

([1]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج103/7)؛ المقريزي، الخطط، (ج282/3).

([2]) النويري، نهاية الأرب، (ج6/30).

([3]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ص83)؛ المقريزي، الخطط، (ج283/3).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج283/3)؛ طقوش، تاريخ المماليك البحرية في مصر والشام، (ص94).

([5]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ص83)؛ وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، (ص48) .

([6]) ابن تغري بردى، النجوم، (ج124/7)؛ المقريزي، الخطط، (ج286/3)؛ المقريزي، السلوك، (ج98/2).

([7]) الكرك: اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال . ياقوت ، معجم، (ج453/4)؛ ابن جبير، رحلة، (ج201/1).

([8]) قيسارية هي مدينة على ساحل البحر، كانت من أمنع مدن فلسطين، وهي آخر ما افتتح من مدن البلد، افتتحها معاوية ابن أبي سفيان في خلافة عمر بن الخطاب. اليعقوبي، البلدان، (ص167)؛ الهروي، الإشارات، (ص37)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج421/4).

([9]) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. ياقوت، معجم، (ص151).

([10]) النويري، نهاية الأرب، (ج87/30)؛ وادي، دولة المماليك، (ص28) .

([11]) قلعة الجبل: هي قلعة حصينة جدا على جبل المقطم أنشأها السلطان صلاح الدين بن أيوب وأتمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل، وكانت تشرف على القاهرة ، وأصبحت فيما بعد مقرا لحكم سلاطين المماليك . المقريزي: المواعظ، (ج355/3)؛ الظاهري، زبدة ،(ص26)؛ الباشا، القاهرة، (ص479) .

نسج علاقات مع مغول القفجاق([1])؛ وذلك بالتحالف مع زعيمهم بركة خان([2])؛ حيث تبادلا السفارات، الرسائل، والهدايا([3]). وكان للملك بيبرس علاقات مع عدة ملوك([4]). وكانت للملك الظاهر علاقات متوترة مع أرمينية([5])، وعلاقات متينة مع البيزنطيين، وكذلك وجود علاقات ودية ربطت بينه وبين ملك صقلية([6])، كما كانت هناك علاقات مع أخي الملك لويس التاسع ملك فرنسا([7]). ومن خلال ما سبق يمكن اعتبار الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، على اعتبار أن مرحلة سلطنة شجر الدر، والمعز أيبك مرحلة انتقالية([8]).

ووافت المنية بيبرس سنة(676هـ/1277م)، بعد أن حكم سبعة عشر سنة. وقد ملك ابنه السعيد ناصر الدين محمد المعروف ببركة خان([9])؛ لكنه اضطر للتنازل عن العرش سنة (678هـ/1279م)؛ بسبب ما اتصف به من الضعف؛ إذ قيل: أنه كان تحت تأثير أمه، فقد

([1]) هم عناصر القبيلة الذهبية التي أسسها جوجي ابن جنكيز خان، وقد دخلوا الإسلام بعد أن أسلم قائدهم بركة خان، إضافة إلى أنهم ساعدوا المماليك في حربهم ضد هولاكو. النويري، نهاية الأرب، (ج31/137-138)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/204-205)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص220).

([2]) بركة خان هو زعيم من زعماء التتار، وزعيم القبيلة الذهبية، انتصر في حروبه ضد هولاكو ابن عمه، وكان يساعد المماليك في حرب التتار. الذهبي، تاريخ، (ج15/366)؛ ابن تغري بردي، مورد، (ج2/36).

([3]) ابن شداد، تاريخ، (ص36)، ابن عبد الظاهر، الروض، (ص172)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج30/87).

([4]) من الملوك: ملك النوبة، ملك الحبشة، ملك أشبيلية، وجنوة. ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر بيبرس، (ص131-133)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج30/142).

([5]) أرمينية اسم لصقع واسع عظيم فى جهة الشمال. وهى صغرى وكبرى. البكري، معجم ما استعجم، (ج1/141)؛ الحموي، معجم البلدان، (ج1/159-160).

([6]) صِقِلِّيَّةُ: من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية، وهي مثلثة الشكل بين كلّ زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيّام. ياقوت، معجم (ج3/416).

([7]) النويري، نهاية الأرب، (ج30/87)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص266-267).

([8]) المنصوري، مختار الأخبار، (ص64-66)؛ وادي، دولة المماليك، (ص31).

([9]) ابن السُّلْطَان الملك الظَّاهر بيبرس البندقداري، سمي بركَة خَان على اسم جده لأمه بركَة خَان ملك التتار بن دولة خَان الخَوَارِزْمِيّ. خرج عليهِ جماعة من الأُمراء والمماليك، وسلطنوا أَخَاهُ سلامش؛ توفاه الله في يوم الجمعة سنة(ت678هـ/1279م). الذهبي، تاريخ، (ج15/366)؛ ابن تغري بردي، مورد، (ج2/36).

أغضبت سياسته الأمراء، وتم الاتفاق على تعيين أخيه بدر الدين سلامش([1]) سنة (678هـ/1279م) سلطانا عليهم، وهو ابن السابعة، واختير سيف الدين قلاوون([2]) أتابكا له([3]).

ثالثا: انتقال الحكم من أسرة بيبرس إلى أسرة قلاوون (678-783هـ/1279-1382م):

بعد تنازل الملك السعيد عن العرش، وذهابه إلى الكرك، عرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون الذي رفض قبولها، وقال: " لم أخلع الملك طمعًا في السلطنة إلا حفظًا للنظام، وألفت الأكابر الأمراء أن يتقدم عليهم الأصاغر، والأولى ألا تخرج السلطنة عن الذرية الظاهرية"([4]). وإن رفض قلاوون للسلطنة ليس لأنه لم يكن راغب فيها كما ادعى؛ إنما كان يريد القضاء أولا على المعارضين له؛ لأن معظم العسكر كانوا من المماليك الظاهرية([5])، والقلاع بيد نواب الملك السعيد([6]).

وبعد تقلد الملك العادل سلامش سلطنة مصر، طلب الأتابكي قلاوون من الأمراء أن يقسموا للسلطان يمين الطاعة، وضربت السكة باسمهما، على أحد الوجهين باسم الملك العادل سلامش، وعلى الوجه الآخر اسم الأتابكي قلاوون، وخطب لهما على المنابر([7]).

واستفاد قلاوون من صغر سن الملك العادل سلامش، فقبض على زمام الأمور بيده، فقبض على أعيان الأمراء الظاهرية، واستمال المماليك الصالحية، وأعطاهم الإقطاعات، والأموال، فقوي بهم جانبه، وجمع الأمراء، وتحدث معهم عن صغر سن السلطان، وقال لهم:

([1]) سُلامِش بن بيبرس بن عبد اللَّـه، السّلطان، الملك، العادل ابن الظّاهر، رُكن الدّين بيبرس(ت:690هـ/1291م)، لم تطل أيامه في السلطنة، وخلع بعد ثلاثة أشهر، توفى في اسطنبول في سنة (690هـ/1291م). الذهبي، تاريخ، (ج15/653)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/120).

([2]) (قلاوون): يقال: لفظة تركية معناها (بط) لهذا شاعت رسوم البط في زخارف التحف التي صنعت في عهد أسرته. الباشا، الألقاب الإسلامية، (ص134).

([3]) المنصوري، مختار الأخبار، (ص64-66).

([4]) النويري، نهاية الأرب، (ج30/398).

([5]) هم المماليك أتباع الظاهر بيبرس. المنصوري، التحفة، (ص107)؛ ابن دقماق، النفحة، (ص79)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/351).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج1، ق2/657)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص21).

([7]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/286).

" لقد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل"، فاتفق رأيهم على خلع الملك العادل بدر الدين سلامش، فخلعوه، وأرسلوه إلى الكرك، وتولى قلاوون سلطنة مصر في سنة (678هـ/1279م)، وبذلك انتقل الحكم من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون([1]).

وعلى الرغم من أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش؛ إلا أن أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) استطاعت أن تحتفظ بمنصب السلطنة في ذرية السلطان قلاوون حوالي قرن من الزمن، وذلك من عام: (678-784هـ/1279-1382م)([2]).

وفي الفصول القادمة سنتناول الحديث عن الأخطار التي واجهت أسرة قلاوون (678-783هـ/1279-1382م)، كالخطر الفرنجي، وتمثل في: الحروب الصليبية، والمغول، وكذلك سيتم الحديث عن الاستقرار السياسي، والاقتصادي في عهد أسرة السلطان المنصور قلاوون (678-783هـ/1279-1382م).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج1، ق658/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج287/7).

([2]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج287/7)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية في مصر (ص16).

رابعا: سلاطين[1] أسرة قلاوون (678-783هـ/1279-1382م):

أ-المنصور سيف الدين قلاوون: هو المنصور سيف الدين قلاوون بن عبد الله[2] الألفي[3] الصالحي[4]، السلطان السابع من جملة السلاطين الأتراك[5]، وهو تركي الأصل، من مواليد قبيلة برج أغلي(أغلو)[6]، أحدُ أشهر سلاطين المماليك البحرية، ورأسُ أسرةٍ حكمت مصر

---

[1] اختلف في اشتقاق كلمة (سلطان)، فقيل إنها مشتقة من أصل الفعل الثلاثي(تسلط)، بمعنى الغلبة، والقهر، وقيل: إنها مشتقة من (السليط)، وهو ما يضاء به، لقوله تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مبِينٍ"(هود:96)؛ أي حجة ظاهرة فسلطان كل شيئ حدته وسطوته؛ وسمي بذلك؛ لأنه حجة على الله، ووجوده لقوله تعالى: " يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"(الرحمن:33). وقد وردت كلمة سلطان في القرءان الكريم ثمان وثلاثين مرة، كلها بمعنى: الحجة البالغة والبرهان الواضح، أو القدرة والقهر والغلبة، وفي اللغة تأتي كلمة سلطان بمعنى الوالي، أو الحاكم. أما معنى كلمة سلطان في الاصطلاح فهو اسم خاص في العرف العام، يعرف به ملك الملوك، ولا يطلق عليه ذلك إلا من يكون عسكره عشرة آلاف فارس، ولو زاد عن ذلك يطلق عليه السلطان الأعظم، وإذا خطب له على جميع المنابر في البلاد كلها كان سمته سلطان السلاطين. ابن دريد، جمهرة اللغة، (ج465/1)؛ الأزهري، تهذيب اللغة، (ج255/4)؛ ابن منظور، لسان العرب، (ج425/3-426)؛ (ج320/7-321)؛ العيني، السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد، (ص95)؛ ضاحي، منهج البحث التاريخي، (ص118)؛ عثمان، منهج البحث التاريخي، (ص117-145)؛ رستم، مصطلح التاريخ، (ص12-41).

[2] ابن عبد الله : عبارة تشير إلى انه مجهول الأب لان المماليك كانوا يباعون صغارا فلا يعرف أبائهم لذلك كان يقال لأحدهم (ابن عبد الله) لان أباه أيا كان لا بد أن يكون عبدا لله. الباشا، الألقاب الإسلامية، (ص134).

[3] الألفي: عرف بذلك لأن سيده الأمير علاء الدين اشتراه بألف دينار، لامتلاكه صفات جيدة فعُرف قلاوون بالألفي. ابن بطوطة، رحلة، (ج210/1)؛ المقريزي، السلوك، (ج120/2)؛ زقلمة، المماليك، (ص154)؛ القلقشندي، صبح، (ج499/3)؛ الكتبي، فوات، (ج203/3)؛ ابن كثير، البداية، (ج317/13).

[4] لقب بالصالحي النجمي، لأنه من جملة مماليك الصالح نجم الدين أيوب. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص43)؛ العسقلاني المصري، الفضل المأثور، (ص25-26)؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، (ج124/2).

[5] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص54)؛ العسقلاني المصري، الفضل المأثور، (ص51)؛ اليافعي، مرآة الجنان، (ج208/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج94/2)؛ ابن سباط، صدق الأخبار، (ج47/1).

[6] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص43)؛ المقريزي، الخطط، (ج93/3)؛ العيني، عقد الجمان، (ج6/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج94/7).

والمشرق العربي ما يزيد على قرن من الزمان، كان من رجال الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأبلى بلاءً حسنًا في معركة المنصورة، وعلا شأنه بعد ذلك، فكان من كبار الأمراء أصحاب النفوذ في دولة بيبرس(1)، وبُويع له بالسلطنة في سنة (678هـ/ 1279م) خلفًا للملك الصغير العادل بدر الدين سلامش، كان الأمير سيف الدين قلاوون أحدَ المماليك البحرية، ولمَّا تُوُفِّيَ الأمير علاء الدين انتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب، ثم أهَّلته مواهبه وملكاتُه لأن يبرز على الساحة في الفترة التي خرجت فيها دولة المماليك البحرية إلى الوجود، ولمع في عهد السلطان الظاهر بيبرس؛ الذي أولاه ثقته؛ لرجاحة عقله وشجاعته، وتصاهرا؛ حيث تزوج بركة خان ابن السلطان بيبرس من ابنة قلاوون؛ تأكيدًا على رُوح المحبَّة والصداقة بينهما(2).

ولما ساءت سلطنة بركة خان وفشل في القيام بأعباء الحكم لخفَّته، ورعونته، وسُوء تصرُّفه؛ أجبره الأمراء على خلع نفسه من الحكم، وكان لقلاوون يد ظاهرة في هذا الخلع، وتطلَّع إلى الحكم وهو به جدير؛ لكنه انتظر الفرصة المناسبة ليَثِبَ على الحكم دون أن يُنازعه أحدٌ، فلمَّا واتته فاقتنصها، وعزل السلطان الصغير، وتولَّى هو الحكم في(678هـ/1279م)(3)، وبايعه الأمراء وأرباب الدولة، وتلقَّب بالملك المنصور(4).

ب- عائلة سيف الدين قلاوون: تزوج المنصور قلاوون من ست نساء، وهن كما يلي:

- **زوجته الأولى** كانت من الإماء، تزوجها سنة (658هـ/1259م)، وأنجبت له ابنته الكبرى غازية خاتون، أخت الأشرف لأبيه(5).

---

(1) الكتبي، فوات، (مج215/1، 235-241)؛ ابن تغري بردي، مورد، (ج33/2)؛ ابن طولون، النزهة السنية (مخطوطة في باريس، ومصورة في الجامعة الأردنية)، (رقم: 341/ورقة 57).

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص43)؛ أبو الفدا، المختصر، (ج155/4).

(3) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص49)؛ الجعفري، أنهج الطرايق(مخطوط في باريس ومصور في الجامعة الأردنية،(تحت رقم:341/201-202)؛ الشهابي، الغرر الحسان، (ج466/1).

(4) المقريزي، السلوك، (ج1، ق658/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج287/7).

(5) المقريزي، السلوك، (ج1، ق623/2).

– **زوجته الثانية** من ابنة سيف الدين كرمون([1])، ويقال لها: أم الصالح([2])، ويبدو أنها والدة الأشرف خليل، ذلك أنه حين توفي قيل إنه دفن بمدرسته بالقرب من تربة والدته، وهناك تربة أم الصالح([3])، وقد توفيت في 16 شوال/ 8 كانون الأول عام (682هـ/1283م)([4]).

– **زوجته الثالثة**: وهي أخت الثانية، تزوجها عام (682هـ/1283م) بعد وفاة أختها السابقة([5]).

– **زوجته الرابعة**: وتزوج المنصور الزوجة الرابعة عام (681هـ/1282م) من أشلون([6])، وهي ابنة الأمير سكتاي بن قراجين بن جنقان، وفد أبوها إلى مصر سنة (674هـ/1275م) أيام الملك الظاهر بيبرس([7]). ماتت زمن سلطنة ابنها الثانية الناصر محمد سنة (705هـ/1305م)([8]).

– **زوجته الخامسة**: هي بنت الأمير سيف الدين التكريتي الظاهري، كان أبوها معتقلًا، فأفرج المنصور عنه، وعقد على ابنته سنة (687هـ/1288م)، ثم انفصل عنها من غير أولاد([9]).

– **زوجته السادسة**: هي والدة ابنه أحمد([10])، تزوجها بعده الأمير بيسرى([11]).

([1]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص27).

([2]) ابن عبد الظاهر، تشريف، (ص55)؛ الحداد، السلطان منصور قلاوون، (ص86).

([3]) تربة أم الصالح: وهي مدرسة وتربة في نفس الوقت، وبناها علم الدين الشجاعي برسم من السلطان قلاوون، ودفنت فيها زوجته عام (682هـ/1283م). المقريزي، الخطط، (ج367/3).

([4]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص55).

([5]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج228/9).

([6]) هي أشلون خاتون بنت سكتاي الططرية تزوجها المنصور، وأنجب منها ولده الناصر محمد، وعاشت حتى أدركت سلطنة ابنها الناصر. العسقلاني، الدرر الكامنة، (ج385/1).

([7]) المنصوري، التحفة، (ص107)؛ ابن دقماق، النفحة ، (ص79)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج351/1).

([8]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج412/1).

([9]) المنصوري، زبدة الفكرة، (ج264/9).

([10]) النويري، نهاية الأرب، (ج174/31)؛ الجعفري، أنهج الطرايق، (ورقة:202)؛ المقريزي، السلوك، (ج217/2)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج361/1).

([11]) المقريزي، السلوك، (ج835/1).

-**أولاده:** وأنجب المنصور ولدين من أم الصالح، الأول: علي بن قلاوون[1]، أما الابن الثاني للمنصور قلاوون فهو الأشرف خليل[2]، أما ابنه الثالث، الملك الناصر محمد عام(684هـ/1285م)[3]، الذي تولى السلطنة بعد أخيه الملك الأشرف عام (693هـ/1293م)[4]. أما ابنه الرابع هو الأمير أحمد، وجدير ذكره أن ابنه أحمد أنجبه بعد وفاته، توفاه الله في سلطنة أخيه الأشرف[5]، على أن بعض المصادر الأخرى لم تذكر هذا الابن من جملة عائلة المنصور ربما؛ لأنه توفاه الله وهو صغير[6]. كما أنجب من البنات ثلاثًا، هن: غازية خاتون، التي تزوجت بركة خان بن الظاهر بيبرس، عام (674هـ/1275م)[7]، وتوفيت في السنة التي توفي فيها أخوها الصالح علي عام (687هـ/1288م)[8]؛ بالإضافة إلى أختيها: دار مختار الجوهري، واسمها: التطمش، ودار عنبر الكمالي[9].

ج-وفاة السلطان قلاوون: كان السلطان قلاوون يرجو أن ينال شرف إنهاء الوجود الصليبي، فاستعدَّ لذلك؛ لكنَّ القدر لم يُمهله، فتُوُفِّيَ السلطان قلاوون بقلعة الجبل بالقاهرة وذلك في تاريخ: (27 من ذي القعدة سنة 689هـ/11 من نوفمبر 1290م)، وفيها غُسِّل وكُفِّن، ثم حُمل إلى تربته الملحقة بمدرسته العظيمة بين القصرين، شارع المعز، فدُفن فيها، ولا تزال المدرسة شامخة

---

(1) أوجد المماليك نظاما يضمن لأبنائهم السلطنة من بعدهم، وذلك بإطلاق عليهم لقب ملوك في حياتهم. عاشور، مصر والشام في العصر المماليك، (ص217).

(2) ابن حبيب، درة ، (ج1/ ورقة 181)؛ ابن سباط، صدق، (ج494/1)؛ الكرمي، نزهة، (ص182).

(3) الصفدي، نزهة المالك، (ص162)؛ الكتبي، فوات الوفيات، (مج/35-36)؛ ابن دقماق، النفحة المسكية، (ص79)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص126)؛ ابن سباط، صدق الأخبار، (ج487/1).

(4) أبو الفداء، المختصر، (ج41/4)؛ الجعفري، أنهج الطرايق، (ورقة:203)؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ج114/1)؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، (ج26/4-27).

(5) النويري، نهاية الأرب، (ج174/31)؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ج101/1)؛ الجعفري، أنهج الطرايق، (ورقة:202)؛ المقريزي، السلوك، (ج217/2)؛ العيني، عقد الجمان، (ج16/3).

(6) المقريزي، السلوك، (ج217/2)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص8).

(7) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص28)؛ ابن دقماق، النفحة المسكية، (ص64).

(8) الذهبي، المختار، (ص327)؛ الكتبي، عيون التاريخ، (ج428/21).

(9) النويري، نهاية، (ج174/31)؛ المقريزي، السلوك، (ج217/2).

شاهدة على عظمة هذا السلطان وازدهار عهده. خلف السلطان المنصور ولده السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، الذي استكمل رحلة الجهاد، وفتح فتوحًا عظيمة؛ كان أهمّها فتحه لعكا([1])، ومن بعده أخوه الناصر محمد بن قلاوون، وظلّ الحكم في ولد قلاوون نحو قرنٍ من الزمان(678هـ-783هـ/1279م-1382م)([2]).

2- ولي العهد الصالح علي(679هـ/1280م): هو أكبر أولاد سيف الدين قلاوون، لما اشتد تهديد وغول فارس لبلاد الشام عهد السلطان قلاوون لأكبر أولاده الصالح علي بالسلطنة، من بعده، وذلك عام (679هـ/1280م)([3])، حتى يتفرغ لصد غاراتهم([4])، فدعا أكابر القوم، وخاطبهم في أمر تفويض ولاية العهد لابنه الصالح علي، فلقي أمره قبولا منهم، وعينه وليًا للعهد، وهو الذي لقب بالملك الصالح([5])، وكان اسمه يذكر مع اسم والده على المنابر([6])، وبقي الملك الصالح وليا للعهد حتى شعبان عام (687هـ/1288م)، إذ توفاه الله إثر مرض (دوسنطاريا)، أو ما يعرف بالحمى الكبدية عام (687هـ/1288م)([7])، وقيل: إن أخاه الأشرف

([1]) مدينة عكة كبيرة واسعة الأرجاء كثيرة الضياع، أصبحت بيد الإفرنج سنة (497هـ/1103م)، واستعادها، منهم: صلاح الدين بن أيوب سنة (583هـ/1187م)، ثم أخذها الإفرنج بعد ذلك في سنة (587هـ/1191م). الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج365/1-366)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج144/4).

([2]) اليونيني، مرآة الزمان، (ج5/4، 8)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج12/4)؛ الذهبي: تاريخ، (ج38/50)؛ نوري، سياسة المنصور، (ص46)؛ محمود، المماليك البحرية، ص124).

([3]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص77)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج22/4)؛ الجعفري، أنهج الطرايق، مخطوطة، (ورقة 202).

([4]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج357/1-358)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص25).

([5]) أوجد المماليك نظاما يضمن لأبنائهم السلطنة من بعدهم، وذلك بإطلاق عليهم لقب ملوك في حياتهم. ابن إياس، بدائع الزهور، (ج357/1-358)؛ عاشور، مصر والشام في العصر الأيوبيين والمماليك، (ص208)؛ طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (ص174).

([6]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص162-163)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج11/1).

([7]) ابن المغيزل، ذيل مفرج الكروب، (ص119)؛ الصفدي، نزهة المالك، (164)؛ الذهبي، المختار، (ص327)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج392/13)؛ المقريزي، السلوك، (ج207/2)؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي،(ج468/1)؛ ابن سباط، صدق الأخبار، (ج490/1)؛ ابن إياس،بدائع الزهور،(ج357/1) .

قد سمه(1). وكان آنذاك وليًا للعهد، ويبدو أن علي بن قلاوون توفي بحمى كبدية(2)، وترك الصالح علي ولدًا من زوجته (خوند منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكيه)(3) اسمه موسى(4).

3- الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، تسلطن بعد موت أبيه المنصور قلاوون في (27 من ذي القعدة سنة 689 هـ/ 11 من نوفمبر 1290م):

أ- اسمه ونسبه: هو خليل بن قلاوون الملقب بالسلطان الأشرف صلاح الدين، وهو الابن الثاني للسلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولقب بالأشرف في حياة أبيه(5)، جلس على تخت الملك في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة(689هـ/1290م) بعد موت والده، ليكون السلطان الثامن من سلاطين الدولة المملوكية الأولى(6)، واستفتح الملك بالجهاد(7).

ب- مولده: لم تتعرض المصادر التاريخية إلى مولد الأشرف خليل قلاوون، وأشارت بعضها أن مولده كان في سنة (666هـ،1267م)، تقريبًا تبعًا لرواية ابن تغري بردي(8)، وابن إياس(9).

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج207/2).

(2) المقريزي، السلوك، (ج207/2)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص7).

(3) النويري، نهاية الأرب، (ج159/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج324/2)؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، (ج468/1).

(4) ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج334/2)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج392/13)؛ المقريزي، السلوك، (ج207/2)؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، (ج468/1).

(5) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص246)؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ج105/1)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج365/1).

(6) النويري، نهاية الأرب،(ج177/31)؛ العيني،عقد الجمان،(ج23/3)؛ابن دقماق،النفحة المسكية، (ص88).

(7) الكتبي، فوات الوفيات، (ج1/ 406).

(8) مورد اللطافة، (ج42/2)؛ الدليل الشافي، (ج292/1).

(9) بدائع الزهور، (ج365/1).

والمعروف أن الأشرف قتل في محرم عام (693هـ/1292م)[1]، وبذلك يكون عمره سبعة وعشرين عامًا إذا كان مولده عام (666هـ/1267م)[2]. ويذكر الذهبي أن الأشرف خليل عاش ثلاثين عامًا ونيفًا[3]، وقد رجحت المصادر قول الذهبي، ونحن نميل مع هذه المصادر[4].

ج- عائلته: فقد تزوج من أردكين بنت نوكية بن قطفان المغلية[5] ، وهي أخت زوج أخيه الصالح علي، والتي تدعى منكبك[6]، وكان زواجهما عام (682هـ/1283م)[7]، وقيل: كان زواجهما كان في (681هـ/1282م)[8]، ولم تنجب أردكين للأشرف أولادًا ذكورًا؛ بل أنجبت له بنتين، كما ورد في بعض المصادر[9].

د- وفاته: بعد تحرير الأرض، وإعزاز الدين لقي السلطان الأشرف خليل قلاوون ربه على يد نائبه وأتباعه، فقد خرج إلى الصيد، فلما كان بأرض تروجة بالقرب من الإسكندرية، حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش، فأول من صوبه نائبه بيدرا، وتمم عليه حسام لاجين المنصوري، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وستمائة[10].

---

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج399/13)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج167/1)؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، (ج292/1)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج377/1).

(2) مورد اللطافة، (ج42/2)؛ بدائع الزهور، (ج365/1).

(3) دول الإسلام، (ج219/2).

(4) ابن حبيب، درة الأسلاك، (ج1/ورقة 181)؛ تذكرة النبيه، (ج167/1)؛ المقريزي، المقفى، (ج794/3) .

(5) هي أردكين بنت نوكية المغلية، تزوجت الأشرف خليل، ثم تزوجها الناصر في سنة (700هـ/1300م)، وولدت له ولدًا ذكرًا ، توفاه الله وهو صغير سنة (710هـ/1310م)، ثم طلقها الناصر سنة (717هـ/1317م)، ورتب لها ما يكفيها إلى أن توفاها الله عام (724هـ/1323م). العسقلاني، الدرر الكامنة، (ج347/1-348)؛ كحالة، أعلام النساء، (ج25/1)؛ التونجي، معجم أعلام النساء، (17).

(6) النويري، نهاية الأرب، (ج159/31)؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، (ج468/1).

(7) المنصوري، التحفة، (ص134)؛ النويري، نهاية ، (ج292/31)؛ المقريزي، المقفى الكبير، (ج801/3).

(8) اليونيني، ذيل، (مج208/1-209)؛ ابن حبيب، تذكرة ، (ج72/1)؛ المقريزي، السلوك، (ج177/2).

(9) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص134)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج262/31).

(10) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/ 394).

4- الناصر محمد بن قلاوون(693-741هـ/1293-1341م):

أ- تولية الناصر محمد السلطة: فقد تولّى الناصر محمد بن قلاوون السلطة، بعد مقتل أخيه الأشرف، في ظل جو من الفساد والمؤامرات، وكان صغير السن، فواجه الكثير من المصاعب في بداية حكمه، وكان أول عمل قام به، القبض على قاتلي أخيه، والأَمر بقطع أيديهم وتسميرهم([1]). وتوالى على الحكم ثلاث مرات([2]).

ب- المرة الأولى من سلطنته: كانت في سنة (693-694هـ/1293-1294م)، حين تسلطن كتبغا([3])، وتسمى بالعادل، فحلف له الأمراء بمصر والشام، وحجب السلطان محمد وأُمه في بعض القاعات([4])، بعد أن استطاع كتبغا إقناع الأمراء بضرورة تحويل السلطنة اسميًا وفعليًا، ليد شخصية قوية في البلاط([5])، وكانت مدة سلطنة الناصر محمد الأولى، أحد عشر شهرًا، وأيامًا([6]). ولم يسلم كتبغا من المؤامرات، حتى استلمّ الحكم منه لاجين المنصوري([7])، وتسمى بالمنصور، وهرب كتبغا إلى دمشق، وذلك في (محرم 696هـ/ اكتوبر 1296م)، واستمر تدبير المؤامرات والخِدع، فجهز لاجين الملك الناصر محمدًا إلى الكرك، مدعيًا أنه يريد الحفاظ على سلامته، وأنه يحفظ له الملك إلى أن يترعرع ويشتد عوده، ويعود إلى ملكه، و قد قبل السلطان بذلك حفاظًا على روحه([8]).

([1]) التسمير: إحدى العقوبات الشنيعة بمصر وغيرها من البلاد الأخرى في العصور الوسطى، وهو صلب المعاقب بواسطة المسامير على جدار أو خشب. النويري، نهاية، (ج311/33)؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، (ص44)؛ الرفاعي، السجون في مصر، (ص192-193).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج239/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج103/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج292/8).

([3]) هو كتبغا بن عبد الله المنصوري، ولِّي السلطنة سنة (694هـ/1294م)، وتلقب بالملك العادل، حتى عزِل بعد سنتين، وتوفي سنة (702هـ/1302م). ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج169/1).

([4]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج386/1-387).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج239/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج292/8).

([6]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج386/1).

([7]) لاجين المنصوري: تولى نيابة السلطنة بدمشق سنة (679هـ/1280م)، ثم ولي أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية، بعد أن خلع العادل زين الدين كتبغا، قُتِل سنة ثمان وتسعين وستمائة، وكان ملكًا عادلا مهيبًا، موصوفًا بالشجاعة والإقدام. ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج194/1، 212).

([8]) الصفدي، أعيان العصر، (ج78/5-79)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج394/1).

ج- المرة الثانية من سلطنته(698 -708هـ/1298-1308م): لم يسلم لاجين من المؤامرات والخيانة، ولم يطل حكمه، وُقتِل في (ربيع الأول 698هـ/ديسمبر 1298م)، فحلف للسلطان الملك الناصر جميع الأمراء، وأحضروه من الكرك، وملّكوه، بعدما شعروا بأحقيته بالملك، وكانت تلك سلطنته الثانية، التي استمرت من سنة (698 -708هـ/1298-1308م)[1]، وكان الناصر أيضًا لا يزال صغير السن، فأدى ذلك إلى استبداد الأمراء بالسلطنة، فحصلت الفوضى في البلاد، وكذلك كثرت ثورات العربان في مصر خاصة في الوجه القبلي، فقطعوا طرق التجارة، وفرضوا الإتاوات على التجار، وامتنعوا من دفع الخراج، إلى أن تمت السيطرة على الوضع، والقضاء على ثورتهم من قبل السلطة المملوكية[2]. لم يشعر السلطان بالراحة، وحوله الأُمراء يتحكمون به، ويحاولون الانقلاب عليه[3]، ومنعه من كل ما يريد، حتى ضاق السلطان من تلك التصرفات، وأظهر سنة (708هـ/1308م)[4]، أنه يريد الحج، فاصطحب أهله ، واتجه إلى الكرك[5]، " فلما وصل عقبة أَيْلَة[6]، لجأ إلى الحصن وأقام به أعوامًا "[7]. وذكر ابن بطوطة[8] حين مغادرة الناصر محمد بن قلاوون(726هـ/1325م) إلى الكرك تولى مكانه مملوكه سلار[9]، النائب عنه[10]، وأرسل للأُمراء في مصر إعفاءه من السلطة، فتسلطن بيبرس

([1]) المقريزي، الخطط، (ج239/2)؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، (ص6-7).

([2]) ابن تغري بردي، النجوم، (ج247/8،236)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص116-117).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج239/2).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج421/2).

([5]) ابن شاكر، فوات الوفيات، (ج35/4)؛ ابن كثير، البداية ، (ج47/14)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/ 283).

([6]) آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، ياقوت، معجم البلدان، (ج292/1).

([7]) ابن بطوطة، رحلة، (ج344/1).

([8]) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ولد في طنجة من بلاد المغرب سنة (703هـ/1304م)، رحالة كبير زار مصر، والشام، والسودان، وبلاد إسلامية كثيرة، توفاه الله سنة (779هـ/1377م). ابن بطوطة، رحلة، (ج235/6)؛ المقريزي، السلوك، (ج373/2).

([9]) ابن بطوطة، رحلة، (ج344/1).

([10]) كان سلار من مماليك الصالح علاء الدين علي بن المنصور، فلما مات صار من خواص أبيه، قبض عليه الناصر إلى أن مات بالسجن سنة (710هـ/1310م)، ابن شاكر، فوات الوفيات، (ج86/2)؛ الصفدي، الوافي، (ج33/16)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج5/6).

الجاشنكير[1]. وهو أمير الطعام[2]. واستلم الحكم، وتسمى بالملك المظفر[3] على الرغم من رفض الكثيرين له، وتشاؤم الناس من سلطته، وبذلك يكون الناصر قد وضع الأُمراء في حرج؛ لأن وجوده الاسمي، وحكمه الصوري، كان قناعًا يخفي حقيقة الأمراء، أما وقد اعتزل، فستظهر حقيقتهم واضحة دون رياء، أو مداراة، ولم يكن الناصر ليسمح بنقل السلطة من بيت قلاوون، إلى يد طامع بهذه السهولة، في الوقت الذي أصبح فيه عمره يقارب الخامسة والعشرين[4]. وظهرت نوايا بيبرس الجاشنكيز، فرفضه الشعب، وكشف سوء حكمه، وتمنى الخلاص منه، إلى أن قصده أمراء الشام، واجتمعت عليه المماليك[5]، فقصده الناصر بالعساكر، ففر بيبرس إلى الصحراء ، فتتبعه العساكر، وقبض عليه[6]، وأتى به إلى الملك الناصر فأمر بقتله، فقتل، وقبض على سلار وحبس[7] في جب حتى مات جوعًا، ويقال أنه أكل خفه من الجوع[8]"[9].

---

(1) وهي كلمة فارسية من لفظين فارسيين، هما: جاشنا ومعناه الذوق، وكير ومعناه المتعاطي، وكان الجاشنكير من مماليك المنصور، فلما ترك الناصر ملكه سنة (708هـ/1308م)، تسلطن وتلقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصور، فلما عاد الناصر للحكم سنة (709هـ/1309م)، قبض عليه وقتل في نفس العام. ابن بطوطة، رحلة، (ج344/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج432/5)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج206/1)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج71/2).

(2) ابن بطوطة، رحلة، (ج344/1).

(3) ابن يوسف الدمشقي ، العقود الدرية، (ص298)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج48/14)، السيوطي، تاريخ الخلفاء، (ص341) ؛ السيوطي، حسن المحاضرة ، (ج112/2).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج48/14)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/ ج232).

(5) أبي الفداء، المختصر، (ج56/4).

(6) قبض على بيبرس في موضع بأطراف غزة على يد الأمير قراسنقر أثناء توجهه إلى دمشق نائباً بها بمرسوم من الملك الناصر. أبو الفداء، المختصر، (ج58/4)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج73/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج55/14)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج7/6).

(7) سجن سلار بقلعة الجبل بالقاهرة، انظر: ابن شاكر، فوات الوفيات، (ج86/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج457/2)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج33/16)؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج18/9).

(8) هناك روايات مختلفة في موته. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (ج250/2)؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج18/9)؛ المنهل الصافي، (ج7/6)؛ ابن شاكر، فوات، (ج87/2)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج491/2)؛ ابن حجر، الدر الكامنة، (ج329/2).

(9) ابن بطوطة، رحلة، (ج344/1).

د- المرة الثالثة من سلطنة الناصر محمد(709-741هـ/1309-1340م): واتجه الأمراء إلى الكرك، لتأييد الناصر محمد بن قلاوون، وإعادته للسلطة، وانضم قسم من الجيش المصري لمناصرته[1]، وعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى حكمه، وكانت تلك سلطته الثالثة، التي استمرت من سنة ، وهي المدة التي كانت فيها رحلة ابن بطوطة. كانت تلك الحقبة من أهم الحقب حكم الناصر (709-741هـ/1309-1340م)، بدأها بوضع الدعائم القوية لدولته، وتثبيت حكمه، وعمل جاهدًا للحفاظ على هذه السلطة، فكان كمن يمسك على جوهرة، ويخاف عليها كل من حوله، وهو في غاية الحذر والخوف في آنٍ واحد[2].

لقد كان عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة[3] هو آخر عهد بالاستقرار السياسي في دولة المماليك، فبعد وفاته تولى السلطنة ثمانيةٌ من أولاده في السنوات (741هـ-762هـ/1340-1360م)، ومن ثَمَّ في العشرين سنة التالية (762-784هـ/1360-1382م)، تولى السلطنة أربعةٌ من أحفاده[4]، و معلوم أنّ هذا العدد من السلاطين دليل على عدم الاستقرار السياسي، إذ تقلّد حكم مصرَ سلاطين أطفال، لم يبلغوا سن الاحتلام ، كانوا يُوَلَّون، ويُعْزَلون طبقاً لأهواء أمراء المماليك الذين كان لهم النفوذ الأقوى في ذلك الوقت، ولم يكن للسلاطين في ذلك الوقت إلا مجرَّد الاسم فقط، وليس لهم من الأمر شيء؛ ذلك لصغر سِنِّهم، و ضعف حيلتهم ، فكان السلطان آلة في السلطنة و المتصرّف الحقيقي فيها هم الأمراء[5].

وهكذا ظل حال هؤلاء السلاطين أُلعوبة في أيدي الأمراء، وإذا ما حاول أحدهم التَمرّدَ عليهم أو التخلص من نفوذهم كانوا لا يتوَرّعون عن عزله وقتله أحيانًا، فقد قُتِل أربعةٌ من السلاطين أبناء قلاوون على أيدي أمراء مماليكهم. وأما بقية السلاطين فقلّما تجد واحداً منهم ترك الحكم بنتيجة طبيعية كالوفاة مثلاً؛ بل كانوا يعزلون، ويُولَّون تَبعًا لرغبات وأهواء الأمراء، دون مراعاة إلى أدنى مصلحة للبلاد، أو العباد في سنة (741هـ/1340م).

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج103/2)؛ الشجاعي، تاريخ، (ص7).

(2) المقريزي، السلوك، (ج103/2)؛ الشجاعي، تاريخ، (ص8).

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج21/2).

(4) الصفدي ، أعيان العصر، (ج96/5)؛ شاكر، التاريخ الإسلامي، (ج38/7).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج40/10،20).

توفى الناصر محمد بن قلاوون في سنة (741هـ/1341م) ، وقد أنجب العديد من الأولاد والأحفاد([1]).

5- أبناء الناصر محمد بن المنصور قلاوون: (742-782هـ/1341-1361م):

بعد وفاة الناصر محمد تولى السلطنة ثمانيةٌ من أولاده في السنوات (741هـ-762هـ/1340-1360م)، ومن ثَمَّ في العشرين سنة التالية (762-784هـ/1360-1382م)، تولى السلطنة أربعةٌ من أحفاده([2]).

أ- الملك أنوك([3])(723-741هـ/1323-1340م): أراد الناصر في سنة (732هـ/1331م) أن ينظم وراثة العرش من بعده، فعهد بالملك إلي ابنه الأمير ناصر الدين آنوك فوافقته الأمراء علي ذلك، وركب آنوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع علي الأمراء وكبار الموظفين؛ ولكن الناصر عاد فعدل عن رأيه وأمر أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يمنح ولاية العهد، ومهما يكن من شيء فقد توفي آنوك قبل أبيه ببضعه أشهر في يوم الجمعة 17 ربيع الأول سنة (741هـ/1340م)، وعمره ثماني عشرة سنة([4])، ولعل السبب في عدول الناصر عن توليته العهد أنه لم يكن حينئذ قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره ، وظل الحال علي ذلك دون أن يمنح الناصر ولاية العهد لولد من أولاده؛ حتى مرض مرض الوفاة سنة (741هـ/ 1340م) وأحس بدنو أجله، فرأى أنه ليس من الحكمة أن يترك هذه المملكة الواسعة من غير أن يعهد إلي أحد من بعده، فجمع أمراء الدولة، وأبلغهم أن رأيه قد استقر علي أن يعهد بالملك من بعده إلي ابنه سيف الدين أبي بكر، وأوصاهم بتنفيذ ذلك بعد وفاته، فامتثلوا أوامره وعاهدوه علي ذلك([5]).

([1]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج14/190)؛ ابن خلدون، العبر، (ج5/242)؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/325)؛ القرماني، أخبار، (ص202)؛ العصامي، سمط النجوم، (ج4/22).

([2]) الصفدي ، أعيان العصر، (ج5/96)؛ شاكر، التاريخ الإسلامي، (ج7/38).

([3]) أنوك، ويقال آنوك بالمد، وهو ابن الناصر محمد بن قلاون من الخوندة طغاي، ماتت سنة (749هـ/1348م)، لم يكن عند أبيه أعز منه؛ لأنه ابن الخوندة، وهو أحسن أولاده، كان كثير الحركة لا يستقر على الأرض، ولا يلبث، ولا يسكت، وتوفي سنة أربعين وسبعمائة قبل موت أبيه بنصف سنة تقريبا، وَوجد عَلَيْهِ أَبوهُ وجدا عَظِيما واستمرت أمه تعْمل على قَبره فِي كل لَيْلَة جُمُعَة ختمة وَكَانَ يحب اقتناء الْبَقر والإوز والبط. الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج9/245)، المقريزي، السلوك، (ج3/48).

([4]) ابن حجر، الدرر، (ج1/497-498)؛ العاملي، الدر المنثور، (ص276).

([5]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (ج2/319)؛ حسن، تاريخ المماليك البحرية، (ص103).

ب- الملك المنصور سيف الدين أبو بكر: (721هـ-742هـ/ 1321م-1341م).

ولد بالقاهرة سنة (721هـ/1321م)، وتوفاه الله بقوص[1] سنة(742هـ/1341م). هو أول من تربع على عرش السلطنة من أبناء السلطان الناصر بن محمد قلاوون، وثالث عشر سلاطين الدولة المملوكية[2] حكم نحو شهرين في عام (742هـ/1341م). كان سيف الدين أبو بكر ابنا للسلطان الناصر محمد وحفيدا للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون، أوصى أبوه الناصر محمد قبل وفاته بتوليته السلطنة[3]، فنصبه الأمراء في عام 1341م بقلعة الجبل، ولقبوه بالملك المنصور على لقب جده(المنصور قلاوون)[4] بعد أن سمح له أكبر إخوته الذي كان يقيم في الكرك بتولى السلطنة[5]، وكان في العشرين من عمره[6]، ومعه زوج أمه طقزتمر[7] الحموى نائبا للسلطنة. والأمير قوصون الناصري[8] مدبرا للدولة، وأتابكا للعسكر،

([1]) مدينة قوص بالجهة الشرقية من النيل سبعة أميال، في مصر. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج128/1)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ج288/1)؛ الحميري، الروض المعطار، (ص15).

([2]) بعض المؤرخين يعدون شجر الدر أول سلاطين المماليك، وبذلك يكون المنصور سيف الدين أبو بكر السلطان الرابع عشر وليس الثالث عشر. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، (ص104-105).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج322/3)؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (ج192/2).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج322/3)؛ مهدي، مماليك مصر والشام، (ص117).

([5]) كان الأمير شهاب الدين أحمد أكبر إخوة سيف الدين أبو بكر ولذلك كان من اللازم الحصول على موافقته على تنصيب أبو بكر. الأمير أحمد أصبح السلطان الناصر شهاب الدين أحمد في عام 1342م. ابن كثير، البداية والنهاية، (ج194/14)؛ ابن تغرى بردي، النجوم، (ج50/10)؛ القرماني، أخبار الدول، (ص203).

([6]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ص104-105)؛ الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية، (ج322/3).

([7]) طُقُزْتُمر: هكذا رسمه ابن حجر ويشكله، كان من المماليك المؤيد صاحب حماة ثم قدمه للناصر، ولم يزل معظماً في دولة الناصر إلى أن مات في (جمادى الأخيرة عام 746هـ / أكتوبر 1345م). أبو الفداء، المختصر، (ج144/4،140)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج610/2)؛ ابن حجر، الدرر، (ج388/2).

([8]) قوصون الساقي الناصري كان حضر مع الجماعة الذين احضروا ابنه القائد اوزبك زوج الناصر، فرآه السلطان فألزم كبير الجماعة ببيعه منه فاشتراه بثمانية آلاف درهم فسلمها التاجر المذكور لأخيه صوصون، ثم عظمت منزلته عند الناصر ... وزوجه بنته عام (727هـ/1326م). تم قتله بسجن الإسكندرية (أواخر شوال 742هـ / أبريل 1342م). ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج300/4).

ورأس المشورة، ويشارك قوصون في الرأى الأمير بشتاك الناصرى(1).

وكانت أولى أعمال السلطان أبو بكر قيامه بجمع الأمراء، والقضاة إلى القلعة، وإعادة الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله(أبو العباس أحمد بن حسن بن أبي بكر)(661هـ-701هـ/1262م-1302م) إلى منصب الخلافة(2)، وألبسه خلعته السوداء بيده وقلده سيفا عربيا، إلا أن مدة حكم سيف الدين أبو بكر القصيرة كانت مشوبة بالمشكلات والصراعات الداخلية والتي أدت في نهاية المطاف إلى سقوطه. بدأت الصراعات بطلب الأمير بشتاك تعينه نائبا للسلطان بالشام بناء على ما ذكره بشتاك بأن الملك الناصر المتوفى كان يرغب في ذلك. قوبل طلب بشتاك برفض قاطع من الأمير قوصون مما جعل بشتاك يحاول نيل تأييد الأمراء والمماليك عن طريق الاغداق عليهم بالأموال والهبات فقام قوصون باقناع السلطان أبو بكر بأن بشتاك يحاول جذب المماليك والأمراء إلى جانبه كى يسطو على عرش السلطنة وأن من اللازم القبض عليه قبل فوات الأوان فتم القبض على بشتاك ومماليكه وسجنوا بالأسكندرية، واستولى السلطان على ممتلاكاتهم واقطاعاتهم ومنحها لنفسه وقوصون وبعض الأمراء(3)، وبتخلص قوصون من بشتاك تضخم نفوذه وصار أهم أمير في مصر وراح يتدخل في شئون السلطان ويظهر سخطه على سلوكه؛ حيث كان قد اعتاد على شرب الخمر مع خاصكيته، ودعوة المغانى إلى القلعة في ساعات الليل. تحدث قوصون في الأمر إلى الأمير طقزتمر حما السلطان طالبا منه إقناع السلطان بالإقلاع عن لهوه الذي صارت تتداوله ألسنة الأمراء والعامة، إلا أن السلطان لم يبال، وبقى على سلوكه. ثم قام الأميران طاجار والشهابى شاد العمائر بنقل كلام قوصون إلى السلطان أبو بكر مع بعض التحريف وراح جلساؤه من الأمراء ينسجون خيوط الوقيعة بينه وبين قوصون، ويشيرون إليه بضرورة القبض عليه، وعلى حماه طقزتمر نائب

---

(1) بشتاك الناصري كان ممن جلب من بلاد القان، أزبك، فاشتراه الناصر بستة آلاف درهم، ثم قتل في شهر (ربيع الآخر 742هـ/ أكتوبر 1341م). الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج10/88)؛ المقريزي، السلوك، (ج3/371)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج2/10).

(2) كان السلطان الناصر محمد قد أبعد أبيه المستكفى بالله إلى قوص ولما مات فضل الناصر تنصيب ابن أخيه إبراهيم على الحاكم بأمر الله الذى كان المستكفى قد عهد اليه بالخلافة، فلما تقلد أبو بكر السلطنة خلع إبراهيم ونصب الحاكم بأمر الله للخلافة. مهدى، مماليك مصر والشام، (ص117).

(3) المقريزي، السلوك، (ج3/330-332، 336-337، 346).

السلطنة، وغيرهما من الأمراء(1). وعرف قوصون أن السلطان قد نوى القبض عليه، فزعم أن برجله وجعًا، ولم يذهب لصلاة الجمعة؛ إنما بعث للأمراء، ومماليك السلطان، وجمعهم قبل الفجر عند قبة النصر. هذا والسلطان وندماؤه داخل القلعة في غفلة لهوهم، وغيبة سكرهم غير مدركين بما هو جارى في الخارج. وعندما أخبر موظفى القلعة السلطان بالتطورات الجارية، ووعى بخطورة الموقف، كانت مماليكه قد انضمت إلى قوصون وأعوانه(2). وراح طقزمرد يحاول إعادة المماليك التي تمردت على السلطان، وانضمت إلى قوصون قائلا لهم: " السلطان ابن أستاذكم جالس على الكرسى وأنتم تطلبون غيره ؟ "، فردوا عليه: " مالنا أستاذ إلا قوصون. ابن أستاذنا مشغول عنا لا يعرفنا(3).

وقد استدعى قوصون الأمير طقزتمرد وغيره من أمراء القلعة إلى قبة النصر، واتفق معهم على خلع الملك المنصور أبو بكر، وإخراجه هو واخوته الستة من القلعة، وتم نقل السلطان المخلوع واخوته مقيدين – باستثناء كجك الذي بقى في القلعة – إلى حراقة أخذتهم إلى قوص في صعيد مصر، حيث سجنوا. وكان يوما حزينا بالقاهرة من تألم العامة على ماجرى لأبناء السلطان الناصر محمد(4). خلع السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر بعد أن بقى على عرش السلطنة نحو شهرين، واتفق الأمراء على تنصيب أخيه علاء الدين كجك سلطانا على البلاد وكان عمره نحو سبع سنوات مع قوصون نائبا للسلطنة(5)، بعد ذلك بقليل قتل سيف الدين أبو بكر في سجنه بقوص سنة(742هـ/1341م)، واتهم قوصون بتدبير قتله(6).

---

[1] المقريزي، الخطط، (ج418/3–420)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج3/10–10)؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (ج192/2)؛ مهدي، مماليك مصر والشام، (ص118–119.

[2] ابن تغري بردي، مورد اللطافة، (ج67/2–70)؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (ج192/2)؛ مهدي، مماليك مصر والشام، (ص118–119.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج3/10–10) .

[4] المقريزي، السلوك، (ج338/3).

[5] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج3/10–10) .

[6] المقريزي، السلوك، (ج346/3)؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (ج192/2).

ج- الأشرف كجك: (734 - 746 هـ / 1334 - 1346 م): هو الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون[1]، ولد في القاهرة سنة (735هـ/1334م)، وتوفاه الله بالقاهرة سنة (746هـ/1345م)، ثاني من تربع على عرش السلطنة من أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ورابع عشر سلاطين الدولة المملوكية، نصبه الأمراء في عام(742هـ/1341م)، بزعامة الأمير قوصون الناصري، الذي قتل في سجن الإسكندرية (أواخر شوال 742هـ/ أبريل 1342م)[2]، بعد أن خلعوا أخيه سيف الدين بكر[3]، وكان عمره ما بين الخمس والثمان سنين، وبقى على تخت السلطنة نحو خمسة شهور. اسمه " كجك " لفظ أعجمى يعنى صغير[4]. وجاء بعده السلطان الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد سنة (742هـ/1341م)[5].

د- الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون، وسلطنته سنة (742هـ/1341م):

كان الأمير شهاب الدين أحمد أكبر الأبناء للناصر محمد بن قلاوون، ولما أصبح سيف الدين أبو بكر سلطانًا على البلاد أخذ الإذن من أخيه شهاب الدين أحمد إذ كان في هذا الوقت في الكرك، ولذلك كان من اللازم الحصول على موافقته على تنصيب أبو بكر. أصبح الأمير أحمد السلطان الناصر شهاب الدين أحمد فيما بعد بعد أن تولى الأشرف كجك الحكم[6]، بعد أخيه سيف الدين أبو بكر، وكان صغير السن إذ لم يتجاوز الخامسة من العمر، فخلعه الأمراء، ونصبوا أخاه باسم السلطان الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد سنة (742هـ/1341م)[7]، والذي جاؤوا به من الكرك، ثم خلع سنة (743هـ/1342م)[8].

([1]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/177)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج3/265).

([2]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج4/300).

([3]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/104-105).

([4]) قال ابن إياس: " إن والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلي بعده الملك وهو صغير، والملوك لهم فراسة في الأمور قبل وقوعها! ". ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/177)، الزركلي، الأعلام، (ج5/220).

([5]) ابن كثير، البداية، (ج14/194)؛ ابن تغرى بردي، النجوم، (ج10/50)؛ القرماني، أخبار، (ص203).

([6]) ابن خلدون، العبر، (ج5/442)؛ العصامي، سمط النجوم، (ج4/23).

([7]) ابن كثير، البداية، (ج14/194)؛ ابن تغرى بردي، النجوم، (ج10/50)؛ القرماني، أخبار، (ص203).

([8]) ابن خلدون، العبر، (ج5/445)؛ القلقشندي، صبح، (ج3/501)؛ العصامي، سمط النجوم، (ج4/23).

هـ- الصالح إسماعيل: (726-746هـ/1325-1345م): هو إسماعيل بن محمد ابن قلاوون، أبو الفداء، علاء الدين، الملقب بالملك الصالح ابن الملك الناصر، ولد في القاهرة حوالي (726 /1325م)، وتوفاه الله في القاهرة (746هـ/1345م)، سادس عشر سلاطين دولة المماليك البحرية، وهو من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام(1). بويع بالسلطنة بمصر بعد خلع أخيه الناصر أحمد (أول سنة 743 هـ/1342م)، وكانت أمور الدولة مختلّة فأصلحها، وحسنت سيرته(2). ومدة سلطنته ثلاث سنين وشهر ونصف. وممن رثاه الصلاح الصفدي(3).

و- الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد: (746هـ/1345م): بويع للملك الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد في سنة (746هـ/1345م)(4)؛ لكنه خلع وقتل على يد أخيـــه حاجي(5)، الذي تسلم السلطة باسم الملك المظفر زين الدين حاجي سنة (747هـ/1346م)(6).

ز- الملــك المظفــر زيــن الــدين حــاجي: ســنة (747هــ/1346م). تسـلم السـلطة سـنة (747هـ/1346م) باسـم الملـك المظفـر زيـن الـدين حـاجي سـنة (747هـ/1346م)(7)، وكـان صـغير السـن، فانشـغل بـاللهو، واللعـب، فقتلـه الأمـراء ، وسـلطنوا أخـاه الناصـر حسـن سـنة (748هـ/1347م)(8).

ح- السلطان حسن: ومن السلاطين الذين تولوا حكم مصر بعد وفاة سلطانها الناصر محمد، ابنه السلطان الناصر حسن(9). وهو الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن، ولي السلطنة بعد خلع أخيه الملك المظفر زين الدين حاجي في رمضان سنة (748هـ/1347م)، ولقبوه بالناصر

---

(1) ابن خلدون، العبر، (ج5/445)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج3/501).

(2) العصامي، سمط النجوم، (ج4/23).

(3) ابن إياس، بدائع، (ج1/181)؛ ابن كثير، البداية، (ج14/202-216)؛ ابن حجر، الدرر،(ج1/380).

(4) ابن خلدون، العبر، (ج5/445)؛ القلقشندي، صبح، (ج3/501)؛ العصامي، سمط، (ج4/23).

(5) يقال سمي (حاجي) لأنه ولد بطريق الحجاز، انظر: القلقشندي، صبح، (ج3/501).

(6) ابـن خلـدون، العبـر، (ج5/447)؛ القلقشـندي، صـبح، (ج3/501)؛ ابـن تغـرى بـردي، النجـوم، (ج10/148).

(7) ابن تغرى بردي، النجوم، (ج10/148)؛ العصامي، سمط، (ج4/25).

(8) ابن كثير، البداية، (ج14/224)؛ المقريزي، السلوك، (ج4/138-139).

(9) المقريزي، السلوك، (ج4/ 58)؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج10/187، 336).

سيف الدين قماري وعمره إحدى عشرة سنة، ثم خلع بأخيه الصالح في جمادي الآخرة سنة (725هـ/1324م)، ثم أعيد إلى الحكم في شوال سنة (755هـ/1354م) بعد خلع الملك الصالح، قتل في جمادي الأول سنة (762هـ/1360م)، وولى مكانه ابن أخيه المنصور محمد. وقد أفاد بذلك ابن بطوطة عام (749هـ/1348م) عندما عاد إلى مصر بعد زيارته الثالثة للشام: " وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، وبعد ذلك خلع على الملك وولى أخوه الملك الصالح"([1]).

([1]) رحلة، (ج4/181).

6- أحفاد الناصر محمد بن المنصور قلاوون: (765هـ-784هـ/1363-1382م)

انتهى عهد أبناء الناصر محمد، وجاء عهد أحفاده . وفي سنة (762هـ/1360م) نصبت الأمراء كسلاطين للبلاد:

أ- السلطان المنصور صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي بن الناصر محمد: ولم يختلف عهد أحفاد الناصر محمد عن عهد أبنائه، إذ كانوا صغار السن عند سلطنتهم، مما ساعد على تدخل الأمراء، والاستبداد بالسلطنة، وازدياد المنافسة فيما بينهم، وكذلك ازدياد نفوذ المماليك البرجية، أو الجراكسة[1] بشكل كبير ، وتدخلهم في شؤون الحكم، وكذلك سوء الأوضاع بشكل عام داخل وخارج البلاد[2]، وهكذا خلع المنصور محمد سنة (764هـ/1362م)[3].

ب- الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد: وتولى السلطنة الأشرف شعبان بن حسن ابن الناصر محمد ولم يتجاوز العاشرة من عمره، وحدثت في عهده فتن عديدة، منها: الهجوم الغادر الذي شنه الصليبيون على الإسكندرية بقيادة ملك قبرص لوزجنان سنة (767هـ/1365م)[4]، مستغلين سوء أوضاع البلاد، وصغر سن السلطان ، فنهبوا الإسكندرية، وأحرقوها، وبقوا فيها ثلاثة أيام، ثم هربوا محملين بالبضائع التي سرقوها والأسرى، عندما علموا بقدوم الجيش المملوكي، وفي سنة (778هـ/1376م) قتل السلطان الأشرف شعبان[5].

ج- المنصور علي بن الأشرف شعبان: وجاء من بعد أبيه، والذي بقي إلى وفاته سنة (783هـ/1381م) [6].

---

(1) سمي هؤلاء بالجراكسة أو الشراكسة نسبة إلى بلادهم، وهي بعض بلاد الكرج (جورجيا) بين بحر قزوين والبحر الأسود . القلقشندي، صبح الأعشى، (ج502/3)؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي (ج200/5)؛ طرخان، مصر، (ص8).

(2) القرماني، أخبار الدول، (ص204)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص134).

(3) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج3/11)؛ القرماني، أخبار الدول، (ص204).

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج502/3)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص137)؛ نهايم، دائرة المعارف الإسلامية، (ج299/13).

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج502/3)؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج24/11).

(6) ابن خلدون، العبر، (ج463/5)؛ القلقشندي، صبح، (ج503/3).

د- الصالح زين الدين حاجي بن الأشرف شعبان([1])**:** تسلم السلطة من بعد أخيه المنصور علي، وانحلت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، وخلع الصالح حاجي باتفاق الأمراء سنة (784هـ/1382م)، وتسلم السلطة الظاهر برقوق الجركسي، وبذلك أسدل الستار على عهد دولة المماليك البحرية، وبدأ عهد دولة المماليك البرجية، أو الجراكسة([2])، وانتهى حكم بني قلاوون الذي استمر حوالي 106 سنوات ، وبنهاية أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) ينتهي عهد المماليك البحرية، ويبدأ عهد المماليك الجراكسة [البرجية] سنة (784هـ/1382م)([3]).

([1]) ابن خلدون، العبر، (ج5/471)؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج11/206).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج3/503)؛ العصامي، سمط النجوم، (ج4/29).

([3]) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، (ج11/206)؛ شاكر، التاريخ الإسلامي، (ج7/38)؛ سرور، دولة، (ص55-66)؛ حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، (وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص)، (ص135).

الفصل الأول

الأسباب الإيمانية لنصر وتمكين الدولة المملوكية في عهد أسرة قلاوون

(678هـ–783هـ/1279م–1382م)

المبحث الأول: التربية الدينية لأسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م).

استطاعت سلاطين أسرة قلاوون توحيد البلاد، وتحقيق الاستقرار السياسي، والاقتصادي في البلاد عبر قرن من الزمن، وذلك من سنة (678-784هـ/1279-1382م)([1])، وكان من نتيجة ذلك: التطور، والازدهار في المجالات الاقتصادية المختلفة، فقد رعى سلاطين أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) الزراعة([2]). كما ازدهرت الصناعة في عهدهم، وكان للتجارة الحصة الأكبر من الاهتمام لدى أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)([3]). وإذا كانت هذه العائلة قد حوت الكثير من الرجال، غير أن الشهرة لم تنل الجميع، فلم يحظ بالمجد إلا ثلاثة منهم، وهم: المنصور سيف الدين قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد بن قلاوون؛ حيث كان الوازع الديني شغلهم الشاغل لتحقيق النصر، والتمكين في الدولة المملوكية. ومن مظاهر التربية الدينية لأسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ولهؤلاء السلاطين والملوك ما يلي:

أ- التربية على الجهاد، ومقاتلة الأعداء: فقد حث الدين الإسلامي على الجهاد في سبيل الله، فهو عبادة من العبادات العظيمة التي يتعبد لله تعالى بها، ويعد من لوازم القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإبلاغ التوحيد للناس، وإزالة ما يضاده من الشرك. فما أعظمه وأشرفه من عبادة؛ حيث لا ينحصر نفعها على القائم بها؛ ولكنها تتعداه إلى الناس بهدايتهم إلى الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وإنقاذهم بإذنه تعالى من الشر، والشقاء في الدنيا والآخرة. وذلك في قوله تعالى: " قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"([4]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج520/1)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج30/3-4)؛ عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، (ص190).

([2]) النويري، نهاية الأرب، (ج30/3-4)؛ قاسم، النيل والمجتمع المصري، (ص23).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج520/1)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص337-343)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص299-307).

([4]) التوبة: 24.

وقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنه مائه درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض"([1]) .

ومن مظاهر تربية أسرة قلاوون على الجهاد في سبيل الله:

1- اكتساب السلطان المنصور قلاوون خبرة مقاتلة الأعداء والجهاد من الظاهر بيبرس:

في ظل قدوم السلطان بيبرس على الحكم، أصبح قلاوون فيما بعد الساعد الأيمن له طوال حكمه، وحكم أولاده على مدى 20 عامًا من سنة (658-678هـ/1260-1279م)([2]).

وسنتناول جهاد السلطان قلاوون وأسرته بالتفصيل في الفصل الرابع.

2- تربية أولاد المنصور قلاوون على الجهاد في سبيل الله: كان السلطان قلاوون يعتمد في تربيته الجهادية لأولاده على أسلوب القدوة، لقوله تعالى: " لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"([3])، حيث كان يستخلف ولديه الصالح علي، والأشرف خليل في قلعة الجبل([4]). وكان يترك السلطنة تحت تصرفهما([5])، وكان يراسلهما من الشام بالبشائر عند الفتح([6])، وكانا يشاركان والدهما في المعاهدات السياسية، وتوقيعها، ويقسمان مثل: أبيهما عند حلف اليمين([7]). وكان يستخدم السلطان أسلوب الترغيب والترهيب في تربيته الجهادية لأولاده، وذلك لقوله تعالى: " فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى "([8]).

([1]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 2790، (ج16/4).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج520/1)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج30/3-4).

([3]) الأحزاب: 21.

([4]) القلقشندي، صبح، (ج368/3).

([5]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص122)؛ ابن خلدون، تاريخ، (مج868/10).

([6]) ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج96/1)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص18).

([7]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص98، 163)؛ المقريزي، السلوك، (ج198/2).

([8]) النازعات: 37-41.

فقد ربى السلطان قلاوون أولاده على التوحيد الخالص لله تعالى، وذلك لقوله تعالى:

" **وَمَا أُمِرُوا** إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ"(**[1]**)، ورباهم على حسن الصلة بالله، وتربيتهم على التعرف على الله عز وجل، وعلى التقوى، وتربيتهم على الشجاعة والإقدام، فقد ولد الناصر محمد، فاستبشر والده بولادته، حيث كان أبوه يحارب الصليبيين في بلاد الشام، وتم له الاستيلاء على حصن المرقب([2])؛ وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره؛ لكن ذلك لم يمنعه من أن ينشأ في بيت الملك، والعز محاطًا بالأمراء، والنواب، والحرس، كما أنه حظي بعطف، وحنان، ورعاية أخية الملك الأشرف خليل؛ الذي ورث عن أبيه قلاوون عنايته بأمر المماليك، وتثقيفهم، وتنشئتهم نشأة دينية ، فاتبع في تعليمه نفس منهج السلاطين في تثقيف مماليكهم: فحفظ القرءان الكريم، وتأدب بآداب الشريعة، وداوم على الصلاة، كما تعلم الخط([3]).

ويرى الباحث أن الناصر محمد نشأ نشأة قوية، بالرغم من بُعد أبيه السلطان المنصور قلاوون عنه، فهو نشأ في بيت مُلك، وكان الأمراء محاطين به، يقدمون له كل المساعدة، وخاصة أخوه الأشرف، حيث أشرف على تربيته، فحفظ القرءان الكريم، وتأدب بآداب الشريعة الإسلامية، وتلقب بعدة ألقاب، واعتلى عرش الملك ثلاث مرات، في الأولى كانت في سنة 693-694هـ/1293م-1294م، وفي المرة الثانية سنة(698-708هـ/1298-1308م)، وفي المرة الثالثة كان في سنة (709-741هـ/1309-1341م)، وكانت المرة الثالثة الحاسمة من حكمه، قضى على مناوئيه، وكانت له معارك حاسمة ضد الصليبيين، والمغول، وخلفه أبناؤه في الحكم، ثم أحفاده.

ب- وصف المؤرخين والفقهاء لهؤلاء السلاطين بصفات إسلامية، تدل على تربيتهم الإسلامية، وأخلاقهم العالية: فقد تمثل سلاطين أسرة قلاوون بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم احتوت صفاته، وشمائله أخلاق الإسلام جميعها، فمن ذلك: قوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"(**[4]**). فليس أحد من الخلق أحق أن يُقتدى به، وأن يتشرف الإنسان بسلوك

([1]) البينة: 5 .

([2]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج243/3)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج408/8).

([3]) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، (ج22/4)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج243/3).

([4]) الأحزاب: 21.

مسلكه من محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم. وقد مدحه رب العالمين بقوله: " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"([1]).

1- الحلم، والعفاف، وكرههم أذى المسلمين: ولعلَّ من أبلغ هذه الأوصاف ما قاله بيبرس المنصوري عن السلطان المنصور قلاوون: كان حليمًا عفيفًا في سفك الدماء، مقتصدًا في العقاب، كارهًا للأذى، منطلقا من قوله تعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" ([2]).

" غير أن قلاوون لم يَسْلَمْ من اعتراض كبار أمراء المماليك على تولِّيه الحُكم، وكان بعضهم يرى نفسه أحقَّ بالسلطنة منه؛ فَهُمْ على درجات متقاربة من القوَّة والنفوذ، لكنَّ قلاوون نجح - بالقوَّة أحيانًا وبالسياسة أحيانًا أخرى- في أن يُمسك بزمام الأمور، ويقضي على الثورات التي قامت في وجهه([3]).

2- الرفق واللين، ورفع الظلم عن الناس: ونجح قلاوون في استمالة قلوب الناس إليه؛ لرأفته ولينه، وميله إلى رفع ما يزيد من معاناتهم، وذلك لقوله تعالى : "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ"([4]).

"فألغى السلطان المنصور قلاوون كثيرًا من الضرائب التي كانت تُفرض على الناس، وأبطل كثيرًا من المظالم التي عانى الشعب منها، وكان أولاده يتميزون بالرفق واللين، وحتى أولاد الناصر محمد وأحفاده، ففي ترجمة الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد: قال ابن تغري بردي: " وكان الملك الأشرف ملكًا جليلًا، شجاعًا، مهاباً، كريمًا، لينًا هينًا، محببًا للرعية. قيل: إنه لم يكن في الدولة التركية أحلم منه، ولا أحسن منه خُلُقًا، وخَلْقًا. وكان محبًا للعلماء، والفقهاء، وأهل الخير، مقتديًا بالأمور الشرعية، أبطل عدة مكوس في سلطنته، وكان له محاسن كثيرة، وكانت أيامه بهجة، وأحوال الناس في أيامه هادئة مطمئنة، والخيرات كثيرة، ومشي سوق أرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفن"([5]).

([1]) القلم: 4.

([2]) الأحزاب:58.

([3]) المنصوري، مختار، (ص71).

([4]) آل عمران: 159.

([5]) ابن كثير، البداية، (ج564/17-565)؛ المقريزي، السلوك، (ج2 /133).

3- **الشجاعة والوقار وحسن الصورة:** ووصف ابن كثير المنصور قلاوون: "كان حسن الصورة مهيبا، عليه أبهة السلطنة، ومهابة الملك، تام القامة، حسن اللحية، عالي الهمة، شجاعًا، وقورًا"([1]). وعن السلطان الأشرف صلاح الدين بن قلاوون: قيل كان شجاعًا مقدامًا جسورًا مخوف السطوة، قوي البطش، وكان ضخمًا سمينًا كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية([2])، وقيل على صورته رونق الحسن وهيبة السلطنة، يملأ العين ويرجف القلب([3])، وكان إلى جوده وبذله الأموال تخافه الملوك في أقطارها([4]). وفي وصف المؤرخين المعاصرين للناصر محمد بن قلاوون، أو ممن جاؤوا بعده، فقد ورث الناصر محمد عن أبيه صفات: الحزم، والعزم، والشهامة، والفروسية، والإقدام، وغيرها من الصفات([5]). فظهرت صورته واضحة جليلة في صفاته، وأخلاقه، وأعماله، ورسمت صورته الإيجابية والسلبية من خلال تأريخ الأحداث السياسية، والاجتماعية في عصره([6])، فمنهم من رأى فيه: ملكًا مهيبًا، لم ير الناس مثل: أيامه في الخصب، والرخاء، ومنهم من وصفه: "بناصر الدين"([7])، ومنهم من وجده: مؤيدًا من الله تعالى، أقام بسيفه علم الإسلام، ورفعه، وقهر الكفر، والطغيان([8])، وتشدد في حدود الدين في مناسبات كثيرة، وتتبع المنكرات بالقاهرة، وغيرها، وعاقب مرتكبيها بصرامة، وقوة، وكان يكره شرب الخمر، ويعاقب عليه، ويبعد من شربه من الأمراء عنه([9]).

أما عن أولاد الناصر محمد، وصف الصفدي الملك آنوك: رأيته غير مرة، وهو تام الشكل، حسن الوجه، مستديره، تركي العين، مجذوبها أبيض رابيا، وكان أخوه الناصر أحمد،

([1]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/373).

([2]) الذهبي، تاريخ الإسلام، (حوادث: 690-700هـ)، (ص181)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج5/272)؛ النجوم الزاهرة، (ج8/17).

([3]) الصفدي، الوافي، (ج13/399)؛ المقريزي، المقفى، (ج3/508)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج8/17).

([4]) الكتبي، فوات الوفيات، (ج1/ 406).

([5]) البرزالي، المقتفى، (ج1/273)؛ ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر، (ج8/307).

([6]) الدواداري، كنز الدرر، (ج8/49).

([7]) الصفدي، أعيان العصر، (ج5/73-75).

([8]) اليوسفي، نزهة الناظر، (ص404).

([9]) المقريزي، السلوك، (ج3/311)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/174).

والمنصور أبو بكر، وإبراهيم أكبر سنا منه، وهو وحده أمير مائة مقدم ألف، والباقون أمراء أربعين، وكان يحمل رنك جده المنصور ([1]).

وكان سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد شابًّا وسيمًا، فيه سمرة، وهيف قوام في نحو العشرين من عمره([2]). ووصف الناصر شهاب الدين أحمد بالهيبة والوقار، فقد وصفه ابن تغرى: بأنه كان " أحسن إخوته وجهًا وشكلًا، وكان صاحب لحية كبيرة، شعر غزير، وكان ضخمًا، شجاعًا، صاحب بأس، وقوة مفرطة، وعنده شهامة..."([3])، كما نقش اسمه، وألقابه على نقوده كالأتى:"السلطان الملك الناصر شهاب الدنيا والدين". كما نقش عليها لقب أبيه:"الملك الناصر"([4]).

4- حب اللغة العربية، الصدقة، والإنفاق، وقراءة القرءان، والصحيحين، والدعاء: أثبت المؤرخون أن الأشرف كانت يتكلم اللغة العربية بطلاقة، حتى فاقت معرفة والده المنصور قلاوون بها([5])، وحاول كثيرًا أن يثير حماسة الناس دينيًا، خاصة عند الفتوحات، وكان يزور قبر أبيه، ويوزع الصدقات على الفقراء، والقراء، والمدرسين، ويدعو إلى قراءة القرءان الكريم، والصحيحين: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والتقرب إلى الله بالدعاء للمسلمين بالنصر([6]).

وقد ظهرت على نقود السلطان الأشرف ألقاب جديدة لم ينقشها المماليك على نقودهم من قبل، مثل "ناصر الملة المحمدية" و"محيي الدولة العباسية، ونُقشت ألقاب وأسماء الأشرف على نقوده كالتالي: "السلطان الملك الأشرف صلاح الدين ناصر الملة المحمدية محيي الدولة العباسية"، "السلطان الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين"، "الملك الأشرف

([1]) الوافي بالوفيات، (ج9/245). وانظر: المقريزي، السلوك، (ج3/48)؛ ابن حجر، الدرر، (ج1/497-498)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج3/108-111).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج3/322).

([3]) المنهل الصافي، (ج1/292-298) .

([4]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج1/292-298)؛ مهدي، مماليك مصر والشام، (ص122).

([5]) كان السلطان قلاوون منعجم اللّسان، لا يكاد يفصح بالعربية؛ وذلك لأنّه أُتي بْه من التُّرك وهو كبير. ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ج1/101)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/217)؛ القرماني، أخبار الدول، (مج2/274).

([6]) ابن عبد الظاهر، الألطاف الخفية، (ج3/62)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص16-17).

صلاح الدنيا والدين". وظهر لقب أبيه المنصور قلاوون على نقود الأشرف كالتالي: "مولانا السلطان الملك المنصور، ويُقصد بأمير المؤمنين الخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة([1]).

ويصور الصفدي السلطان الناصر محمد بالقول: كان محبًا للعمارة، باذلًا الأموال الكثيرة في البناء، والتعمير حتى بلغت النفقات في العمارة كل يوم ألفي درهم([2])، فقد أقيمت في عهده الكثير من المنشآت، مثل: المساجد، والقناطر، والجسور، والحمامات، والقصور، وغيرها([3]). وكانت علاقة السلطان مع الرعية جيدة حسنة؛ حيث يظهر في صفحات التاريخ، حب الناس له، واحترامهم إياه، والوقوف إلى جانبه في محنه ضد أعدائه، فقد وجدوا فيه مخَّلصًا، خاصة في بداية حكمه([4]). وعُرف سيف الدين أبو بكر ابن الناصر محمد عند العامة بالكرم، والمودة، وشدة الطموح، ثم أسعد العامة بقرار إعادة التعامل بالفضة، إلى جانب التعامل بالذهب بسعر الله، وعبارة "بسعر الله" كانت تعنى ترك الدولة تسعير الذهب، والفضة حرا([5])، وكان والده الناصر محمد قد منع التعامل بالفضة؛ لأسباب مالية، على الرغم من أن مصر لم تواجه تحديات خارجية ذات أهمية في فترة حكم السلطان سيف الدين أبو بكر، وقد أحزن خلعه، ثم موته الناس حزنا شديدا، في عهده أعيد التعامل بالفضة إلى جوار الذهب([6]).

وقد نقشت الأسماء، والألقاب التالية على نقوده: " السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين ". كما نقش عليها لقب أبيه " الملك الناصر([7]). وكان الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد كما قال ابن إياس: كان خيار أولاد الملك الناصر محمد، له برّ، ومعروف على جهات الخير. استمر إلى أن توفي عن نحو عشرين سنة، بالقاهرة في (4 ربيع الآخر سنة 764هـ/ 1345م)([8]). نقش اسمه وألقابه على نقوده كالآتى : " السلطان الملك الصالح عماد الدنيا

([1]) الكتبي، فوات الوفيات، (ج1/ 406)؛ مهدي، مماليك، (ص97).

([2]) أعيان العصر، (ج98/5).

([3]) ذكر كل من ابن تغري بردي والمقريزي منشآت الملك الناصر محمد بن قلاوون وإصلاحاته بالتفصيل، النجوم الزاهرة، (ج178/9)؛ وانظر: المقريزي، السلوك، (ج3/ 314).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج314/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج178/9).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج322/3)؛ مهدي، مماليك مصر والشام، (ص119).

([6]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج3/10–10) .

([7]) المقريزي، السلوك، (ج346/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج3/10–10).

([8]) ابن خلدون، العبر، (ج445/5)؛ القلقشندي، صبح، (ج501/3)؛ العصامي، سمط النجوم، (ج23/4).

الدين إسماعيل بن الملك قلاون " و" السلطان الملك الصالح عماد الدنيا والدين بن محمد " و" الملك الصالح " و" الملك الصالح إسماعيل " و" السلطان الملك الصالح ". كما نقش عليها لقب أبيه :" الملك الناصر"([1]).

5- البعد عن الفحش، والتواضع ، والذكاء، والشورى، والبر: فقد كان الناصر محمد شديد الحشمة، ورياسة النفس، وسياسة الأمر، فلم يضبط أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدة غضبه، ولا في انبساطه، وتمثل ذلك في قوله تعالى: "لاَّيُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مِن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً * إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْتَعْفُوا عَن سُوء فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً"([2]) ، وكان يقتصد في لباسه، كان مفرط الذكاء، يعرف جميع مماليك أبيه، وأولادهم بأسمائهم، ويعرف بهم الأمراء، فيتعجبون([3])، كان لا يستبد بالأمور، ولا ينفرد بالأحكام، إلا بمشورة أهل الفقه والحديث، كان كريمًا([4])، ويضيف ابن حجر العسقلاني :" كان ذا دهاء وصبر وحزم ومكر وطويل الصبر على مايكره..."([5]).

ويبين ابن تيمية سبب تأييد الله سبحانه وتعالى للسلطان الناصر محمد، أن نصره على أهل الشرك، والطغيان، وتقواه، وإقامته حدود الشرع، حتى قُرن عهده بعهد الخلفاء الراشدين، فيقول فيه: "وذلك: أن السلطان – أتمَّ اللهُ نعمتهُ – حصَّلَ للأمة بيمُن ولايته، وحُسن نيته، وصحة إسلامه، وعقيدته، وبركة إيمانه، ومعرفته، وفضل همته، وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين، وشرعته، ونتيجة اتباعه كتاب الله، وحكمته ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين"([6]). وفي ترجمة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، حيث قيل: " كان كريم النفس، بارًا لأهله، وأقاربه، يميل إلى فعل الخيرات، والصدقات، وكان له همة عالية، ومعرفة تامة، وله مآثر بمكة المشرفة، وعمَّرَ بها أماكن، واسمه مكتوب في الجانب الشرقي، وعمل في زمانه باب الكعبة؛ الذي هو بابها الآن، وكسا الكعبة الكسوة التي

([1]) العصامي، سمط النجوم، (ج23/4)؛ مهدي، مماليك مصر والشام، (ص124، 298-299).

([2]) النساء: 148-149.

([3]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج133/9).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج314/3)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج134/9).

([5]) الدرر الكامنة، (ج148/4).

([6]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (ج399/28).

هي اليوم في باطنها، وكان كثير البر لأهل مكة"([1]). وذكر ابن تغري بردي أيضا في ترجمته للناصر حسن([2]): أنه أمَّر من أولاد الناس جماعة كثيرة، وكان غالب نواب القلاع بالبلاد الشامية في زمانه أولاد الناس، وكان في زمانه من أولاد الناس ثمانية من مقدمي الألوف بالديار المصرية([3])، ثم أنعم على ولديه بتقدمتي ألف، فصارت الجملة عشرة، ولامه بعض خواصه في تقدمة أولاد الناس على المماليك؛ فقال: والله لا لمحبة فيهم أقدمهم؛ لكن أفعل ذلك مصلحةً لي، وللرعية، وللبلاد، فأما مصلحتي، فإنهم لا يخرجون عن طاعتي، ومتى أرادوا ذلك نهاهم أقاربهم، وحواشيهم عن ذلك؛ خوفًا على أملاكهم، وأرزاقهم، بخلاف المماليك؛ فإنهم لا رأس مال لهم في مملكة من الممالك، وأما للرعية، فإن عندهم شبع نفس، وعدم طمع، وأيضًا خوفًا مني لا يظلمون أحدًا. وللبلاد فلا شك أنهم أعرف بالأحكام، والسياسة، والأخذ بخواطر الرعية من المماليك"([4]). ويرى الباحث أن الأسباب وراء تمكين دولة أسرة قلاوون أسباب إيمانية، وتمثلت: في التربية الدينية لأسرة قلاوون، التربية على الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة الأعداء، واهتمام سلاطين أسرة قلاوون بالجيش وإعداده، وتجهيزه بالمعدات العسكرية؛ لقوله تعالى: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"([5])، وكان هذا العامل من العوامل الحاسمة في التصدي للصليبيين، حيث بفضل روح الجهاد، والتربية الإيمانية تم القضاء على الصليبيين، والمغول.

أيضا تسمية سلاطين أسرة قلاوون بأسماء وألقاب تدل على حرصهم على الدين الإسلامي، ويتضح تربية سلاطين أسرة قلاوون على التربية الإسلامية من خلال وصف المؤرخين الذين كتبوا عنهم، والفقهاء في عصرهم بصفات إسلامية.

([1]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج5/125-128).

([2]) المرجع السابق، (ج5/127).

([3]) أما الثمانية، فهم: الأمير عمر بن أرغون النائب، وأسنبغا بن الأبو بكري، والأمير محمد بن طوغان، ومحمد بن بهادر رأس نوبة، ومحمد بن المحسني، وموسى بن أرقطاي، وأحمد بن آل ملك، وموسى ابن الأزكشي. وجعل ابن القشتمري نائب حلب. وابن صبيح نائب صفد. وكان قد جعل نائب دمشق أمير على الماريديني، ثم عزله. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج5/127).

([4]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج5/127).

([5]) الأنفال: 60.

المبحث الثاني: التنمية الأخلاقية للمجتمع المملوكي.

أ- الأخلاق في الإسلام:

إذا أردنا أن نعرف الأخلاق في الإسلام فلابد لنا من تعريفه قرآنيّا، فكما قال محمد قطب في مفهوم الأخلاق : " شيء شامل كل تصرفات الإنسان، وكل مشاعره، وكل تفكيره ... ولا يوجد في الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق "([1]).

وبذلك فإن الأخلاق هي : السلوك الذي تعبد الله به عباده المؤمنين . ولا تكون الأخلاق إلا منبثقة عن قواعد وضوابط تشكل في مجموعها عقيدة معينة . وعلى ذلك فالعقيدة الإسلامية هي المصدر الأساسي، والذي تنبع منه الأخلاق، فلا قيمة للأخلاق بدون عقيدة راسخة مستقرة في القلب، لتكون حافزاً للسلوك الكريم، والخلق الفاضل . وعلى هذا الأساس فإن الأخلاق في عمومها تشمل كافة التصرفات التي يقوم بها العبد . وهي بذلك قد تكون فاضلة حسنة مثل: الصدق، الصبر، علو الهمة، السخاء، الحياء، الاستعلاء، إكرام الضيف، والجار. وقد تكون سيئة فاسدة مثل : الغش والخداع، والرياء، والنفاق، والشح، والكذب، والزور، وإيذاء الناس، وغير ذلك([2]).

ب- مظاهر التنمية الأخلاقية في أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م):

أ-توصية المنصور قلاوون لابنه علي بالسلطنة بوصايا أخلاقية عند ذهابه لمقارعة المغول، تنم عن التربية الدينية، والأخلاقية، حيث ازداد تهديدهم لبلاد الشام: ومما أوصى المنصور قلاوون ابنه: " فاتق الله كأنك تراه، وانصر الشرع، واقض بالعدل، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، وأقم الحدود، وجند الجنود، وابعثها برا، وبحرا من الغزو إلى كل مقام محمود، وأمراء الإسلام الأكابر ضاعف لهم الحرمة والإحسان، وشاورهم في الأمر، وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان، فوال إليهم الامتنان، والبلاد وأهلها فهم عندك وديعة، فاجعل أوامرك لهم بصيرة وسميعة..." ([3]).

([1]) الغزالي، إحياء عوم الدين، (ج53/3)؛ قطب، دراسات قرآنية، (ص136-139).

([2]) الغزالي، إحياء عوم الدين، (ج53/3)؛ عبد العزيز، دراسات في الثقافة الإسلامية، (ص353).

([3]) الغزالي، إحياء عوم الدين، (ج53/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص26).

ب- حرص قلاوون وأولاده على الجلوس للقضاء، لتحقيق العدل بين الناس:

حرص سلاطين المماليك على الجلوس للقضاء، وتحقيق العدل بين الناس ، وتمثل ذلك في عدة آيات من القرآن الكريم ، منها: قوله تعالى: " إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا"([1])، وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّـهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"([2]). وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا"([3]) .

وتمثل العدل عند سلاطين أسرة قلاوون في أمور عدة، من ذلك:

1- كان الأشرف خليل بن قلاوون يحب العدل، ورفع المظالم عن الناس، فكان يجلس بدار العدل([4])، لمن له حاجة، أو مصلحة، ويجلس معه نائبه ووزيره([5]).

2-إعلان الناصر محمد بن قلاوون في (جمادي الأولى 711هـ/ سبتمبر 1311م) أنه سوف يداوم على الحضور إلى "دار العدل"([6]) كل يوم اثنين للنظر في شكاوي الرعية([7])، ويضيف

([1]) النساء: 58.

([2]) المائدة:8.

([3]) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: 1827، (ج3/ 1458) .

([4]) دار العدل: بناها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، عام (661هـ/1262م)، وصار يجلس بها لعرض العساكر، وذلك كل يوم اثنين وخميس، واستجدها المنصور قلاوون. المقريزي، الخطط، (ج33/3).

([5]) ابن عبد الظاهر، الألطاف الخفية، (ج45/3)؛ البرزالي، المقتفى، (ج237/1).

([6]) دار العدل: كان الناصر محمد يستقبل في دار العدل رسل الملوك والسفارات المختلفة، وكانت هيئة الجلوس فيه تضم السلطان وكبار رجال الدولة والقضاة للنظر في مختلف الأمور الشائكة، حيث كان كاتب السر يقرأ القضايا للسلطان فيبت فيها بعد التشاور مع ناظر الجيش، وقضاة المذاهب الأربعة، وقاضي العسكر. المقريزي، المواعظ والاعتبار، (ج358/3-364).

([7]) ابن بطوطة، رحلة، (ج217/1)؛ المقريزي، السلوك، (ج469/2).

ابن بطوطة وكل يوم خميس أيضاً([1]). وفي الحقيقة لقد اقتصر تصدي الناصر محمد لسماع المظالم والشكاوي بحضور القضاة الأربعة على يوم الاثنين فقط، أما يوم الخميس فلا يعرض شيء من هذا القبيل، ولا يحضر أحد من القضاة، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك([2])، واستمر الناصر محمد على عادته هذه في الجلوس في "دار العدل" يومي الاثنين والخميس طوال العام، فيما عدا شهر رمضان([3])، ويبدو أن جلوس السلطان في "دار العدل" يوم الخميس كان من أجل بعض الأمور الأخرى في الحكم والدولة " لسماع القصص، ولا يحضره أحدًا من القضاة ولا الموقعين ولا كاتب الجيش"([4]). وكان نظام الجلوس في "دار العدل" أن يجلس السلطان الناصر محمد في صدر القاعة، ويجلس قضاة القضاة الأربعة عن يساره، بحيث يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي قضاة الشافعية، ثم قاضي قضاة الحنفية، ثم قاضي قضاة المالكية، ثم قاضي قضاة الحنابلة؛ ولكن بعد وفاة قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري، جعل الناصر محمد مكانه مما يلي قاضي قضاة المالكية، على أساس أن العادة كانت هكذا من قبل، وتم تنفيذ أمر الناصر محمد، واستمر يجلس مع كبار القضاة الأربعة؛ للنظر في مظالم الرعية كل يوم اثنين([5]). أما القلقشندي، فيذكر أن السلطان في جلوسه "بدار العدل" كان يجلس على الكرسي الموضوع تحت سرير الملك، ويجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم وكيل بيت المال([6])، ثم الناظر في الحسبة([7]).

([1]) ابن بطوطة، رحلة، (ج217/1)؛ المقريزي، الخطط، (ج358/3).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج359/3)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج127/2).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج45/4)؛ المقريزي، الخطط، ، (ج365/3).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج365/3)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج127/2).

([5]) ابن بطوطة، رحلة، (ص217-218)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج46/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج469/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج359/3).

([6]) وكيل بيت المال: من حقه ألا يبيع من أملاك بيت المال ما المصلحة في بقائه، ولا يبيع إلا عند الحاجة، مثل: البيع على اليتامى، وقد انتشرت عادة بين وكلاء بيت المال خلال هذه الحقبة بالبيع من الشارع ما يفضل عن حاجة المسلمين. السبكي، معيد النعم، (ص65)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج97/11).

([7]) "ناظر الحسبة" أو المحتسب: عليه النظر في القوت، وكشف غمة المسلمين فيما تدعو إليه حاجتهم في ذلك، والاحتراز في المشروب، فواجبه التأكد من عدم بيع الخمور في الأسواق، وعدم بيع المحرم والمضر من الأطعمة. السبكي، معيد (ص65-66)؛ القلقشندي، صبح، (ج38/4)؛ (ج96/11-97).

ويجلس على يساره كاتب السر([1])، وأمامه ناظر الجيش([2])، وجماعة الموقعين تكملة حلقة دائرية([3]).

وكان السلطان حريصًا على أن ينظر في الشكاوي، والقضايا، بالتشاور مع القضاة كلما رأى في ذلك ضرورة([4]). إذن كان واجبًا على قاضي القضاة الأربعة، قاضي قضاة الشافعية، وقاضي قضاة الحنفية، وقاضي قضاة الحنابلة، وقاضي قضاة المالكية، الجلوس في دار العدل كل يوم اثنين؛ للنظر في القضايا التي تعرض([5]). أما عن طبيعة القضايا التي ينظر فيها الناصر محمد في "دار العدل"، فهي: تلك التي أعيت من دونه فصلها؛ أي ما استعصى على كبار القضاة البت فيها، واستلزم الأمر أن تعرض على السلطان شخصيًا للحكم فيها، وعلى ذلك يمكن القول: أن "دار العدل" هذه كانت بمثابة "محكمة العدل السلطانية"، أو "محكمة الاستئناف العليا " بالمفهوم المعاصر لليوم؛ للنظر في القضايا الشائكة والمؤجلة، وكان الرأي فيها جماعيًّا ويتم بتشاور السلطان مع قضاة المذاهب الأربعة، وكبار الإداريين، ولاشك أن تسمية هذا المجلس القضائي السلطاني "بدار العدل" يمثل: رغبة سلطانية في نشر العدل بين الرعية([6]). وجلوس الناصر في دار العدل؛ لسماع شكاوى الناس عامة، والقضاء فيها شخصيًّا، تعد لفتة

([1]) كاتب السر: وظيفته التوقيع عن السلطان، والاطلاع على أسراره التي يكاتب بها، وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل، ومن حقه عرض القصص على السلطان، وتفهيمه إياها حيث أن السلطان مشغول الفكر، كثير المشاغل، والمسئوليات، وأن يكون في نقله للقضايا واضح الكلام، لطيف العبارة، حتى يحكم فيها السلطان بالعدل. السبكي، معيد النعم، (ص30).

([2]) ناظر الجيش: من حقه النظر في حال الجند، وتجريد من يرى فيه المصلحة والكفاية والقدرة، وحرام عليه أن يجهز الفقير العاجز، أو أن يغري به السلطان؛ بل يجب أن يحميه من الضرر، وعليه توزيع التجريدات على حسب مصلحة المسلمين، فذلك جوهر واجبه، وأحيانًا يقترف مسئولو ديوان الجيش المظالم؛ ولكن ذلك مرفوض شرعًا.السبكي: معيد النعم، (ص32–34)؛ القلقشندي، صبح ،(ج31/4)؛ (ج92/11).

([3]) الموقعون: أي كتاب الرسائل والمكاتبات السلطانية، وعليهم الرفق بالرعية فيما يكتبونه، والتخفيف من التشديدات التي يؤمرون بكتابتها، ولا يسوغ الأمر بها، فإن لم يستطع فعليه ألا يبالغ في الأمر وزيادة الظلم، وعليه أن يكون حسن العبارة، واضح الكلمات، بسيط التعبير حتى يفهم الناس ما يكتب بسهولة. السبكي، معيد النعم، (ص31).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج46/4)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج127/2).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج469/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج359/3).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج359/3).

إنسانية، تنطوي على أصالة دينية، وأخلاقية، ودلالة أيضا على رغبة الناصر محمد في تقوية مركزه بين عامة الناس، إلى جانب أنها نوع من المكافأة للناس لمساندته في المحن([1]).

ج- رفع الظلم، ومعاقبة من ساءت أخلاقه، ووضع حماية على المظلومين:

وقد تحدث القرءان الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة عن الظلم والظالمين، ففي قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا"([2])، وقوله تعالى أيضًا: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ"([3])، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما رواه جابر بن عبد الله – رضي الله عنه- عن النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، أنَّه أمر باتّقاء الظُّلم وشبَّهه بالظُّلُمات التي ستحيط الظَّالم يوم القيامة؛ حيثُ قال صلى الله عليه وسلم : "اتَّقوا الظُّلمَ، فإنَّ الظُّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءَهم واستحلُّوا محارمَهم"([4]). وقد امتازت أسرة قلاوون بالقرب من الناس، والتخفيف من معاناتهم، من ذلك:

1- رفع السلطان قلاوون الظلم عن الناس، حيث كان يكره الظلم، ويحب التودد للناس([5]).

2- كان السلطان الناصر محمد يكره الرشوة، ومن يأخذها، فكان لا يرتشي، ويمقت من يرتشي، ويعاقبه أشد العقوبة([6])، وتمثل ذلك في قوله تعالى: "وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"([7])، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: " لعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الراشي والمرتشي"([8])، وتمثل ذلك في عدة مواقف:

([1]) المقريزي، السلوك، (ج103/2)، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج12/9-13).

([2]) النساء: 168.

([3]) يونس: 13.

([4]) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: 2578، (ج1996/4).

([5]) المنصوري، مختار، (ص71)؛ ابن كثير، البداية، (ج564/17-565)؛ المقريزي، السلوك، (ج2 /133).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج2 /391، 440)؛ الحجي، السلطان الناصر محمد، (ص31).

([7]) البقرة: 188.

([8]) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، رقم: 2211، (ج261/2).

1- في سنة 713هـ/1313م وصلت شكوى للسلطان محمد بن قلاوون من عامة الناس في مكة من ظلم أمرائها حميضة([1])، وأسد الدين رميثة، فاستشاط غضبًا، وأرسل لهم جيشًا كبيرًا لتأديبهم، إلا أنهم تمكنوا من الهرب خارج مكة؛ خوفًا من بطش السلطان المملوكي([2]). وفي أثناء وجود الناصر محمد في مكة، طلب منه سكانها، وتجارها أن يعين لهم عسكرًا وجندًا تقيم عندهم، وتحميهم من شر، وظلم حميضة بن أبي نمي، فأجاب طلبهم، وترك عندهم 100 فارس بقيادة الأمير شمس الدين آق سنقر(ت728هـ/1330م)([3])، وبعد انتهاء مهمته، وعودته للقاهرة، أرسل نيابة عنه الأمير سيف الدين الحاجب([4])، ومعه 100 فارس أيضًا([5])، مما ترك أعظم الأثر في نفوس الناس، وزاد حبهم للسلطان المملوكي، فانتشر العدل والتسامح بينهم([6]).

2- ومن المدينة أرسل للسلطان الناصر محمد المجاورون يستغيثون به من ظلم، وإيذاء أميرهم منصور بن جماز([7])، فكتب له السلطان الناصر محمد بالتوقف عن إيذاء الخدام، والمجاورين([8]).

3- في عهد السلطان محمد بن المنصور قلاوون: ومن شدة حرصه على تطبيق مبادئ الإسلام، وفرض السيطرة : ورد الخبر بإفساد العرب ببلاد الصعيد قطعهم الطريق، فاستدعي ظلظية متولي الشرقية، وخلع عليه، واستقر في كشف الوجه القبلي، فسار في تجمع كبير،

([1]) كان أمير مكة أربع مرات، منها مرتين شريكًا لأخيه رميثة، ومرتين حكم مكة مستقلًا، قتل في وادي بني شعبة سنة 720هـ/1322م، بعد مهاجمة أخيه عطيفة له. الصفدي، أعيان النصر، (ج303/2).

([2]) ابن فهد، اتحاف الورى، (ج150/3).

([3]) الفاسي، شفاء الغرام، (ج96/6)؛ ابن فهد، اتحاف الورى، (ج150/3).

([4]) سيف الدين بكتمر بن عبد الله الحاجب، كان بصحبة الناصر محمد أثناء عودته من الكرك إلى القاهرة، ثم ولي الوزارة، ونيابة صفد، وتوفى عام 738هـ/1399م. ابن تغري بردي، المنهل، (ج386/3-387،389).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج248/32).

([6]) النويري، نهاية الأرب، (ج248/32)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (77).

([7]) منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا، تولى الحكم لمدة 23 سنة و6 شهور، ثم مات مقتولًا على يد حديثة ابن أخيه قاسم بن جماز عام (725هـ/1326م)، وخلفه في إمرة المدينة المنورة ابنه بدر الدين كبيشة. المقريزي، الذهب المسبوك، (ج86/3)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (97).

([8]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ج86/3)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (77).

وأوقع بأهل الصعيد، وقتل كثيرا من العربان، ولم يراع أحدا من الأمراء في بلاده، فعظمت مهابته، وخاف كل أحد بادرته([1]).

4- وفي سنة (738هـ/1337م): عزل السلطان الناصر محمد قاضي القضاة جلال الدين محمد القزويني (666- 739هـ/1268- 1338م)([2])، بسبب ولده جمال الدين عبد الله، وما كان عليه من كثرة اللهو، والشره في المال، وأخذ الرشوة من القضاة، ونحوهم([3]). ومما قيل فيه أيضًا: أنه لم يول قاضيًا برشوة، ولا محتسب، ولا والٍ؛ بل كان يبذل لهم الأموال، ويحرضهم على عمل الحق، وتعظيم شرع الله سبحانه وتعالى([4]).

وقد يكون ذلك؛ لأنه كان يكره أخذ الرشوة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يرى في القضاة قدوة لغيرهم من الناس، خاصة في تطبيق أصول الشريعة الإسلامية، ولابد أن تكون القدوة مثالية في طيب الخلق، وحُسن السلوك، والتصرف([5]).

د- إلغاء جميع المكوس والضرائب من البلاد: ويكفي في تحريمها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المرأة التي رجمت: "لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له"([6]) ، فمن إصلاحات سلاطين أسرة قلاوون إلغاء المكوس والضرائب من بلاد الشام، ومصر، وتمثل ذلك:

1- أن السلطان قلاوون كان رؤوفًا، لينًا، وقد نجح قلاوون في استمالة قلوب الناس إليه؛ لرأفته ولينه، وميله إلى رفع ما يزيد من معاناتهم، فألغى كثيرًا من الضرائب التي كانت تُفرض على

([1]) المقريزي، السلوك، (ج145/3).

([2]) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعيّ، المعروف بخطيب دمشق. من أحفاد أبي دلف العجليّ: قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل. ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة (724هـ/1326م) فقضاء القضاة بمصر (سنة 727هـ/1339م) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة (738هـ/1337م)، ثم ولاه القضاء بها، فاستمر الى أن توفي (739هـ/1337م). ابن كثير، البداية والنهاية، (185/14)؛ خليفة، كشف الظنون، (473 و1009)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (318/9)؛ اليافعي، مرآة الجنان، (301/4)؛ ابن حجر، الدرر، (3/4).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج439/2-442)؛ الحجي، السلطان الناصر محمد، (ص31).

([4]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج175/9).

([5]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج175/9)؛ الحجي، السلطان الناصر محمد، (ص32).

([6]) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: 1695، (ج1323/3).

الناس، فكان أول مرسوم داخلي أصدره إبطال مرسوم الدولبة، وهذه الرسوم كانت تؤخذ في عصر الملك الظاهر على المشتغلين بالدولاب([1])؛ أي الآلات، والعجلات في الري، والغزل، والصناعة، فهي ضريبة تؤخذ على الآلات الصناعية، والزراعية، وهي مما يعرف بالرسوم العُرفية؛ أي التي لا أساس لها في الشرع([2])، كما أسقط ما كان يؤخذ بدون وجه حق، وهو ثلث زكاة الأموال، وثلث التركات، ودينار عن كل إنسان، وأعاد مصارف الزكاة إلى وجهها الشرعي الصحيح، وكان ريع ذلك يصل إلى أكثر من نصف مليون دينار في السنة، تفقدها الخزينة([3]).

2- وقد ارتبط اسم السلطان الأشرف خليل بن المنصور سيف الدين قلاوون بإسقاط المُكس([4])، الذي كان يؤخذ على باب الجابية بدمشق([5]).

فقد كتب مرسوم إلغاء مكس الجابية في دمشق، لأمير مكة ابن أبي نمى، حيث كان يؤخذ خمسة دراهم على كل حمل جمل من القمح، وكتب بين سطور المرسوم: " ولتكشف عن رعايانا هذه الظلامة، ويستجلب الدعاء لنا من الخاصة والعامة"([6]).

3- عمل الناصر محمد على رفع المظالم عن الناس؛ رحمة بهم، وبأحوالهم، وتمثل ذلك:

1- ففي سنة (715هـ/1315م) ألغى الناصر محمد أربعًا وعشرين ضريبة اجتماعية، بالرغم أن هذه الضرائب كانت مصدرًا من مصادر الدخل في الدولة([7])، من ذلك: مكس ساحل الغلة الذي عمل الناصر محمد على إلغائه؛ لينقذ الناس مما يعانونه من جراء دفع هذه الضريبة([8])،

([1]) المنصوري، مختار، (ص71)؛ ابن كثير، البداية، (ج17/564-565)؛ المقريزي، السلوك، (ج2 /133).

([2]) ابن الفرات، تاريخ الدول، (ج7/10)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص27).

([3]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص58).

([4]) المُكس: مفرد مكوس، وهي ضريبة كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق. ابن منظور، لسان العرب، (ج8/105)؛ البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، (ص325).

([5]) باب الجابية: أحد أبواب دمشق، ومنسوب لقرية الجابية، وكانت في القديم مدينة عظيمة، وكان لباب الجابية، وكانت في القديم مدينة عظيمة، وكان لباب الجابية ثلاثة أبواب صغيرة وكبيرة . ياقوت، معجم البلدان، (ج2/91)؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، (ق1/208-209).

([6]) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (ج8/166)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/247).

([7]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/44)؛ حجي، السلطان الناصر محمد، (ص35).

([8]) المقريزي، السلوك، (ج2/507).

وعلى ذلك نزل سعر القمح منذ لحظة إلغاء مكس ساحل الغلة([1])، ولاشك أن في هذا عونًا كبيرًا للفقراء من الشعب؛ لتدبر أمر معيشتهم([2])، وأبطل الناصر محمد العديد من المكوس في مصر، فأصبح الشعب المصري سعيدًا، وممتنًا للناصر، الذي أبطل هذه الضرائب، فأراح الناس من كثير من المظالم، التي كانت تنتهك حقهم([3]).

2- عندما زار السلطان الناصر محمد بن قلاوون مكة والمدينة حاجًّا؛ ألغى جميع المكوس التي كانت تؤخذ في بلاد الحرمين الشريفين، وأصدر أمره إلى أشراف مكة، والمدينة بعدم أخذها من الناس، وعوَّضهم عنها بإقطاعات في مصر والشام، كما أفاض في إرضاء الناس عن ما حدث، فأكثر من أفعال الخير، والإنفاق([4]). وجدير ذكره أنه ألغى أيضًا المكوس المفروض على المواد الغذائية في مكة، وعوض أميرها عطيفة بن أبي نمي([5])، بثلثي بلد دمامين([6]) في مصر؛ وذلك بعد أن اشتكى إليه الناس من شدة غلاء الطعام، فمثلًا: سعر إردب القمح ارتفع إلى 250 درهمًا، فتم إخبار السلطان بالقحط الذي أصاب أهل مكة والمدينة، وعدم نزول الأمطار، فأرسل لهم السلطان ألفي إردب من القمح، فتيسرت الأمور، وحُلت مشكلة الغلاء([7]).

ومن آثار إسقاط المكوس أن عم الرخاء على الحياة الاقتصادية في البلاد، فلما تم إسقاطه عن حجاج مصر والشام([8])، كثرت أعدادهم المتجهة للحج، وترتب عليه كثرة إنفاقهم

([1]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج44/9).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج507/2)؛ حجي، السلطان الناصر محمد، (ص35).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج154/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج50/9).

([4]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ج18/3-19)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج51/9).

([5]) عطيفة بن أبي نمي، حكم مكة شريكًا مع أخيه رميثة فترة طويلة، ثم استقل بها، وتوفى عام 743هـ/1342م في القبيبات خارج مدينة القاهرة. ابن تغري بردي، الدليل الشافي، (ج443/1).

([6]) دمامين: قرية كبيرة بالصعيد شرقي النيل على شاطئه فوق قوص، اشتهرت بزراعة الحنطة، وأغلب سكانها من أهل المغرب. ياقوت، معجم البلدان، (ج462/2)؛ الحميري، الروض المعطار، (ص237).

([7]) الفاسي، شفاء الغرام، (ج997/2)؛ الجزيري، درر الفرائد، (ج393/1).

([8]) ومما يثبت منعه أخذ المكوس من الحجاج أن ركب حجاج من العراق حجوا دون أن يأخذ منهم عرب البحرين أي مبلغ من المال بعد أن أبلغهم الحجاج بأنهم قدموا من العراق بأمر من الملك الناصر محمد، فلما سمع الملك بفعلتهم أغدق الأموال على عرب البحرين، وأنعم عليهم بالكثير من الأرزاق والخلع. النويري، نهاية الأرب، (ج256/32)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (78، 96).

على أنفسهم طوال موسم الحج، مثل: توفير المسكن، والمأكل، والمشرب، وأعمال الطوافة التي يتم تقديمها لهم بمقابل مادي، كما انتعشت الحياة التجارية، ونمت كثيرًا عندما أُبطلت المكوس عن التجار، ورخصت الأسعار، وكثرت البضائع، مما تسبب في توفير المستوى المعيشي الجيد([1]).

هـ- بذل أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) الإنفاق على البلاد ؛ مصر، والشام، وبلاد الحجاز: وتمثل البذل، والإنفاق في القرءان الكريم، والسنة النبوية الشريفة، من ذلك قوله تعالى: " وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"([2])، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها"([3]).

وقد اشتهرت أسرة قلاوون المملوكية بكثرة الجود والكرم على رَعِيَّتِهَا، ومن أمثلة ذلك:

1- اهتمام أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) بالوقف:

لم ترد كلمة وقف في القرءان الكريم، ولا في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ووردت في كتب الفقهاء، حيث روي عن عمر - رضي الله عنه - أنه "استفاد مالا نفيسا أي ملك ذلك، وكان يدعى ثمغا هو اسم تلك الضيعة التي ملكها، فأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه يحب أن يتصدق به فقال - عليه الصلاة والسلام - تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث؛ ولكن لينفق ثمرته، فتصدق به عمر - رضي الله عنه - في سبيل الله تعالى أي للغزاة، وفي الرقاب؛ أي المكاتبين، وفي الضيف، وفي المساكين، ولذي القربى؛ أي لأقربائه"، وكان فيه، ولا جناح على من وليه أي باشر أمره بنفسه، وتولاه أن يأكل منه

([1]) النويري، نهاية الأرب، (ج256/32)؛ القحطاني، تأثير الحج المصري، (ص99).

([2]) البقرة: 272.

([3]) (لا حسد) المراد حسد الغطبة، وهو أن يرى النعمة في غيره، فيتمناها لنفسه من غير أن تزول عن صاحبها، وهو جائز ومحمود. (فسلط على هلكته في الحق) تغلب على شح نفسه وأنفقه في وجوه الخير. (الحكمة) العلم الذي يمنع من الجهل ويزجر عن القبيح]. البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 73 ، (ج25/1)؛ مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: 268، (ج559/1).

بالمعروف بقدر حاجته من غير سرف، أو يؤكل صديقا له؛ أي يطعم صديقه أيضا، غير متمول فيه؛ أي غير جامع المال لنفسه من مال هذا الوقف؛ لكن له أن ينفق على نفسه إذا احتاج إليه، وما روي لا تجوز الصدقة، ويفهم مما سبق أن الوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته، ويستمر بقاؤها بعد مماته([1]).

فقد عُرف نظام الوقف منذ أيام الإسلام الأولى، وبلغ أوج انتشاره، وازدهاره في مصر تحت الحكم المملوكي، ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار الأوقاف، وانتشارها في العصر المملوكي: طبيعة الحياة الدينية في ذلك العصر، فقد شهد عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا يسترعي الانتباه؛ ذلك أن القاهرة أصبحت عاصمة الخلافة العباسية منذ سنة (659هـ/1261م)، وأصبحت مقصد المسلمين من المشرق والمغرب([2]).

فقد تربت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) تربية دينية، فنشأوا نشأة دينية محبة للعلم، وللدين، فلما كبروا تنبهوا للجانب الديني، ثم العلمي، فقد ارتبط الجانب الديني بالجانب العلمي بشكل مباشر، حيث كانت المؤسسات العلمية نفسها تدرس العلوم الشرعية، وسواها من العلوم، بحيث لم يكن بالإمكان فصل النشاط التعليمي عن النشاط الديني، وقد تنبه سلاطين المماليك البحرية لهذا الأمر، فعمدوا إلى تأسيس المؤسسات التعليمية، وعلى رأس هذه المؤسسات المساجد والمدارس والمستشفيات([3]).

وعلى ذلك فقد أوقفت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) أوقافا في إنشاء المساجد، والجوامع، والمدارس، وغير ذلك، وبلغ من خشية السلاطين على أوقافهم من عدم الاستمرار والبقاء، أنهم عملوا على الإكثار من الشهود على كتاب الوقف، واختارهم من كبار فقهاء الدولة، وعلمائها، ومن أكثر السلاطين الذين عملوا على الإكثار من الشهود السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان الهدف من ذلك إثبات الشرعية، والحرص على بقاء واستمرار الوقف([4])، ومن أمثلة ذلك:

([1]) النسفي، طلب الطلبة، (ص105)؛ الحجي، السلطان الناصر محمد، (ص45).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج1/580-582)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج3/447).

([3]) ابن أيبك الدويداري، كنز الدرر، (ج9/366)؛ ابن خلدون، العبر، (ج5/428)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص130)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص351)؛ الحجي، من مظاهر التعليم، (ص403).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج2/72)؛ المقريزي، الخطط، (ج2/401،89)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج9/17).

1- ففي عهد السلطان المنصور قلاوون تم بناء جامع السلطان قلاوون سنة (684هـ/1285م)، وقد جعل إلى بجانب هذا الجامع مستشفى، ومدرسة عظيمة([1]).

وبنى السلطان قلاوون القبة المنصورية التي كانت من أعظم المباني المملوكية، وأجلها قدرًا، وبها قبر المنصور قلاوون، وقبر ابنه الناصر محمد، وحفيده الصالح إسماعيل، وبها قاعة في وسطها فسقية يصل إليها الماء من فوارة، وهذه القاعة مفروشة بالرخام([2]).

وفي هذه القبة كانت دروس الفقه على المذاهب الأربعة، وفيها خمسون مقرءًا، وستة مؤذنين، وبها درس للتفسير، وآخر للحديث، ومعيد، وثلاثون طالبًا، وقد درس في هذه القبة الكثير من العلماء([3]).

وقد أوقف السلطان قلاوون على هذا الجامع الكثير من الأوقاف، وكانت وارداتها توزع على شكل رواتب، وجرايات، وكسوات، وغيرها للطلبة، والأساتذة([4]).

2- وقد أوقف السلطان الأشرف خليل لنفسه بناء يضم تربة ومدرسة، وقد بناها وهو أمير بين عامي(687هـ-688هـ/1288-1289م)([5]).

3- يقال أن الناصر محمد أنه عمَّر تسعة وثمانين جامعًا، وثلاثًا وسبعين مدرسة، وثلاثةً وثلاثين مسجدًا، وخمسًا وعشرين زاوية([6]).

([1]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج508/1).

([2]) الثعالبي، التحفة البهية، (ص13)، قراعة، مساجد، (ص165).

([3]) ومن الذين درسوا في هذه القبة، في التفسير: علم الدين عبد الكريم العراقي، وعز الدين عبد العزيز النمراوي، وأثير الدين أبو حيان الأندلسي، وفي الحديث درس: المحدث عبد المؤمن بن خلف الدمياطي وغيره، وفي الفقه الشافعي درس: علاء الدين علي الباجي، وغيره. الذهبي، المعجم، (267)؛ ابن كثير، المختصر، (ج142/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج380/2)؛ بدوي، الحياة، (ص51).

([4]) ابن كثير، المختصر، (ج142/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج380/2)؛ بدوي، الحياة، (ص51).

([5]) القلقشندي، مآثر الإنافة، (ج124/2)؛ ابن شاهين، زبدة، (ص31)؛ الكرمي، نزهة الناظرين، (ص182)؛ الشهابي، الغرر الحسان، (ج470/1)؛ مبارك، الخطط الجديدة، (ج3/6) .

([6]) المقريزي، الخطط، (ج244/2-331)؛ الحجي، السلطان محمد بن قلاوون، (ص71).

وبنـى وعمـر الناصـر محمـد اثنتـين وعشـرين خانقـاه([1])، واثنـين وعشـرين رباطًـا([2])، وخمس بيمارستانات([3]).

4- أنشأ السلطان الناصر محمد جامع القلعة، رتب فيه عشرين مؤذنًا ، وقدر فيه درس فقه([4])، وقارئًا يقرأ القرءان([5])، وأوقف عليه السلطان أوقافًا كثيرة تكفي مؤونة العاملين فيه([6]).

5- جامع السلطان حسن: وهو من الجوامع الضخمة في عهد المماليك البحرية، بالقرب من قلعة الجبل، بناه السلطان حسن بن الناصر محمد، وتوفى السلطان دون إكماله، وتم إكماله سنة (764هـ/1362م)([7])، ولا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع، وجعل السلطان فيه أربع مدارس للمذاهب الأربعة، وأوقف عليها أوقافًا كثيرة في مصر والشام([8]).

2- ومن صور البذل عند السلطان قلاوون كسب ود المسلمين في منطقة الحجاز، حيث بلغت أعطياته 20 ألف درهم سنويا مع تقديم الكسوة السنوية للكعبة([9]).

([1]) ومفردها خانقاة أو خانكاة، فهي كلمة فارسية الأصل معناها: البيت، وقيل أصلها خونقاة، أي الموقع الذي يأكل في الملك، وقد احتوت على عدد من الغرف المخصصة لمبيت الفقراء والصوفية، كانت تؤدي فيها الصلوات، وتقام فيها الأوراد والأذكار، وكان يعقد فيها دروساً في الفقه والأدب، وكانت تشتمل على خزائن للمصاحف والكتب. ابن واصل، مفرج، (ج3/187)؛ السبكي، طبقات، (ج7/318-120).

([2]) جمع رباط، وهو شبيه بالخوانقاة، وكانت مأوى يلجأ إليه العلماء والرحالة وطلبة العلم، الذين يتنقلون بين حواضر العالم الإسلامي، ويتلقون تعلمهم على أيدي المشايخ والعلماء. وكان العلماء يتخذون من الربط أماكن للمطالعة، والتاليف، وبخاصة في علم التصوف. المقريزي، الخطط، (ج2/427).

([3]) البيمارستان : كلمة فارسية معناها المستشفى وهي مؤلفة من كلمة (بي) ، ومعناها " بدون و(مار)، ومعناها "الحياة والحيوية "و(ستان)، ومعناها" مكان "، فمعنى الكلمة كلها : مكان للمرضى ، قال الجوهري في الصحاح: المارستان دار المرض . ابن واصل، مفرج، (ج5/55)؛ الجوهري، الصحاح، (ج3/978).

([4]) من الذين درسوا الفقه الشافعي بهاء الدين عبد الله بن عقيل، وغيره. المقريزي، الخطط، (ج2/212).

([5]) ابن كثير، المختصر، (ج14/40).

([6]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج3/176).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج4/123)؛ حجازي، موسوعة، (ج1/135)؛ حسن، مصر، (ص471) .

([8]) المقريزي، الخطط، (ج2/320)؛ حجازي، موسوعة، (ج1/135)؛ قراعة، مساجد، (ص217).

([9]) ابن الفرات، تاريخ، (ج7/247).

3- اشتهر الأشرف خليل بن قلاوون بكرمه الزائد، وأُعطياته العظيمة([1]): فقد أكثر من الاهتمام بمماليكه، وجنده، فألبسهم، وأقطعهم، وأنفق عليهم([2])، حتى اتهم بالتبذير([3]). وكان الأشرف خليل يوزع الصدقات على الفقراء، والقراء، والمدرسين(**[4]**).

4- كان الناصر محمد في الجود والكرم والأفضال غاية لا تدرك خارجة عن الحد(**[5]**)، ففي حجته الثالثة (732هـ/1332م)([6])، فقد أنفق الكثير من الذهب على جميع الأمراء، والجنود المماليك، وعين شهاب الدين الطبري(ت760هـ/1361م) قاضيًا على مكة بعد وفاة والده نجم الدين الطبري(ت731هـ/1332م)، فسُرَّ القاضي كثيرًا([7])، وقد توسعت الحال على الرعية، فانخفضت، ورخصت الأسعار في هذه الحجة، ففي مكة بيع الإردب من الشعير من 10 دراهم إلى 20 درهمًا، وبيع السكر كل رطل بدرهمين، وعلبة الحلوى بيعت بـ3 دراهم([8])، وبيع السمن 5 أرطال بدرهم، و4 أرطال من العسل بدرهم، واللحم بيعت 4 أرطال بدرهم، والعجوة 12 رطلًا بدرهم مما يدل على سعة الرزق في عصر الملك الناصر محمد([9]).

5- ومن صور البذل والعطاء والصدقة: ففي حجة الناصر محمد بن المنصور قلاوون عام 712هـ/1312م أفاض بهباته، وإنعامه على الناس(**[10]**)، وتصدق على أهل الحرمين بعشرين ألف دينار، وأرسل سفينتين إلى مدينة ينبع، وباقي السفن إلى مدينة جدة([11])، وتصدق على

([1]) ابن عبد الظاهر، الألطاف الخفية، (ج31/3)؛ ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، (ج39/1).

([2]) المنصوري، زبدة الفكر، (ص88)؛ العيني، عقد الجمان، (ج211/3).

([3]) المقريزي، المقفى، (ج805/3)؛ العيني، عقد، (ج213/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج26/8).

([4]) ابن عبد الظاهر، الألطاف الخفية، (ج62/3)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص16).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج387،534/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج174/9).

([6]) ابن أيبك الدواداري، كنز، (ج366/9)؛ ابن خلدون، العبر، (ص428)؛ المقريزي، الذهب، (ص130).

([7]) المقريزي، الذهب، (ج163/3)؛ ابن فهد، اتحاف، (ج199/3)؛ الجزيري، درر الفرائد، (ج400/1).

([8]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ج164/3)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (ص78).

([9]) ابن فهد، اتحاف الورى، (ج216/3).

([10]) النويري، نهاية الأرب، (ج235/32).

([11]) جدة: مدينة كبيرة عامرة، وهي شمال البحر (الأحمر)، وهي تابعة للحجاز. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج139/1)؛ خسرو، سفر نامة، (ص120).

أهل المدينة أيضًا([1]).

6- ومن صور البذل والعطاء عند السلطان الناصر محمد أنه يكرم مواليه إذا قدموا لزيارته، فعندما زار الأمير تنكز([2]) نائب الشام السلطان الناصر محمد بالغ في إكرامه، وأنعم عليه إنعامات كثيرة، وجليلة، وأمر أمراءه بإكرامه([3]).

7- ويظهر الكرم السلطاني بعد شفائه من مرض ألم به، فأصدر السلطان الناصر محمد مرسوما، يقضي ب: " أن يصرف من الخزانة المعمورة، من خاصية مال مولانا السلطان ألف دينار عين مصرية، ويستفك بها من في السجون، من أرباب الديون، وأن يغسل ما عليهم من المساطير([4]) الشرعية، ويفتقد من في سجون الولاية من الرعية ويُتتبع صلاحهم ويطلق سراحهم"([5]).

8- ومن صور كرمه إغراقه بالبذل والعطاء لكتاب الإنشاء، فبعد أن كتب علاء الدين علي بن عبد الظاهر، رسالة البشائر، التي بشر بها بنصر السلطان محمد، أغرقه السلطان بعطاياه، ونعمه، تقديرًا لعمله هذا ، وحاثًّا إياه ليتابع مدح السلطان محمد ابن قلاوون([6]).

9- ومن صور البذل في عهد الناصر محمد بن قلاوون أنه لما انتهت جارية السلطان([7]) من الحج، تصدقت يوم عرفة بخلع كثيرة، بلغت:1800 خلعة، وأنفقت مبلغ: 3000 دينار ذهب، فسر الناس لذلك([8]).

([1]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ص101-102)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج450/1).

([2]) يُكنى أبا سعيد، جُلب إلى مصر وهو صغير، أمَّره الناصر محمد الشام، لم يكتب في شيء إلى السلطان ويرده فيه، يعظم أهل العلم (ت:740هـ/1339م). ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج55/2-56).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج237/22-238).

([4]) لفظ فارسي معناه: مكتوب، مدون. نجم، معجم الألفاظ، (ص490) .

([5]) الدواداري، كنز الدرر، (ج237/9-238).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج1040/1).

([7]) كانت جارية السلطان المملوكي هي: الخوندة طغاي (ت749هـ/1348م)، أم ابنه آنوك. ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ص305)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج221/2).

([8]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج221/2).

و- التعامل مع أهل الذمة في دولة أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م):

وجدير ذكره أن هناك آيتان من كتاب الله، جديرتان أن تكونا دستورا جامعا في التعامل مع أهل الذمة، وهما اليهود، والنصارى، وهما قوله تعالى: "لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"([1]). وقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: "ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"([2]).

ومن صور تعامل سلاطين أسرة قلاوون مع أهل الذمة:

1- في شوال من سنة (678هـ/1279م) أمر السلطان قلاوون بطرد كتاب الجيوش من النصارى، وأمر استخدام الكتاب من المسلمين عوضا عنهم . فقد عين مثلا: القاضي أمين الدين (شاهد صندوق النفقات) كاتبا في ديوان الجيش بدلا من الأسعد ابراهيم النصراني، وفي هذه الإجراءات مايدل على رغبته في ضبط الشؤن العسكرية، ومنع تسرب المعلومات العسكرية للجانب الصليبي([3]).

2- وفي عهد السلطان المنصور قلاوون ذُكر أنه في ذي القعدة 684هـ/1286م وصل البريد من دمشق بأن جنديا اتفق مع نصراني، وآخر يهودي سامري في دمشق على تزوير توقيع السلطان، وكتب الثلاثة تواقيع، ومراسيم بتملك أراضي شاسعة في منطقة دمشق، ولما اطلع السلطان على ذلك، أمر بتسمير النصراني، واليهودي، وقطع لسان الجندي، وأرسل ذلك بالبريد، ثم استفتى الفقهاء، فقالوا: إنه لا يجوز قتل النصراني، واليهودي، ولاقطع لسان الجندي، ويكتفى بتعزيرهم، وصرف الجندي من الخدمة، فأرسل السلطان بطائق الحمام بتعديل الحكم، فأدركوهم في الواردة، وعادوا إلى مصر، وأعطوا كتبًا جديدة([4]).

([1]) الممتحنة: 8-9.

([2]) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم: 3052، (ج170/3).

([3]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص98)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج193/7).

([4]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص122).

3- وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون كان النصارى يتحينون الفرص؛ لاستعادة مكانتهم في البلاد، فلم يكد الأمراء الخاصكية يستعينون بكتابهم حتى تعالوا على المسلمين، وأدى الأمر بهم إلى التطاول عليهم مما حمل السلطان الملك الأشرف خليل على أن يصدر أوامره بأن ينادى في القاهرة، ومصر ألا يستخدم أمير في ديوانه من النصارى، أو اليهود، كما طلب من الأمراء أن يعرضوا عليهم الإسلام، فإن أسلم أحدهم أخذ مكانته، وأصبح عزيزًا، ومن امتنع كان جزاؤه القتل، مما حدا بكثير منهم الدخول في الإسلام([1]). ويقال في ذلك: أنه في رمضان سنة 692هـ/1293م جاء مرسوم إلى دمشق يلزم من يعمل بالدواوين بالإسلام، وممن رغب عن الدخول في الإسلام يؤخذ منه ألف دينار، فأسلم أربعة في ثامن رمضان([2]).

4- ذكر المؤرخون أن أهل الذمة في زمن الناصر محمد بلغوا الذروة في الترف، والتكبر على المسلمين، واللبس الفاخر، والحلي الثمينة، حتى أنه ذكر: أن وزيرا مغربيًّا زار مصر، فرأى رجلًا راكبًا فرسًا وحوله عدد من الناس، يتضرعون له، ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم، ويطردهم، وعرف أن الرجل نصراني، فأنكر ذلك، وبكى بكاءً شديدًا ، وقال: " وكيف ترجون نصرًا، والنصارى تركب عندكم الخيول، وتلبس العمائم البيض، وتذل المسلمين، وتمشيهم في خدمته؟!، فأثر كلامه في الأمراء، واجتمعوا مع السلطان، ومع القضاة، وبطارقة النصارى، واليهود، وبرز مرسوم سلطاني بحمل أهل الذمة على ما يقتضيه الشرع المحمدي، على أن يتميز النصارى بلبس العمائم الزرق، واليهود بلبس العمائم الصفر، ومُنعوا من ركوب الخيل، والبغال، ومن كل ما منعهم منه الشارع، صلى الله عليه وسلم، وأُلزموا بما شرطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وجُمع النصارى واليهود بالقاهرة، ومصر وظواهرها، ورُسم ألا يُستخدم أحد منهم بديوان السلطان، ولا بدواوين الأمراء، وهُدد من يخالف بسفك بدمه([3]).

5- رسم السلطان الناصر محمد بغلق الكنائس بمصر والشام التي استحدثت في الإسلام، واتفق على ذلك، حتى دورهم التي وجدت أعلى من دور من جاورهم من المسلمين هدموه، وكل من جاور مسلمًا في حانوت، أنزلوه مصطبة حانوته، بحيث يكون المسلم أرفع منه([4]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج2/285-286)؛ (ج4/412-419).

([2]) البرزالي، المقتفى، (ج1/336)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج15/685).

([3]) الصفدي، أعيان العصر، (ج5/83)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج31/416-417)؛ الذهبي، من ذيول العبر، (ج4/98)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج1/233)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/990-991).

([4]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/110).

6- ويصوِّر ابن كثير تعاون النصارى مع التتار، واعتداءاتهم على المسلمين، فنهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم، وحرقوا مساجدهم، يقول: " شرعت التتار، وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية، واحترق جامع التوبة، وكان هذا من قبل الكرج([1])، والأرمن النصارى، الذين هم من التتار"([2]).

7-سوء أخلاق بعض النصارى من موظفي السلطان الناصر محمد، فما كان من السلطان أن عاقبهم، فمن ذلك:

عبد الوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين النشو، وكان نصرانيا، ثم استسلمه السلطان الناصر محمد، وسماه عبد الوهاب وجعله ديوان ولده آنوك، وحج معه ، وكان النشو حسن المعاملة كثير البشاشة، متسرعا إلى قضاء حوائج الناس، فساءت أخلاقه لعظم الكلفة عليه، لبس للناس جلد النمر، فاكثر المصادرات للكتاب، وأصحاب الأموال، واستفحل ظلم النشو، وأصبح يخشاه العامة، ويقدمون له ما يطلب، ووصل به الأمر إلى مصادرة أموال اليتامى، وأصبح يهدد المباشرين، حتى انتشرت الرشوة؛ طلبًا لإرضاء النشو، وكف شره، فأكثر الأمراء فيه الشكاوي، فاحتال السلطان عليه، وقال له: أنا اريد ان امسك الأمير الفلاني، فتعال سحرا؛ أي في وقت السحر أنت وجماعتك؛ لتحتاطوا عليه ففعل، فقال لبشتاك: أمسكه ففعل، فلم يفته من أقاربه، وحواشيه أحد إلا أخاه الكبير المعروف بالمخلص؛ فانه كان في الدير، ثم امسك أيضا فعوقبوا، فمات المخلص وأمه في العقوبة، ثم عوقب النشو بعدها، وقتل في ثاني صفر سنة (740هـ/1339م)، وقيل: إن الذي أخذ منه ومن أخوته وأمه وأخته وصهره وعبيدهم بلغ ثلاثمائة ألف دينار مصرية([3])؛ وبعد وفاته اتضح أنه ما زال نصرانيًّا([4]).

8- أما المعاملة الرسمية بين الملك الناصر، وملوك النصارى كانت سياسية حكيمة، يلتزم فيها الطرفان بالحكمة، والمنطق، فلا يقتحم أحد حدود الآخر، ولا يتمادى أحدهم بشيء بحق الآخر، فإذا أراد ملك النصارى زيارة القدس الشريف يستأذن الملك الناصر، وبعد حصول الموافقة، تبدأ

([1]) هم الجورج مع إبدال الجيم بالكاف الفارسية، وهم أمة مسيحية، مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس، وتشمل شعوبهم أمما كثيرة، أهمهم الأرمن. نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، (ص448).

([2]) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، (ج14/8)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/893-895).

([3]) اليوسفي، نزهة، (ص179)؛ ابن حجر، الدرر، (ج3/238)؛ ابن تغري بردي، المنهل، (ج7/391).

([4]) اليوسفي، نزهة، (ص187، 192-196، 221-223).

الزيارة، ويوفر لهم السلطان الأمان، ويأذن لهم بالزيارة مع الإكرام، ويُصدر كتب الأمان؛ ليأخذ الضيف حقه في الجود، ويعود إلى بلاده لا يمسه سوء، حتى يعودوا إلى بلادهم سالمين([1]).

ويتضح مما سبق أن من أسباب النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون، حرص السلاطين على التنمية الخلقية في المجتمع المملوكي، وذلك من عدة أوجه، أهمها: حرص السلطان قلاوون وأولاده على الجلوس للقضاء، ورفع الظلم، ومعاقبة من ساءت أخلاقه، وحماية المظلومين، وإلغاء جميع المكوس، والضرائب من البلاد، وبذل أسرة قلاوون المال، والإنفاق على البلاد في مصر، والشام، والتعامل مع أهل الذمة كما نص الشرع الإسلامي، كما قال تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"([2]).

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج327/13).

([2]) الممتحنة: 8.

المبحث الثالث: التمسك والحفاظ على مبادئ الإسلام الثابتة

من الأسباب الإيمانية والدينية لتمكين الدولة المملوكية عدة أمور:

عُرف عن سلاطين الدولة المملوكية، دولة المماليك البحرية بممارسة الشعائر الدينية، من صلاة، وحج، وصوم، وزكاة، وإقامة الحدود؛ والصدقة مما مكن لهم البقاء في الحكم مدة قرن من الزمان ونيف، ولو استمر السلاطين أحفاد المنصور قلاوون في ممارسة الشعائر، والحث عليها لبقت دولة المماليك البحرية فترة أطول، ومن أمثلة السلاطين الذين مارسوا الشعائر الدينية في دولة المماليك البحرية: السلطان المنصور قلاوون، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، السلطان الناصر محمد. ومن مظاهر التمسك والحفاظ على مبادئ الإسلام الثابتة عند سلاطين أسرة قلاوون المملوكية:

أ- **محافظة قلاوون وأولاده على الصلاة:** وقد ذكر القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة الحث على الصلاة؛ لأنها ركن أساسي من أركان الإسلام، وتمثل ذلك في:

قوله تعالى: " حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"([1]) ، وقوله تعالى: "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ"([2]). عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ أَوْ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ"([3]). ومن مظاهر محافظة سلاطين أسرة قلاوون على الصلاة، تمثل في:

1- حافظ قلاوون على عمود الدين الصلاة، وذلك من خلال التربية الجهادية، والتصرفات الأخلاقية، ووصاياه لأولاده، ولجنده، ولعامة الشعب بالمحافظة على الدين، والتربية الإسلامية([4]). وأكد محيي الدين عبد الظاهر أن الأشرف خليل بن السلطان قلاوون أنه كان يصلي([5]).

([1]) البقرة: 238.

([2]) العنكبوت: 45 .

([3]) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: 232، (ج208/1).

([4]) المنصوري، مختار، (ص71)؛ ابن كثير، البداية، (ج564/17-565)؛ المقريزي، السلوك، (ج2 /133).

([5]) الألطاف الخفية، (ج49/3).

2- وقد كان السلطان الناصر محمد يصلي، ويهتم ببناء المساجد وإعمارها، والدليل على ذلك زيارته للقدس، والمسجد الأقصى ثلاث مرات خلال سلطنته للمرة الثالثة: كانت الأولى سنة (710هـ/1310م)([1])، وكانت الثانية سنة (717هـ/1317م)([2])، أما الثالثة فكانت سنة 718هـ/1318م) ([3])، وكذلك زياراته للمسجد الحرام، وإعماره([4])، وللمسجد النبوي، وإعماره([5])، وحجه ثلاث مرات، فقد كان للناصر محمد ثلاث حجات، الأولى: سنة (712هـ/1312م)([6])، الثانية: (719هـ/1319م)، الثالثة: (732هـ/1331م)([7]). وبنائه للمساجد في مصر([8]) والشام([9]). ويقول ابن إياس عن السلطان الناصر محمد: هو أول من أيقظ سنة التذكير يوم الجمعة على المآذن؛ لأنها كانت في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه؛ لتستعد الناس للصلاة، وذلك في سنة 700هـ/1301م، واستمر ذلك إلى الآن"([10]). ويذكر الدواداري أن الناصر أصدر المراسيم السلطانية بعمارة جامع بساحل مصر سنة (712هـ/1312م)، حيث صلى فيه يوم الجمعة([11]).

([1]) الذهبي، من ذيول العبر، (ص92).

([2]) العيني، عقد الجمان، (ج23/ورقة 109)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج160/1).

([3]) ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج385/2).

([4]) الجزيري، درر الفرائد، (ج397/1).

([5]) السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، (ج716/3).

([6]) ابن أيبك الدويداري، كنز الدرر، (ج247/9)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص129)؛ أما ابن خلدون ذكر في كتاب العبر أن هذه الحجة كانت سنة (713هـ/1313م)، انظر: العبر، (ج428/5).

([7]) ابن أيبك الدويداري، كنز الدرر، (ج366/9)؛ ابن خلدون، العبر، (ج428/5)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص130).

([8]) ابن كثير، المختصر، (ج40/14).

([9]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج176/3).

([10]) بدائع الزهور، (ج483/1).

([11]) الدواداري، كنز الدرر، (ج211/9).

3- وقد كان السلطان حسن بن الناصر محمد من السلاطين الذين تمسكوا بمبادئ الإسلام، حيث كان في مدة حبسه ملازما للصلوات الخمس والإقبال على الاشتغال بالعلم حتى إنه كتب بخطه كتاب دلائل النبوة للبيهقي([1]).

ب- صوم قلاوون وأولاده شهر رمضان، والمحافظة على الطقوس الموجودة فيه:

يعد صوم رمضان ركن أساسي من أركان الإسلام، حيث ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه، وحث عليه، كذلك حث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على صوم رمضان، ومن الآيات الدالة على صوم رمضان، قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"([2]). ومن الأحاديث الشريفة الدالة على الصوم: روى كل من الأئمة بخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عزوجل : كُل عَمل ابن آدم له إلا الصيام ؛ فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنّة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل : إني إمرؤ صائم" ، وزاد عليه مسلم : "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"([3]).

وقد ذكر المؤرخون أن سلاطين أسرة قلاوون كانوا يصومون شهر رمضان، وتمثل في:

1- وصف المؤرخون السلطان قلاوون وصفًا إسلاميًا مما يشير إلى أن السلطان صام شهر رمضان، حيث ربى أولاده التربية الإسلامية الصحيحة([4]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج207/4).

([2]) البقرة : 183-185.

([3]) البخاري، صحيح، حديث رقم: 1904، (ج26/3)؛ مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: 1151،(ج807/2).

([4]) اليونيني، مرآة الزمان، (ج5/4، 8)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج12/4)؛ الذهبي: تاريخ، (ج124/50).

2- ذكر المؤرخون أن الأشرف خليل أنه صام شهر رمضان بدمشق ، فعرف بصومه([1]).

3- وممن صام شهر رمضان والطقوس الموجودة فيه السلطان الأشرف شعبان بن حسين ابن الناصر محمد، حيث قال المقريزي: " في شهر رمضان قرئ صحيح البخاري بالقصر من قلعة الجبل كما هي العادة من عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين"([2]).

4- ومما يقوم به سلاطين المماليك في قدوم شهر رمضان، إطلاق سراح المساجين من السجن، وتقديم المعونة للفقراء والمحتاجين في ليالي رمضان المباركة([3]). ومن صور التصدق، والبذل أن السلطان الأشرف خليل أن تصدق وبذل إلى الأمراء والعلماء، ففي رمضان سنة (960هـ/1552م) أنعم على علم الدين سنجر المنصوري، المعروف بأرجواش([4]) خبزًا، وخلع جديدة، وأُعيد إلى ولاية قلعة دمشق([5]). كما اهتم المماليك في قراءة الأحاديث الشريفة، وكانوا يحتفلون بختم الحديث في الثلث الأخير من شهر رمضان، ويحتفل به احتفالًا كبيرًا، ويوزع في نهاية الاحتفال الهدايا والخُلع([6]).

ج- أداء فريضة الحج: يعد أداء فريضة الحج ركن أساسي من أركان الإسلام، والدليل على ذلك قوله تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وهُدىً لِلْعَالَمِين * فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً، وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمين"([7]).

([1]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص131)؛ العيني، عقد الجمان، (ج119/3، 125).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج126/5).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج1/ 639).

([4]) الأمير أرجواش(ت701هـ/1302م): سنجر ارجواش المنصوري نَائِب قلعة دمشق من أَيَّام الْمَنْصُور ثمَّ نكب فِي أَيَّام الْأَشْرَف ثمَّ أُعِيد إِلَيْهَا وَله الْيَد الْبَيْضَاء فِي حِصَار التتار دمشق فِي وقْعَة غازان، وساس الْأَمر أحسن سياسة وَكَانَت وَفَاته فِي ذِي الْحجَّة سنة 701هـ/1302م. المقريزي، السلوك، (ج226/2)؛ ابن حجر، الدرر، (ج316/2)؛ ابن تغري بردي، المنهل، (ج294/2).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج226/2)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج294/2).

([6]) ابن الحاج، المدخل، (ج289/1).

([7]) آل عمران: 96-97.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه"([1]).

وجدير ذكره أن السلطان محمد ثالث سلاطين أسرة قلاوون أدى فريضة الحج ثلاث مرات طوال فترة سلطنته، بعد السلطان الظاهر بيبرس([2])، فقد كان للناصر محمد ثلاث حجات، الأولى: سنة (712هـ/1312م)([3])، الثانية: (719هـ/1319م)([4])، الثالثة: (732هـ/1331م)([5]).

الحجة الأولى: سافر في ذي القعدة عام 712هـ/1312م من قلعة الكرك في نواحي الشام، واشتمل موكبه على 6000 مملوك على الخيول، و40 أميرًا، و100 فارس([6])، ويصف اليافعي حجة السلطان الناصر بالقول: " رأيته يطوف بالكعبة، وعليه ثياب إحرام من صوف، وهو يعرج في مشيته، وحوله جماعة من الأمراء، فلما فرغ من طوافه ركع خلف المقام ثم دخل الحجر، فصلى فيه"([7])، واستقبل قضاة مكة، مثل: الشيخ رضي الدين بن محيي الدين الطبري([8])، ونجم

([1]) البخاري، صحيح، حديث رقم: 1521، (ج133/2)؛ مسلم، صحيح، حديث رقم: 1350،(ج984/2).

([2]) خرج الظاهر بيبرس لأداء فريضة الحج عام 667هـ/1269م، ، كانت حجته حجة خفية؛ لحرصه على عدم معرفة الصليبيين بخروجه إلى الحجاز، فلا يعودون للهجوم على بلاد الشام. المقريزي، السلوك، (ج61/2)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (مج73/9).

([3]) ابن أيبك الدويداري، كنز الدرر، (ج247/9)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص129)؛ أما ابن خلدون ذكر في كتاب العبر أن هذه الحجة كانت سنة (713هـ/1313م)، انظر: العبر، (ج428/5).

([4]) ابن أيبك الدويداري، كنز الدرر، (ج366/9)؛ ابن خلدون، العبر، (ج428/5)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص130).

([5]) ابن أيبك الدويداري، كنز الدرر، (ج366/9)؛ ابن خلدون، العبر، (ج428/5)؛ المقريزي، الذهب المسبوك، (ص130).

([6]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج310/2)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (مج74/9).

([7]) مرآة الجنان، (ج251/4-252).

([8]) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم رضي الدين الطبري، إمام المقام، سمع وتعلم على يد كبار العلماء، مثل: ابن الجميزي، والمرسي، وعبد الرحمن بن أبي حرمي، توفى في ربيع الأول (722هـ/1322م)، وعمره 82 سنة. الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، (ص62).

الدين محمد الطبري([1])، وبعد أن انتهى من مراسم الحج عاد إلى القاهرة في رحلة يسيرة([2]).

الحجة الثانية: وفي عام 719هـ/1319م، حج الناصر محمد حجته الثانية، أغدق الأموال على بدو الأعراب، فكان ذلك له الأثر الكبير في تأمين طريق الحج؛ بالرغم من طول مسافة الطريق إلى الحج([3])، وكان بصحبته جمع غفير من بلاط الدولة المملوكية، ومن الأعيان، والأهالي، والأمراء، والقضاة، مثل: الملك المؤيد عماد الدين، المعروف بأبي الفداء أمير حماة([4])، ومن القضاة قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة([5])، وعند الطواف بالكعبة الشريفة حسن له القاضي ابن جماعة أن يطوف راكبًا كما فعل النبي ﷺ ؛ ولكن الناصر محمد رفض هذا الاقتراح من قاضي القضاة، وأبى إلا أن يطوف مثل بقية الحجاج، ويقبل الحجر مثلهم، ومنع قواده من حراسته، وبعد أن انتهى غسل الكعبة بيده([6]). وهذا يمثل قمة التواضع عند الحاكم، كما ورد في القرءان والسنة النبوية([7]).

([1]) نجم الدين الطبري، محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله القاضي، كان فقيها عالما، فيه كرم، وحسن أخلاق، وله نظم، قاضي مكة، ومفتيها، سمع من عم جده يعقوب ابن أبي بكر الطبري جامع الترمذي، وسمع من جده محب الدين، وأخذ عنه البرازلي، وجمال الدين الغانمي، وآخرين، وما خلف بمكة مثله، توفى عام (731هـ/1330م). الصفدي، أعيان العصر، (ج127/5).

([2]) الفاسي، العقد الثمين، (ج406/4)؛ الجزيري، درر الفرائد، (ج389/1)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (مج9/ 74).

([3]) المقريزي، الذهب المسبوك، (104–105).

([4]) أبو الفداء: (672–732هـ / 1273–1332م): إسماعيل بن علي الإمام الفاضل السلطان الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء ابن الأفضل بن الملك المظفر ابن الملك المنصور تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب بن شادي، المؤرخ، الجغرافي، الفقيه، صاحب حماة. له تصانيف كثيرة، منها: (تقويم البلدان) ، و (المختصر في أخبار البشر)، توفي بحماه سنة(732هـ/1332م)، وعاش ستين سنة([4]).

([5]) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي، ولد عام 639هـ/1241م في مدينة حماة، وتولى القضاء في القدس، ثم في مصر، ثم انتقل إلى دمشق، وجمع له بين القضاء والخطابة، ثم أعيد إلى قضاء مصر، وتوفى عام733هـ/1334م، ودفن في القرافة. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج139/9–140).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج18/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج59/9).

([7]) أبو الفداء، المختصر، (ج86/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج18/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج59/9).

الحجة الثالثة(732هـ/1331م): وقبل أن يبدأ في حجته للمرة الثالثة كلف الأمير أيتمش المحمدي([1]) مع مجموعة من الحجارين بإصلاح عقبة أيلة([2]) التي يمر بها الحجاج، وكانت تتسبب في تعطيل سفرهم، ولا يستطيعون صعودها، فأصلحها، وأزال وعورتها، مما سهل على الناس، والحجاج سلوكه من غير تعب، أو مشقة، وكلفه ذلك الأموال الكثيرة([3]). وفي عام 732هـ/1332م عقد السلطان محمد النية على أن يؤدي شعيرة الحج للفترة الثالثة، رافقه في هذه الحجة بعض الفقهاء، والمشايخ، مثل: فخر الدين النويري المالكي([4])، وجلال الدين محمد القزويني([5])، وغيرهم، وسار الموكب السلطاني حتى نزل إلى ينبع([6])، وكان في استقبالهم الشريف أسد الدين رميثة([7])، شريف مكة، ومعه أشراف المدينة، وأحسنوا الاستقبال والحفاوة، وفي المقابل أجرى عليهم السلطان ناصر محمد الأموال، والهدايا([8])، ورافقوه حتى نزلوا في خليص([9])، ثم أكمل مسيره مع الحجاج حتى وصل إلى مكة، وطاف بالبيت، وأكمل حجته في تمام وخير([10]).

([1]) سيف الدين أيتمش المحمدي، من مماليك الأشرف خليل، ثم التحق في خدمة العادل كتبغا، ثم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتوفي عام 736هـ/1336م. ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج1/423-424).

([2]) مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط من جهة بلاد الشام، وسميت بأيلة نسبة إلى أيلة بنت مدين ابن إبراهيم عليه السلام. ياقوت، معجم البلدان، (ج1/292).

([3]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ج3/19، 160)؛ الشمراني، حجات السلاطين المماليك، (مج9/ 74).

([4]) فخر الدين عثمان بن يوسف ابن أبي بكر أبو محمد النويري المالكي، ولد عام 673هـ/1275م، قاضي، ومحدث، وفقيه، وعرف بكثرة الحج والمجاورة. الصفدي، أعيان العصر، (ج19/342).

([5]) ذكرت ترجمته سابقا، انظر: اليافعي، مرآة الجنان، (ج4/225-226)؛ الزركلي، الأعلام، (ج6/192).

([6]) ينبع بالقرب من المدينة المنورة، واشتهرت بكثرة نخيلها، وغزارة مياهها. ياقوت، معجم، (ج5/450).

([7]) أسد الدين رميثة أبو عرادة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني نجم الدين، تولى إمارة مكة مع أخيه، وتوفي عام 748هـ/1348م. ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج2/111-112).

([8]) فأعطى الشريف أسد الدين بن رميثة 5000 دينار، وزوجته 500 دينار، كما أنعم على أبنائه، وفي المقابل أعطاه شريف مكة ألف رأس من الغنم، ومائة فرس، فأخذ السلطان المملوكي فرسين فرد الباقي. المقريزي، الذهب المسبوك، (ج3/164).

([9]) خليص: حصن بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. ياقوت، معجم البلدان، (ج2/442).

([10]) ابن أيبك الدواداري، كنز، (ص369)؛ الجزيري، درر، (ج1/400)؛ ابن إياس، بدائع، (ج1/462).

د- احتفال سلاطين المماليك بالأعياد الدينية([1]):

يعد عيد الفطر، وعيد الأضحى من أعياد المسلمين الذين يحتفلون بها، والدليل على ذلك، جاء عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ قَالُوا كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ"([2]).

فقد كان سلاطين أسرة قلاوون، وعامة الناس يحتفلون بحلول شهر رمضان، وقدوم موسم الحج، كذلك كانوا يحتفلون بقدوم عيد الفطر، وعيد الأضحى([3]).

1-الاحتفال بعيد الفطر: اعتاد الأمراء الدخول على السلطان في ليلة العيد؛ ليقدموا له التهاني بالعيد، ويقوم ناظر الدولة بإعداد الخُلع، وكان السلطان يخرج يوم العيد في موكب كبير يدل على قوة الدولة وسلطانها، وفي ليلة العيد كان السلطان يخرج بصحبة كبار الدولة؛ لأداء صلاة العيد، وسماع الخطبة، وعند الانتهاء من الصلاة يعود السلطان إلى قصره؛ ليتقبل التهاني، ويقدم الخلع، والهدايا لكبار الدولة([4]).

2-الاحتفال بعيد الأضحى: حرص المماليك على الاهتمام بمثل هذه الأعياد الدينية؛ لذلك كان يخرج السلطان يوم العيد مع كبار أمرائه، ومماليكه في موكب عظيم شبيه بموكب عيد الفطر يطوف المدينة، وبعد الانتهاء من الصلاة يتوجه لذبح الأضاحي، وتوزيع اللحم، والخُلع، والهدايا([5]).

وقد حرص المماليك أشد الحرص على إغداق الهدايا على مماليكهم في أيام العيد، فقد كان الأمير قوصون الناصري سنة (742هـ/1341م) ينعم على مماليكه، وحاشيته في كل عيد بألف رأس غنم، وثلاثمائة رأس بقر([6]).

([1]) انظر المعنى اللغوي للعيد في: أبادي، القاموس، (ج330/1)؛ الرضا، معجم متن اللغة، (ج237/4) .

([2]) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم: 1134، (ج295/1).

([3]) ابن الحاج، المدخل، (ج257/2)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ص26-27)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج416/2).

([4]) ابن الحاج، المدخل، (ج289/1).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج521/1)؛ . ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، (ج199/2).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج314/8).

3-مكان صلاة العيد(الفطر، الأضحى): كان السلطان يخرج في أول يوم من العيد، وينزل إلى الميدان، ويصلي صلاة العيدين، ويكون نزوله في يوم العيد، وصعوده من باب خاص من دهليز([1]) القصر الذي لا يخرج منه إلا في مثل هذه المناسبات، ويكون قد أعد للسلطان بهذا الميدان دهليز سلطاني، ويكون هذا الدهليز على أكمل ما يكون من الهيئة([2]). وكانت سلاطين المماليك اختارت ميدان العيد لأداء صلاة العيدين، وهو مكان متسع يتوفر فيه عنصر الفرجة، وإظهار هيئة السلطان في موكب العيد([3]). ويرافق السلطان المملوكي في موكب العيد في الذهاب والعودة أمير الركب، وهو المسؤول عن طائفة الناس التي تحمل المشاعل أمام السلطان في العيد، وإلى جانبه كبار موظفي الدولة الذين كانوا يصحبون السلطان، ويكونون في خدمة موكبه، ونجد الخليفة العباسي المقيم في القاهرة يركب إلى جانب السلطان في موكب الأعياد([4]).

4-سماط العيد وخلعه: بعد عودة السلطان إلى عرشه يمد سماطًا سلطانيًا عظيمًا([5])، ويحوي هذا السماط على جميع الأطعمة، والحلويات، والمشروبات الفاخرة([6]). أما عن الخلع فيكون آخر مرحلة من مراحل الاحتفال، ويوزع على كبار الأمراء، وموظفي الدولة، فهو عمل موروث عن دول سابقة، وكانت الخلع تختلف باختلاف مراتب الأمراء([7]). ويهتم السلطان بالخلع على الأمراء الذين كان لهم خدمة في العيد([8]). وجدير ذكره أن الأعياد في عهد سلاطين المماليك البحرية كانت تحدث فيها بعض الاستثناءات؛ حيث كانت هناك بعض المخاطر الداخلية، والخارجية، تحدث في البلاد، وذلك أحيانًا يتوافق ذلك مع موعد حلول عيد الفطر، والأضحى،

([1]) الدهليز: خيمة سلطانية خاصة بركوب السلطان في الموكب. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/46).

([2]) العمري، مسالك الأبصار، (ص73)؛ المقريزي، الخطط، (ج2/229).

([3]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/12).

([4]) النويري، نهاية الأرب، (ج3/36)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/459).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج2/229).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج2/211)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/56).

([7]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، (ص77)؛ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، (ج2/199).

([8]) كان السلطان يخلع الخلع على حامل الجتر، والسلاح، وأستاذ دار، والجاشنكير. العمري، مسالك الأبصار، (ص73)؛ القلقشندي، صبح الأعشى،(ج4/46).

فيغيب السلطان عن عاصمة ملكه، فيضطر السلطان للقيام بمراسم العيد في الشام، أو الحصن، وعلى النقيض أحيانًا يتوافق النصر على الأعداء بقدوم العيد، فيكون العيد عيدين([1]).

هـ- اهتمام سلاطين المماليك البحرية ببعض المواسم الدينية:

اهتم سلاطين المماليك بعدة مواسم دينية؛ لكسب العامة والخاصة، وكسب التأييد المستمر لهم، والتمكين، والحفاظ على كرسي الحكم، ومن تلك المواسم:

1- إحياء ليلة رأس السنة الهجرية: يعد اليوم الأول من محرم من السنة الهجرية يوما معظما؛ لأنه غرة السنة، ومفتاحها، واقتصر احتفال سلاطين المماليك بهذه المناسبة على طلوع الأمراء لتهنئة السلطان في القلعة([2]).

2- إحياء الموالد: كانت سلاطين المماليك البحرية تحرص على إحياء الموالد، ومن تلك الموالد: مولد آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأولياء الصالحين؛ وأهم هذه الموالد كان المولد النبوي الشريف([3]).

فأوجب الله تعالى علينا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ونهانا عما نهى عنه صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"([4])، وقوله تعالى " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً"([5]).

وقد اعتاد كثير من سلاطين المماليك البحرية الاحتفال بالمولد النبوي في الدور السلطانية الخاصة بزوجات السلطان، وذلك في صبيحة يوم الاحتفال الكبير، ويبدو أن هذا الاحتفال لم تكن له صفة رسمية، فلا يحضره أحد من القضاة، أو مقدمي الألوف([6]).

([1]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص168)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج191/3).

([2]) ابن الحاج، المدخل، (ج278/1)؛ المقريزي، الخطط، (ج22/1)؛ قاسم، بعض مظاهر الحياة، (ص36).

([3]) ابن الحاج، المدخل، (ج2/ص4، ص25)؛ عاشور، المجتمع المصري، (ص177)؛ زيتون، تاريخ المماليك، (ص146).

([4]) الحشر: 7.

([5]) الأحزاب: 21.

([6]) ابن الحاج، المدخل، (ج2/ص4، ص25)؛ قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية، (ص295).

و- الاهتمام بزيارة الأماكن المقدسة وإعمارها، القدس، والخليل، ومكة، والمدينة المنورة:

كانت سلاطين المماليك تحافظ على الأماكن المقدسة، وتتمسك بمبادئ الإسلام الثابتة، من ذلك زيارة الأماكن المقدسة، في القدس، وفي المدينة المنورة، وفي مكة، والاهتمام بعمارتها.

1- زيارة بيت المقدس، والحرم الإبراهيمي: روى البخاري عن أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله: يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أولًا، قال: "المسجد الحرام"، قلت ثم أي قال: "المسجد الأقصى"، قلت: كم بينهما؟ قال: "أربعون سنة"([1]). والمسجد الأقصى هو ثالث الحرمين: لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلاّ لثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى"([2]).

فكان للسلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون النصيب الأكبر من سلاطين المماليك البحرية في زيارة هذه الأماكن المقدسة، وإصلاح عمارتها: زار بيت المقدس ثلاث مرات([3])، خلال سلطنته الثالثة، الأولى سنة (710هـ/1310م)([4])، والثانية سنة (717هـ/1317م)([5])، أما الثالثة فكانت سنة (718هـ/1318م)([6])، وكان يقرن هذه الزيارات بزيارة خليل الرحمن(عليه السلام)، مما يشير إلى أن هذه الزيارات كانت ذات صبغة دينية، وليطلع عن كثب على ما تحتاجه الأماكن الدينية من إصلاح وترميم([7]).

2- زيارة المسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام، والكعبة المشرفة في مكة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تشد الرحال إلاّ لثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"([8]).

([1]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 3366، (ج4/145).

([2]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 1189، (ج2/60).

([3]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/ 174).

([4]) الذهبي، من ذيول العبر، (ص92).

([5]) العيني، عقد الجمان، (ج23/ورقة 109)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/160).

([6]) ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج2/385).

([7]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/160)؛ حمودة، بيت المقدس في عهد المماليك، (ص44).

([8]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 1189، (ج2/60).

فقد اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالمسجد النبوي في المدينة، وقام ببناء منارة رابعة، ورواقين، وجدد الأروقة القديمة التي تقع على يمين ويسار صحن المسجد([1]). وفي عام (733هـ/1334م) جدد عمارة مسجد قباء في المدينة، والذي كان يتكون من ثلاثة صفوف جهة القبلة، وكل صف يتكون من 7 أساطين([2]). أما في عام (706هـ/1307م) أمر بتعمير قبة الشراب، والتي عرفت بقبة العباس([3])، كما اهتم بسطح المسجد الحرام وأبوابه([4])، وعُمر بناء مسجد الإجابة الذي يقع جهة اليسار من الطريق إلى منى([5]) في شعب على مقربة من ثنية أذاخر([6]). أما في عام (733هـ/1334م)، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببناء باب للكعبة المشرفة من السمط الأحمر، وحلاه بصفائح من الفضة، وكتب اسمه أسفل هذا الباب واستبدله عن بابها القديم الذي كانت تزينه بعض الحلية من الفضة، وزنها 60 رطلًا، والتي وهبها لبني شيبة خدام البيت الشريف([7]).

كما اشتكى الناس للناصر محمد من كثرة انقطاع المياه في البرك التي يتردد عليها الحجاج، ونقص في تكاليف نقل المياه من عين في خليص، فما كان منه إلا أن خصص مبلغ 5000 درهم ، تصرف لأمير خليص الذي أجرى الماء قبل وصول السلطان، فتحسن الحال([8]).

وكان الناصر يرسل مرتبات القضاة، والمؤذنين، والفراشين، والخطباء، ويبعث ما يحتاجه المسجد الحرام من الزيت، والشمع كل عام([9]).

([1]) السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، (ج716/3).

([2]) السمهودي، وفاء الوفاء، (ج810/3).

([3]) الفاسي، شفاء الغرام، (ج260/2)؛ ابن فهد، اتحاف الورى، (ج144/3).

([4]) الجزيري، درر الفرائد، (ج397/1).

([5]) في درج الوادي بالقرب من مكة، الذي ينزله الحاجّ، ويرمي فيه الجمار من الحرم، سمّي بذلك لما يمنى به من الدماء أي يراق، قال الله تعالى:"من مَنِيٍّ يُمْنى" (القيامة: 37)، وقيل: لأن آدم، عليه السّلام، تمنّى فيها الجنّة. ياقوت، معجم البلدان، (ج198/5)؛ القزويني، آثار البلاد، (ص123).

([6]) الفاسي، شفاء الغرام، (ج471/2).

([7]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج582/14)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/ 461-462) .

([8]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ج22/3).

([9]) المنصوري، التحفة الملوكية، (97).

ز- إبطال البدع والمنكرات التي انتشرت في دولة المماليك: جاءت الآيات القرآنية، ونبينا صلى الله عليه وسلم ، بأن أمورا ستحدث ونهى المسلمين على الأخذ بها، قال تعالى: " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"([1])، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: "فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتّبعون ما تشابَهَ منْهُ ابْتغاءَ الفتْنةِ وابْتغاءَ تأويلِهِ" قال : فإذا رأيتهم فاعرفيهم"([2]).

فقد ألغى سلاطين أسرة قلاوون بعض أعياد الشيعة؛ وذلك لاعتبارهم سنة، من ذلك يوم عاشوراء، فقد كانوا يبكون حزنًا على الحسين بن علي([3])؛ الذي استشهد ذلك اليوم([4]). فقد حول المماليك هذا العيد وجعلوه يوم فرح، وسرور يضعون فيه الحلوى، ويبالغون في إظهار السرور([5])، وكان لهم عادات في هذا اليوم، ويقولون: إنه إذا بُخر به المسجون خرج من سجنه، وهو يبرئ من العين والحسد([6]). ومن الأمور التي قام بها المماليك هو إلغاء عيد الغدير(غدير خم)([7])، بحيث اعتبروه بدعة من الشيعة([8])، في إطار تدعيم مذهبهم الشيعي، وتأكيد أوليتهم، أو أحقيتهم بالخلافة بانتسابهم لعلي، ولآل البيت، وتذكر المصادر التاريخية أن سبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه يوم غدير خم([9]).

([1]) آل عمران: 7.

([2]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 4547، (ج33/6).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج490/1)؛ ابن الحاج، المدخل، (ج289/1-290).

([4]) عاشور، صور من مجتمع القاهرة، (ص164).

([5]) عاشور، المجتمع المصري، (ص177).

([6]) ابن الحاج، المدخل، (ج290/1)؛ قرحيلي، الاحتفالات في عصر المماليك، (ص65).

([7]) خم: اسم رجل صباغ نسب إليه الغدير الذي بين مكة والمدينة بالجحفة. والغدير هو: مستنقع من ماء المطر. ياقوت، معجم (ج389/2).

([8]) وهم الذين تشيعوا لعلي بن أبي طالب، وعلي بريء منهم، وأول من أسس هذه الفرقة هو اليهودية الذي ادعى إسلامه، والإسلام بريء منه عبد الله بن سبأ. الغطاء، أصل الشيعة (ص40-41).

([9]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج417/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج388/1).

ففي عام 701هـ/1301م أرسل الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أمراء مكة أن يبطلوا البدع، والمنكرات التي انتشرت في مكة، بتأثير من بعض المتشيعة، مثلًا : لا يؤم المسجد الحرام إمام زيدي([1])، ولا يرفع في الأذان بعبارة حي على خير العمل، وإلغاء ما يسمى بالعروة الوثقى في جدار الكعبة، وما يترتب على ذلك من مفاسد، ومخالفات للإسلام([2]).

وقف الناصر موقفا متشددًا من أهل البدع، وكان يستشير أهل الشرع والأحكام، ويعمل على ترجيح الآراء العاملة لصالح المسلمين، فعندما قدم البريد من دمشق بأن شيخ الإسلام ابن تيمية، تنازع مع أهل دمشق في الصخرة التي بمسجد النارنج بجوار مصلى دمشق، وأن الأثر الذي بها هو قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما يفعله الناس من تقبيله، والتبرك به لا يجوز، فقطع الشيخ الصخرة، وأنكر الناس عليه ذلك، فأُجيب: " إذا كان الأمر ما زعم، فقد فعل الخير، وأزال بدعة"([3]). ومن صور قضائه على المنكرات، ومحاربته البدع وأهل الضلال، ما صدر عنه سنة 717هـ/1311م عندما وصل إلى مسامعه استفحال أمر الطائفة النصيرية([4]) في منطقة طرابلس، وأن فيها المُنكرات ما لا يرضاه الدين، فقرر السلطان الناصر محمد إعادة تنظيمها، وبناء مسجد في كل قرية من قراهم([5]).

وقد أبطل الناصر محمد بدعًا في الحج، فعندما علم أن المسلمين يتمسكون بالعروة الوثقى، ويمسون المسمار في الكعبة، وما يحدث في ذلك من مفاسد قبيحة، وكل البدع التي تُعيق أداء فريضة الحج، أمر بإبطال ذلك([6]).

([1]) من طوائف الشيعة الزيدية، وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، وكان قد بايعه جموع من الشيعة، ثم قالوا له: تبرأ من الشيخين – يعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: معاذ الله، وزيرا جدي، فتركوه ورفضوه، وأرفضوا عنه، فسموا الرافضة، والنسبة رافضي. الشهرستاني، الملل والنحل (ج154/1)؛ السفاريني، لوامع الأنوار (ج85/1).

([2]) ابن فهد، اتحاف الورى، (ج137/3)؛ الجزيري، درر الفرائد، (ج386/1).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج9/2).

([4]) فرقة من غلاة الشيعة، ينتسبون إلى نصير غلام علي بن أبي طالب، وهم يعتقدون ألوهية علي بن أبي طالب. ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج81/1).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج935/2–941).

([6]) المصدر السابق، (ص937–952).

ح- البعد عن المحرمات، وشرب الخمر: إن شرب الخمر كبيرة من كبائر الذنوب، وهي أم الخبائث، ومفتاح كل شر، تغتال العقل، وتستنزف المال، وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، ورجس من عمل الشيطان؛ توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله سبحانه وتعالى، وعن الصلاة، إلى غير ذلك من الأمور، وقد نهانا رب العالمين، ورسولنا صلى الله عليه وسلم عن تناولها، أو الاقتراب منها، ومن شاربها، قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"([1]).

وقد لعن الله تعالى شارب الخمر، فعن ابْنَ عُمَرَ رضي الله تعالى عنهما قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ"([2]).

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم مدمن الخمر بعابد الوثن .. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ"([3]).

كان لأسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) الثبات والتمكين، وذلك من خلال البعد عن المحرمات، فكان المنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون يبعدون عن تناول المحرمات، فكان لهم الثبات والتمكين، وما إن جاء أولادهم وأحفادهم إلى الحكم سقطت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، وزالت دولتهم؛ بسبب انتهاك الحرمات، وشرب الخمور، واقتراف المنكرات.

1- كان السلطان سيف الدين قلاوون بعيدًا عن تناول المحرمات، وشرب الخمرة، وهذا ما ربى أولاده عليهم، ففي يوم الأحد 25 ربيع الأول سنة (680هـ/1280م) خرج مرسوم السلطان قلاوون وهو بدمشق بإراقة الخمور، وكانت قد ضُمنت بمليون درهم في السنة([4]).

2- كان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون حازمًا في النهي عن شرب الخمر، وأكل

([1]) المائدة: 90.

([2]) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم: 3674، (ج326/3).

([3]) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، حديث رقم: 3375، (ج1120/2).

([4]) المنصوري، مختار، (ص71)؛ ابن كثير، البداية، (ج564/17-565)؛ المقريزي، السلوك، (ج2 /133).

الحشيشة([1]) كما فعل بأهل دمشق، فهناك دلائل تثبت أن الأشرف خليل رسم بنهيهم عن شرب الخمر أكثر من مرة، ومنهم أهل الذمة([2])([3]).

3- كان السلطان الناصر محمد يكره شرب الخمر، ويعاقب عليه، ويبعد من يشربه من الأمراء عنه، فمن ذلك: أنه ضرب أحد المماليك السلطانية بالمقارع هو، وغلامه؛ لكونه شرب الخمر ضربًا مبرحًا مات منه المملوك بعد يومين([4]). وفي سنة (717هـ/1317م) قبض على الأمير أقبغا الحسني([5])؛ وذلك لأنه شرب الخمر، وقد كان مقربا من السلطان؛ ولكن بغض السلطان من شرب الخمر، ومن شاربه تم القبض عليه، وانتهى الأمر به إلى اعتقاله في دمشق، ومات سنة بضع وعشرين وسبعمائة([6]). ولعل هذه الحادثة تبين مدى كره السلطان لشرب الخمر، وشاربه، مهما بلغت منزلته([7]).

4- وقد كان السلطان محمد لا يخشى في الله لومة لائم، فكان في أحيان كثيرة يطبق الشرع

([1]) الحشيشة نبات مخدر، وهي على عدة أنواع منها: الأفيقون، أو الخشخاش الأسود، الذي يستخرج منه الأفيون. ابن البيطار، الجامع، (ج1/61، 329-331)؛ العمري، دولة المماليك، (ص129)؛ أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، (ص176)؛ الخطيب، معجم المصطلحات، (ص144).

([2]) الذمة: العهد والضمان والأمان، وإنما سموا بذلك؛ لأن لهم عهد الله وعهد الرسول، وعهد جماعة المسلمين: أن يعيشوا في حماية الإسلام، وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين، فهم في أمان المسلمين وضمانهم، بناء على " عقد الذمة " بينهم وبين أهل الإسلام. السرخسي، شرح السير الكبير (ج1/ 39)؛ القونوي، أنيس الفقهاء (ص65)؛ الجلعود، الموالاة والمعاداة (ج2/618).

([3]) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، (ج1/343)؛ البرزالي، المقتفى، (ج1/243)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 690-700،(ص181)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، (ج2/339)؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، (ص272).

([4]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/73، 98-99)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/229-230).

([5]) أقبغا الحسني أحد الأمراء بدمشق كان رفيع المنزلة عند الناصر، رباه صغيرا، وأحبه حبا مفرطا، بحيث أمَّرهُ وهو شاب، فأقبل على اللهو، واللعب، وشرب الخمر، والسلطان ينكر ذلك عليه، فيدل بمنزلته منه إلى أن أضجره، فنفاه إلى الشام في سنة (717هـ/1317م)، ثم اعتقل بدمشق، ثم نقل إلى صفد، ومات سنة بضع وعشرين وسبعمائة. ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج1/466).

([6]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج1/466).

([7]) الحجي، السلطان الناصر محمد، (ص33).

على أقرب المقربين عنده، حتى أولاده، من الأمور التي ذكرها المؤرخون في ذلك([1]):

5- تطبيق التعزير على ابنه أنوك: أن آنوك أحب مغنية يقال لها: زهرة فبلغ السلطان، فأمر بمنعها منه، فمرض، وكاد يتلف إلى أن أغضى عنه أبوه، وساءه ما صنع، وخرج عليه ليضربه، فحمته أمه منه، فحصلت له من ذلك رجفة، فكانت سبب ضعفه، واستمر إلى أن مات في ربيع الأول سنة 740هـ/ 1339م([2]).

ط- متابعة الأسواق، البيع والشراء: كان صلى الله عليه وسلم يأمر التجار بالبرِّ ، والصدق ، والصدقة. عن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"([3]). كان السلطان الناصر محمد يتابع أسواق السلطنة، ومعرفة البيع والشراء في السلطنة، فكان يضع التسعيرة للبيع والشراء، ومن يخالف يعاقب، وهذا ما حصل للأمير قوصون الذي علت منزلته عند السلطان، وَزَوَّجَهُ ابنته([4]) عندما باع بما يفوق السعر المعلن، سارع السلطان إلى طلبه، ونهره وضربه، فتهيَّب الأمراء مما جرى، ولم يجسر أحد بعدها أن يتصرف في شيء، إلا بأمر المحتسب، والتزم الأمراء، والتجار بالتسعيرة السلطانية، حتى لو اضطر السلطان لفتح مخازنه، للتأثير على حركة الأسعار، ويلجأ إلى الاستعانة بغلال بلاد الشام، وخاصة دمشق، وغزة، والكرك، والشوبك([5]).

ويرى الباحث أن من أسباب النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون التمسك، والحفاظ على مبادئ الإسلام الثابتة، ، وذلك من خلال محافظة سلاطين أسرة قلاوون وأولادهم، وأحفادهم على الصلاة، وعلى صوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، والاحتفال بعيدي الفطر، والأضحى، واحتفالهم بالمواسم الدينية، وبعدهم عن المحرمات، وشرب الخمر.

([1]) ابن حجر، الدرر، (ج1/498).

([2]) المصدر السابق.

([3]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 2110، (ج3/64).

([4]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج4/300).

([5]) اليوسفي، نزهة الناظر، (ص82)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج2/202)؛ (ج3/33).

الفصل الثاني

العوامل الإدارية والحضارية والسياسية لنصر وتمكين الدولة المملوكية

المبحث الأول: تطوير العمران المدني

شهد العصر المملوكي بقيادة أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) تطورًا عمرانيًا هائلًا، حيث تم في عصرهم بناء مؤسسات الدولة، والاعتناء بها، ومتابعة بنائها، ومن أمثلة هذه المؤسسات: البيمارستانات، المدارس، المساجد، المكتبات، والبيوت، الخانقاوات، القصور، والجسور، والأسبلة([1]). فالاسلام يرى تعمير الأرض عبادة، شغل المسلم فيه ثواب، واستدرار الأرزاق، منها: جهاد، والدليل على ذلك آيات قرآنية كثيرة، منها: قول الله تبارك وتعالى: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور"([2]) . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم، عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها"([3]).

وقد تفننوا في عمارتها، وسنفرد في السطور القادمة الحديث عن العمران في عهد السلطان قلاوون، والسلطان الأشرف خليل، والسلطان الناصر محمد، وسلاطين آخرين من أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ونماذج من فن العمارة في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م).

أولًا: العمارة في عهد السلطان قلاوون: اهتمت السلطة المملوكية بإنشاء البيمارستانات؛ نظرًا لأهميتها، وهي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما كان مرافقًا لقوافل الحج منذ لحظة خروجها للحج حتى وصولها إلى مكة، وكانت مزودة بالأطباء والممرضين، مصطحبين معهم مواد الإسعافات في صناديق خاصة بها؛ والتي اختصت بعلاج كل مريض يمرون عليه في موكب حجهم، أو من كان منقطعًا في الطريق، فيتم إسعافه، وتقديم الدواء له، والكسوة والطعام، وجميع ما يحتاج له، ثم أطلقوا عليها اسم مارستانات السبيل، بعد أن تسابق أهل الإحسان في الإنفاق على هذه البيمارستانات.

([1]) الأسبلة: بناء يتكون من 3 طوابق، خُصص الطابق الأرضي لخزان الماء، والطابق الثاني عبارة عن غرفة للسبيل، وتجمع بداخلها أحواض للماء، وأما الطابق الثالث فكان لتعليم الأيتام، أو لسكن المشرف على السبيل. أمين، إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، (ص62).

([2]) الملك: 15.

([3]) أحمد، مسند الإمام أحمد، رقم: 12981، (ج296/20).

النوع الثاني: فكان متنقلًا في الأماكن التي تكثر بها الأمراض والأوبئة.

النوع الثالث: ما كان ثابتًا في مكان معلوم للناس، ولا يتنقل، ويأتون إليه[1]، وهذا الأخير هو الذي سنتكلم عليه.

مدرسة وضريح وبيمارستان قلاوون(683-678هـ/1284-1288م): يعد البيمارستان المنصوري من أجل البيمارستانات التي عُرفت في العهد المملوكي، وفي عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، يقول ابن الفرات في رواية بناء البيمارستان المنصوري: " لما رأى الملك المنصور التربة الصالحية التي أنشأها لوالدة ولده الملك الصالح، بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، أعجبته؛ وأمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعي[2] مدبر الدولة الشريفة بإنشاء تربة له، ومدرسة، وبيمارستان، ومكتب، وسبيل في الدار المعروفة بالقطنية، وما يجاورها بين القصرين، فاشتريت الدار المذكورة من خالص مال السلطان الملك المنصور، وعمل الأمير علم الدين سنجر على إعمارها، فأظهر الاهتمام، والاحتفال مالم يسمع بمثله، فعمرت في أسرع مدة[3]. ويرى الباحث أن السلطان قلاوون بذل كل شيء في بناء مدرسة وضريح، وتربة، وبيمارستان؛ لتثبيت عوامل النصر والتمكين لدولة المماليك البحرية، فكان له ما أراد من خلال اهتمامه بالعمارة، وخاصة البيمارستان القلاووني، فظلت دولة المماليك البحرية قرابة المائة عام ونيف، تحكم، وتسوس البلاد، وعندما تخلى الحكام، والملوك، والسلاطين عن هدف قلاوون في سياسته، وإدارته للبلاد، حيث كان يريد إنشاء دولة إسلامية فتية، تحكم بالقرءان، وتحارب الفساد، وتقاتل من أجل الحفاظ على سيادة الدولة المملوكية، سقطت.

ونحن كشعب فلسطيني ليس بالبعيد عن ما أراده قلاوون، فتحكيم القرءان، والاهتمام ببناء المؤسسات لتعليم القرءان، ونشر العلوم الدينية، والكونية، وتوحدنا، ودفاعنا عن حقوقنا، والمطالبة بالعودة إلى أراضينا، ومقدساتنا، هي من المسلمات التي يجب أن يفهمها الفلسطيني

([1]) السخاوي، الضوء اللامع، (ج1522/9)؛ الديوة، الموجز في الطب الإسلامي، (ص74).

([2]) سنجر بن عبد الله الشجاعي المنصوري، الأمير علم الدين، كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى حتى ولي شاد الدوواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية في أوائل حكم الناصر محمد، وساءت سيرته، وكثر ظلمه، ثم ولي نيابة دمشق، فتلطف بأهلها، وقل شره، ودام بها سنين إلى أن عزله الأمير عز الدين أيبك الحموي، كان له ميل لأهل العلم، وتعظيم للإسلام، قتل سنة 693هـ/1294م. ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج301/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج51/8-52).

([3]) ابن الفرات، تاريخ، (ج278/7)؛ سعيد، الحياة العلمية، (ص199).

البسيط حتى يتحقق النصر والتمكين، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّـهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ"([1]).

ثانيًا: العمران في عهد الأشرف خليل بن قلاوون: تميزت العمارة في عهد الأشرف خليل؛ وذلك من خلال المعالم العمرانية في كل من مصر، والشام، وقد ارتبط اسمه بقصر الأشرفية في قلعة الجبل، والمدرسة الأشرفية في مصر، أما في الشام فارتبط اسمه بآدر سلطاني([2])، والقبة الزرقاء، وقام بتوسيع الميدان في دمشق([3]).

العمارة في الديار المصرية وبلاد الشام: ارتبط اسم الأشرف خليل بالرفرف، أو الإيوان الأشرفي([4])، الذي أمر ببنائه في قلعة الجبل، وجدير ذكره أن السلطان الأشرف بنى لنفسه بناء يضم تربة، ومدرسة، وقد بناها وهو أمير بين عامي (687هـ-688هـ/1288م-1289م)([5])، والدليل على ذلك شريط الكتابة الموجود فوق الضريح، ومكتوب فيه: أن القبة بنيت في شهور عام(687هـ/1288م)([6])، ويتشابه هذا البناء مع ضريح والدته أم الصالح خاتون من حيث: المساحة، والأسلوب المعماري، والزخارف الخطية، أو الجصية([7]). **وفي** الشام أن أتسز بن أوق الخوارزمي(ت471هـ/1087م)([8]) بنى قلعة دمشق في عام (463هـ/1071م)([9]).

([1]) محمد: 7-9.

([2]) الآدر السلطاني: جمع دار، ويقصد به مقر السلطان، ومجالسه. المقريزي، الخطط، (ج356/3)؛ أحمد، معجم الألفاظ التاريخية، (ص13).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج136/3)؛ العيني، عقد الجمان، (ج8/3).

([4]) العيني، عقد ، (ج79/3)؛ ابن خلدون، العبر، (ج871/10)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج378/1).

([5]) القلقشندي، مآثر الإنافة، (ج124/2)؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، (ص31).

([6]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، (ص31)؛ الكرمي، نزهة الناظرين، (ص182).

([7]) الجص: هو الجبص، وهو خام من كبريتات الكالسيوم المهدرنة، وضرب من الحجارة كانت تطحن، وتحرق، وتستخدم في البناء. القلقشندي، مآثر الإنافة، (ج124/2)؛ مبارك، الخطط الجديدة ، (ج3/6)؛ رزق، معجم مصطلحات العمارة، (ص63).

([8]) ملك دمشق السلجوقي، وقام بدر الجمالي بقتله عام (472هـ/1079م) بعد أن سيطر عليها. ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج571/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج323/10).

([9]) ابن كنان، المواكب الإسلامية، (ج212/2).

ثالثًا: التطوير العمراني في عهد الناصر محمد بن قلاوون: عاشت البلاد خلال فترة حكمه بانتعاش اقتصادي كبير، انعكس على الأبنية والعمائر العظيمة، مثل: الجوامع، والمساجد، والمدارس، وغيرها، من المنشآت المعمارية التي لا زالت قائمة في مصر والشام(1)، ونتيجة لكثرة العمائر في عصره، فقد قيل: إن مصر زادت في أيامه أكثر من النصف(2). فقد ذُكر أنه عمَّرَ تسعة وثمانين جامعًا، وثلاثًا وسبعين مدرسة، وثلاثة وثلاثين مسجدًا، وخمسًا وعشرين زاوية، واثنتين وعشرين خانقاه، واثنين وعشرين رباطًا، وخمس بيمارستانات(3). واهتم الناصر بالعمارة، وكان يجمع المهندسين، ويعمل على إنشاء الجسور من سائر البلاد الشامية، وأفرد للعمائر ديوانًا، بلغ مصروفه كل يوم اثنى عشر ألف درهم، إلى ثمانية ألاف(4). وقد صور عدة مؤرخين حب الناصر للعمارة، من ذلك:

– يصور ابن حبيب أن الناصر محمد كان محبا للعمارة، حريصا على بناء المساجد، والمدارس، والخوانق: " مثابرًا على العمارة، ناظرًا إلى محل البهجة والنضارة، ساس الملك أحسن سياسة، وبنى الجوامع، والمساجد، والمدارس، والخوانق"(5).

– ويذكر الدواداري حب الناصر لبناء جامع بساحل مصر سنة (712هـ/1312م): أن الناصر أصدر المراسيم السلطانية بعمارة جامع بساحل مصر سنة (712هـ/1312م)، حيث صلى فيه يوم الجمعة(6)، ويذكر المقريزي مارتب فيه السلطان من القُرَّاء، كما رتَّب فيه خطيبًا(7).

– أما الصفدي فذكر أن السلطان يصرف أموالًا طائلة حُبًّا في العمارة، إضافة إلى الكثير من الأيدي العاملة من عامة الشعب، حيث عمر أماكن كثيرة، وكان يصرف كل يوم على العمارة أجرة سبعة آلاف درهم، وأما ما يصرفه عن ثمن الآلات فلا يعد ولا يحصى(8).

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج129/1)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص124).

(2) الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (ص34).

(3) المقريزي، الخطط، (ج244/2-331)؛ الحجي، السلطان الناصر محمد، (ص71).

(4) المقريزي، الخطط، (ج209/2-211)؛ المقريزي، السلوك، (ج129/1-131).

(5) ابن حبيب، المنتقى من درة الأسلاك، (ص176).

(6) الدواداري، كنز الدرر، (ج211/9).

(7) وهو قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي. انظر: المقريزي، السلوك، (ج952/1).

(8) الصفدي، أعيان العصر، (ج17/5).

- ويصف ابن بطوطة الأبنية في مصر في عهد الناصر، حيث الشكل، والفخامة، والإحكام في البناء، إلى جانب الأصالة والتفنن، ومن ذلك المدارس، حيث كثرت في عهده، وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور، فقد أُعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يُحصر، وكانت الزوايا كثيرة، حيث تنافس أمراء مصر في بنائها([1]). واهتم الناصر محمد بالقدس الشريف، والدليل زيارته للقدس ثلاث مرات، والمسجد الأقصى ثلاث مرات كانت الأولى سنة (710هـ/1310م) ([2])، وكانت الثانية سنة (717هـ/1317م)([3])، أما الثالثة فكانت سنة 718هـ/1318م) ([4])، حيث أمر بإجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام، إلى القدس الشريف، حتى وصل إلى بيت المقدس([5]). وبنائه للمساجد في مصر([6])والشام([7]).

-وأورد ابن أيبك عدد الجوامع التي عُمرت في عهد السلطان الناصر محمد، كانت في القاهرة وحدها ستة وعشرون جامعًا، وفي سائر أنحاء مصر سبعة وعشرون مسجدًا، وفي طرابلس ودمشق والقدس بنى ثلاثة عشر مسجدًا، كما يذكر ابن أيبك عدد القناطر التي بناها الناصر في القاهرة سنة 726هـ/1326م ست قناطر([8]).

وهناك الكثير من المظاهر العمرانية التي أشرف السلطان الناصر عليها، أو أمر ببنائها، منها:

1- اهتمام الناصر محمد بأبنية مكة والمدينة المنورة: حيث زار المسجد الحرام، وتم إصلاح عمارته([9])، وكذلك المسجد النبوي، وإصلاح عمارته، فقد اهتم الناصر محمد بالمسجد النبوي، وقام ببناء منارة رابعة، ورواقين، وجدد الأروقة القديمة التي تقع على يمين ويسار صحن

([1]) ابن بطوطة، الرحلة، (ص21، 37، 56).

([2]) الذهبي، من ذيول العبر، (ص92).

([3]) العيني، عقد الجمان، (ج23/ورقة 109)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج160/1).

([4]) ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج385/2).

([5]) ابن حبيب، تذكرة ابن النبيه، (ج54/2).

([6]) ابن كثير، المختصر، (ج40/14).

([7]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج176/3).

([8]) ابن أيبك، الدر الفاخر، (ص321، 388، 391).

([9]) الجزيري، درر الفرائد، (ج397/1).

المسجد[1]، وفي عام 733هـ/1334م جدد عمارة مسجد قباء في المدينة، والذي كان يتكون من ثلاثة صفوف جهة القبلة، وكل صف يتكون من سبع أساطين[2]. أما في عام 706هـ/1307م أمر بتعمير قبة الشراب، والتي تعرف بقبة العباس[3]، كما اهتم بسطح المسجد الحرام، وأبوابه[4]. وفي حجته الثانية عام 719هـ/1320م أمر المشرف على العمارة الأمير شمس الدين آق سنقر(ت 728هـ/1330م) بالإشراف على تنفيذ جميع ما يأمر به السلطان، من تجديد، أو بناء ما يخص المساجد، أو الأسوار، أو القصور، أو المنازل، أو الحصون لأهالي مكة، أو المدينة المنورة[5]، فتم تعمير رخام الحِجْر بأمر منه في عام 720هـ/1321م[6]، وعُمِر بناء مسجد الإجابة الذي يقع إلى جهة اليسار من الطريق إلى منى[7]، في شعب على مقربة من ثنية أذاخر[8]. أما في عام 733هـ/1334م، أمر ببناء باب للكعبة المشرفة من السنط الأحمر، وحلاه بصفائح من الفضة، وكتب اسمه أسفل هذا الباب، واستبدله عن بابها القديم باب المظفر صاحب اليمن؛ الذي كانت تزينه بعض الحلية من الفضة، والتي وهبها لبني شيبة خدام البيت الشريف[9]. أما المسجد الحرام جُعلت فيه الأساطين التي حول المطاف، وجعل بعضها بالحجارة المنحوتة الدقيقة، والباقي آجر مجصص، وجعل بين الأساطين خشبة ممدودة راكبة عليها، وعلى المقابلة لها لأجل القناديل التي تعلق للاستضاءة حول الكعبة عوض الأخشاب التي كانت في هذا المكان على ضفة الأساطين[10]. وبنى حول مقام إبراهيم عليه

---

[1] السخاوي، التحفة اللطيفة، (ج716/3).

[2] السمهودي، وفاء الوفاء، (ج810/3).

[3] الفاسي، شفاء الغرام، (ج260/2)؛ ابن فهد، اتحاف الورى، (ج144/3).

[4] الجزيري، درر الفرائد، (ج397/1).

[5] القلقشندي، صبح الأعشى، (ج23/4)؛ ابن فهد، اتحاف الورى، (ج166/3).

[6] ابن فهد، اتحاف الورى، (ج172/3)؛ باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، (ص214).

[7] منى: بلدة بالقرب من مكة في درج الوادي الذي ينزله الحاجّ، ويرمي فيه الجمار من الحرم، سمّي بذلك لما يمنى به من الدماء أي يراق، قال الله تعالى:" من مَنِيٍّ يُمْنى" (القيامة: 37). ياقوت، معجم البلدان، (ج198/5)؛ القزويني، آثار، (ص123).

[8] الفاسي، شفاء الغرام، (ج471/1).

[9] ابن كثير، البداية، (ج582/14)؛ ابن إياس، بدائع، (ج461/1) ؛ باسلامة، تاريخ الكعبة، (ص240).

[10] ابن فهد، اتحاف الورى، (ج207/3).

السلام شبابيك من حديد من نواحيه الأربعة، وكانت قبل ذلك من الخشب([1]). وفي عام 728هـ/1329م أنشأ السلطان الناصر محمد مطهرة عند باب بني شيبة، واشترى أرضها ب 25 ألف درهم من أمراء مكة، وأوكل أمرها لسالم الزبيدي([2]). وعُرفت بالمطهرة الناصرية([3]). وتم تشييد سبيل الست في عام 761هـ/1395م بأمر من زهراء بنت السلطان الناصر محمد ابن قلاوون، ويقع على الطريق إلى مشعر منى، وكان يقدم خدمات كثيرة في مواسم الحج([4]). وأرسل مجموعة من البنائين إلى مكة، يرافقهم ابن هلال الدولة مشيد العمائر، وطلب منهم توفير المياه لمكة عن طريق جلب المياه من عين حنين، والتي تعرف بعين جبل الثقبة، وتم إمداد مكة بالمياه، وامتلأت البرك منها، وزُرعت أصناف مختلفة من الخضراوات، والفواكه، وكلفه ذلك 5000 درهم([5]). كما اشتكى له الناس من كثرة انقطاع المياه في البرك التي يتردد عليها الحجاج، ونقص تكاليف نقل المياه من عين في خليص، فخصص مبلغ 5000 درهم، تصرف سنويا لأمير خليص؛ الذي أجرى الماء قبل وصول السلطان، فتحسن الحال([6]).

2-إيوان دار العدل([7])**:** الذي بناه السلطان، وكان يجلس فيه للمظالم، وفيه تكون الخدمة العامة، واستحضار رُسُل المُلوك بوجود القضاة الأربعة([8]).

3- خليج الذكر، أو الخليج الناصري: أشرف الناصر على تجديده، ولما دخل الماء في الخليج، كان يومًا مشهودًا([9]).

([1]) الجزيري، درر الفرائد، (ج1/397).

([2]) علي بن أحمد بن محمد بن سالم ابن علي المكي الشافعي الزبيدي، ولد في زبيد، وتربى ونشأ بها، ودرس العلم على يد مشايخ وعلماء مكة، تولى أمر المطهرة، وأقام في مكة 30 عامًا، ولد 747هـ/1348م، وتوفي عام 818هـ/1415م. الفاسي، شفاء الغرام، (ج6/134-136).

([3]) ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج2/405).

([4]) الفاسي، شفاء الغرام، (ج2/600)؛ ابن فهد، اتحاف الورى، (ج3/286).

([5]) الجزيري، درر الفرائد، (ج1/395-396)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/457).

([6]) المقريزي، الذهب المسبوك، (ج3/22).

([7]) التونجي، العجم الذهبي في الدخيل على العرب بن سالمي، (ص80).

([8]) المقريزي، المواعظ، (ج2/209).

([9]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/456).

4- القصور: من أهم المظاهر العمرانية التي اعتنى بها السلطان الناصر، وعمل على تجهيز قاعاتها، ومن أمثلة القصور التي بناها: القصر الأبلق، حيث تفنن المؤرخون في وصف بنائه، حيث حاكى في بنائه قصر الملك الظاهر بيبرس بظاهر دمشق([1]).

5- مدرسة وضريح الناصر محمد بن قلاوون (703هـ/1304م): ظهرت بعض الفنون المعمارية على مدرسة وضريح الناصر محمد([2]).

6- جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة (735هـ/1335م): أمر الملك الناصر محمد ابن قلاوون بإنشائه عام (718هـ/1318م)، ورغب في توسعته، فهدمه وأعاد بناه من جديد سنة (735هـ/1335م)([3]).

ويبدو أن الناصر محمد نهج نهج والده السلطان قلاوون في تثبيت دعائم النصر والتمكين، وذلك من خلال حرصه على أبنية مكة، والمدينة المنورة، وإصلاح عمارتها، والحرص الدائم على المسجد الحرام، والمسجد النبوي، في مكة والمدينة المنورة. وبنائه لإيوان دار العدل الذي كان يجلس فيه للمظالم، واهتمامه بالخليج الناصري، والمياه، وبناء المدارس، والأضرحة، وإنشاء جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة لهو دليل قاطع على تثبيت دعائم النصر والتمكين، فكان له النصر والتمكين في معارك حربية، مثل: معركة مجمع المروج(699هـ/1299م)، وتأديب أهل كسروان(699هـ/1299م)، وتحرير أرواد(702هـ/1303م)، ومعركة شقحب(مرج الصفر) (702هـ/1303م)، وانتشار العلم، والعلماء، وكثرة حفظة القرءان، وازدهار الحالة الاقتصادية، والاستقرار الذي شهدته دولة المماليك البحرية طوال أربعين عاما.

رابعًا: التعمير في عهد سلاطين أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) وأمرائهم:

1- مسجد ومدرسة السلطان حسن: هو أحد المساجد الأثريّة الشهيرة بالقاهرة، ويوصف بأنه درة العمارة الإسلامية بالشرق، كما يعد أكثر آثار القاهرة تناسقًا وانسجامًا، ويمثل مرحلة نضوج

([1]) المقريزي، السلوك، (ج1/129-131)؛ المقريزي، الخطط، (ص209-211)؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ص349)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/445).

([2]) المقريزي، الخطط، (ص209-211)؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ص349)؛ بهنسي، الفن الإسلامي، (ص216).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج1/129-131)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/445)؛ بهنسي، الفن الإسلامي، (ص218)؛ عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، (ص97)؛ الحداد، القباب، (ص88).

العمارة المملوكية. أنشأه السلطان حسن بن الناصر بخلال الفترة من 757هـ/1356م إلى 764هـ/1363م خلال حقبة حكم المماليك البحرية لمصر. يتكون البناء من مسجد ومدرسة للمذاهب الأربعة (الشافعية، والحنفية، والمالكية، والحنابلة)، وكان يْدَرَّس بها أيضاً علوم تفسير القرآن، الحديث النبوي، القراءات السبع، بالإضافة إلى مُكتِّبين لتحفيظ الأيتام القرآن وتعليمهم الخط[1].

2- مسجد ومدرسة السلطان شعبان (770هـ/1368م): تشير الكتابات التاريخية إلى أن السلطان شعبان هو الذي بنى المسجد لوالدته سنة 770هـ/ 1368م، وهناك من المؤرخين ينسبون إنشاءه إلى خوند بركة أم السلطان شعبان[2].

3- وفي عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) تم بناء العديد من المؤسسات، ومن أمثلة ذلك:

أ- مسجد سلار، وسنجر الجاولي[3](703-704هـ/1303-1304م)[4].

ب- خانقاه بيبرس الجاشنكير، (706-709هـ/1306-1309م)[5].

ج- جامع الأمير ألماس الحاجب سنة (730هـ/1330م)[6].

([1]) المقريزي، الخطط، (ج320/2)؛ عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، (ص101)؛ الباشا، القاهرة تاريخها، وفنونها، (ص83).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج320/2)؛ الحداد، القباب، (ص78، 154)؛ أمين، إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، (ص92)؛ عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، (ص105).

([3]) سنجر الجاولي، هو سنجر بن عبد الله الجاولي، أمير مملوكي في عهد الناصر محمد ولي نيابة غزة مرتين، عمر عدة وأنشأ عدة مساجد وخانقاوات، وبيمارستانات، وخانات ، وكل عمائره متقنة مليحة محكمة. حج في أواخر عمره. وتوفي سنة (745 هـ /1345م)، صنف (كتبا) في الفقه وغيره. الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج292/15)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج73/6-74).

([4]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج73/6-74)؛ الحداد، القباب، (ص63)؛ بهنسي، الفن الإسلامي، (ص218).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج416/2)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج265/1)؛ الباشا، القاهرة تاريخها، وفنونها، (ص81)؛ الحداد، القباب، (ص85).

([6]) الماس الحاجب الناصري كان وجيها عند أستاذه، وكان ذا مكانة مرموقة عند الناصر محمد. الصفدي، الوافي، (ج213/9)، ابن حجر، الدرر، (ج488/1)؛ ماهر، مساجد، (ج176/3).

د- مسجد المارداني[1] سنة (740هـ/1340م)[2].

هـ- مسجد منجك أصلم[3] السلحدار[4] سنة (745-746هـ/1344-1345م) [5].

و- جامع آق سنقر[6](747-748هـ/1346-1347م)[7].

ز- مسجد ومدرسة الأمير صرغتمش[8] (757هـ/1356م)[9].

ح- مسجد ومدرسة ألجاي اليوسفي[10](768هـ/1367م)[11].

---

[1] الطنبغا المارداني، الطنبغا المارداني الساقي تقدم عند الناصر اشتراه صغيرا وزوجه بابنته وهو الذي عمر الجامع بالتبانة، ثم صارت منزلته عند المنصور أبي بكر أعظم وعند الأشرف كجك نقل آخر حياته إلى نيابة حلب إلى أن مات في سنة (744هـ/1343م). ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج487/1).

[2] المقريزي، الخطط، (ج109/4)؛ بهنسي، الفن الإسلامي، (219).

[3] هو الأمير بها الدين أصلم السلحدار، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، ووصل إلى مرتبة الإمارة في عصر ابنه الناصر محمد، عمر في البرقية عند اسطبله مدرسة مليحة إلى الغاية وتربة وربعا وحوض سبيل وتوفي رحمه الله تعالى سنة (746هـ/1345م).الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج168/9-169).

[4] السلحدار أو السلاح دار: هو لقب الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، وهي إحدى الوظائف آنذاك، أصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية، وهو مركب من لفظين: احدهما عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك أو حامل. القلقشندي، صبح ، (ج 2 / 480)؛ (ج462/5).

[5] القلقشندي، صبح ، (ج 2 / 480)؛ (ج462/5)؛ بهنسي، الفن الإسلامي، (219).

[6] آق سنقر بن عبد الله الناصري، الأمير شمس الدين، في عهد الناصر وزوج ابنته، وزادت عظمة آق سنقر عند السلطان أمير حاج بن الناصر محمد؛ ولكن سرعان ما قبض عليه، وقتله أنه أراد الغدر بالمظفر الأمير حاج سنة 748هـ/1347م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج496/2-498).

[7] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج496/2-498)؛ بهنسي، الفن الإسلامي، (219).

[8] هو سيف الدين صرغتمش الناصري أحد مملوكي السلطان الناصر، وصل إلى منصب رئيس الطبلخانة (الموسيقى العسكرية). وقد توفي بعد ثلاثة وسبعين يوما قضاها في السجن بالإسكندرية سنة 759هـ/ 1358م. الصفدي، أعيان العصر، (ج555/2-559)؛ المقريزي، السلوك، (ج239/4).

[9] المقريزي، السلوك، (ج239/4)؛ الحداد، القباب، (ص154).

[10] ألجاي اليوسفي، هو الأمير سيف الدين ألجاي بن عبد الله وصل إلى أمير مائة ومقدم ألف. توفي غرقًا في النيل سنة (775هـ/1374م). المقريزي، الخطط، (ج257/4)

[11] المقريزي، الخطط، (ج257/4)؛ عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، (ص105).

ويتضح مما سبق أن أولاد السلطان قلاوون، وأحفاده نهجوا نهج السلطان قلاوون في تثبيت دعائم أسباب النصر والتمكين، وبناء الدولة الإسلامية المهابة الجانب، فتم إنشاء مسجد ومدرسة السلطان حسن، حيث كان يدرس فيه علوم التفسير، والقرءان الكريم، والحديث النبوي الشريف، وتعليم الأيتام القرءان الكريم، والخط، وكذلك تم بناء مسجد ومدرسة السلطان شعبان، يدرس فيها علوم القرءان، والحديث النبوي الشريف، وكذلك بني مسجد سلار، وسنجر الجاولي، وخانقاه بيبرس الجاشنكير، وجامع الأمير ألماس الحاجب، ومسجد المارداني، ومسجد منجك أصلم السلحدار، وجامع آق سنقر، ومسجد ومدرسة الأمير صرغتمش، ومسجد ومدرسة ألجاي اليوسفي.

المبحث الثاني: تنمية الحياة الفكرية والثقافية

يعد العصر المملوكي من أزهى عصور الإسلام في علومه الفكرية والثقافية، فقد ظهر جليًا ذلك في إنشاء المؤسسات العلمية، فأنفقوا عليها كثيرًا من الأموال، وأولوها اهتماما كبيرًا، من هذه المؤسسات: المساجد، والمدارس، والبيمارستانات([1])، والخانقاوات([2])، والزوايا([3])، والربط([4])، والمكتبات([5])، ووجود العلماء، والمفكرين، والأدباء، والمؤرخين، الذين شاركوا في التدريس، في هذه المؤسسات.

وقد شاركت المرأة في الحياة العلمية، حيث شاركت العلماء، وساهمت معهم في إغناء الفكر العربي، والإسلامي، وتتلمذ على أيدي النساء الكثير من مشاهير العلماء، والمفكرين، والمؤرخين، في مصر، وبلاد الشام، ويعود الفضل في انبعاث الحياة العلمية مرة أخرى للمجتمع الإسلامي إلى المماليك؛ وخاصة المماليك البحرية بعد الغزو المغولي، وتدميره للكتب، والمؤلفات، فنجزم أن عصر المماليك كان عصر صحوة على جميع المستويات، وهذا رد جازم

([1]) قال الجوهري في الصحاح: المارستان دار المرض . ابن واصل، مفرج، (ج55/5)؛الجوهري، الصحاح،(ج978/3)؛ عبد الدايم ، التربية ،(ص162).

([2]) ومفردها خانقاة أو خانكاة، فهي كلمة فارسية الأصل معناها: البيت، وقيل أصلها خونقاة، أي الموقع الذي يأكل فيه الملك. وقد احتوت على عدد من الغرف المخصصة لمبيت الفقراء والصوفية، كانت تؤدي فيها الصلوات، وتقام فيها الأوراد والأذكار، وكان يعقد فيها دروساً في الفقه والأدب، وكانت تشتمل على خزائن للمصاحف والكتب، كانت بمثابة مراكز علم وعبادة، وكان لها دور ديني، واجتماعي كغيرها من المؤسسات الدينية. المقريزي، الخطط، (ج414/2)؛ عبد المهدي، الحركة، (ص78).

([3]) هي بناء صغير للصلاة والعبادة، يتخذه أحد الصالحين سكنًا له، ولمن يرد عليه من الناس، ويقوم بالوعظ والإرشاد فيه. ابن جبير، تذكرة، ص232؛ العسلي، معاهد العلم، (ص75).

([4]) جمع رباط، وهو شبيه بالخوانقاة، وكانت مأوى يلجأ إليه العلماء والرحالة وطلبة العلم، الذين يتنقلون بين حواضر العالم الإسلامي، ويتلقون تعلمهم على أيدي المشايخ والعلماء. وكان العلماء يتخذون من الربط أماكن للمطالعة، والتاليف، وبخاصة في علم التصوف. المقريزي، الخطط، (ج427/2)؛ عبد المهدي، الحركة، (ص75)؛ عبد الدائم، التربية، (ص161).

([5]) عرفت المكتبة بتركيز شديد، " بأنها مجموعة من الأوعية الفكرية نظمت بطريقة تيسر الإفادة منها". النشار، تاريخ المكتبات، (ص63). وهناك تعريفات أخرى للمكتبة. انظر: عمر، المكتبات العامة، (ص3)؛ الشامي، حسب الله، المعجم الموسوعي، (ص652).

على المغرضين من أعداء الأمة ممن وصف تاريخ تلك الحقبة بأنه لم يتجاوز كونه مجرد سير، وتراجم، وسلاطين، وأمراء، محاولًا تجريده من سماته الحقيقية.

أ- المساجد: المسجد لفظة إسلامية لم تكن معروفة قبل ظهور الإسلام، فالاسم والمسمى به قد جاءا مع ظهور الإسلام، فالمسجد لغة يعني اسمًا لمكان السجود([1])، ويعرف المسجد في اللغة على أنه مكان السجود بفتح الميم، وفي الشرع المسجد هو كل موضع من الأرض يسجد فيه لله تعالى؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " جعلت لي الأرض مسجدًا وَطَهُورًا"([2])، وقد خُصص المسجد للصلوات الخمس، وصلاة الأعياد، ونحوها([3]). أما الجامع فكان المكان الأنسب لإقامة الصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين([4])، فالمساجد، والجوامع هي مراكز عبادية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية، وعلمية؛ حيث كانت المساجد معاهد التعليم الأولى، ففيها كان المسلمون يتلقون أصول الدين، ومبادئ الإسلام([5]).

كان للمسجد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم دورٌ مهمٌ في التعليم، فقد عقد الرسول صلى الله عليه وسلم حلقات العلم في مسجده بالمدينة المنورة([6])، وظل الاهتمام في المسجد، وإلقاء العلوم فيه في عصر الخلفاء الراشدين([7])، واهتم بنو أمية، وبعدهم الخلفاء العباسيون ببناء المساجد وتوسيعها، ونشر العلم داخلها، وتقدمت الحركة العلمية في العهدين الزنكي، والأيوبي بشكل كبير([8])، وفي العصر المملوكي، وفي عهد المماليك البحرية كان الاهتمام الكبير في المساجد، حيث تطلب النشاط الديني والعلمي إقامة الكثير من المساجد

([1]) الطائي، الخدمات الوقفية في العراق وبلاد الشام ، (ص5)؛ غالب ، موسوعة العمارة، (ص381، 383).

([2]) ابن حجر، فتح الباري، (ج1/758-759).

([3]) الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، (ص13-14).

([4]) ابن الأخوة، معالم القربة، (ص171)؛ عطية الله، القاموس، (ج1/558).

([5]) ابن عبد البر، جامع البيان، (ج2/23)؛ سالم، محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية، (ص188)؛ عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، (ص255).

([6]) ابن عبد البر، جامع البيان، (ج2/23)؛ السامرائي، المدارس، (ص331).

([7]) البخاري، صحيح البخاري، (ص45).

([8]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج5/132)؛ الوشلي، المسجد ونشاطه الاجتماعي، (ص132).

والجوامع، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد جدد الناصر محمد في دمشق ثلاثة جوامع([1])، وأهم هذه الجوامع: جامع القلعة، والذي أنشأه الناصر محمد بن قلاوون سنة 718هـ/1318م([2]).

وقد أضاف سلاطين المماليك وظيفة التدريس، حيث نظمت بها الدروس، ورتب لها الطلاب، والمدرسون على غرار ماهو متبع في المدارس([3])، كما رتب الدروس في المساجد الكبرى، مثل: جامع عمرو بن العاص، وجامع أحمد بن طولون، والجامع الأزهر، الذي بلغ عصره الذهبي خلال العصر المملوكي من حيث المكانة العلمية، أو الإنتاج الفكري([4]).

وامتازت الدراسة بالحرية التامة، حيث حلقات العلم المتعددة التي تمتلئ بها أروقة المسجد، يختار المدرسون فيها ما يروقهم من الكتب في أي فن من الفنون العربية والإسلامية لتدريسها، ويلتف حولهم من يشاء من الطلاب، دون التزام بمدة محددة؛ فإذا أخذوا كفايتهم انتقلوا إلى غيره لسماعه، والتلمذة عليه([5]).

وقد اشتهرت في عصر المماليك عدة مساجد شاركت في الحياة التعليمية، وأسهمت إسهامًا واضحًا في إثراء الحركة الفكرية والثقافية في مصر وبلاد الشام، واجتذبت أئمة الحديث لعقد حلقاتها بها، مثل:

1-جامع عمرو بن العاص: هو أول جامع أسس في مصر، وفي أفريقيا كلها، أقامه الصحابي الجليل عمرو بن العاص في وسط مدينة الفسطاط التي أنشأنها عقب إتمامه فتح مصر، وقد أطلق على هذا الجامع المسجد العتيق([6]).

([1]) والجوامع هي: جامع تنكز(وهو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري، توفاه الله سنة 741هـ/1340م)، وجامع كريم الدين، وجامع شمس الدين غربال. ابن حجر، الدرر، (ج1-2)/308؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج57/9).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج325/2)؛ السلوك، (ج184/2).

([3]) من تلك المساجد التي رتبت فيها مدارس العلم: الجامع الخطيري، جُعل فيه خزانة كتب جليلة، ورتب فيها دروس الفقه للشافعية. المقريزي، الخطط، (ج124/2).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج124/2)؛ عنان، تاريخ الجامع الأزهر، (ص124).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج325/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج184/2) .

([6]) ابن دقماق، الانتصار، (ج59/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج246/2).

ويعد هذا المسجد من أقدم المعاهد العلمية في مصر، ووجد في هذا المسجد ثمان زوايا للتدريس، واتخذ فيه الشافعي زاوية له في المسجد عرفت باسمه([1])، وظل المسجد في رعاية، وعناية سلاطين المماليك وأمرائهم لم تتوقف أيديهم عن إصلاحه، وتجديده كلما وقع به ضرر، أو حل به خلل في بنائه([2]).

لقد ظل المسجد منذ إنشائه جامعًا تعقد فيه حلقات الدرس التي يتصدرها كبار الفقهاء، والمحدثين، وأطلق على أماكن هذه الحلقات بالمسجد اسم الزاوية؛ لأن القائمين على التدريس في هذا الجامع من الأئمة الكبار، وكبار الفقهاء، كانوا ينزلون في ركن معين، فيجتمع التلاميذ، والمريدون حولهم([3])، وكانت الزاوية تسمى باسم شيخها، أو واقفها([4]). ولقد تمثل النشاط العلمي بجامع عمرو في عدد كبير من الزوايا التي رتبها الأمراء، والأثرياء، وأقفوا عليها الأموال للإنفاق منها على القائمين بالتدريس، ومن تلك الزوايا:

1- الزاوية الخشابية: وكانت تعرف بزاوية الإمام الشافعي؛ لأنه درس بها، فعرفت به، وكان لها أوقاف، ودرس بها الكثير من العلماء، ومنهم القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب([5])، صدر الدين بن المرحل([6]).

2- الزاوية المجدية: وتقع بصدر الجامع فيما بين المحراب الكبير، ومحراب الخمس، رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين (ت 628هـ/1230م)، وجعل لها الملك

([1]) المقريزي، الخطط، (ج255/2).

([2]) ابن دقماق، الانتصار، (ج100/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج254/2).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج251/2-252)؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، ومدارسها، (ج66/1).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج255/2-256)؛ ماهر، قباب مصر وأولياؤها الصالحون، (ج72/1).

([5]) هو الفقيه عيسى بن عمر بن خالد، المعروف بمجد الدين الخشاب، تولى الحسبة بالقاهرة، ووكالة بيت المال، والتدريس بالزاوية الشافعية، والمدرسة الناصرية، توفى سنة 711هـ/1311م. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج379/10)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج285/3).

([6]) هو الإمام محمد بن عمر العثماني مكي، المعروف بصدر الدين المرحل، وابن الوكيل، ولد 665هـ/1266م بدمياط، ونشأ في دمشق، ثم انتقل إلى القاهرة، واستقر بها، وكان فقيهًا محدثًا، ذكيًا قوي الحجة، له مناظرات مع ابن تيمية، توفى سنة 716هـ/1316م. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج259/9)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج233/9)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج419/1).

الأشرف موسى عدة أوقاف بديار مصر، وتصدر في تدريسها قاضي القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي([1]).

3- الزاوية الصحابية: رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن بهاء الدين، وجعل لها مدرسين اثنين أحدهما مالكي، والآخر شافعي، وأوقف عليها أوقافًا بظاهر القاهرة، وجدير ذكره أن هناك خمس زوايا ذكرها ابن دقماق، والمقريزي، وهي: الزاوية الكمالية، الزاوية التاجية، الزاوية المعينية، الزاوية العلائية، الزاوية الزينبية، وأوردا أسماء منشئيها، والأوقاف التي حبست عليها، والمدرسين الذين تولوا التدريس بها([2]).

2- جامع أحمد بن طولون: هو من المساجد القديمة، أنشأه أحمد بن طولون، وانتهى من بنائه سنة (265هـ/879م)، وقد بدأت فيه حركة علمية زاهرة ، ويذكر المؤرخون أن الربيع ابن سليمان المرادي صاحب الشافعي(ت270هـ/884م)، كان يلقي دروسه فيه([3]). إلا أن هذا المسجد بدأ نشاطه يضمحل في ظل وجود المسجد الأزهر، ومسجد الحاكم بأمر الله، وخرب أكثره في أيام الخليفة الفاطمي المنتصر بالله([4])، وفي العصر المملوكي قام بإصلاحه السلطان لاجين، ورتب فيه دروسًا؛ لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرسًا لتفسير القرءان الكريم، ودرسًا للحديث، ودرسًا للطب([5])، وجعل لهذه الدروس مدرسًا لكل طائفة، ومعيدين، وطلبة، ثم أقام الأمير يلبغا العامري الخاصكي(ت776هـ/1375م)، وهو من مماليك الناصر محمد ابن قلاوون بإقامة درس بالجامع سنة 767هـ/1375م فيه سبعة مدرسين للحنفية([6]).

3- الجامع الأزهر: بلغ عصره الذهبي خلال العصر المملوكي من حيث المكانة العلمية، أو الإنتاج الفكري، حيث توالت على الجامع الأزهر يد الإصلاح والتجديد، وحبست الأوقاف عليه طوال العصر المملوكي، فعاد إليه نشاطه القديم، واسترد عافيته الأولى، وغدا مقصد الأساتذة،

([1]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج327/2)؛ السيوطي، بغية الوعاة، (ج47/2).

([2]) ابن دقماق، الانتصار، (ج100/1)؛ المقريزي، الخطط، (ج255/2).

([3]) السبكي، طبقات، (ج123/2)؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، (ج148/2)؛ سيدة، أحمد بن طولون، (ص133).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج268/2)؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، ومدارسها، (ص106).

([5]) ابن الفرات، تاريخ، (229/8-230)؛ المقريزي، الخطط، (ج268/2).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج269/2)؛ محمود، التعليم في مصر، (ص230).

والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامي([1]). وبدأ الأزهر منذ القرن الثامن الهجري يتبوأ مكانة رفيعة في مصر، والعالم الإسلامي، ويجتذب إليه كبار العلماء للتدريس به، من أمثال: علي ابن يوسف بن جرير اللخمي شيخ الإقراء في عصره([2])، ومحمد بن يوسف بن حيان النحوي الكبير([3])، صاحب البحر المحيط في التفسير، وابن خلدون الذي قدم مصر في غرة شوال سنة 784هـ/1382م([4]). على الرغم من أن القاهرة كانت يومئذٍ تحتفل بطائفة كبيرة من المدارس التي رسمت مكانتها العلمية بانتظامها، وتولى أكابر العلماء، والأساتذة التدريس بها، فإنها كانت تعتبر بالنسبة للأزهر زاوية من زواياه، فكان الأزهر المدرسة الأم في ظل تلك الحقبة، وهو الجامعة الإسلامية الكبرى التي لا تنافسها أي جامعة أخرى([5]). وهناك جمع كبير من الجوامع في العصر المملوكي خاصة في القاهرة وغيرها من مدن مصر، حملت رسالة الدين والعلم معًا، فهي دار علم، وعبادة في نفس الوقت، لذلك نالت العناية الكبيرة من قبل حكام المسلمين، وخاصة أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، حيث أقيمت فيها حلقات الدروس لمختلف العلوم، كالفقه، والحديث، والتفسير، واللغة، والنحو، والعلوم العقلية، إضافة إلى مجالس القضاء، والوعظ، وغيرها، ومن أمثلة هذه المساجد: جامع الحاكم([6])، الجامع الأقمر([7])، جامع

([1]) المقريزي، الخطط، (ج51/4)؛ عنان، تاريخ الجامع الأزهر، (ص119، 124).

([2]) ولد سنة 644هـ/1247م، وشغف بعلوم القرءان، ونبغ في القراءات حتى تصدر الإقراء بالجامع الأزهر، وتكاثر عليه الطلبة، وتوفى سنة 713هـ/1313م. السيوطي، حسن المحاضرة، (ج506/1).

([3]) هو أبو حيان بن يوسف بن علي إمام النحاة في عصره، ولد في غرناطة سنة 654هـ/1248م، وبها نشأ، وتعلم، وقرأ بها القراءات، والنحو، واللغة، ثم قدم إلى مصر، واستقر بها، له مؤلفات كثيرة، توفى سنة 745هـ/1345م. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج276/9)؛ السيوطي، حسن، (ج534/1).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج480/3).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج51/4)؛ عنان، تاريخ الجامع الأزهر، (ص126).

([6]) أسسه الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة 380هـ/990م، وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله، كان يدرس فيه الفقيه الحنفي لؤلؤ بن أحمد النحوي(ت672هـ/1360م)، وفي عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، رُتب فيه دروسا للفقه على المذاهب الأربعة، ودرسا للحديث، ودروسا في القراءات، وفي النحو. المقريزي، الخطط، (ج273/2)؛ ابن حجر، انباء، (ج21/1)؛ السيوطي، بغية، (270/2).

([7]) بناه الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة 519هـ/1125م، بدأ التدريس في هذا الجامع منذ وقت مبكر، كان يدرس فيه الفقه الشافعي، والنحو. المقريزي، الخطط، (ج79/4)؛ عطية الله، القاموس ، (ج153/1).

المقس([1]). ومن الجوامع: الجامع الأفخر([2])، جامع الظاهر([3])، جامع قلاوون([4]). ومن الجوامع أيضا: جامع القلعة([5])، جامع آق سنقر([6]). ومن الجوامع أيضًا: جامع الخطيري([7])، جامع المارداني([8]).

([1]) أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله بالمقس على شاطئ النيل، جدد الجامع سنة 770هـ/1368م، كان في الجامع مدرسًا، وخطيبًا، ومؤذنين. المقريزي، الخطط، (ج68/4)؛ بدوي، الحياة، (ص19).

([2]) أنشأه الخليفة الفاطمي الظافر بنصر الله سنة 543هـ/1148م. رُتب فيه التدريس للفقه، وقراءة القرآن، والنحو، والقراءات، يعرف بجامع الفاكهاني. ابن الجزري، غاية،(ج256/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج293/2،283).

([3]) بنى الظاهر بيبرس هذا الجامع سنة 665هـ/1266م، كان له خطيبًا حنفي المذهب، وفيه معلم للقراءات يدعى الشيخ ضياء الدين موسى الزرازري، وغيره. ابن دقماق، الانتصار، (ج115/1-120)؛ المقريزي، الخطط، (299/2)؛ بدوي، الحياة، (ص19).

([4]) بنى هذا الجامع السلطان المنصور قلاوون سنة 684هـ/1285م، وبنى القبة المنصورية التي فيها قبر المنصور قلاوون، وابنه الناصر، وحفيده الصالح إسماعيل، وفي هذه القبة دروسًا للفقه، وبها درس للتفسير، وآخر للحديث، وقد أوقف السلطان قلاوون على هذا الجامع الكثير من الأوقاف، وكانت وارداتها توزع على شكل رواتب وجرايات، وكسوات، وغيرها للطلبة والمدرسين. أبو الفدا، المختصر، (ج142/4)؛ الذهبي، المعجم، (ص267)؛ المقريزي، الخطط، (ج380/2)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (508/1).

([5]) أنشأه بقلعة الجبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 718هـ/1318م، ورتب فيه عشرين مؤذنًا، وقدر فيه درس الفقه، وقارئا يقرأ القرءان، ودرس فيه الفقه الشافعي بهاء الدين عبد الله بن عقيل، وأوقف عليه السلطان أوقافًا كثيرة تكفي مؤونة العاملين فيه. ابن كثير، البداية، (ج40/14)؛ المقريزي، الخطط، (ج212/2، 325)؛ ابن حجر، الدرر، (ج176/3)؛ الحجي، من مظاهر التعليم، (ص397-398).

([6]) شيده الأمير آق سنقر أحد مماليك قلاوون، وقدر فيه درسًا للفقهاء الشافعية، وولي خطابته الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الشافعي. الاسنوي، طبقات، (ج239/2)؛ ابن الجزري، غاية، (ج1/ 428).

([7]) أنشأه الأمير عز الدين أيدمر الخطيري سنة (737هـ/1336م)، وهو من مماليك الملك الناصر، جعل فيه خزانة كتب جليلة، ورتب فيه درسًا للفقهاء الشافعية، وجعل عليه أوقافًا كثيرة. المقريزي، الخطط، (ج309/2)؛ الحجي، من مظاهر التعليم، (ص399).

([8]) بناه الأمير علاء الدين الطنبغا بن عبد الله المارداني، أحد مماليك الناصر محمد، وافتتحه سنة (740هـ/1339)، وأول من خطب فيه الشيخ ركن الدين عمر بن إبراهيم الجعبري، وقد درس فيه الفقه الحنفي الشيخ قوام الدين السكاكي، ثم قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر الأتقاني، وغيرهما. المقريزي، الخطط، (ج308/2)؛ عطية الله، القاموس، (ج537/4)؛ الحجي، من مظاهر التعليم، (ص396).

ومنها أيضا: جامع أصلم([1])، جامع منجك([2])، جامع السلطان حسن([3])، جامع الإسكندرية([4])، جوامع الصعيد([5]).

وفي بلاد الشام كان للمساجد الدور الفكري، والثقافي، والتربوي، والتعليمي الكبير، **وذلك** لقوله تعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"([6]).

ومما يدل على مكانة المساجد عند الله أن عُمَّارها ماديا ومعنويا هم صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم من عباده المؤمنين، قال تعالى: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"([7]).

([1]) أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلحدار سنة (746هـ/1345م)، وهو أحد مماليك السلطان قلاوون، رتب فيه درسًا للفقه، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة. ابن قطلوبغا، تاج التراجم، (ص18)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج470/1).

([2]) أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفي(751هـ/1350م)، ورتب فيه صوفية يدرسون الفقه والحديث، ورتب فيه خطيبًا. المقريزي، الخطط، (ج309/2).

([3]) بناه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمدف سنة (757هـ/1356م)، وأكمل بناءه الطواشي بشير الجمدار (764هـ/1362م)، وجعل السلطان فيه أربع مدارس للمذاهب الأربعة، وأوقف عليها أوقافا كثيرة في مصر والشام. المقريزي، الخطط، (ج316/2)؛ عطية الله، القاموس، (ج83/2).

([4]) بناه الوزير الفاطمي أمير الجيوش بدر الجمالي سنة (477 ، هـ/1084م)، أصبح هذا الجامع معهد علم، وينبوع ثقافة، وتنوعت الدراتسات فيه، وبرع فيه كثير من طلاب العلم، وأساتذتهم، ومنهم: أبو القاسم مخلوف أحد كبار المالكية، الذي أذاع هذا المذهب في الإسكندرية، وكذلك درس فيه النحو الشيخ بهاء الدين بن أبي الكرم الأسواني، وغيره. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج174/6)؛ بدوي، الحياة، (ص20).

([5]) إن جوامع الصعيد بإسنا، وأسيوط، وقفط، وقوص، وأدفو، وأسوان، وأسفون، وأرمنت، كانت مواطن الثقافة في الصعيد قبل أن تنشأ المدارس في أكثر هذه البلاد، وبرز فيها الكثير من العلماء، ومنهم المحدث: أحمد بن عيسى(ت691هـ/1291م)، ومحمد بن إبراهيم السبتي(ت695هـ/1295م)، والذي كان عالمًا بالهندسة، والهيئة، وعلوم أخرى. الأدفوي، الطالع السعيد، (ص34)؛ بدوي، الحياة، (ص22).

([6]) البقرة: 114.

([7]) البقرة: 127-128.

ومن أهم هذه الجوامع في بلاد الشام:

1- المسجد الأموي([1]): ويمكن إدراك الدور التعليمي، والتربوي، والعلمي، للمسجد الأموي من تعدد مظاهر نشاطاته، وهي:

أ- **المقصورات الخاصة:** اتخاذ المقصورات الخاصة بالخلفاء مكانًا لتلاوة القرءان الكريم، وللنسخ، والدرس، ومن أبرز هذه المقصورات في المسجد الأموي: مقصورة الصحابة ([2]).

ب- المشاهد: ومفردها مشهد: وهو مسجد مستقل يلتحق فيه طلبة العلم، ومن أبرز المشاهد فيه: مشهد أبي بكر([3])، ومشهد عائشة([4])، ومشهد عثمان([5])، ومشهد الحسين بن علي([6]).

ج- الزوايا: وهي عبارة عن ركن من أركان الجامع، يقصدها الطلبة لممارسة نشاطهم الديني، والعلمي، ويوجد في المسجد الأموي العديد من زوايا العلم، من أبرزها: الغزالية، القوصية، الصلاحية، المالكية للطلبة المغاربة، والزاوية الشمالية الشرقية([7]).

د- الأسباع: هي قراءة القرءان الكريم، وختمه في سبعة أيام، في مكان خصص النعيمي، وقد قدرها لهذا النوع من النشاط في الجامع الأموي، أطلق عليه اسم الأسباع بأربعة وعشرين، ويوافقه ابن شداد في ذلك([8]).

هـ- الحلقات: ترجع أصولها إلى الترتيب الذي كان يجلس فيه الطلبة في المسجد، فكانوا يجلسون حول المعلم، مواجهين له. وكانت الحلقات على شكل مجموعات تضم عددًا محددًا من

([1]) يقال له جامع دمشق، أو امع بني أمية، أو الجامع المعمور، قام ببنائه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة (86هـ/705م) في مدينة دمشق. النعيمي، الدارس، (ج285/2-286).

([2]) ابن جبير، الرحلة، (ص214).

([3]) ابن شداد، الأعلاق، (ص81)؛ الوشلي، المسجد ونشاطه الاجتماعي، (ص146-147).

([4]) النعيمي، الدارس، (ج306/2).

([5]) ابن جبير، الرحلة، (ص216).

([6]) المرجع السابق، (ص216، 237).

([7]) ابن شداد، الأعلاق، (ص246-248).

([8]) من أبرز هذه الأسباع: سبع الأمير مجاهد الدين إبراهيم، وسبع الساوجي، وسبع ابن عبد، وسبع فخر الدين المالكي، وغيرها. ابن شداد، الأعلاق، (ص82-83)؛ النعيمي، الدارس، (ج315/2-316).

الطلاب، وخاصة في الدراسات اللغوية، ومن أبرز الحلقات المعروفة: حلقات الميعاد المستخدمة للوعظ الديني، والإرشاد، والحث على التقوى. أما حلق العلوم، فهي كثيرة ([1]).

2- المسجد الأقصى([2]): عمل المماليك على تنشيط الحركة العلمية، وإبراز دور المسجد الأقصى، وقد ضم المسجد الأقصى عددًا كبيرًا من المدارس كالمعظية، والأمجدية، والجالولية، والتنكزية، والخاتونية، والأرغونية، والعثمانية، والأشرفية؛ إضافة إلى بعض الزوايا، والخوانق، وغير ذلك من المراكز العلمية([3]). كما أضيف إلى المسجد الأقصى مصاطب لجلوس الطلبة للاستماع إلى الدروس، ومنها: مصطبة قبة موسى التي أنشئت سنة (674هـ/1275م) بين باب السلسلة، والزاوية الجنوبية الغربية من الحرم([4]).

3- جامع حلب: يعد الجامع الكبير في حلب من الجوامع المهمة في بلاد الشام، شيده الخليفة سليمان بن عبد الملك، وقيل: إن أخاه الوليد بن عبد الملك هو الذي قام ببنائه([5])، ازدهر هذا الجامع في عهد المماليك؛ حيث تميز بنشاطه الثقافي والعلمي([6])، وكان يدرّس فيه علوم الفقه والحديث والقراءات واللغة والنحو والتفسير([7]). وفي مدينة حلب بنيت العديد من المساجد لتنمية الحياة الفكرية والثقافية على يد رجال الدولة([8]). وجدير ذكره أن هناك العديد من المساجد التي مارست دورها الفكري، والثقافي في بلاد الشام، في دولة المماليك البحرية، وفي مدينة طرابلس

([1]) من أبرز هذه الحلقات: حلقة الشيخ رشيد الدين الفارقي، حلقة الشيخ برهان الدين بن المراغي، حلقة القاضي زين الدين بن المراحل. ابن شداد، الأعلاق، (ص82)؛ النعيمي، الدارس، (ج315/2-316).

([2]) الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج359/1-361)؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، (ص168)؛ خسرو، سفرنامة، (ص61، 64)؛ ابن الجوزي، فضائل القدس، (ص84،89)؛ الهروي، الإشارات، (ص32)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج166/5، 169)؛ العمري، مسالك، (ج543/3-544)، ابن بطوطة، رحلة، (ص246).

([3]) الحنبلي، الأنس الجليل، (ج34/2-40)؛ العسلي، معاهد العلم، (ص34).

([4]) الحنبلي، الأنس الجليل، (ج34/2-40)؛ العسلي، معاهد العلم، (ص39-40).

([5]) ابن العديم، زبدة الحلب، (ص82)؛ ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، (ص16).

([6]) ابن العديم، بغية الطلب، (ج4156/9)؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، (ص123).

([7]) ياقوت، معجم الأدباء، (ج2892/7)؛ ابن العديم، بغية الطلب، (ج1003/2).

([8]) من هذه الجوامع: جامع الزكي، الذي بناه الشيخ محمد بن أحمد بن خليفة الزكي، شيخ الطائفة السعدية في حلب سنة (700هـ/1301م)، وجامع المهمندار، والذي بناه الأمير الحسن بن يلبان بن المهمندار حاجب الحجاب بحلب سنة (702هـ/1303م). العرضي، معادن الذهب، (ص126-136).

أنشئت عدة جوامع لممارسة الحياة العلمية فيها([1]). وفي مدينة حماة ([2]). وفي مدينة صفد([3]) أيضا. وفي دمشق بنيت عشرة جوامع([4])، ومن المدن عجلون([5])، نابلس([6]).

([1]) من هذه الجوامع: مسجد عبد الواحد المكناسي، الذي أنشأه عبد الواحد المغربي المكناسي سنة 693هـ/1294م. والجامع المنصوري الكبير، والذي بدأه السلطان قلاوون، وأكمل بناءه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل سنة 715هـ/1315م. ومسجد التوبة الذي بناه عيسى بن عمر البرطاسي ما بعد سنة 715هـ/1315م. ومسجد ومدرسة البرطاسي، والذي أنشأه ناصر الدين أو بدر الدين عطار أحد أثرياء طرابلس سنة 735هـ/1335م. وجامع العطار والذي بناه سيف الدين طينال الحاجب نائب السلطنة سنة 736هـ/1336م. انظر: كرد علي، خطط الشام، (ج6/52-55)؛ سالم، طرابلس الشام، (ص418-432)؛ الخرابشة، نيابة طرابلس، (ص201-202)؛ تدمري، خطط طرابلس، (ص16-22).

([2]) من هذه الجوامع: جامع القان، كان موجود سنة 672هـ/1274م. جامع العزي، والذي بناه محمد بن حمزة العزي سنة 723هـ/1324م. جامع أبي الفداء أو جامع الدهشة، الي بناه الملك المؤيد. جامع السلطان، والذي بناه بدر الدين حسن شقيق أبو الفداء سنة 726هـ/1327م. وجامع ابن الولي، والذي بناه زين الدين عبد الرحمن علي بن إسماعيل البارزي(ابن الولي). انظر: جبران، مملكة حماة، (213-223).

([3]) من هذه الجوامع: الجامع الظاهري، الذي بناه الظاهر بيبرس سنة 664هـ/ 1266م. وجامع قلعة صفد، والذي بناه أيضا الظاهر بيبرس سنة 664هـ/ 1266م. وجامع الأمير فيروز، والذي بناه الأمير نجم الدين فيروز سنة 727هـ/1327م. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، (ص26-27)؛ الطراونة، مملكة صفد، (ص259-261).

([4]) من هذه الجوامع: جامع المرجاني، الذي بناه بهاء الدين محمد بن أحمد المرجاني سنة(669هـ/1271م)، وجامع الملاح، الذي بناه الصاحب شمس الدين غبريال أمير الدواوين بدمشق سنة(701هـ/1302م)، وجامع الأفرم، والذي بناه جمال الدين نائب السلطنة الأفرم سنة (706هـ/1307م)، وجامع تنكز الذي بناه أمير الأمراء تنكز نائب الشام سنة (717هـ/1317م). انظر: النعيمي، الدارس، (ج2/321-341).

([5]) تعد عجلون مدينة عربية أردنية تتبع إدارياً إلى محافظة عجلون، وأنشأت عام 2000م قبل الميلاد، وتقع جغرافيًا في الجهة الشمالية الغربية من الأردن، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الملك عجلون أحد ملوك مؤاب الذي عاش قبل الميلاد. ابن بطوطة، رحلة، (ج1/256).

([6]) نَابُلُسُ في فلسطين، سميت بذلك إنه كان واد فيه حية قد امتنعت فيه وكانت عظيمة جدّا وكانوا يسمونها بلغتهم لس فاحتالوا عليها حتى قتلوها وانتزعوا نابها وجاءوا بها فعلّقوها على باب هذه المدينة فقيل: هذا ناب لس، أي ناب الحية، ثم كثر استعمالها حتى كتبوها متصلة نابلس هكذا وغلب هذا الاسم عليها. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج1/356)؛ الإصطخري، المسالك والممالك، (ص58)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج5/248).

ومن المدن الأخرى: غزة([1])، حمص([2]) كان فيها مساجد، ومساجد أخرى([3]).

ب–المدارس: لعل أول مكان تعليمي عرفه المسلمون كان دار الأرقم بن أبي الأرقم، وبعد الهجرة تغير الوضع بالنسبة للمسلمين؛ حيث أصبحت لهم دولة تحمي مصالحهم، وبدأ النبي في تأسيس مؤسسات هذه الدولة الجديدة، فبعد بيوت مكة في المرحلة الأولى ظهر المسجد كمؤسسة، ومدرسة دينية وتعليمية، فقد روى عبد الله بن عمرو قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد فإذا هو بحلقتين إحداهما يقرؤون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويُعلّمون فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كل على خير هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلّمون إنما بُعثتُ معلّمًا"([4]). فلم تعرف المدارس في عهد الصحابة ولا التابعين([5])؛ وإنما ظهرت في القرن الخامس للهجرة؛ حيث أول من بناها نظام الملك عام (459هـ/1066م)([6])، وبدايتها كانت بسيطة، ثم تطورت بتطور الدولة الإسلامية وتوسعها، والحاجة الملحة إلى العلم والعلماء، وقد كانت المدارس بمثابة جامعات تقوم بتعليم اللغة، وتلاوة القرآن الكريم، والآداب، والفلسفة، والطب، والهندسة، والفلك، والموسيقى، والغناء، والرياضيات، وسواها من العلوم مع العلم أن بعض المدارس كانت تقوم بتدريس أكثر من علم([7]).

([1]) غزة آخر مدن فلسطين مما يلي الجفار، وطريق مصر مدينة غزة، وبها قبر هاشم بن عبد مناف، وبها مولد محمّد بن ادريس الشافعيّ وفيها ايسر عمر بن الخطّاب فى الجاهليّة؛ لانّها كانت مستطرقا لاهل الحجاز. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج356/1-357، 376)؛ اليعقوبي، البلدان، (ص167)؛ الإصطخري، المسالك والممالك، (ص58)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج202/4).

([2]) حمص من أوسع مدن الشام ولها نهر عظيم منه شرب أهلها(المقلوب)، مدينة حمص هي قصبة الجند، وهي من أصحّ بلدان الشام هواء. الإدريسي، نزهة ،(ج649/2-650)؛ اليعقوبي، البلدان، (ص160).

([3]) كرد علي، خطط الشام، (ج6/ص59-60)؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، (ص213-225).

([4]) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، حديث رقم: 229، (ج83/1).

([5]) ابن بطوطة، رحلة، (ج203/1). ذكر المقريزي: أن عدد المدارس في زمانه سبع عشرة مدرسة. الخطط، (ج170/2)؛ (ج4 /199-272)؛ الحديدي، الحياة العلمية في بلاد الشام في ظل الزنكيين، (ص151).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج170/2)؛ (ج4 /199-272)؛ بخش، الحضارة الإسلامية، (ص173)؛ أحمد، تاريخ التربية والتعليم، (ص92)؛ حمزة ، الحركة الفكرية في مصر، (ص192)؛ فليح، التعليم، (ص390).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج170/2)؛ (ج4 /199-272)؛ فروخ ، تاريخ الأدب العربي، (ج344/3).

مدارس مصر: فمنذ أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس تبرز على الساحة كمراكز للتعليم، وكان القادرين من أهل الخير والمعلمون هم أول من أقام المدارس، ثم بدأ السلاطين، والحكام، والأمراء، يساهمون في إنشائها في القرنين الخامس والسادس الهجريين، حيث انتشرت بشكل واسع في مختلف المدن الإسلامية([1]). يأتي اهتمام المماليك بالمدارس؛ ذلك نابعًا من روح التدين فيهم، وتعلقهم بالعلم والتعليم؟، والعلماء، وقد عبر بعض العلماء عن دهشتهم من كثرة المدارس، من ذلك قول ابن بطوطة: " لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"([2])، وكذلك قول القلقشندي: " إن هؤلاء المماليك بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها"([3])، ومن أشهر هذه المدارس:

أ–المدرسة المنصورية: أنشأها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، ورتب في هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة، لكل طائفة مدرس وثلاثة معيدين([4])، ودرس تفسير للقرآن الكريم([5])، ودرسًا للحديث النبوي الشريف([6])، وتولى مشيخة الحديث بالمنصورية أبو الحسن الهكاري([7]) ودرسًا في الطب([8]).

وكان يتولَّى التدريس بها كبار الأئمة وأعيان الفقهاء والمُحَدِّثين. وتتضمَّن حُجَّة الوقف التي كتبها قلاوون إشارات كثيرة تتعلَّق بتنظيم العملية التعليمية داخل المدرسة؛ وذلك من حيث مقرِّ الدراسة، وجلوس أهل المذاهب الأربعة بها، وأماكن سكن المدرِّسين الفقهاء وأجورهم

([1]) ابن بطوطة، رحلة، (ج203/1)؛ محمد، تاريخ التعليم الطبي عند العرب والمسلمين، (ص15).

([2]) ابن بطوطة، رحلة، (ص70).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج367/3).

([4]) ابن الفرات، تاريخ، (ج278/7)؛ المنصوري، مختار الأخبار، (ص85)؛ ابن دقماق، نزهة الأنام، (ص40).

([5]) ابن دقماق، نزهة الأنام، (ص40)؛ المقريزي، الخطط، (ج480/3).

([6]) الصديقي، قطف الأزهار "مخطوط"، (ص173–174).

([7]) هو أحمد بن أحمد بن الحسين بن موسى بن موسك الهكاري، اشتغل بالحديث، وولي مشيخة الحديث بالمنصورة. ابن حجر، الدرر، (ج105/1).

([8]) سكن المدرسة ابن النفيس، وصنف فيها تصانيفه المشهورة في الطب. المقريزي، الخطط، (ج379/2)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج264/2).

ورواتبهم.. وغير ذلك من الشروط، وتُعَدُّ المدرسة من أروع المدارس المملوكية التي شُيِّدت بالقاهرة لعمارتها الراقية، وزخارفها الرائعة([1]).

ولم تكن القبة المنصورية([2]) التي أقامها لتكون مدفنًا له مقصورة على هذا الغرض؛ بل جعل منها مدرسة ومسجدًا، ورتَّب بها خمسين مقرئًا؛ يقرءون القرآن ليلاً ونهارًا، وخصَّص لها إمامًا للصلاة، وعالمًا لتفسير القرآن للطلاب الذين يؤمون القبة، وجعل بها خزانة للكتب، وخازنًا يقوم بأمرها، وهذه القبة من أجمل القباب الباقية بمدينة القاهرة([3]).

ب- المدرسة الناصرية: ابتدأها العادل كتبغا([4])، وأتمها الناصر محمد بن قلاوون، فُرِغَ من بنائها سنة ثلاث وسبعمائة، ورتب بها أربعة أواوين، كل منها خاص بأحد مدرسي المذاهب الأربعة، فالمدرس المالكي اختص بالإيوان القبلي والشافعي بالإيوان البحري والحنفي بالإيوان الشرقي والحنبلي بالإيوان الغربي، قال المقريزي :أدركت هذه المدرسة وهي محترمة إلى الغاية، يجلس بدهليزها عدة من الطواشية، ولا يُمَكّن غريب أن يصعد إليها([5]).

ج- مدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون([6]): شرع في بنائها سنة 757هـ/1356م، وكان في موضعها دور وإسطبلات، وهي مسجد كبير يضم أربع مدارس للمذاهب الأربعة([7]).

د- المدرسة الحجازية: أنشأتها السيدة خوندتتر الحجازية، بنت السلطان محمد بن قلاوون وزوجة بكتمر الحجازي وإليه تُنسب([8]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج2/379)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج2/264).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج2/379)؛ ماهر، قباب مصر، (ص3-71).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج2/380).

([4]) هو الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، تسلم الملك مدة يسيرة ولقب بالعادل ثم خلع وتقلبت به الأحوال حتى أصبح نائب السلطنة في حماة، كان من أكابر الدولة وفيه شجاعة وخيرة وحسن خلق، توفي سنة 702هـ/1303م، ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج3/262).

([5]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج2/265)؛ عاشور، المجتمع المصري، (ص160).

([6]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج2/38)؛ ماهر، مساجد مصر، (ص282).

([7]) المقريزي، الخطط، (ص2-36)؛ عاشور، المجتمع المصري، (ص166).

([8]) المقريزي، الخطط، (ص2/382)؛ عاشور، المجتمع المصري، (ص166).

وقد رَتَّبتْ فيها درسًا للفقهاء المالكية وآخر للشافعية، وجعلت فيها خزانة لأمهات الكتب، كما أنها أقامت بجوارها قبة لتدفن فيها([1]).

هـ- المدرسة المؤيدية([2]): أسسها الملك المؤيد سيف الدين أبو النصر([3])، نزل بها المدرسون من المذاهب الأربعة، ورتب درسا للحديث، ودرسا للطب والميعاد، وقراءة البخاري في أشهر رجب، وشعبان، ورمضان، ورتب القراءات السبع درسًا وقراءة، ودرس فيها الطحاوي، وغيره([4]).

و- مدارس أخرى: كانت هناك العديد من المدارس، قد انتشرت في طول البلاد وعرضها، مثل: مدرسة صَرْغَتْمَش التي بناها الأمير سيف الدين صرغمتش أحد مماليك الناصر محمد ابن قلاوون سنة 757هـ/1356م، ورتب فيها درسًا للحديث وآخر للفقه الحنفي، على خلاف المدارس الأيوبية، والمملوكية التي كانت تدرس الفقه الشافعي، والفقه المالكي([5]).

هذا بالإضافة إلى المدارس التي كانت منتشرة من قبل إبان عهد الدولة الأيوبية، والتي اهتمت اهتمامًا بالغًا بإنشاء المدارس ومن هذه المدارس: المدرسة الصلاحية، والمدرسة الكاملية، والمدرسة الصالحية، وغيرها([6]).

مدارس بلاد الشام: وقد كانت أكثر مدارس بلاد الشام تُدرس علوم القرآن الكريم، والحديث، والفقه الحنفي، في حين أن أغلبها في بلاد الشام كانت تدرس على المذهب الشافعي([7]).

وقد تنافس كبار العلماء لينالوا حظوة التدريس في هذه المدارس، وجرت العادة أن يوقف للطلبة راتب شهري مقداره عشرة دراهم، وللمعيد عشرون درهماً، وللمدرس ثمانون درهماً([8]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ص382/2)؛ عاشور، المجتمع المصري، (ص166).

([2]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج269/2).

([3]) ابن شاهين، نزهة الأساطين، (ص126).

([4]) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، (ج369/2).

([5]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج268/2).

([6]) المرجع نفسه، (ج262/2-263).

([7]) ابن بطوطة، رحلة، (ج331/1)؛ عثمان، المؤسسات الدينية، (ص8).

([8]) ابن بطوطة، رحلة، (ج331/1)؛ الخطيب، تاريخ المغول والمماليك، (ص114).

وقد تقاضى مدرسو المدارس، والخوانق، والربط، رواتب جيدة عمومًا أمنت لهم مستوى لائقًا من العيش، خصوصًا إذا كان ناظر المدرسة كريمًا صالحًا ومتقيدًا بشروط الواقف([1]).

أما مدرسو المساجد، فكانوا لا يطلبون أجرًا إجمالًا سوى الثواب عند الله، وما أوقفه بعض الأمراء، وأهل الخير من أوقاف على التعليم في المساجد([2]). ووجود المدرسة شأنها كشأن بقية المؤسسات الدينية والعلمية والخيرية في ذلك العصر – فكان نظام الأوقاف خير دعامة تشد أزرها، وتمكنها من البقاء، والاستمرار في أداء رسالتها، وبعبارة أخرى فإن حياة المدرسة لم تكن رهينة مؤسسها أيًّا كان مركزه وثروته؛ وإنما كان صاحب المدرسة يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن لها الاستمرار، والنهوض بواجبها بعد وفاته، وهذه الأوقاف قد تكون أرضًا زراعية، أو عقاراتٍ، أو أسواقًا، أو حوانيتٍ، وحماماتٍ .. تدر إيرادًا ثابتًا ينفق منها على صيانة المدرسة، ودفع مرتبات موظفيها، ومخصصات النازلين فيها من طلاب العلم وغيرهم([3]). وكانت معظم المدارس ذات اختصاصات دينية، وأدبية، باستثناء ثلاث اختصت بتدريس الطب، وهي: الدنيسرية([4])، الدخوارية([5])، والمدرستين اللبودية النجمية([6]).

([1]) ابن بطوطة، رحلة، (ج331/1).

([2]) أبي شامة، عيون الروضتين، (ح74/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج278/12)؛ النعيمي، الدارس، (ج297/2)؛ أبو غدة، الوقف ودوره في التنمية الثقافية والعلمية، (ص52).

([3]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج278/12)؛ النعيمي، الدارس، (ج297/2)؛ عاشور، بحوث، (ص516).

([4]) تقع غربي باب البيمارستان النوري والصالحية وبآخر الطريق من قبلة لصاحبها عماد الدين محمد الدنيسري. العليمي، الدارس، (ج104/2)؛ بدران، منادمة، (ص255).

([5]) كانت تقع بالصاعة العتيقة قرب الخضراء قبلي الجامع وفي رواية شرقي سوق المناخليين، إنشاء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، وفي رواية: عبد المنعم بن علي المعروف بالدخوار سنة (621هـ/1224م) جعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن يستغل منها ما ينصرف في نصالحها وفي راتب المدرس والمشتغلين بها. ووصى أن يكون المدرس بها شرف الدين علي بن الرحبي. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ص759)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج255/13)؛ العليمي، الدارس، (ج100/2).

([6]) نسبة إلى واقفها نجم الدين يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن اللبودي، وكانت تقع عند حمام الفلك، وقد وقفها على الأطباء، ولديه فضيلة بمعرفة الطب، وقد ولي نظر الدواوين بدمشق، ودفن بتربته عند اللبودية. ابن كثير، البداية والنهاية، (ج262/13)؛ العليمي، الدارس، (ج106/2)؛ بدران، منادمة، (ص257).

واشتهرت حلب بمدارسها في ذلك الوقت، حيث أشار ابن بطوطة إلى وجود ثلاث مدارس بها دون أن يذكر أسماءها، حيث قال: " وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وإتقان الصنعة..."([1])، وعلى ما يبدو أن هذه المدرسة هي التي تحدث عنها ابن جبير عندما زار مدينة حلب سنة (580هـ/1148م)؛ لأن ابن بطوطة نقل معظم أوصاف مدينة حلب، وقلعتها، وجامعها، ومدارسها عن الرحالة ابن جبير، باستثناء من بها من العلماء والقضاة عند زيارته لها سنة (726هـ/1325م). ويتضح ذلك مفصلًا مما ذكره ابن جبير عن مدارس مدينة حلب. أنه كان بها أربع مدارس أو خمس. منها مدرسة للحنفية كانت تتصل بالجامع من الجانب الغربي، وتناسبه "حسناً وإتقان صنعة... وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس، بناء وغرابة صنعة"([2]). ومن المدارس التي عرفت في حلب:

1- المدرسة العصرونية الشافعية في حلب عام (550هـ/1155م). استدعي لها من إحدى نواحي سنجار -غربي الموصل- الشيخ الإمام شرف الدين بن أبي عصرون، وفوض أن يولى التدريس فيها من يشاء([3]).

2- المدرسة النفرية الشافعية، وفي عام (544هـ/ 1149م)، تم بناء المدرسة النفرية الشافعية في حلب؛ لتدريس المذهب الشافعي، واستدعي للتدريس فيها الفقيه قطب الدين مسعود النيسابوري([4]).

3- المدرسة الشُعَيْبيّة الشافعية، ويذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت " مسجدًا يُقال: إنّه أوّل ما اختطّه المسلمون عند فتحها من المساجد، وعُرف بأبي الحسن على بن عبد الحميد الغضائريّ أحد الأولياء من أصحاب سريّ السقطيّ([5]).

([1]) ابن بطوطة، رحلة، (ج276/1).

([2]) ابن جبير، رحلة، (ص204).

([3]) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج33/1)؛ ابن العديم، زبدة، (ج293/2-294)؛ ابن كثير، البداية، (ج333/12).

([4]) ابن عساكر، تاريخ، (ج13/58)؛ ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج34/1)؛ ابن العديم، زبدة ، (ج294/2)؛ بن خلكان، وفيات الاعيان، (ج5/ 196)؛ السبكي، الطبقات الكبرى، (ج298/7)؛ الذهبي، سير، (ج106/21)؛ العبر، (ج4/ 235)؛ النعيمي، الدارس، (ج136/1)؛ ابن العماد، شذرات الذهب، (ج263/4).

([5]) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج34/1).

فلمّا ملك نور الدين حلب، وأنشأ بها المدارس، ووصل الشيخ شُعَيْب بن أبي الحسن بن حسين بن أحمد الأندلسيّ الفقيه فصيّر له هذا المسجد مدرسةً وجعله مدرّسًا بها"([1]).

4- المدرسة الحلاوية في حلب([2])، وكانت تعد "من أعظم المدارس صيتًا، وأكثرها طلبة، وأغزرها جامكية –مخصصات مالية-"([3])، وقد جعلت لأتباع المذهب الحنفي([4])، وكان شرط الواقف أن يحمل في كل شهر رمضان ثلاثة آلاف درهم لكبير المدرسين يصنع بها للفقهاء طعاماً، إضافة إلى أن المدرسين كانوا يتسلمون مخصصات أخرى تمكنهم من شراء الملابس والدواء والفاكهة، هذا فضلًا عما كان يقدم لهم من علاوات تشمل الطعام والنقود في المناسبات([5])، وقد استدعى برهان الدين أبا الحسن على بن الحسن البلخي للتدريس بها([6]).

5- المدرسة المقدمية وبعد عام من تجديد المدرسة الحلاوية في حلب أنشأ نور الدين في العام 545هـ/1150م، وقد أوقف عليها الأوقاف([7]).

ج- البيمارستان([8]) المنصوري ودوره الحضاري، والفكري، والثقافي: قال تعالى : " الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ"([9]).

فالإسلام دين الفطرة ، يحرص في تعاليمه على صحة الجسد، وطهر النفس، ويوازن بين المادة والروح، وبين الحاجات والقيم، ويهدف إلى إصلاح الدنيا، وإصلاح الآخرة.

([1]) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج34/1).

([2]) كانت في أول أمرها كنيسة عظيمة، ثم صارت مسجدًا عرف بمسجد السراجين، واستمرت على ذلك، إلى أن ملك نور الدين، فجدد فيها إيوانًا وبيوتًا وجعلها مدرسة. ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج38/1)؛ ابن العديم، بغية، (ج459/1،62)؛ الغزي، نهر، (ج220/2).

([3]) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج38/1).

([4]) ابن العديم، بغية، (ج459/1).

([5]) ابن جبير، تذكرة، (ص248).

([6]) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج38/1)؛ ابن العديم، زبدة، (ج293/2-295).

([7]) ابن شداد، الأعلاق، قسم حلب، (ج41/1)؛ الغزي، نهر، (ج70/2).

([8]) الغزي، نهر، (ج70/2)؛ عيسى، تاريخ البيمارستانات، (ص4).

([9]) الشعراء: 78-80.

إن صحة الجسد مرتكز لسلامة النفس وسموها، ومنطلق لصحة العقل، وتفوقه في الفكر والثقافة، فالله سبحانه وتعالى جعل صحة الجسد وقوته ورجاحة العقل واستنارته علة الاصطفاء، فقال تعالى:" وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "([1]).

إن أفضل إنشاءات المنصور قلاوون البيمارستان الذي أقامه لتقديم الرعاية الصحية والاجتماعية للمرضى، وافتتحه السلطان في حفل كبير شارك فيه الأمراء، والقضاة، والعلماء، وتضمَّنَتْ حُجَّة وقف هذا الصرح الطبي أنه مفتوح طوال اليوم لتقديم العلاج للمرضى؛ دون نظر إلى طبقاتهم أو جنسياتهم، ودون مقابل أو أجر([2]). ولم يقتصر دور البيمارستان على تقديم العلاج؛ بل تعدَّاه إلى تدريس الطبِّ، والعلوم الطبية([3]).

وتعد البيمارستانات أهم المؤسسات العلمية في دراسة علم الطب حيث أتاحت فرصة عظيمة لطلاب الطب لممارسة الطب عمليًّا بعد أن أتموا دراستهم النظرية، ولذلك وجب على طالب العلم ملازمة البيمارستان؛ ليطلع على مادة دراسية جديدة، تتمثل في: المريض الذي يطبق عليه الطالب ما درسه، وأوصى السلطان المنصور قلاوون بضرورة وجود معلم للطب في البيمارستان على أن يكون من الأطباء المهرة لتدريس الطب نظرياً([4]).

أما عن بلاد الشام فقد عرفت الكثير من البيمارستانات في دولة المماليك البحرية، ففي دمشق أنشئت البيمارستانات([5])، وكذلك في طرابلس([6]).

([1]) البقرة: 247.

([2]) ابن دقماق، نزهة الأنام، (ص40)؛ القلقشندي، صبح، (ج3/499)؛ المقريزي، الخطط، (ج3/480).

([3]) المنصوري، مختار الأخبار، (ص82-83)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج31/32-34).

([4]) ابن حبيب، تذكرة، (ج1/366-367).

([5]) ففي الخليل أنشأ السلطان قلاوون بيمارستان سنة 680هـ/1248م، وكذلك في غزة أنشأ الأمير سنجر الجاولي، أيضًا في الرملة وفي نابلس والذي أسسهما القاضي فخر الدين بن فضل الله ناظر الجيوش بالديار المصرية. ابن حجر، الدرر ، (ج2/296)؛ الحنبلي، الأنس، (ج2/79).

([6]) وفي طرابلس تم تأسيس بيمارستان، والذي بناه: نائب السلطنة الأمير عز الدين أيبك، والأمير زيد الدين محمد أبي بكر الحنبلي. الخرابشة، مملكة طرابلس، (ص203).

وفي حلب(1)، وفي الكرك(2)، وفي صفد(3). ويلاحظ أن دراسة الطب كانت تتم قبل ظهور البيمارستانات في المدارس، فلما ظهرت أصبحت مراكز لتدريس العلوم الطبية، إلى جانب تقديم الرعاية الصحية، والمعالجة، والاستشفاء(4). وعرفت دولة المماليك البحرية ظهور المدارس التي تختص بتدريس العلوم الطبية، وقد أقيمت هذه المدارس في مدينة دمشق، وهي:

أ- المدرسة الدخوارية: أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار سنة (621هـ/1224م)، وكانت داره، ثم أوقفها لتدريس الطب، وكان أول من درس فيها، وقد أوقف الدخوار على مدرسته ضياعًا، وأماكن أخرى، يستغل ما تدره من أموال على الإنفاق على المدرسة(5).

ب- المدرسة الدنيسرية بدمشق: أنشأها الحكيم عماد الدين الدنيسري(ت686هـ/1287م) خلال القرن السابع الهجري(6).

ج- المدرسة اللبودية النجمية: أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي سنة (664هـ/1265م)(7).

د- الخوانق والزوايا والربط(8)**:** على الرغم اختلاف أسمائها؛ فإنها جميعًا تقوم على خدمة هدف واحد. وقد اهتم سلاطين المماليك، وأمراؤهم بإنشاء الكثير منها، وحبس الأوقاف عليها إلى أن

---

(1) وفي حلب أسس الأمير سيف الدين أرغون الكاملي سنة 755هـ/1354م. كرد علي، خطط الشام، (ج160/1).

(2) وفي الكرك أنشأ الأمير سنجر الجولي بيمارستان، وفي حصن الأكراد أنشأ الأمير بكتمر بن عبد الله الأشرفي سنة 719هـ/ 1319م بيمارستانًا. ابن حجر، الدرر، (ج266/2).

(3) وفي صفد أنشأ الأمير تنكز نائب دمشق بيمارستانًا. كرد علي، خطط الشام، (ج161/6-162).

(4) البدري، التعليم الطبي في الإسلام، (ص5، 9).

(5) النعيمي، الدارس، (ج100/2-102).

(6) المصدر السابق، (ج104/2).

(7) المصدر السابق، (ج106/2).

(8) ابن واصل، مفرج، (ج187/3)؛ المقريزي، المواعظ، (ج427/2)؛ عبد المهدي، الحركة، (ص75)؛ عبد الدائم، التربية، (ص161)؛ المدني، الحياة، (ص181)؛ محمود، التعليم في مصر، (ص235).

أخذت الخانقاه تحل محل المدرسة تدريجيا. وقد تعددت الخوانق ، ووظيفتها التي أنشئت من أجلها إلى قيامها بوظيفة تعليمية، وأخذها صورة المعهد العلمي، ومن الخوانق في مصر([1]):

1- الخانقاه الصالحية (سعيد السعداء): كانت تعرف في الدولة الفاطمية بهذا الاسم، فلما تولى الحكم صلاح الدين الأيوبي جعلها دارًا للفقراء الصوفية القادمين من مختلف البلاد، وولى عليها شيخا، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة، ورتب فيها للصوفية كل يوم طعامًا، ولحمًا، وخبزًا، وبنى لهم حمامًا بجوارها. فكانت أول خانقاة بمصر؛ لذلك نعت شيخها بشيخ الشيوخ([2]).

2- الخانقاه البيبرسية: أنشأها السلطان بيبرس الجاشنكير سنة 707هـ/1308م، قبل أن يتولى السلطنة، وعندما مات أغلقها من بعده السلطان الناصر قلاوون في سلطنته الثالثة فترة من الزمن، ثم أمر بفتحها بعد ذلك. قال المقريزي: وكانت من أجل الخوانق بنيانًا، وأوسعها مقدارًا، وأتقنها صنعة، ورتب بها دروسًا للحديث الشريف، وكان يقيم بها نحو أربعمائة صوفي([3]).

3- **خانقاة سرياقوس**([4]): التي بناها الناصر محمد، وعنها يقول ابن بطوطة: " وبنى زاوية عظيمة بسريا قوص خارج القاهرة "([5])، ورغم استعظام ابن بطوطة لتلك الخانقاه التي سماها زاوية؛ إلا أنه يعتبرها بالمقارنة مع الزاوية التي بناها " أبو عنان، .. بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع، وحسن البناء، والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله"([6]).

([1]) ابن واصل، مفرج، (ج187/3)؛ المقريزي، المواعظ، (ج427/2)؛ عبد المهدي، الحركة، (ص75)؛ عبد الدائم، التربية، (ص161)؛ المدني، الحياة، (ص181)؛ محمود، التعليم في مصر، (ص235).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج415/2-416).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج416/2)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج265/1).

([4]) سرياقوس: بليدة من نواحي القاهرة، ياقوت: معجم البلدان، (ج218/3). وفيها عمر الملك الناصر محمد الخانقة بناحية منها وعرفت (بخانقة سرياقوس)، وجعل فيها مائة خلوه لمائة صوفي، وبنا بجانبها مسجدًا تقام به الجمعة، وبنا بها حماماً ومطبخا، وكان ذلك سنة (725هـ/1325م) بعد أن تم بناؤها. ابن كثير، البداية والنهاية، (ج118/14)؛ المقريزي، الخطط، (ج293/4)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج144/9)؛ (ج94/14)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج260/2).

([5]) ابن بطوطة، رحلة، (ج212/1).

([6]) المصدر السابق.

4- **خانقاه قوصون:** بنيت بالقرافة سنة 736هـ/1336م، وأول من ولي مشيختها شمس الدين محمود الأصفهاني صاحب التصانيف المشهورة، وكانت من أعظم جهات البر، إلى أن حصلت المحن سنة 806هـ/1404م، فتلاشى أمرها كما تلاشى غيرها(1).

5- **خانقاه شيخو:** أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري(2)، في حي الصليبية سنة 756هـ/1355م، رتب بها دروسًا للفقه على المذاهب الأربعة، ودرسًا في القراءة، ودرسًا في الحديث، وجعل لكل مدرس من هذه الدروس الستة مدرسًا، ووكل مشيختها إلى الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي الحنفي، ووكل إليه كذلك درس الحنفية(3). وأول من تولى تدريس الشافعية بها الشيخ بهاء الدين بن الشيخ تقي السبكي، وأول من تولى تدريس المالكية بها الشيخ خليل صاحب المختصر، وأول من تولى تدريس الحنابلة بها قاضي القضاة موفق الدين(4). أما بلاد الشام فقد تعددت فيها الزوايا، والخوانق، والربط في دولة المماليك البحرية في بلاد الشام، إذ شكلت هذه المؤسسات بيوت الصوفية، ومدارسهم(5).

أ-**الزوايا في بلاد الشام:** جاء انتشار الزوايا في بلاد الشام، ومعظم مدنها في دولة المماليك البحرية انعكاسًا لاتساع حركة التصوف . فقد ذكر ابن شداد وجود خمس زوايا في مدينة دمشق، وهي: الزاوية الغزالية، الزاوية القوصية، الزاوية الصلاحية بالكلاسية، والزاوية بمقصورة الحضر غربي الجامع الأموي، وزاوية شرف الدين إسماعيل بن التيني(6). وذكر النعيمي وجود ست وعشرين زاوية في مدينة دمشق(7)، ويدل ذلك على أعداد الصوفية الكثيرة في دمشق. أما

---

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج42/2).

(2) هو شيخو بن عبد الله الناصري، من مماليك الناصر محمد، ارتفع شأنه في عهد السلطان حسن، وصار أتابك العسكر، وسمي بالأمير الكبير، وتوفي سنة 785هـ/1383م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج257/6)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج204/3).

(3) هو محمد بن محمد بن محمود البابرتي، من أعلام الفقه الحنفي في مصر، برع في الشرح، والتأليف في المذهب، من مؤلفاته: شرح الهداية، شلرح مختصر ابن الحاجب، توفي سنة 786هـ/1384م. ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج250/4)، السيوطي، حسن المحاضرة، (ج471/1).

(4) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج43/2).

(5) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج43/2)؛ بيطار، التعليم في بلاد الشام، (ص61).

(6) ابن شداد، الأعلاق، قسم دمشق، (ص247-248).

(7) النعيمي، الدارس، (ج153/2-173).

في مدينة حلب فذكر ابن شداد وجود أربع زوايا، ثلاث منها أوقفها الملك العادل نور الدين زنكي في الجامع النوري، وزاوية في الفردوس[1]، وذكر مجير الدين الحنبلي وجود تسع زوايا في القدس، وهي: الزاوية الخشنية، الزاوية الدركاه، زاوية المغاربة، الزاوية المهمازية، الزاوية المحمدية، الزاوية الطواشية، الزاوية الشيخونية، الزاوية البسطامية، الزاوية الجراحية[2].

ووجد عدة زوايا في مدينة حماة[3]، طرابلس[4]. ووجدت زوايا أيضا في: الخليل[5]، ونابلس[6]، حصن الأكراد[7]، وغزة[8].

أما الأربطة انتشرت في بلاد الشام، حيث وجد في دمشق تسعة عشر رباطًا كما ذكر ابن شداد[9].

([1]) ابن شداد، الأعلاق، القسم الأول، (ص121–122).

([2]) الحنبلي، الأنس الجليل، (ص34–48).

([3]) وجدت في حماة زاوية البيانية، زاوية الشيخ خضر، الزاوية الكيلانية، زاوية ابن سطيح، زاوية أبي الليث، زاوية القيابي. جبران، مملكة حماة، (ص255–257).

([4]) وجدت في طرابلس زاوية القاضي حسام الدين. الخرابشة، نيابة طرابلس، (ص202).

([5]) كانت في الخليل زوايا: زاوية الشيخ خضر، زاوية الشيخ علي البكا، زاوية الأشرف، زاوية الشيخ عمر المجرد، زاوية الشيخ إبراهيم الهدمة، الزاوية القادرية، زاوية الجعبرية. صافي، مدينة الخليل، (ص15–163).

([6]) كان في نابلس، زاوية الشيخ ابن غانم بن عساكر المقدسي، زاوية الشيخ عبد الحافظ بن بدران. العزة، نابلس، (ص143).

([7]) وفي حصن الأكراد وجدت زاوية الإبراهيمي. الخرابشة، نيابة طرابلس، (ص202).

([8]) وجدت في غزة الزاوية الأحمدية. عطا الله، نيابة غزة، (ص191).

([9]) في دمشق وجدت الأربطة التالية: رباط أبي البين، رباط طامان، رباط جاروخ، رباط الفرس خليل، رباط المهراني، رباط البخاري، رباط السفلاطوني، رباط صفية، رباط الفلكي، رباط بنت السلار، رباط عذراء خاتون، رباط بدر الدين عمر، رباط الحبشة، رباط أسد الدين شيركوه، رباط القصاعين، رباط بنت الدقين، رباط وجيه الدين بن سويد، رباط بنت عز الدين مسعود. ابن شداد، الأعلاق، قسم دمشق، (ص195–196)؛ النعيمي، الدارس، (ج150/2–152).

أما في مدينة حلب، ذكر ابن شداد أن فيها ثلاثة أربطة[1]. ووجد في القدس أربع أربطة في فترة حكم المماليك البحرية[2].

كما وجد في الخليل أربعة أربطة، وهي: الرباط المنصوري، والرباط الطواشي، ورباط مكي، ورباط الجماعليين[3].

أما الخوانق فقد بلغ عددها في دمشق تسعة عشر خانقاه[4]، منها أربعة أنشئت في عصر المماليك، وهي: خانقاه القصر، خانقاه الشهابية، الخانقاه الشريفية، الخانقاه العزية[5]. وقد ضمت مدينة حلب تسعة عشر خانقاه بنيت جميعها في العصر الزنكي والأيوبي، ووجدت خوانق للنساء بلغ عددها سبعًا أقيمت جميعها في العصرين الزنكي، والأيوبي[6]. كما وجد في القدس اثنتان من الخانقاوات كانتا أقيمتا في العصر الأيوبي، واستمر نشاطها في العصر المملوكي، وهي: الخانقاه الفخرية، والخانقاه الصلاحية[7]. ووجد في حماة خانقاه تعود لفترة نور الدين زنكي، كانت مخصصة للنساء الفقيرات، ووجد خانقاه نسبت إلى الشيخ خضر عبد الرحمن سديد الدين، وتوجد في الجامع النوري، ووجدت خانقاه أخرى تنسب لابن المغيزل الحموي[8]. وفي طرابلس كانت هناك خانقاه عرفت باسم الست الصالحة، كان يشرف عليها شيخ خاص يلقب (شيخ الشيوخ)[9].

([1]) والأربطة هي: رباط .أقامه الأمير سيف الدين علي بن علم الدين بن جندر، ورباط الخدام، ورباط يعرف بإقامة عبد الولي البعلبكي. ابن شداد، الأعلاق، القسم الأول، (ص96).

([2]) وهي رباط علاء الدين البصير، رباط المنصور، رباط الكرد، رباط الماريديني. الحنبلي، الأنس الجليل، (ج2/ 37-43)، 432).

([3]) الحنبلي، الأنس الجليل، (ج2/ 79).

([4]) ابن شداد، الأعلاق، قسم دمشق،(ص191-194) .

([5]) النعيمي، الدارس، (ج126/2، 129، 130-131).

([6]) ابن شداد، الأعلاق، القسم الأول،(ص93-98).

([7]) الحنبلي، الأنس الجليل، (ج34/2، 47).

([8]) جبران، مملكة حماة، (ص228).

([9]) الخرابشة، نيابة طرابلس، (ص213).

هـ- المكتبات: إن أول كلمة نزلت في القرءان الكريم: "إقرأ" ، قال تعالى: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ "([1]). وأساس العلم، والثقافة الفكرية ، والعلمية جاءت من الكتاب، فكانت القراءة، وتعلم العلوم القرآنية، والفكرية، من أسباب النصر والتمكين. فقد وجدت الكتب بكثرة في المكتبات، إذ تعد ظاهرة بناء المكتبات ظاهرة قديمة في الدولة الإسلامية، وقد لاقت عناية فائقة في بنائها من قبل الخلفاء والأمراء، وبخاصة في عهد دولة المماليك البحرية([2]).

ويمكن أن تقسم هذه المكتبات إلى:

1- مكتبات خاصة: ويقصد بها المكتبات التي قام الخلفاء والأمراء بإقامتها عبر التاريخ الإسلامي، وفي حقبة البحث بشكل خاص. وقد ترك مسار إقامة هذه المكتبات أثره الكبير في الحركة التعليمية([3]).

2- المكتبات العامة: كانت أقل انتشارًا في البداية من المكتبات الخاصة؛ لكنها أخذت بالتزايد مع ازدهار الحركة التعليمية، مما جعلها أكثر أثرًا لاعتمادها على قاعدة عريضة([4]).

عناية دولة المماليك البحرية بالمكتبات: كان من ثمار النهضة العلمية في عهد دولة المماليك البحرية، التي سارت سيرة الأيوبيين، الاهتمام بالمكتبات، والعناية بالكتب وجمعها، حيث اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم وأغنياؤهم، بتأسيس المكتبات في المدارس، والمساجد، والخوانق، وغيرها من المؤسسات التعليمية في ذلك العصر؛ فقد كان لكل مدرسة مكتبة بجانبها تقريبًا، لأنها أصبحت جزءًا لا يمكن الاستغناء عنه في كل مدرسة، وبذلك كان للمكتبة أثر كبير في زيادة فرص التعليم بوصفها جزءًا أساسيا في المدرسة للتعليم والتعلم([5]).

أ- المكتبات في المساجد: ضمت كبرى المساجد في مصر، وبلاد الشام مكتبات عامرة بالكتب، وكانت هذه المكتبات تقوم بدورها الحضاري، وقد وجدت هذه المكتبات في الجامع

([1]) العلق: 1-4.

([2]) المقريزي، الخطط، (ج352/1)؛ أبيض، مؤسسات التربية العربية، (ص160-164).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج777/1)؛ أبو الفضل، المدارس والحركة العلمية، (ص516)؛ شطناوي، التربية والتعليم، (ص96).

([4]) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (ج135/8)؛ أبو الفضل، المدارس والحركة العلمية ، (ص516).

([5]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج326/3)؛ النباهين، نظام التربية الإسلامي، (ص276-277).

الخضيري، وأخرى بجامع قوص، وأخرى بجامع الحاكمي، وجامع الظاهر[1]، وفي بلاد الشام ، وفي المسجد الأموي، والمسجد الأقصى، والنوري بحلب، فأوقفت هذه المكتبات من قبل كبار العلماء، مثل: خزانة علي بن طاهر السلمي النحوي في الجامع الأموي، وخزانة شرف الدين بن عروة الموصلي، وخزانة أبي الفداء صاحب حماة، والتي أوقفها على جامع الدهشة[2].

ب- المكتبات في المدارس:

أشارت دراسة حديثة إلى أن معظم المدارس التي كانت موجودة في، مصر ، وبلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحرية، كان على جانبها مكتبة[3]، ففي مصر كانت المدرسة الفاضلية فيها جملة عظيمة من الكتب، في سائر العلوم، يقال: إنها كانت مائة ألف مجلد[4]. ورُتب بالمدرسة، والقبة المنصورية خزانة كتب تحوي الكثير من أنواع العلوم والفنون[5]، وألحقت مكتبات أخرى بكل من المدرسة الناصرية، والمدرسة الحجازية، والمدرسة الصاحبية البهائية، والمدرسة الظاهرية، والمدرسة الطيبرسية، والمدرسة المنكوتمرية، ومدارس أخرى[6].

ومن المدارس التي كان بها مكتبات في بلاد الشام: المدرسة العزية، والناصرية، والعادلية، والأشرفية في دمشق[7].

ومما يذكر عن خزانة كتب دار الحديث الأشرفية في الأشرفية في دمشق، أن الملك الأشرف أنشأ مكتبة قيمة فيها ضمت أمهات المكتبات التي يرجع إليها الطلبة، كما أن وقفية المدرسة وفرت لطلابها النازلين بها الكتب التي يقرؤونها على شيوخها، ثم إن شيوخها ألفوا فيها كثيرًا من مؤلفاتهم وأوقفوها على مكتبة المدرسة. كما أن العلماء كانوا يتنازلون عن رواتبهم فيها

([1]) المقريزي، الخطط، (ج1/188-192)؛ (ج2/312)؛ الأدفوي، الطالع السعيد، (ص581)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج2/74).

([2]) كرد علي، خطط الشام، (ج6/187-188)؛ العسلي، معاهد العلم، (ص374).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج2/366)؛ النباهين، نظام التربية الإسلامي، (ص277).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج2/366).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج31/111).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج2/371، 379، 382، 383، 387، 392، 394، 399).

([7]) كرد علي، خطط الشام، (ج6/190).

ويشترون بها كتبًا ويوقفونها على المدرسة، ففي ترجمة الإمام النووي أنه لم يتناول رواتبه في دار الحديث بل اشترى بها كتبًا ووقفها([1])، وبذلك نرى أن طريقة الحصول على الكتب الأشرفية يتم وفق الطرق التالية:

1- الكتب التي توفرها الوقفيات للمدارس الخاصة بها.

2- العلماء الذين يتنازلون عن رواتبهم ويشترون الكتب للمدرسة.

3- إيقاف كثير من العلماء الكتب على المدرسة.

جـ- المكتبات التي تعود للعلماء.

وقد انتشرت هذه المكتبات في أنحاء مصر، وبلاد الشام خلال حقبة المماليك البحرية. حيث أقيمت هذه المكتبات في دمشق، مثل: مكتبة ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية، ومكتبة عمر القرشي الدمشقي([2]). ومدينة حلب، حيث أقيم فيها العديد من المكتبات في العصر الأيوبي، واستمرت خلال العصر المملوكي مثل خزانة بني جرادة، وخزانة جمال الدين بن القفصي، وخزانة قطب الدين النيسابوري([3]). كما وجدت مثل هذه المكتبات الخاصة في مدينة القدس([4]).

جـ- المكتبات الطبية:

يعد البيمارستان المنصوري من أعظم البيمارستانات في مصر، والعالم الإسلامي، كان ابن النفيس قد أوقف كتبه، وداره عليها([5])، وجدير ذكره أن عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون في القاهرة حوالي مائة ألف مجلد، حوت أمهات الكتب، من علوم الطب، وغيرها من علوم القرءان والتفسير والحديث، وعلوم الدنيا كلها، أخذت أغلبها إلى دار الحكمة في القاهرة([6]).

([1]) الحافظ، دار الحديث الأشرفية بدمشق، (ص287).

([2]) كرد علي، خطط الشام، (ج188/6).

([3]) المرجع السابق، (ص188).

([4]) ابن بطوطة، رحلة، (ج203/1)؛ العسلي، معاهد العلم، (ص377-390).

([5]) ابن بطوطة، رحلة، (ج203/1)؛ زكي، تراث القاهرة، (ص51-52).

([6]) ابن بطوطة، رحلة، (ج203/1).

أوقف نور الدين زنكي مكتبة في المشفى النوري في دمشق، كما ترك العلماء في علم الطب مكتبات طبية، مثل: مكتبة أمين الدولة السامري؛ والذي اجتمع عنده نحو عشرون ألف مجلد، ومهذب الدين الدخوار صاحب مدرسة الطب الدخوارية . كما كان يوجد مكتبات في المؤسسات الصوفية بدمشق والذي كان له خزانة كتب[1]؛ وخاصة الخوانق، كونها أكبر المؤسسات الصوفية، حيث كان يوجد مكتبة كبيرة في الخانقاه السميساطية التي أقامها أبو سعيد البندهي مؤدب ولد صلاح الدين يوسف[2].

د- **المكتبات عند أهل الذمة:** وجد داخل الأديرة مكتبات كبيرة، يستعملها الرهبان عندما ينشدون التأليف، وكانت المكتبة مكان لاجتماع الباحثين من الرهبان، ومن أبرز المكتبات في العصر المملوكي في بلاد الشام:

1- مكتبة دير البلمند جنوب شرقي طرابلس: أنشأها الصليبيون سنة 552هـ/1157م، وأطلقوا عليه اسم دير الجبل. وبعد تحرير طرابلس تملكه اليعاقبة[3].

2- مكتبة دير الكرمل في حيفا: من أقدم المكتبات في الشرق وأشهرها وأغناها، يرجع تأسيسها إلى القرن السادس الهجري[4].

3- مكتبة الرهبان الفرنسيسكان: أغنى مكتبات العالم مما حوته من الوثائق المتعلقة بالأراضي المقدسة[5].

4- مكتبة القبر المقدس: والتي أنشأها الروم الأرثوذكس سنة 451م[6].

5- مكتبة دير مار يعقوب الأرمن[7].

([1]) كرد علي، خطط الشام، (ج6/187-188).

([2]) المرجع السابق، (ص187-188).

([3]) حجازي، أهل الذمة، (174-175).

([4]) المرجع السابق، (174-175).

([5]) المرجع السابق، (174-175).

([6]) المرجع السابق، (174-175).

([7]) المرجع السابق، (174-175).

وكان لليهود مكتبات خاصة بهم في مدارسهم، حيث وجد في يافا سنة 735هـ/1334م معبد فيه مكتبة، كما وضع العلماء اليهود كثير من المؤلفات العلمية، ونقلوا بعض العلوم إلى اللغة العربية، واللاتينية، وكان لبعضهم شغف بجمع الكتب في مكتباتهم الخاصة، فقد كان للطبيب عمران الإسرائيلي (ت: 637هـ/1239م) خزانة كبيرة للكتب في بيته([1]).

ويتضح مما سبق أن الاهتمام بتنمية الحياة الفكرية، من عوامل النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون، وتمثل في: إنشاء المؤسسات العلمية، كالمساجد، والمدارس، والبيمارستانات، والخانقاوات، والزوايا، والربط، والمكتبات، حيث وجدت المكتبات في العالم الإسلامي في مؤسساتها العلمية، وهي متنوعة، ومتجددة في نفس الوقت، وأي مؤسسة علمية لا تحتوي على مكتبة ليست مؤسسة علمية، فوجود المكتبة في المؤسسات العلمية يبعث الروح فيها، تحييه، وتبقيه كائنا، يعمل ويتطور، ويبدع. ومن عوامل النصر والتمكين تشجيع المؤلفين للتأليف، والكتابة في مختلف المجالات، وخاصة الحث على الجهاد، وتحرير الأرض الإسلامية.

([1]) حجازي، أهل الذمة، (ص176).

المبحث الثالث: تنظيم الدولة وإدارتها بكفاءة

اتبعت الدولة المملوكية نظاما إداريًا محكمًا، لتدير به شئون الدولة بإحكام، والسيطرة على البلاد، وتنظيم أحوالها الداخلية، فنشرت ولاتها، وموظفيها في جميع أنحاء الدولة، وربطت شئونها بإقامة الدواوين ذات الاختصاصات المختلفة.

وكان تنظيم الإدارة في الدولة المملوكية يعتمد على وجود إدارة مركزية للدولة بيدها كل السلطات، والمراكز الإدارية العليا التي ترتبط بها الإدارات كافة في النيابات، سواء أكان في مصر، أم في بلاد الشام، وكان تنظيم الدولة مكونًا من:

أولا : الإدارة السلطانية: وهي الإدارة المركزية، يقف السلطان على رأس الهرم الإداري من النواحي السياسية، و الإدارية، والعسكرية، ويعتبر صاحب أعلى سلطة، ومن مهامه([1]):

1-توزيع الإقطاعات على الأمراء كلًا حسب قربه من السلطان.

2-تعيين كبار موظفي الدولة، وله الحق في عزلهم متى أراد، ولأي سبب كان.

3-تولي القضاء و النظر على ديوان المظالم . وكان السلطان يحيط نفسه بمجموعة من الألقاب مثل: "سلطان الإسلام والمسلمين"، و"قسيم أمير المؤمنين "، و" سلطان البرين والبحرين" ، و" خادم الحرمين الشريفين" ، و"حامي الحرمين الشريفين"([2]).

4- مراقبة الأمراء، وعمال الدولة: دأب سلاطين المماليك على مراقبة أمرائهم، وعُمال دولتهم، فلم يغفلوا عنهم لحظة، وذلك من منطلق أن عبد الله بن عمر، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته" قال: – وحسبت أن قد قال – "والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته"([3]).

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/1).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج239/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج103/2)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج177/1).

([3]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 893، (ج5/2).

وكان العُمال في دولة سلاطين أسرة قلاوون يشعرون بهذه المراقبة ويخشونها، فلم يجرؤ أحد على تجاوز السلطان، ومن يحاول فعل ذلك ينل عقابه؛ وأحيانًا يعزل من منصبه([1]).

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون الفترة الثالثة(709-741هـ/1309-1340م)([2])، بدأ بإجراء كثير من التغييرات في مناصب وأحوال الدولة، فأبطل الوزارة، واستقل هو بما كان يفعله النائب أو الوزير، واستجد وظيفة "ناظر الخاص" يتحدث في مجموع الأمر في الخاص في نفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فيبقى بسبب ذلك كأنه الوزير([3]). وتبرز شخصية السلطان في تعيين أصحاب الكفاءة في الدولة، والقادر على تسيير الأمور، وعزل كل من قصر في عمله، أو ارتكب الأخطاء، ويؤكد ذلك الكتب التي كان يرسلها للتعيين، أو العزل من المنصب، وهذا يدلنا على أن الناصر محمد بن قلاوون يريد من عماله، وأمرائه الطاعة له، وعدم مخالفة أمره([4]).

ثانيا: الدواوين والوظائف:

1- الدواوين: وهي أشبه ما تكون بالوزارات اليوم، وقد أقام المماليك دواوين كثيرة، اهتموا بتنظيمها، والإشراف عليها، فكانت هناك دواوين تتعلق بالسلطان مباشرة، ودواوين تتعلق بالوزراء وكبار الأمراء في الدولة، وفيما يلي استعراض لأهم الدواوين:

أ- ديوان الإنشاء: وهو المسؤول عن المراسلات والمكاتبات الخارجية، ويختص بتنظيم العلاقات الخارجية للدولة، وكلمة ديوان معناها المكان الذي يجلي فيه الكتاب، أما الإنشاء فهو مصدر الفعل أنشأ، وهو الشيء الذي ابتدأه واخترعه على غير مثال يحتذيه، معنى ذلك أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام، وترتبط بديوان الإنشاء وظيفة كاتب السر، أي قراءة الكتب الواردة على السلطان، والرد عليها. فكانت كتابة الإنشاء تارة تطلق على صاحب ديوان الإنشاء، وتارة أخرى تطلق على كاتب السر الذي كان يجلس في ديوان الإنشاء([5]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج8/2).

([2]) الشجاعي، تاريخ، (ص8).

([3]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج129/2).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج190/10-191).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج124/1-125)؛ العمري، مسالك الأبصار، (ص120)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج206/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج225/2).

ب- ديوان النظر: ومقره قلعة الجبل، ويذكر المقريزي أن هذا الديوان هو أرفع دواوين المال، فيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وتتبع إليه كل دواوين المال التي تشكل فروعًا منه، ويسند إلى هذا الديوان توزيع الرواتب على موظفي الدولة([1]).

ج- ديوان الأحباس: وهو بمعنى ديوان الأوقاف، وصاحب هذا الديوان مسؤول عن رزق الجوامع، والمساجد، والربط، والزوايا، والمدارس([2]).

د- ديوان الجيش: وفيه تحفظ أسماء الجنود، والأمراء، وأخبارهم، ويسمى الموظف المسئول عنه بناظر الجيش، ووظيفته: التحدث في أمر الإقطاعات بمصر والشام، ومشاورة السلطان، وأخذ خطه، ولناظر الجيش أتباع في ديوانه يولون عن السلطان، كصاحب ديوان الجيش، وكتابه، وشهوده([3]).

هـ- ديوان القضاء: وهو الذي يتولى الشؤون الإدارية للقضاء، مركزه الرئيسي في قلعة الجبل، وهو فرع من ديوان الإنشاء، ويكون المشرف على ديوان القضاء قاضي القضاة([4]).

2- الوظائف: وتنقسم الوظائف في عصر المماليك إلى وظائف عسكرية(أرباب السيوف)، ووظائف إدارية (أرباب الأقلام)، ووظائف دينية (أرباب العمائم)([5]).

أ- الوظائف العسكرية(أرباب السيوف): وهي لرجال الجيش، وكانوا من المماليك، وكانوا ينفذون أوامر السلطان، وينصرونه، ويعتمدون عليه في أمورهم المعاشية، وفي بعض الأحيان كانوا يشتطون في استعمال النفوذ الذي يتمتعون به([6])، ومن أهمها:

([1]) الخطط، (ج224/2).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج39/4)؛ (ج248/11).

([3]) العمري، مسالك الأبصار، (ص119-120)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج18/4-34، 63)؛ المقريزي، الخطط، (ج215/2)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج131/2)؛ بولياك، الإقطاعية في مصر، (ص65).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج290/10-291)؛ البقلي، مصطلحات صبح الأعشى، (ص148).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج202/7-203).

([6]) العمري، مسالك الأبصار، (ص116-117)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج17/4)؛ حسن، تاريخ المماليك البحرية، (ص261-262).

1- نائب السلطنة: وهو السلطان الثاني في الدولة، ويتم تعيينه بمرسوم سلطاني، وصلاحياته واسعة، من ذلك: ترفع الشكاوى، إصدار المراسيم دون الرجوع للسلطان، وهو من يعين أرباب الوظائف الكبيرة، كالوزارة، وكتابة السر، وهو يرأس الجيش في المواكب، والكل في خدمته(1).

2- الأتابك: وهو المنصب الذي يلي نائب السلطنة، وتطور مفهومه، حيث أصبح في ظل دولة المماليك يطلق على من يتولى قيادة الجيش، ويعبر عن صاحبها بأتابك العسكر، وبعد ذلك أصبح يذكر باسم الأمير الكبير، وبعد ذلك أصبح أمر السلطنة بيده في ظل المماليك الجراكسة(2).

3- الحاجب: وهي وظيفة هامة في العصر المملوكي، ويقوم صاحبها مقام النواب، وكانت مهمة الحاجب أن يقف بين يدي السلطان، في المواكب، ليبلغ ضرورات الرعية إليه، ويركب أمامه بعصا في يده، ويتصدى لفصل المظالم بين المتداعين، وفي الأيام الناصرية ابن قلاوون فيما يقال ثلاثة حجّاب، أحدهم حاجب الحجّاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب؛ وعادته أن يكون مقدّم ألف من الزمن القديم وهلمّ جرّا؛ وهو الرتبة الثانية من النائب؛ ومن شأنه الجلوس بدار العدل، ولا يقف كما يقف حاجب الحجّاب بين يدي السلطان بالديار المصرية، وإذا خرج النائب عن دمشق في مهمّ أو غيره، كان هو نائب الغيبة عنه. وإذا برز مرسوم السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن، أو غيره، ويقوم بأمر البلد إلى أن يقام نائب آخر(3).

4- الدوادار: ومعنى الدوادار: ماسك الدواة، ويتم تعيين الدوادار السلطان مباشرة، ومهمته تبليغ الرسائل عن السلطان، والإبلاغ عن عامة الأمور، وتقديم البريد، وأخذ خط السلطان على عموم المناشير والكتب(4).

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، (ص116-117)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج17/4).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج18/4)؛ ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، (ص112)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/4، 11)؛ الأشقر، أتابك العساكر في القاهرة، (ص15، 77-78).

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج192/4)؛ ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، (ص112)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/4، 11)؛ الأشقر، أتابك العساكر في القاهرة، (ص15، 77-78). أبو صيني، دور، (ص 174).

(4) العمري، مسالك الأبصار، (ج455/3).

5- الأستاذ دار: أو الاستدار[1]، وهو سيد بيوت السلطان، وإليه يكون أمرها، فيشرف على المطبخ، والحاشية، والغلمان، وله تصرف تام في استدعاء كل ما يحتاجه في بيت السلطان من نفقات، وكساوى[2].

6- نقابة الجيوش: وتضم عدة موظفين أكبرهم يسمى نقيب النقباء، ويكون نقيب الجيوش كأحد الحجاب الصغار، فإذا طلب السلطان أو النائب، أو الحاجب أميرًا، أو خدمًا، كانت مهمته أن يرسل إليهم، ويحضرهم[3].

7- الاسفهسلار: معناه مقدم العسكر، وهو مركب من لفظين، هما: فارسي وتركي، (فاسفه) بالفارسية بمعنى المقدم، و(سلار) بالتركية بمعنى العسكر. وكانت مهمته الإشراف على الجند، في العصر السلجوقي، ثم انتقل اللقب من الدولولة النورية إلى الأيوبية، ثم دولة المماليك حيث كان أربعة آلاف مملوك، منهم أمراء إسفهسلارية[4].

8- الخزندارية: وصاحبها مسؤول عن الخلع والتشريفات السلطانية بالقلعة[5].

9- المهمندارية: وموضوعها تلقي الرسل الواردين، فيما يتعلق بالأمور الدبلوماسية، كان بها في الأيام الناصرية ابن قلاوون في نيابة الأمير تنكز مهمندار واحد مقدّم ألف، ثم استقرّت في الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» نفرين، وأصبح بعد ذلك أمير عشرة، وجنديّ، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته[6].

---

(1) الإستدار: وهو لقب على الذي يتولّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه. وهو مركّب من لفظتين فارسيتين: إحداهما إستذ، ومعناها الأخذ. والثانية دار، ومعناها الممسك كما تقدّم، سمّي بذلك لما تقدّم من أنه يتولّى قبض المال. ويقال«إستدّار الصّحبة» ويكون لقبا على متولّي أمر المطبخ، وكأنه لقّب بذلك لملازمته الباب سفرا وحضرا. ابن واصل، مفرج، (ج71/3، 216)؛ القلقشندي، صبح، (ج429/5-430).

(2) المقريزي، الخطط، (ج222/2).

(3) العمري، مسالك الأبصار، (118-119)؛ المقريزي، الخطط، (ج222/2-223).

(4) ابن عبد الظاهر، تاريخ الملك الظاهر، (ص244)؛ القريحة، النظم الحربية عند السلاجقة، (ص357).

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج192/4).

(6) المرجع السابق، (ج194/4).

10- أمير اخورية البريد: وموضوعها التحدّث على خيول البريد بدمشق ونواحيها. وهو أمير عشرة من أيام الناصر محمد ابن قلاوون([1]).

ب- الوظائف الديوانية المدنية (أرباب الأقلام):

كان معظم الوظائف الديوانية المدنية من غير المماليك، ولم يؤثر عنهم أنهم خلعوا سلطانًا من سلطنته، وكان الحكام يعتمدون عليهم اعتمادًا كبيرًا؛ بل كانوا يستخدمون اليهود والمسيحيين من أهل الذمة؛ لأن المماليك لم يكونوا يتقنون الأعمال الإدارية مثلهم، وكان معظم الأقباط يعملون في المالية لكفاءتهم ونشاطهم في تلك الأعمال([2]). وأهم الوظائف المدنية:

1- الوزارة: عرف ابن خلدون الوزارة، بقوله: " هي أم الخطط السلطانية والواتب الملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة؛ فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة، وهي المعاونة، أو من الوزر وهو الثقل"([3]). والوزارة من أرفع المناصب، يقوم بتعيينه السلطان، وهو ثاني رجل في الدولة إلى أن أُحدث منصب نائب السلطنة، فتأخرت الوزارة، حتى ألغاها الناصر محمد بن قلاوون، فوزعت مهمات الوزير على ناظر المال، ومهمته تحصيل المال، وصرف النفقات والكلف، وعلى ناظر الخاص، ومهمته تدبير جملة من الأمور، وتعيين المباشرين([4])، وكاتب السر، ويقوم بالتوقيع في دار العدل، وهؤلاء الثلاثة لا يستطيعون الاستقلال بأي أمر إلا بعد مراجعة السلطان([5]).

2- كاتب السر: ويعبر عن متوليها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس، ولا يقال فيه: صاحب دواوين الإنشاء كما في الديار المصرية. على أنها تضاهي كتابة السر بالديار المصرية في الرياسة ورفعة القدر. وموضوعها على نحو ما

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج194/4)؛ الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، (ج182/1)؛ (ج1153/3-1157)؛ العلبي، دمشق بين عصر المماليك، (ص313، 319).

([2]) ابن خلدون، المقدمة، (ص217)؛ حسن، تاريخ المماليك البحرية، (ص261-262).

([3]) ابن خلدون، المقدمة، (ص217).

([4]) المباشرة: هي وظيفة يتولاها المباشرون، وهم موظفون في الدواوين، مثل: ديوان الخاص، وفي الأعمال، مثل: عمل الجيزة، وغير ذلك كالإقطاع، ومنهم: الناظر، والمستوفي، والشاد، ويعينهم الناظر الخاص. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج451/3، 460).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج28/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج222/2).

تقدّم في الديار المصرية. وكيفما كان فإنما يولّى من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ويحترز السلطان فيها على أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم ليطالعه بخفيات أمور المملكة وما يحدث بها مما لعل النائب قد يخفيه عن السلطان. وفي دمشق كان كاتب السر لا يحضر إلى دار العدل مع النائب؛ وإنما كان يحضر كتّاب الدست فقط فيوقّعون بما يحتاج إليه في المجلس وينصرفون إلى كاتب السر فيخبرونه بما اتّفق، وكاتب السر يجتمع بالنائب في أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط، وكان كاتب السرّ ربما داجى عليه الموقّعون فيما يقع بدار العدل فيلحقه بعض الخلل. فلما ولي كتابة السرّ القاضي سعى السعي العظيم حتّى أذن له في الحضور بدار العدل والتوقيع فيه، ومن الشروط الواجب توفرها في الشخص الذي يتولى هذا المنصب معرفته بالآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والأخبار، والألقاب، وصيغة كتابة المراسلات، والمراسيم([1]).

3- ناظر الخاص: من الوظائف التي استحدثها الناصر محمد بن قلاوون عوضًا عن الوزارة، تولى هذه الوظيفة أرباب الأقلام، وكان صاحبها مختصًا بمال السلطان، والخزانة السلطانية بقلعة الجبل، ويعاونه من الموظفين مستوفي الخاص، وناظر الخزانة الخاصة([2])، وتمتع العلماء الذين تولوا نظر الخاص بمكانة عالية من السلطان، حيث أصبح من المقربين لديه، ثم يكلف الوزير بحمل ما يطلبه ناظر الخاص([3]). وقد مثل الأقباط والمسالمة أغلب نظار الخاص في مصر عصر حكم المماليك، لمهارتهم في الأعمال الحسابية، والمالية، وكانت هذه الوظيفة مصدر ثراء كبير لمن يتولاها([4])، ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة : القاضي كريم الدين بن كاتب جكم([5]).

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج30/4)؛ (ج4/12)؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (ص155-158)؛ ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، (ص98)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج131/2).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج30/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج227/2) ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج112/2).

([3]) اليوسفي، نزهة الناظر، (ص117).

([4]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج71/7).

([5]) هو عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، وهو أول من تولى هذه الوظيفة اتصف بحسن الأخلاق، وحب الخير، وكثرة التصدق. ابن إياس، بدائع الزهور، (ج127/2)؛ العيني، عقد الجمان، (ص249،395)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج364/14-370).

4- نـاظر الدولـة (نـاظر الـدواوين): تعرف هذه الوظيفة بـاظر النظـار، أو الصـحبة الشريفة، ويتحدث مع الـوزير فـي كـل مـا يتحـدث فيـه، ويشـاركه فـي الكتابـة، والتوقيـع فـي كـل مـا يكتـب، المهم أن ناظر الدولة يحل محل الوزير، ويقوم بمهامه إذا غاب، أو تعطلت الوزارة من وزير([1])، فيتقدم إلى شاد الدواوين([2]) بتحصيل الأموال، وصرفها في النفقات، والكلف([3]).

وكـان لنـاظر الدولـة مسـاعدون علـى رأسـهم مسـتوفي الصـحبة الـذي يشـترك فـي سـائر أعمـال الدولـة، مصـرًا وشـامًا. ويكتـب مراسـيم يعلـم عليهـا السـلطان، ثـم مسـتوفي الدولـة، ولـه الاشتراك أيضـا فـي معرفة أصـول الأموال، ووجوه مصـارفها([4]). ولا تختلـف طبيعـة نـاظر الدولـة عن الوزير رب القلم، أو ناظر الخاص، أو ناظر الجيش، حيث يعمل الجميـع فـي الإدارة الماليـة للدولة، وأغلب من تولى هذه الوظائف من الأقباط المسالمة([5]).

5- أنظار أخرى: ويوجد في المماليك وظائف أخرى من الأنظار: نـاظر المـال، نظـر الخزانـة، نظر البيوت، نظر الإسطبلات، نظر خزائن السلاح، ناظر دار الطراز بدمشق، نـاظر الأسـواق، وناظر المواريث الحشرية، وناظر ديوان الأسرى، ناظر البيمارستان النوري([6]).

ج- الوظائف الدينية (أرباب العمائم، النظام القضائي):

لعب القضـاء فـي بـلاد الشـام، ومصـر دورًا بـارزًا فـي عصـر المماليـك، وكانـت لـه مواقـف قويـة فـي كثير من الأمور المستجدة في ذلك الزمن، وخاصـة عنـد توليـة شـجرة الـدر السـلطنة، وعند الجهاد ضد المغول والصـليبيين، فاستحدث منصـب قاضـي القضـاة، كمـا خصـص للعسـكر

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/29)؛ البقلي، التعريف، (344).

([2]) شاد الدواوين: أو شد الدواوين، تعني مفتش الدواوين، فكلمة شد ترادف تفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد مضافا إليها جهة الاختصاص. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/28).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/28)؛ البقلي، التعريف، (344).

([4]) ابن خلكان، وفيات، (ج2/99)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/31)؛ البقلي، التعريف، (343).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/31)؛ البطاوي، أهل العمامة في مصر، (ص29).

([6]) العمري، مسالك الأبصار، (ص121-122)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/188-192)؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، (131)؛ الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، (ج2/900-920)؛ العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، (ص320).

قضاءً للإشراف عليه، وعلى احتياجات العسكر الاجتماعية، والشرعية، كذلك مثلت المذاهب الأربعة في مختلف القضايا، وإن استعصى أمر يوجه للسلطان في دار العدل للحكم فيه([1]).

وفي عصر دولة سلاطين أسرة قلاوون تعددت الوظائف الدينية، وخاصة الذي يتبع النظام القضائي، مثل:

1- حاجب القاضي: هو الموظف الذي يقف على باب المجلس حتى لا تختلط العامة بمجلس القاضي، وعليه رفع الأمور إلى القاضي، ومن حقه الاستئذان على أصحاب الحاجات لدى القاضي([2]).

2- نقيب القاضي، وبعض الموظفين: وهو الذي يقوم بتنبيه القاضي على الشهود، وتنبيه الشهود على القاضي، وهناك من يشرف على مجلس القضاء يسمى الجلواز، وهناك موظف آخر هو الترجمان؛ لأن بعض المماليك يتكلمون بلغات مختلفة([3]).

3- قاضي العسكر: كان يعينه السلطان، وله مهمات كثيرة ، أولها رسولاً للملك، أو السلطان في مهمات محددة، وهو الذي يفصل بين الجند، ويتحدث في الأحكام في أثناء تنقلاتهم، وكان يتخذ له كاتب، ويكون له شهود عدول، ويكون له منزل بجوار خيام الجند، ويكون مستعداً للأحكام التي يكثر فعلها بين المعسكر، مثل: الغنائم، والقسمة، والمبيعات، والديون المؤجلة، والرد بالعيب، والشركة، وما يحكم فيها بمغيب([4])، ومن أشهر من ولي هذه الوظيفة في العصر الأيوبي ابن شداد(539-632هـ / 1145- 1235م)([5]).

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج35/4)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج165/2-166).

([2]) السبكي، معيد النعم، (ص61).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج89/1)؛ عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، (ص153).

([4]) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج235/3)؛ (ج141/4)؛ أبو شامة، الروضتين، (ج307/2)؛ (ج335/3).

([5]) ابن شدّاد: هو القاضي، بهاء الدين أبو المحاسن، وأبو العز، يوسف بن رافع بن تميم بن عُتْبة بن محمد بن عتّاب الأسدي، الحلبيّ الأصل، الموصليّ المولد والمنشأ، الشافعيّ، الفقيه، المعروف بابن شدّاد، وشداد هو جده لأمه. ولد بالموصل في 10/ رمضان سنة 539 هـ /1145م)، وتفقّه، وتفنّن، وبرع في العلم، وحدّث بمصر، ودمشق، وحلب، وكان ثقةً، حجةً، عارفاً بأمور الدين، اشتهر اسمه، وسار ذِكره، وكان ذا صلاح وعبادة. له مصنفات عديدة. توفي بحلب في صفر سنة 632 هـ / نوفمبر 1234م. ياقوت، معجم، (ج622/5)؛ الذهبي، تاريخ، (ج134/46). السبكي، طبقات، (ج360/8). الحنبلي، الأنس، (ج102/2).

حيث عمل قاضيا لعسكر صلاح الدين، ولأولاده الظاهر، وعبد العزيز([1]). وفي العصر المملوكي تراجعت مكانة قاضي العسكر، ولم تظهر هذه الوظيفة وظيفة قاضي العسكر مستقلة عن القضاء إلا في العصر الأيوبي والمملوكي([2]). وقد ظل شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني([3]) قاضيًا للعسكر فترة طويلة إلى أن نزل عنها لابنه بدر الدين محمد سنة 779هـ/1378م، فلما توفي جاء أخوه عبد الرحمن من بعده قاضيا للعسكر، وأصبح بعدها قاضيا لقضاة الشافعية([4])، وتولى هذا المنصب عدد من القضاة ، منهم: القاضي شمس الدين الدميري المالكي، الذي تولى مناصب عدة بالإضافة لهذا المنصب([5]).

4- **أمناء القاضي:** هم موظفون تابعون للقضاة، يقومون بالنظر في أموال المحجور عليهم، والنظر في الوصايا، ولا سيما أموال الأيتام، والغائبين، وكان يوكل لإشراف قاضي القضاة، وعين أمينا للحكم بالقاهرة، وأمينا في مصر، وأمينًا بالحسينية([6]). وتعد هذه الوظيفة من الوظائف الحساسة في الدولة، فأحيانًا كثيرة يتعرض للضغط عليه من قبل السلاطين لسلب الأموال([7]).

5- **وكلاء القاضي:** وهم من نصبهم المتقاضون وكلاء عنهم أمام القضاة، وكانوا يجلسون أمام أبواب المحاكم بالمدرسة الصالحية، أو مجالس الحكم الأخرى، وهم يشبهون المحامين في عصرنا، وقد مدحهم قوم، وذمهم آخرون([8]).

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج5/89).

([2]) أبو شامة، الروضتين، (ج 2/307)؛ (ج3/335)؛ البطاوي، أهل العمامة في مصر؛ (ص71)، البقلي، التعريف، (ص265).

([3]) هو الحافظ سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب الدين محمد البلقيني الكناني، شيخ الإسلام، الشافعي، ولد سنة 724هـ/1223م، تولى عددا من المناصب منها إفتاء دار العدل، وقضاء دمشق، له عدد من المصنفات، توفي سنة 805هـ/1402م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج1/497)؛ ابن العماد، شذرات الذهب، (ج7/51-52).

([4]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج7/198)؛ السخاوي، الضوء اللامع، (ج4/107-108).

([5]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/141)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج11/72).

([6]) السبكي، معيد النعم، (ص62)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/864)؛ البقلي، التعريف، (ص46).

([7]) المقريزي، السلوك، (ج1/864)؛ البطاوي، أهل العمامة في مصر؛ (ص70).

([8]) ابن الأخوة، معالم القربة، (ص209)؛ المقريزي، السلوك، (ج3/269)؛ السيوطي، حسن، (ج2/151).

6- الشهود: هم فريق من الموظفين التابعين للقضاة، ويقوم الشاهد بالشهادة بين الناس، فيما لهم وما عليهم؛ لتحفظ به حقوق الناس، وأملاكهم، وديونهم، وسائر معاملاتهم([1])، ومن شروط تولي هذه الوظيفة: العدالة، البراءة من الجرح، تعلم الفقه، والإقامة الطويلة في المحاكم حتى يكتسب الفرد من الشهود المعلومات الخاصة بالخصوم([2]). وكان للشهود حوانيت معلومة ، فإذا احتاج المتقاضون إلى شاهد أحضروه للقيام بالشهادة مقابل أجر معين([3]). وقد دفع سوء الأوضاع الاقتصادية بعض هؤلاء الشهود إلى العمل في المجالات التعليمية، والدينية، والالتحاق بإحدى الخانقاوات كصوفية بها([4]).

7- المفتي: المفتون هم من العلماء الذين عملوا في مختلف الوظائف الدينية: كالقضاء، والتدريس، وشيوخ الخانقاوات، وغيرهم، وكان عليهم إرشاد المتعلمين، وإفتاء المستفتين، ونصح الطالبين، وإظهار العلم للسائلين، أما من ولي الإفتاء فهم مفتو دار العدل([5]).

لقد تناوب على إفتاء دار العدل عدد كبير من العلماء الأجلاء، منهم على سبيل المثال: القاضي شهاب الدين أبو العباس البعلبكي([6])، والإمام العلامة ركن الدين القرمي الحنفي([7]).

8- الحسبة: وصف ابن تيمية الحسبة بأنها: " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة، والقضاة، وأهل الديوان، ونحوهم"([8])، كما عرفها الشيزري بأنه: " أمر

([1]) المقريزي، الخطط، (ج414/2)؛ البطاوي، أهل العمامة في مصر، (ص67).

([2]) ابن خلدون، المقدمة، (ص224-225).

([3]) السبكي، معيد النعم، (ص63-64).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج414/2)؛ البطاوي، أهل العمامة، (ص68).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج363/3-364)؛ البلقي، التعريف، (ص130)..

([6]) أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم البعلبكي، وقد برع في الفقه على الإمام الشافعي، وتولى إفتاء دار العدل في دمشق، وتوفي فيها سنة 764هـ/1362م. المقريزي، السلوك، (ج86/3-88).

([7]) هو محمد أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، ولد في القاهرة سنة 745هـ/1344م، درس بالسيفية، والهكارية، وبقبة الشافعي، كما خطب بالجامع الطولوني، وكان شابًا دينًا عاقلًا، توفي بالقاهرة بالطاعون سنة 564هـ/1168م. السبكي، طبقات الشافعية، (ج124/9-125)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/ 591-592).

([8]) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، (ص16).

بمعروف ونهي عن منكر، وإصلاح بين الناس"([1])، أما القلقشندي فقد قال في تعريفها: " وهي وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وموضوعها التحدّث في الأمر والنهي، والتحدّث على المعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته"([2])، وقال عنها الماوردي: " هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله"([3]).

وقد أجمع العلماء أن وظيفة الحسبة من الوظائف الدينية التي ينبغي لمن يتولاها أن يكون عالمًا ملمًا بأحكام الشريعة([4]). فالحسبة وظيفة جليلة رفيعة الشأن، وبالحضرة السلطانية محتسبان: أحدهما بالقاهرة، وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنا؛ وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحري بكماله خلا الإسكندريّة، فإن لها محتسبا يخصها، والثاني بالفسطاط ومرتبته منحطة عن الأول؛ وله التحدّث والتولية بالوجه القبليّ بكماله، والذي يجلس منهما بدار العدل في أيام المواكب محتسب القاهرة فقط؛ دون محتسب مصر؛ ومحلّ جلوسه دون وكيل بيت المال، وربما جلس أعلى منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه([5]).

وممن ولي الحسبة من العلماء البارزين: المقريزي، والعيني، الذي اجتمعت وظائف القضاء، والحسبة، ونظر الأحباس في آن واحد، ولم تجتمع لأحد قبله، وقد كان يعزر بالمال، ومن خالف ما يرسم به أخذ بضاعته، وأرسله إلى السجن([6]).

ثالثا: نظام البريد ووسائل الاتصال: كان البريد موجودا في عهد الأكاسرة من ملوك الفرس والقياصرة ملوك الرّوم في العصر الجاهلي، وأمّا في الإسلام أوّل من وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. وذلك حين استقرّت له الخلافة، وقيل: إنما فعل ذلك زمن عبد الملك بن مروان([7]).

([1]) الشيزري، نهاية الرتبة، (ص5).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج38/4).

([3]) الماوردي، الأحكام السلطانية، (ص391).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج38/4)؛ ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، (ص54-56).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج38/4).

([6]) السخاوي، التبر المسبوك، (ص377).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج413/14)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج367/7) .

وقد استخدم الحكام وعمال البريد الحمام الزاجل في نقل الرسائل في الدولة الأيوبية([1])، وكذلك الخيل النجيب([2])، ليسرع وصول الرسائل، من ذلك قول ابن واصل: " فسير إليه رسولاً على نجيب ليسرع وصوله إليه" ([3]). وكان يسمى باب البريد دلالة على وجود البريد([4]). واستخدم الملك الصالح نجم الدين الحمام لمطالعة الأخبار يوميا، " وأصحبه قفصاً فيه حمام ليطالعه بالأخبار يومًا فيومًا"([5]).

وقد تمتعت إدارة البريد في العصر المملوكي برعاية كبيرة، وكانت تتبع ديوان الإنشاء([6]). ولم يقتصر استخدام البريد وإرساله بالطرق البريدية؛ بل استخدم البريد الجوي، في الحالات المستعجلة بواسطة الحمام الزاجل وخصص له براجون يعتنون به ويديرونه([7]).

كانت القلعة المركز الرئيسي لأبراج الحمام الزاجل، كما أقيمت محطات أخرى في جهات مختلفة من أنحاء السلطنة تماما، مثل: محطات البريد البري، لكن تزيد عليها المسافة، وخصص لكل محطة عدد من الحمام، فإذا نزل الحمام في محطة منها، نقل البراج الرسالة من الطائر إلى طائر آخر ليوصلها إلى المحطة التي تليها([8]).

ثالثا: نظام البريد في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م): وفي أيام السلطان قلاوون كان نظام البريد على أوجه، ومن المواقف التي حدثت، وتم استدراكها عبر البريد؛ وخاصة الحمام الزاجل: في عهد السلطان المنصور قلاوون ذُكر أنه في ذي القعدة 684هـ/1286م وصل البريد من دمشق بأن جنديا اتفق مع نصراني، وآخر يهودي سامري في

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب، (ج112/3).

([2]) البعير النجيب الإبل الكريمة واحدتها نجيبة ، والذي يركبه سراه الناس في أسفارهم. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: هِيَ عِتَاقُهَا الَّتِي يُسَابَقُ عَلَيْهَا. ابن واصل، مفرج، (ج112/3)؛ الرازي، مختار، (ص304)؛ الفيروزآبادي، القاموس، (ج130/1)؛ ابن جني، سر، (ج217/2) .

([3]) ابن واصل، مفرج، (ج29/3).

([4]) المصدر السابق، (ص96).

([5]) المصدر السابق، (ج220/5).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج435/14)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص374-375).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج435/14).

([8]) القلقشندي، المصدر السابق.

دمشق علـى تزويـر توقيـع السلطان، وكتـب الثلاثـة تواقيـع ومراسيم بتملـك أراضـي شاسـعة فـي منطقة دمشق، ولما اطلع السلطان على ذلك، أمر بتسمير النصراني، واليهودي، وقطع لسان الجندي، وأرسل ذلك بالبريد، ثم استفتى الفقهاء، فقالوا: إنـه لا يجوز قتل النصراني، واليهودي، ولاقطع لسان الجندي، ويكتفى بتعزيرهم، وصرف الجندي من الخدمة، فأرسل السلطان بطائق الحمام بتعديل الحكم، فأدركوهم في الواردة، وعادوا إلى مصر، وأعطوا كتبًا جديدة([1]).

وفي عهد الناصر محمد وقف الناصر موقفا متشددًا من أهل البدع، وكان يستشير أهل الشرع والأحكام، ويعمل على ترجيح الآراء العاملة لصالح المسلمين، فعندما قدم البريد من دمشق بأن شيخ الإسلام ابن تيمية([2])، تنازع مع أهل دمشق في الصخرة التي بمسجد النارنج بجوار مصلى دمشق، وأن الأثر الذي بها هو قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما يفعله الناس من تقبيله، والتبرك به لا يجوز، فقطع الشيخ الصخرة، وأنكر الناس عليه ذلك، فأُجيب: " إذا كان الأمر ما زعم، فقد فعل الخير، وأزال بدعة"([3]).

ويرى الباحث أن من عوامل النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون كان اهتمام سلاطين أسرة قلاوون بتنظيم الدولـة، وإدارتها بكفاءه، وتمثل فـي: إنشـاء الدواوين، والوظـائف، وتعيين القضاة، والاهتمام بنظام البريد، ووسائل الاتصال، الذي كان له دور كبير في المعارك الحاسمة ضد الصليبيين والمغول، والبلاد المعادية لسلطنة أسرة قلاوون. وهذا ما سنوضحه في ثنايا الفصل الرابع.

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص122).

([2]) تمت الترجمة له سابقا، انظر: ابن الوردي، تاريخ، (ج398/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج123/14)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ج297/1، 316-317)؛ المقريزي، السلوك، (ج417/2-418)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج149/1).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج9/2).

الفصل الثالث

العوامل الاقتصادية لنصر وتمكين الدولة المملوكية

المبحث الأول : تحقيق الازدهار الاقتصادي

ازدهر الاقتصاد زمن المماليك ازدهارًا كبيرًا في ظل حكم المماليك، وخاصة في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، وتنوع الازدهار الاقتصادي زمن المماليك، فشمل عدة نواحٍ، وهي:

أولا: تحقيق النهضة التجارية، والتي شملت:

1- التجارة الداخلية. 2- التجارة الخارجية.

ثانيا: تحقيق النهضة الزراعية والصناعية، والتي شملت:

1- الزراعة.2- الثروة الحيوانية.3- الحرف والصناعات.

أولا: تحقيق نهضة تجارية:

أ- التجارة الداخلية: كانت التجارة الداخلية في عهد قلاوون (678هـ-83هـ/1279م-1382م) وأسرته متقدمة، ومزدهرة وكان ذلك يعود لعدة أسباب، وكذلك وجود الأسواق في دولة المماليك ساعد على ازدهار التجارة الداخلية ، ونفصل عوامل ازدهار التجارة الداخلية في النقاط التالية:

أ- عوامل ازدهار التجارة الداخلية في عهد السلطان المنصور قلاوون وأسرته:

1- تعد مصر نقطة التقاء تجارة الشرق مع الغرب، حيث قال الكندي عنها: " وجعلها الله تعالى متوسط الدنيا"([1]).

2- كثرة خيرات مصر، وتنوع محاصيلها ساعد على أن تكون سوقًا تجاريا لكثير من السلع والبضائع، وسهولة الاتصال والسفر داخل مصر عبر نهر النيل، لذا أولت الدولة اهتمامًا بمجرى النيل، حيث كان يخصص لإصلاح مجراه الكثير من العمال المجهزين بأفضل الآلات اللازمة طيلة العام بلا توقف وانقطاع([2])، حتى أصبحت مصر بلد التجارات([3]).

([1]) حيث يحدها من الشرق البحر الأحمر، ويحدها من الشمال البحر المتوسط، وفي وسطها يجري نهر النيل الذي يربط بين جنوبها وشمالها. الكندي، فضائل مصر، (ص27).

([2]) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، (ص102)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص110).

([3]) المقدسي، أحسن التقاسيم، (ص203).

3- تزامن مع قيام دولة المماليك في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) ازدهار طريق البحر الأحمر، وموانئ مصر، واضمحلال ما عداه من الطرق التجارية الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب؛ وذلك بسبب قيام حركة المغول التوسعية في الشرق والعراق، وامتداد نفوذهم إلى الشام، وآسيا الصغرى، وبلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزًا لدولته، وبذلك توقفت التجارة على الطريق البري بين الصين من جهة، وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى([1])، فكانت الفرصة ليقوم المماليك بدور الوسيط بين تجارة الشرق، وتجارة الغرب([2]).

4- معاملة التجار الأجانب زمن قلاوون معاملة حسنة، وترغيبهم، وعدم الإساءة إليهم، وتشجيع السلطان قلاوون لهم، وترغيبهم في زيارة مصر([3]). وسار السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على نهج والده في تشجيع التجار للقدوم إلى مصر، ورعايتهم، فقد أصدر أمانًا شريفًا لتجار البندقية، وجنوة، وبيزا، وتجار مدن الساحل الأوروبي، منحهم حق الدخول لمصر، والتعامل مع تجارها([4]). ومن الوسائل التي اتبعها المماليك لتشجيع التجار للقدوم إلى مصر: المسامحات والإعفاءات الجمركية، والمكوس، والرسوم الأخرى([5]). ومن الوسائل أيضًا نشر الأمن والأمان في الموانئ، وعلى الطرق البرية المؤدية إليها، وتكليف بعض القبائل بحماية هذه الطرق([6])، كنا عملوا على إقامة المنشآت التجارية، كالخانات، والأرصفة، والحواصل(المخازن) في الموانئ، وعلى طول الطرق التجارية، والبرية المؤدية إلى الموانئ([7]).

5- عقد المعاهدات التجارية مع الأوروبيين؛ وخاصة الإيطاليين، والأسبان، حيث عقد السلطان قلاوون عدة اتفاقيات تجارية مع البندقية، وجنوة، وبيزا، فأصبح لهذه الجمهوريات قناصل في

([1]) المقدسي، أحسن التقاسيم، (ص203)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص296-297)؛ كاشف وآخرون، موسوعة تاريخ مصر، (ص421).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج339/13)؛ (ج40/11)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص299)؛ الصافي، العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، (ص132).

([3]) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (ص198)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج339/13)؛ (ج40/11).

([4]) العمري، مسالك الإبصار، (ص41)؛ العمايرة، موانئ البحر الأحمر، (ص286).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج79/83، 400)؛ العمايرة، موانئ البحر الأحمر، (ص286).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج109/3-111)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج29/1-30).

([7]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج29/1-30)؛ العمايرة، موانئ البحر الأحمر، (ص288).

الإسكندرية، ودمياط، ورشيد([1]). ونتج عن ذلك: وجود جاليات كبيرة من الأوروبيين، ووجود فنادق خاصة بهم في الثغور، والمراكز التجارية؛ وخاصة في الإسكندرية([2])، وبيروت، ودمشق، وطرابلس، وغيرها([3]). ولم تقتصر الفنادق على التجار الأجانب؛ بل كان للمصريين جانب في استخدام الفنادق، حيث كانوا يودعون فيها صناديق المال([4]).

ب- **الأسواق والقيساريات والخانات** في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م): كان السوق من العوامل المساعدة في تنشيط التجارة الداخلية في العصر المملوكي، وازدهارها، وحفز التجار من مختلف الجنسيات للإقبال على البلاد([5])، فحرص عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) على ازدهار أسواقهم، فدعموا الأمن والاستقرار والحراسة في الأسواق، وعملوا على توسيع نطاق التجارة فيها لإمكان استقبال أكبر عدد ممكن من التجار الأجانب، ومنح طوائفهم الامتيازات، وأبقوا على ما كان من نظم تجارية اعتاد عليها التجار؛ ونتيجة لذلك امتلأت الأسواق بالتجار الأجانب([6]). وتعددت الأسواق المحلية، فهي أسواق اتخذ البعض منها صفة التخصص في نوع البضاعة التي تبيعها، وتنتشر في المدن المختلفة([7])، وذلك مثل: أسواق المواد الغذائية([8])، وأسواق الملابس ومستلزماتها([9])، الأسواق

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص51)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (39-64)؛ العمايرة، موانئ البحر الأحمر، (ص289).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ عاشور، بحوث ودراسات في العصور الوسطى، (ص138)؛ عاشور، عصر المماليك، (ص1-3)؛ لبيب، سياسة مصر التجارية، (140).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص208-209).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص328).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص211)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (281).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (271).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (281)؛ قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، (ص7).

([8]) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، (ص8).

([9]) المقريزي، الخطط، (ج3/188).

الخاصة بلوازم الجنود[1]، وأسواق تجهيزات السفر[2]. وسيتم التفصيل عن هذه الأسواق في مصر، وفي بلاد الشام على النحو التالي:

أولا: الأسواق في مصر:

1- أسواق الملابس والأقمشة: كان أسواق الأقمشة والملابس في عهد قلاوون، وأسرته (678هـ-783هـ/1279م-1382م) ذات أهمية كبيرة، وخاصة في مصر وبلاد الشام، ففي مصر كثرت هذه الأسواق، ومن هذه الأسواق:

- **سوق الخلعيين:** الخلعيين مفردها خلعي، وهو الذي يبيع الملابس المستعملة، ويقع هذا السوق قرب باب زويلة، وهو من أعمر أسواق القاهرة، لكثر ما يباع فيه من ملابس أهل الدولة وغيرها، ويباع فيها الملابس المخيطة[3].

- **سوق الحوائصين:** وكان يباع فيه الحوائص[4]، ففي عهد السلطان الناصر محمد كانوا يتخذون الحياصة من الذهب، ومنها ما هو مرصع بالجواهر، وقد قل تجار هذا السوق بعد ذلك، وصارت حوانيته يباع فيها الطواقي التي يلبسها الصبيان، وملابس الأجناد[5].

- **سوق الشرابشين:** يباع في هذا السوق الخلع التي يلبسها السلطان، والوزراء، والقضاة، وسمي سوق الشرايشين؛ لأنه إذا أمَّر السلطان أحدًا من الأتراك ألبسه الشربوش[6]، وكان في هذا السوق عدة تجار لشراء الخلع، والتشاريف وبيعها لديوان الخاص السلطاني، والأمراء، وينال ربحا كبيرا[7].

---

(1) المقريزي، الخطط، (ج3/176-177)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324)؛ المبارك، الناصر محمد،(ص119).

(2) المقريزي، الخطط، (ج3/184)؛ قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، (ص12)؛ المبارك، الناصر محمد،(ص122).

(3) المقريزي، الخطط، (ج3/188)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص59).

(4) الحياصة وجمعها حوائص وهي الحزام أو المنطقة. عاشور، المجتمع المصري، (ص432).

(5) المقريزي، الخطط، (ج3/181)؛ المبارك، الناصر محمد،(ص120).

(6) الشربوش: هو يشبه التاج كأنه شكل مثلث يوضع على الرأس بغير عمامة. المقريزي، الخطط، (ج3/180).

(7) المقريزي، الخطط، (ج3/181) ؛ قاسم، أسواق مصر، (ص10).

- **سويقة أمير الجيوش:** تقع هذه السويقة بين حارة برجوانة، وحارة بهاء الدين، وكانت تعرف بسوق المزوقين، ثم عرفت بسويقة أمير الجيوش([1])، وهذه السويقة من أكبر أسواق القاهرة بها عدد من الحوانيت، للخياطين، والرسامين، وغيرها، ويباع في هذه السويقة: الثياب المخيطة، والأمتعة من الفرش وغيرها([2]).

- **سوق الجملون الصغير:** عرف هذا السوق بأكثر من اسم، عرف باسم الأمراء الفرشيين، وكان في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) معمور الجانبين من أوله لآخره بالحوانيت، وكان فيه من البزازين الذين يبيعون الثياب من الكتان والقطن، وفيه عدد من الخياطين، ومن البابية المعدين لغسل الثياب وصقالها([3]).

- **سوق الأبارين:** وهو سوق مخصص لبيع إبر الخياطة، ولوازم الحياكة([4]).

- **سوق الجوخيين:** يباع في هذا السوق الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج، لصنع المقاعد، والستائر، والثياب السروج، وكان الجوخ يلبسه الأكابر في يوم المطر، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ، بعد موجة الغلاء التي حدثت زمن قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، وأسرته، تجد الأمير، والوزير، والقاضي، يلبس الجوخ، فازدهر سوق الجوخيين([5]).

2- أسواق المواد الغذائية: كانت هذه الأسواق منتشرة في أنحاء الدولة المملوكية زمن أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ومن هذه الأسواق:

- **سوق باب الفتوح:** يعود إنشاء هذا السوق إلى عهد الأيوبيين، وقد وصفه المقريزي بقوله: " وليس هو من الأسواق القديمة، وإنما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية"([6])، ويمتاز هذا السوق بما

([1]) المقريزي، الخطط، (ج183/3).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج183/3)؛ المبارك الناصر محمد، (121).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج184/3)؛ المبارك الناصر محمد، (121).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج184/3).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج179/3)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص59)؛ المبارك الناصر محمد، (119).

([6]) الخطط، (ج173/3).

على جانبيه من حوانيت القصابين، والخضارين، والشرايحية، وغيرهم، ويقصده الأهالي لشراء لحوم الضأن، والمعز وهو من أعظم الأسواق في القاهرة عمرانًا([1]).

– **سوق حارة برجوان:** كان يعرف أيام الفاطميين بسوق أمير الجيوش، وفي عهد أسرة قلاوون (678هـ–783هـ/1279م–1382م) عرف بسوق حارة برجوان([2])، وهو من أعظم أسواق القاهرة ، يكثر فيه بيع لحوم الضأن والبقر، وفيه حوانيت الزيت، والجبن، والخبز، واللبن، والعطارة، والخضار، وفيه الطباخين، والشوايين، وكان فيه حانوت لا يباع فيه إلا حوائج المائدة، وهي: العقل، والكرات، والشجار، والنعناع، وكان فيه قبان توزن فيه الأمتعة والمال، والبضائع([3]).

– **سوق الدجاج، والطيور:** كانت تباع فيه الطيور، والدواجن، حيث كان يباع به كميات كبيرة من الدجاج، والإوز، وكانت تباع به طيور الزينة، والعصافير، ذكر المقريزي: " فيه حانوت فيه العصافير العصافير التي يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها، فيباع منها في كل يوم عدد كبير جدًا، ويباع العصفور منها بفلس"([4])، وفي يوم الجمعة كانت تأتي للسوق أنواع مختلفة من أصناف الطيور، مثل: القماري، الهزارات، الشحارير، الببغاء، السمان، وكانت تباع بمبالغ كبيرة" من السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم"([5]).

– **سوق بين القصرين:** من أعظم الأواق، وكان يضم أصناف المأكولات من: اللحوم، الحلويات، الفاكهة، وغيرها، وكانت شهرة سوق بين القصرين كبيرة بالنسبة لغيرها من الأسواق؛ وذلك لكثرة الناس الذين يقدمون عليه لما يحتوي عليه من بضائع سببت الازدحام([6]).

– **سوق باب الزهومة: كان** يعرف هذا السوق بهذا الاسم في عصر الفاطميين، وفي عهد أسرة قلاوون (678هـ–783هـ/1279م–1382م) عرف بسوق باب الزهومة، وهو من أكبر أسواق

([1]) المقريزي، الخطط، (ج173/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص323)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص8).

([2]) قدم أمير الجمالي أمير الجيوش إلى مصر، وكانت الشدة الكبرى، بنى بحارة برجوان دار المظفر، وأقام هذا السوق برأس الحارة. المقريزي، الخطط، (ج174/3).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج174/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص323).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج175/3).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج175/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج176/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص309)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص58).

مصر فخامة، وموصوف بحسن ما يباع فيه من المأكولات وطيبها، أما الفواكه فكان لها سوق خاصة بها قرب باب زويلة عرف باسم دار التفاح، حيث كانت تنقل إليها ثمار بساتين مصر على اختلاف أصنافها، ومنها توزع إلى أسواق القاهرة، وبظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع فيها: الفاكهة([1]).

- **سوق المصنوعات السكرية:** مثل: الحلوى، وكان يسمى أيضا سوق الحلاويين، وقد اكتسب اسمه منها، وكانت الحلاوة التي تصنع لها أشكال وألوان متعددة، فقد كان يصنع من السكر على شكل قطط، وسباع، وخيول وغيرها وتسمى العلاليق، حيث كانت تعلق على أبواب الحوانيت، وكان لهذا السوق مواسمه تزدهر فيه شراء الحلوى، مثل: شهر رجب، شعبان، عيد الفطر، كما كانت حوانيته تضم: الأواني، وآلات النحاس الثقيلة الوزن، وذات قيمة([2]).

- **سوق الشرايحيين:** وكان يعرف أيضًا بسوق الشوايين، فقد سكن فيه عدد من بياعي الشواء في حدود سنة (700هـ/1300م)، وهو أول سوق وضع بالقاهرة([3]).

- **سوق خان الرواسين:** يعد هذا السوق من أفضل أسواق القاهرة، يضم حوالي عشرين حانوتًا مملوءة بأصناف المأكولات، وخاصة لحوم الرأس([4]).

- **سوق المتعيشين:** من الأسواق التي كان يختص في بيع المواد الغذائية، والمأكولات، وكان يحضر إليه الناس ليلًا ونهارًا([5]).

3- أسواق لوازم الجند: وتشمل لوازم الجند: الأسلحة، والمعدات، والركوب، واشتهرت عدة أسواق بلوازم الجند، ومن هذه الأسواق:

- **سوق السلاح:** أنشئ بعد زوال الدولة الفاطمية بين القصرين، ويباع فيه القسي، وآلات الحرب من النشاب، والزرديات وغيرها، وعند بابيه يجلس الصيارفة([6]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج180/1)؛ الخطط، (ج170/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج181/3)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص10)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص120).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج181/3)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص10)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص121).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج181/3)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص117).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج227/3)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص58)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص9).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج176/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324).

وعند العصر يجلس أصحاب المقاعد([1]) في الجهة المواجهة لحوانيت الصيارف لبيع أنواع مختلفة من المأكولات([2]).

– **سوق المهامزيين:** أنشئ هذا السوق في العصر الأيوبي، وكان يباع فيه المهاميز([3])، واستمر هذا السوق في عهد أسرة قلاوون (678هـ–783هـ/1279م–1382م)([4])، وكان يباع في هذا السوق البدلات الفضية التي كانت تغطس جسم الخيل، والسلاسل الفضة([5]).

– **سوق اللجميين:** وهو السوق الذي تباع فيه أدوات اللجم، وغيرها من لوازم الدواب الجلدية، ويحتوي على عدد من الطلائين، وصناع الكفت الذين كانوا يطعمون اللجم بالذهب والفضة، وكان يصنع فيه السروج، ومستلزماته([6]).

4- أسواق لوازم السفر: كان في القاهرة أسواق خاصة لبيع لوازم السفر، ومن هذه الأسواق:

– **سوق المحايريين:** يحتوي هذا السوق على عدة حوانيت تعمل المحاير التي يسافر فيها إلى الحجاز، وغيره، وقد نشأ سوقان آخران لبيع المحاير: أحدهما بسوق جامع أحمد بن طولون، والثاني بسوق الخيميين، وكان أهل هذا السوق لا يراعون بائعًا ولا مشتريًا([7]).

– **سوق المرحلين:** وهو سوق خاص، يباع فيه لوازم السفر، ويزدهر في مواسم الحج، وفي هذا السوق يباع رحالات الجمال، وأقتابها، وسائر ما تحتاج إليه يقصد من سائر إقليم مصر، وخصوصا في موسم الحج، فلو أراد إنسان تجهيز مائة جمل يستطيع ذلك دون مشقة من هذا السوق([8]).

([1]) أصحاب المقاعد، ليس لهم حوانيت، وهم باعة يجلسون على الأرض بأطباق الخبز، وأصناف المعايش. المقريزي، الخطط، (ج173/3).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج176/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324).

([3]) المهاميز: مفردها مهماز، وهي آلة من حديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه، فوق الخف. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج144/2).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج177/3).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج177/3)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص11).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج177/3)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص60).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج184/3)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص12).

([8]) المقريزي، الخطط، (ج173/3)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص119).

5- أسواق متعددة الأغراض: كانت هناك أسواق متعددة الأغراض في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ومن هذه الأسواق:

- **سوق العنبريين:** وكان للعنبر [1] في الديار المصرية طلبًا، وللناس فيه رغبة، وخاصة عند النساء، فقد أنشأ السلطان قلاوون هذا السوق مكان سجن حبس المعونة، وفاء لنذر قطعه على نفسه[2]، ولما وصل الناصر محمد بن قلاوون للحكم جعل هذا السوق وما فوقه من المساكن وقفًا للجامع الجديد الناصري، الذي بناه بظاهر مصر [3].

- **سوق الصنادقيين:** يباع فيه الأسرة، والصناديق، والخزائن المصنوعة من الخشب، والتي كان المصريون يستخدمونها في منازلهم، وهذا السوق يقع أمام المدرسة اليوسفية[4].

- **سوق الشماعين:** وهو من الأسواق القديمة في مصر، أنشئ في عهد الدولة الفاطمية، وكان يعرف بسوق القماحين، وكان هذا السوق يزدهر في شهر رمضان لشراء الشموع[5]، وأشار إليه المقريزي بأن على جانبيه الحوانيت المملوءة بالشموع الموكبية، والفانوسية، والطوافات، ويظل مفتوحًا إلى بعد منتصف الليل[6].

- **سوق الخراطين:** كان يسمى هذا السوق سابقًا بسوق: عقبة الصباغين، ثم عرف بسوق القشاشين، وفي زمن أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) عرف بسوق الخراطين، وكان سوقًا معمور الجانبين، بالحوانيت التي تباع فيه مهد الأطفال، وكان فيه حوانيت الخراطين، وحوانيت لصناع السكاكين، وصناع الدوى؛ أي الدواء[7].

- **سوق منية الأمراء:** كان في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) أسواقًا مخصصة للحيوانات، تباع فيها الحيوانات، مثل: الخيل، والبغال، والحمير، والأغنام، والبقر [8]،

([1]) العنبر طيب الرائحة ، يخرج من حوت العنبر. الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج1/65-66).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج3/186)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص13).

([3]) المقريزي،الخطط،(ج3/186)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص60).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج3/185)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص12)؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص60).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج3/186)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص324).

([6]) الخطط، (ج3/186).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج3/187)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص122).

([8]) ابن دقماق، الانتصار، (ج1/15)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/671).

ومن هذه الأسواق: سوق منية الأمراء، وكان هذا السوق يعقد كل يوم أحد تباع فيه: البقر، والغنم، والغلال([1]).

والملاحظ في بعض الأسواق سابقة الذكر أنها أسواق مخصصة لبيع أصناف محددة، وذلك من خلال أسمائها، وبالرغم من ذلك وجدت أسواق في عهد دولة أسرة قلاوون المملوكية (678هـ-783هـ/1279م-1382م) جامعة لشتى الأصناف، فقد ذكر المقريزي: " إن القصبة هي أعظم أسواق مصر، وهي عامرة بالحوانيت، خاصة بأنواع المآكل، والمشارب، والأمتعة، تبهج رؤيتها، ويعجب الناظر هيئتها، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع، فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص"([2])، ومن الأسواق العامة: سوق حارة برجوان، حيث كان سكان هذه المنطقة يستغنون بهذا السوق عن الخروج من الحارة، لما فيه من أنواع مختلفة من البضائع، وسوق باب الفتوح يقال عنه ذلك أيضًا([3]).

وجدير ذكره أن كثير من الأسواق اتخذت أسماءها من المكان التي توجد فيه، مثل: سوق جامع بن طولون، سوق باب الفتوح، وسوق حارة برجوان، سوق الخانكاه([4]).

وكان لبعض الأسواق أسماء مشتقة من الجماعات التي سكنت مصر، مثل: سويقة العراقيين، سويقة المغاربة، سويقة اليهود، ومن الأسواق من حمل أسماء أشخاص، مثل: سويقة معتوق، سويقة ابن العجمية، سوق وردان([5]).

وكانت هناك من الأسواق تقام بصفة مؤقتة، في مواقع تجمع الناس في المناسبات أو في مواقع العمل من أجل بناء جسر، أو نهر، أو شق ترعة، أو بناء مدرسة، أو جامع، مثل هذه الأسواق ما ذكره المقريزي سنة (723هـ/1323م) عند إنشاء جسر بولاق منية- الشيرج: " ووزع بالأقصاب على الأمراء فنصب كل أمير خيمة، وخرج برجاله للعمل، ونصبت لهم الأسواق حتى كمل الجسر في عشرين يومًا"([6]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج233/3).

([2]) الخطط، (ج172/3).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج173/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص323)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص8).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج173/3)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ص223)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص16).

([5]) ابن دقماق، الانتصار، (ج32/1-34).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج251/2).

كما عرفت أسواق مصر في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) الباعة المتجولين الذين كانوا يفترشون أرض السوق ببضاعتهم، وكانوا معروفين باسم أرباب المقاعد، وكانوا يبيعون مختلف البضائع من المأكل والمشرب، والخواتم، والأساور، وزينة النساء، وغيرها، كما عرفت مصر الطهاة المتجولون الذين انتشروا القاهرة، وتخصصوا في هذا النوع من العمل، وكان عددهم كبير، يترواح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف طاه يتجولون من شوارع المدينة، يحملون على رؤوسهم أفرانًا موقده عليها أوعية ساخنة، أو لحم يشوى([1]) على السَّفُود، أوالسُّفُّود([2]).

ثانيًا: الأسواق في بلاد الشام:

وقد كان لكل سلعة سوقاً خاصة، فلم يكن مألوفاً أن يوجد في سوق واحد أنواع مختلفة من السلع مما يسهل على صاحب الحاجة الوصول إليها، وشرائها دون أدنى جهد؛ بل كانت السلعة الواحدة تباع في أكثر من سوق بحسب جودتها، وفي عهد دولة أسرة قلاوون المملوكية (678هـ-783هـ/1279م-1382م) وجدت في بلاد الشام أسواق غزة، وبيروت، والرملة([3]).

وفي طرابلس: أسواقها عجيبة([4])، وعجلون لها أسواق كثيرة، وحمص أسواقها فسيحة الشوارع([5])، وحماة فيها ربض يسمى بالمنصورية([6])، أعظم من المدينة، وفيه الأسواق الحافلة([7])، ثم حلب أسواقها المتسعة، والمسقفة بالخشب، فأهلها، أما دمشق سواء أكانت أسواقها مركزية تتمركز حول الجامع الأموي، وحول القلعة، أم فرعية تنتشر داخل المدينة وعلى أطرافها.

وفي عهد دولة أسرة قلاوون المملوكية (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، كان في دمشق مائة وثمانية وأربعون سوقًا، تتركز في شمالي قلعة دمشق، وجنوب الجامع الأموي([8])،

([1]) المقريزي، الخطط، (ج173/3)؛ قاسم، أسواق مصر، (ص18)؛ فييت، القاهرة مدينة الفن، (ص153).

([2]) السَّفُود والسُّفُّود: حديدة ذات شعب معقفة يشتوى بها. ابن سيده، المخصص، (ج420/1).

([3]) ابن بطوطة، رحلة، (ج239/1، 254، 262).

([4]) المصدر السابق، (ص265).

([5]) المصدر السابق، (ص 266).

([6]) المصدر السابق، (ص 267).

([7]) المصدر السابق، (ص 244).

([8]) ابن بطوطة، رحلة، (ج239/1، 254، 262)؛ العلبي، خطط دمشق، (ص446، 450).

ولعل ذلك لارتباط هذه المناطق بسكنى الكثير من الجند والأثرياء من الناس في تلك المناطق. وهذا ما يؤكد عليه ابن بطوطة، فذكر: أن أسواقها تتركز حول الجامع الأموي، فكل باب من أبوابه يدل على مرفق هام من مرافق هذه المدينة، قائلاً:" فالباب القبلي ويعرف بباب الزيادة، له دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين([1])، وغيرهم، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين([2])، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي، من أحسن أسواق دمشق([3]).

أما الباب الشرقي وهو باب جيرون([4])، له دهليز عظيم، وبجانب هذا الدهليز، أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين([5])، وغيرها، وعليها شوارع مستطيلة، فيها: حوانيت الجوهريين، والكتبيين، وصناع أواني الزجاج العجيبة([6]). وهناك أيضًا سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد([7])، والأقلام والمواد. أما الباب الغربي ويعرف بباب البريد، له دهليز فيه

([1]) السقاطين: ومفردها سقاط وهو الذي يبيع سقط المتاع، وهو رديئه وحقيره، الدينوري، غريب الحديث، (ج320/2)؛ الزبيدي، تاج العروس، (ج359/19).

([2]) الصفارين: ومفردها صفار، وهو صانع الصفر والأدوات النحاسية وقد جرت المادة أن يجتمع الصفارين في منطقة واحدة في المدن الإسلامية وكان يطلق على هذه المنطقة الصفارين. ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، (ج306/8)؛ ابن سيدة، المخصص، (ج296/3).

([3]) ابن بطوطة، رحلة، (ج311/1)؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، (ج97/12،93)؛ بهنسي، الشام لمحات آثارية، (ص146−147).

([4]) عرف باب جيرون بعد القرن الخامس بباب الساعات. الطنطاوي، الجامع الأموي في دمشق، (ص29). كما ذكر بباب الساعات عند العمري. انظر: مسالك، (ج489/12).

([5]) البزازين: ومفردها بزار وهو بائع الثياب أو تاجرها، وقد جرت العادة أن ينفرد البزازون في المدن الإسلامية الكبيرة بخانات وأسواق خاصة بهم. المقريزي، الخطط، (ج183/3)؛ الباشا، الفنون الإسلامية، (ج301/1).

([6]) كانت دمشق منذ عهد الظاهر بيبرس من أهم مراكز إنتاج الأواني الزجاجية المملوكية في سوريا، بالإضافة إلي مدينة حلب التي ذاعت شهرتها في إنتاج فاخر المصنوعات الزجاجية التي كانت تصدر إلى الأقطار المختلفة. علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، (ص197).

([7]) الكاغد: هو القرطاس. الزبيدي، تاج العروس، (ج110/9). ويقال بالدال والذال والظاء المعجمة، وهو معروف، وهو فارسي معرب. انظر ابن سيدة، المحكم، (ج389/5)؛ ابن منظور، لسان العرب، (ج380/3).

حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه([1]). كما ذكر ابن بطوطة الأسواق بالقرى المحيطة بدمشق، كقرية الصالحية التي كان لها سوق لا نظير لحسنه([2]).

ووجدت في دمشق أسواق: البزوريين، الجواري والعبيد، وسوق الخواصين، وهم صانعو السلال في مكان سوق الخياطين، وسوق السروجية، وسوق النحاسين، وسوق السقطيين، وهم باعة الملابس المستعملة، وسوق الصاغة، وسوق الصرف، ومغظم أصحابه من اليهود، وسوق المسكية، وسوق الوراقين([3]).

وجدير ذكره أن بيت المقدس شهد رواجًا تجاريا في عهد أسرة قلاوون المملوكية، حيث مكانتها الدينية الهامة، وقصد الحجاج والزوار لها من الشرق والغرب، ومن أهم أسواقها: سوق (عرصة الغلال)، ويقع قرب باب الخليل، حيث يتم مقايضة منتوجات الفلاحين، والقرويين من حبوب، وخضروات، وفواكه، وألبان، وزيت، وأجبان، وتين مجفف، ولوز بسلع مختلفة. ومن الأسواق الموجودة في بيت المقدس: سوق العطارين، سوق الخضر، سوق الصاغة، سوق القماش، سوق القطانين، سوق القشاش، سوق الزيت، سوق المبيضين، سوق خان الفحم، سوق الطباخين، سوق الملابس، سوق اللحم، سوق الدجاج، سوق السمك، سوق الحمير، سوق البيمارستان الصلاحي، سوق الخلع، سوق باب السلسلة، سوق الصلاحية، سوق القطن، سويقة حارة اليهود، سويقة باب حطة، خان السمك([4]).

6- القيساريات: القياسر هي الأسواق المسقوفة، وتعد القيساريات في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) من الأسواق المتخصصة في بيع سلع محددة، وهي تكون على شكل مجمعات تجارية تحوي عدة حوانيت، تبيع سلعًا متماثلة، ولها باب يغلق ليلًا، ولها عريف يشرف على إدارتها، وإسكان التجار فيها، وحارس يقوم بحراستها، ويتولى فتح أبوابها في الصباح، وإغلاقها في الليل([5])، وكانت هذه القيساريات تضم عدد كبير من الحوانيت يصل

([1]) وعن باب البريد يقول ابن فضل الله العمري: " وهو حضره نسيجه في جانبيها حوانيت للفواكه والشمع والعطر والشراب، وأطايب المأكول"، مسالك، (ج194/1).

([2]) ابن بطوطة، رحلة، (ج311/1-312).

([3]) أبو شامة، الروضتين، (ج66/1-75)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج214/10).

([4]) الحنبلي، الأنس الجليل، (ج50/2-53)، غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، (ص83).

([5]) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، (ص136)؛ المبارك، الناصر محمد بن قلاوون، (ص125-129).

بعضها إلى ثلاثين حانوتًا، مثل: قيسارية الجامع الطولوني([1]). وللقيساريات أكثر من باب يصل أحيانًا إلى ستة أبواب، حيث أن قيسارية الصيانة، وهي: من أوقاف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري، وكان لها خمسة أبواب([2]).

ومن القيساريات قيسارية المحلة، حيث تشمل على ستة أبواب، وكان ينزل فيها أيام أسواق القاهرة تجار القاهرة للبيع والشراء بها، وكانت هذه القيسارية في سوق الغرابلين، والعطارين، وكان يباع فيها: جميع أنواع الصوف، والخيش، والشعر، وجدير ذكره أنه في وسط بعض القيساريات نوافير للمياه لأغراض الوضوء، كما كان يعلوها رباع فيها عدة مساكن، ينزل فيها التجار([3]).

ومن القيساريات التي كانت موجودة في عهد قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، وأسرته: قيسارية شبل الدولة، وقيسارية ابن الأرسوفي الكبرى، قيسارية ورثة الظاهر، قيسارية ابن ميسر الكبرى، والصغرى، قيسارية ابن قريشي، قيسارية الشرب، قيسارية سنقر الأشقر، قيسارية خان علي بن المنصور قلاوون، قيسارية رسلان، قيسارية جهاركس، قيسارية الفاضل، قيسارية بيبرس، قيسارية العصفر، قيسارية الفائزي، قيسارية بكتمر الساقي، قيسارية طاشتمر، قيسارية بشتاك، قيسارية المحسني([4]).

7- الخان([5]): يعد الخان من أكبر المؤسسات التجارية الداخلية، والخارجية، وكان رجال الأعمال، والتجار، والأمراء المماليك في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) يتسابقون في بناء المنازل، والقصور الفخمة، ويحولونها إلى خانات، ووكالات، وقياسر، ويقومون بتأجيرها بأسعار خيالية، ويوجد داخل الخان مسجد صغير، وخزينة، والخان عبارة عن

([1]) المقريزي، الخطط، (ج166/3)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص125-129).

([2]) ابن دقماق، الانتصار، (ج38/1) ؛ المبارك، الناصر محمد، (ص126).

([3]) ابن دقماق، الانتصار، (ج37/1) ؛ الضلاعين، السلع التجارية، (ص62)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص125).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج157/3-158)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص125-129).

([5]) الخان لفظ فارسي، معناه الفندق كما حكى سيبويه. ابن سيده، المحكم، (ج629/6)؛ الرازي، مختار الصحاح، (ص98)؛ ابن منظور، لسان العرب، (ج313/10).

حي قائم بذاته، ويتكون من ثلاث طبقات، في الطابق الأرضي توجد المخازن، والحوانيت، وفي الطابق العلوي غرف للنوم، ومن أمثلة الخانات خان مسرور ([1]).

خان مسرور: خان مسرور مكانان، أحدهما كبير والآخر صغير، فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين، كان موضعه خزانة الدرق، والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، كان ساحة يباع فيها الرقيق، بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق، وقيل: أن خزانة الدرق كانت في المكان الذي هو خان مسرور، وهي برسم استعمالات الأساطيل من الكبورة الخرجية والخود الجلودية وغير ذلك([2]).

وجدير ذكره أن مسرور هذا من خدّام القصر، خدم الدولة المصرية واختص بالسلطان صلاح الدين رحمه الله، وقدّمه على حلقته، ولم يزل مقدّما في كل وقت، وله برّ وإحسان ومعروف، ويقصد في كل حسنة وأجر وبرّ، وبطل الخدمة في الأيام الكاملية، وانقطع إلى الله تعالى ولزم داره، ثم بنى الفندق الصغير إلى جانبه، وكان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق، ولمسرور المذكور برّ كثير بالشام وبمصر، وكان قد وصى أن تعمل داره وهي بخط حارة الأمراء مدرسة، ويوقف الفندق الصغير عليها، وكانت له ضعية بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبي الحسن القيمريّ([3]) بجملة كبيرة، وعمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته([4]).

قال المقريزي، عن خان مسرور: "وقد أدركت فندق مسرور الكبير في غاية العمارة، تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم، وكان فيه أيضا مودع الحكم الذي فيه أموال اليتامى، والغياب، وكان من أجلّ الخانات، وأعظمها، فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منذ سنة تيمورلنك، وتلاشت

([1]) المقريزي، الخطط، (ج3/168-169، 171)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص293)؛ فييت، القاهرة مدينة الفن، (ص197)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص130).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج4/219).

([3]) وهو الأمير الكبير سيف الدين. صاحب المارسْتان الَّذِي بجبل قاسيون. يقال: إنه ابن صاحب قَيْمُر.كان أميرًا كبيرًا، محتشمًا، بطَلًا، شجاعًا من الأبطال المذكورين بالفُرُوسيّة. وكان كريمًا جوادًا. بنى له تُربة كبيرة بقُبّة، وهي أقرب شيء إلى المارستان.توفّي بنابلس، وحمِل فدُفن بتُرْبته. الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج14/768).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج3/157-158)؛ زكي، طرق التجارة الدولية، (ص293-294).

أحوال إقليم مصر، قلّ التجار وبطل مودع الحكم، فقلّت مهابة هذا الخان وزالت حرمته وتهدّمت عدّة أماكن منه، وهو الآن بيد القضاة"([1]).

وجدير ذكره أن الأسواق في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) قد أصابها الاضطراب، فمرة تكون مستقرة، ومرة تكون مضطربة؛ وذلك لعدة عوامل، أهمها: العوامل الاقتصادية، والعوامل السياسية، حتى تعطلت حركة الأسواق من وقت لآخر([2]).

ب- التجارة الخارجية: كان للتجارة الخارجية في سنة (678هـ-783هـ/1279م-1382م)؛ أي في عهد أسرة قلاوون دور في ازدهار الحالة الاقتصادية في دولة المماليك، وتمثل ازدهار التجارة الخارجية في الأمور التالية:

أ- ازدهار العلاقات التجارية بين مصر ودول الشرق والغرب.

ب- ازدهار طرق التجارة العالمية والسلع المتبادلة.

ج- ازدهار تجارة الكارم.

أ- ازدهار العلاقات التجارية بين مصر ودول الشرق والغرب: ازدهرت العلاقات التجارية بين مصر، ودول الشرق، والغرب، وعند الحديث عن هذه العلاقات، نتحدث في نقطتين :

1- **العلاقات التجارية بين مصر والدول الشرقية، والأوروبية:** فتح سلاطين المماليك عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) المجال لبعض الملوك والأمراء لتبادل التجارة الخارجية بينهم، وبين المماليك، فهذا ملك سيلان أرسل مبعوثًا سنة 682ه/1283م إلى السلطان قلاوون راغبًا في إقامة علاقات تجارية معه، مفضلا مصر عن التحالف التجاري مع اليمن، حيث أن سيلان تعد من الجزر الغنية، فيها من الجواهر، والقيلة، والتحف، ونحوها، وفيها سبعًا وعشرين قلعة، وفيها من معادن الجواهر الياقوت، وخزائنها ملأى بالجواهر([3])، وقد أكرم السلطان قلاوون رسول ملك سيلان، وأجزل لهم العطاء، وبعث لملك سيلان كتابًا ردًّا على كتابه([4]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج3/167-168)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص130).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج2/17)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص131).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج1/713).

([4]) الدواداري، زبدة الفكر، (ص235)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص339).

كذلك ارتبطت مصر بعلاقات تجارية مع بلاد التكرور([1])، والنوبة([2]). وحرصت الحبشة على إقامة علاقات مودة، وصداقة مع سلاطين المماليك([3]). وكانت لمصر علاقات تجارية نشطة مع الدول الأوروبية، وبخاصة مع دويلات المدن الإيطالية، البندقية، وجنوة، وقطالونيا، وكذلك مع فرنسا، وغيرها من الدول، ووطدوا تلك العلاقات بمعاهدات تجارية نظمت العلاقات بين الطرفين([4]).

أما دول الفرنجة بالأندلس فكانت هناك صلات تجارية؛ لكنها محدودة، وغير منتظمة([5]).

ب- ازدهار طرق التجارة العالمية والسلع المتبادلة:

1- أهم طرق التجارة العالمية: تعددت الطرق التي تربط بين الشرق والغرب، منها البحرية، ومنها البرية، ومنها ما يكون جزءًا منه حرًا، وجزءًا منه برًّا، وهذه الطرق ساعدت على نقل بضائع الشرق إلى الغرب، وبضائع الغرب إلى الشرق، وساعدت على أن يكون هناك علاقات تجارية بين سكان المعمورة([6])، ومن أهم هذه الطرق:

أ- طريق الصين إلى الهند فالخليج العربي، وهي من أقدم الطرق البحرية القادمة من الصين والهند إلى الخليج العربي، ويبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة إلى بغداد، ثم يتفرع شمالا إلى

([1]) بلاد التكرور، هي أحد الأقاليم الإفريقية تقع في الجهة النوبية الغربية من مصر، وقاعدتها مدينة تكرور، وتشتمل على خمسة أقاليم، هي: إقليم مالي، إقليم صوصو، إقليم غانة، إقليم كوكو، إقليم تكرور. وكان كل من هذه الأقاليم مملكة مستقلة، ثم توحدت تحت حكم سلطان واحد. العمري، مسالك الأبصار، (ج107/4)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج38/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج272/5).

([2]) النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوب مصر، وأول بلاد النوبة بعد أسوان، ومدينة النوبة، ومقلة. ياقوت، معجم البلدان، (ج308/5).

([3]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص47)؛ عاشور، مصر والشام، (ص352-358)؛ العمايرة، موانئ البحر الأحمر، (ص307).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج713/1)؛ صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، (ص82).

([5]) الدواداري، زبدة الفكر، (ص235)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص237)؛ ماجد، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك، (ص290).

([6]) النويري، نهاية الأرب، (ج92/3)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص117-118)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص182).

ديار بكر، وغربا إلى دمشق ثم إلى باقي الموانئ المملوكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى القاهرة، وهناك فرع شمالي آخر بالقرب من حلب، وهذا الفرع كان يستخدم كطريق بديل عند اشتداد القرصنة في البحر المتوسط، وفقد هذا الطريق اتصاله بطرق وسط آسيا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ بسبب غزوات المغول([1]).

ب- **طريق البحر الأحمر والهند والصين**، ويتفرع إلى فرعين: الفرع الأول يبدأ من مصر وينتهي في الهند والصين، حيث يبدأ من الإسكندرية مرورا بعدة مدن، ثم إلى عدن وهي المحطة الرئيسة لانطلاق الرحلات البحرية، ومن عدن كانت السفن تتجه إلى الهند، والصين مباشرة عبر المحيط الهندي([2]). أما الفرع الثاني يته شمالًا عبر أيلة العقبة([3])، إلى سيناء([4])، ثم إلى القاهرة، ومنها إلى دمياط([5])، والإسكندرية فأوربا، ويتجه منه فرع إلى دمشق، وموانئ البحر المتوسط([6]).

ج- **طريق البحر الأحمر- شرق أفريقية:** ويبدأ من أحد موانئ البحر الأحمر إلى باب المندب، ثم السواحل الأفريقية، ذكر المقريزي: " وأما طريق بلاد الزنج؛ فإنهم أخبروني عن مسيرهم في بحر الصين إلى بلاد الزنج بالريح الشماليّ، مساحلين للجانب الشرقيّ من جزيرة مصر"([7])، كما كان هناك طريق من عدن إلى مقديشيو دون المرور على زيلع، لتصل إلى كلوة، وجزر القمر، وهي آخر محكة أفريقية وصل إليها ابن بطوطة([8])، كما كان هناك طريق يربط بين الهند وشرق

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج82/5)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص182)؛ العناقرة، الحياة الاقتصادية في الحجاز، (ص32).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج82/5).

([3]) أيلة مدينة عللى الساحل الشرقي للبحر الأحمر، مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز، وأول الشام. ياقوت، معجم البلدان، (ج292/1).

([4]) سيناء: اسم موضع بالشام يضاف إليه طور، فيقال: طور سيناء، وهو جبل الذي كلم فيه الله تعالى موسى. ياقوت، معجم البلدان، (ج300/3).

([5]) دمياط: من أشهر الموانئ البحرية تقع عند مصب نهر النيل. ياقوت، معجم البلدان، (ج473/2).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج713/1)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص124).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج356/1).

([8]) ابن بطوطة، رحلة، (ج122/2)؛ العماير، موانئ البحر الأحمر، (ص355).

أفريقية([1])، وكانت الرحلات إلى شرق أفريقية، تكون في مواسم محددة؛ وذلك عند هبوب الرياح الشمالية الشرقية، وتعود بمساعدة الرياح الجنوبية الغربية([2]).

د- طريق عدن إلى الهند والصين، مرورًا بالخليج العربي، حيث كان هذا الطريق بمحاذاة ساحل بحر العرب من عدن إلى صحار([3]) في عُمان ليتجه بعد ذلك إلى بلاد فارس، والهند، والصين([4])، وسيطر على هذا الطريق من طرفيه دولتان تجاريتان عظيمتان، ففي طرفه الشمالي الصين، وفي طرفه الغربي دولة أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)([5]).

هـ- طريق بري يأتي من وسط آسيا عبر الهند، وجبالها إلى نهر الأثيل، ثم إلى بخارى، ثم يتفرع إلى طريقين: الأول يتجه إلى بحر قزوين فنهر الفولجا، وبلاد البلغار، والثاني يتجه إلى البحر الأسود، وموانيه، ثم يصل إلى القسطنطينية، ومن ثم إلى الموانئ الأوروبية، ومدنها، وتخرج منه فروع إلى مدن عربية، وإلى آسيا الصغرى ثم إلى القسطنطينية([6])، وتميز هذا الطريق بتأثره بالظروف السياسية، والحربية، وتعددت مرات إغلاق هذا الطريق؛ وذلك بسبب الصراع الحربي الذي كان يسود في مناطق هذا الطريق([7]).

2- السلع المتبادلة: تعد فترة أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م- 1382م) من أزهى العصور للازدهار التجاري بين الشرق والغرب، فقد كان المماليك وسطاء لنقل السلع التجارية،

([1]) المقريزي، الخطط، (ج356/1)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص176)؛ العماير، موانئ البحر الأحمر، (ص355)..

([2]) المقريزي، الخطط، (ج356/1)؛ عثمان، تجارة المحيط الهندي، (ص66-67).

([3]) قصبة عمان مما يلي الجبل، ممتدة على البحر، وهي أقدم مدن عمان وأكثرها أموالا ، يقصدها من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم، وإليها يجلب جميع بضائع اليمن، ويتجهز منها بأنواع التجارات، وأحوال أهلها واسعة، ومتاجرهم مربحة. الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج152/1، 156)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج393/3).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج33/4)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص161)؛ عثمان، تجارة المحيط الهندي، (ص66).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج92/3)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص161-162).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج525/3)؛ (ج32/4)؛ زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، (ص154)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص154).

([7]) النويري، نهاية الأرب، (ج92/3)؛ غوانمة، إمارة الكرك، (ص337).

ومن أهم السلع التجارية: التوابل، والأقاوية الشرقية لامباشر حتياج غرب أوروبا إليها، كذلك كانت البخور الشرقية من أهم متطلبات الكنائس الغربية([1])، وإلى جانب التوابل كانت هناك سلع تستخدم في تركيب العقاقير الطبية، مثل: الراوند، والكافور، والإهليلج، والسنبل، وغيرها([2])، ومن السلع أيضا التي كانت تنقل من الشرق الأقصى إلى أوروبا: الأحجار الكريمة، مثل: الياقوت، ويكثر في سيلان([3])، أما المعادن النفيسة التي كانت تصدر من الشرق إلى أوروبا الذهب([4])، وهناك سلع كثيرة كانت تصدر إلى أوروبا عبر التجار.

ج- تجارة الكارم: نشطت التجارة الداخلية والخارجية زمن المماليك، وخاصة في حكم أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، وأدى هذا النشاط، والتطور في التجارة، إلى ظهور طائفة تجارية أصبحت عمادًا للتجارة المملوكية، وعرفت بالكارميين، أو الكارم، وجدير ذكره أن الكارميين هم فئة من التجار، اشتغلوا باحتكار تجارة الهند، والشرق الأقصى في التوابل، وكان المحيط الهندي مركز نشاطهم الأول([5])، ويقول القلقشندي أن الكارم مأخوذ من اسم الكانم، وهي منطقة من السودان الغربي، تقع بين بحر الغزال، وبحيرة تشاد، ثم انتشر بين من كان يعمل بتجارة البهار، بعد أن وقع فيه تصحيف وأصبح كارم([6]).

ومنهم من يرى أن اسم كارم اقتبس من لفظ كاراريما، وتعني الحب هال، وهو من نوع التوابل، وكاريام، وتعني الأعمال والأشغال([7])، ومنهم من يرى أن هذه التسمية(كارم) تنقسم إلى

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/33)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص191)؛ الصافي، العلاقات التجارية، (ص76).

([2]) النويري، نهاية الأرب، (ج3/92)؛ العمايرة، موانئ البحر الأحمر، (ص208).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/33)؛ فارتيما، رحلات، (159).

([4]) الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج1/76)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج2/106).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج3/92)؛ القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، (ص17)؛ الشاوي، تجارة الكارم، (ص2).

([6]) النويري، نهاية الأرب، (ج3/92)؛ ضوء الصبح، (ص257)؛ لبيب، التجارة الكارمية، (ص6).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/33)؛ لبيب، التجارة الكارمية، (ص7)؛ القوصي، أضواء جديدة، (ص25)؛ العمايرة، موانئ البحرالأحمر، (224).

قسمين: الأول (كار)، ومعناها الحرفة، أو العمل، والثاني هو (اليم) بمعنى البحر أو المحيط، ومن هنا جاءت تسمية من يحمل في البحر باسم كاريم أو كارم([1]).

وقد قامت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) بالاهتمام بتجارة الكارم، وذلك من خلال إقامة المنشآت التي تقدم خدماتها، وفي تعيين موظفين يتابعون شئون تجار الكارم، مثل: مستوفي البهار والكارمي، أو نظر البهار، والكارمي([2])، وكان لتجار الكارم محطات تجارية في عدن، وتعز، وزبيد، ومخازنهم التجارية في قوص، وكان لهم محطات تجارية في دمشق، وكان تجارم الكارم يستثمروا موسم الحج بإغراق أسواق مكة، وجدة بالسلع المتنوعة، وكذلك يتم عقد الصفقات التجارية الكبرى فيها([3]).

وتعد قوص في صعيد مصر من المراكز المهمة لتجارم الكارم؛ حيث أصبحت سوقًا تجاريًا كبيرًا لمنتجات أفريقية الوسطى، و الهند، والحبشة، واليمن، وكان لهم نقابة تدير شؤونهم، إضافة لاحتكارهم تجارة العاج، والبخور، والتوابل([4]).

وكان للكارمية اسطولًا تجاريا، ويعرف (بمراكب الكارمية)، وكان مقره الرئيس في قوص، وكانت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) تجهز القوافل، ويحمونها، وكان للكارمية رئيس يدعى رئيس الكارمية، حيث يكون أكثر الكارمية مالا، ونفوذًا([5]).

([1]) النويري، نهاية الأرب، (ج92/3)؛ القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، (ص25)؛ الشاطر، الكارمية، (ص220).

([2]) وهو المشرف على جمع ضريبة التوابل. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج33/4)؛ العمايرة، موانئ البحر،(228)؛ ماجد، التاريخ السياسي، (ص248).

([3]) أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، (ج68/2)؛ لبيب، التجارة الكارمية، (ص19)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص214)؛ العمايرة، موانئ البحرالأحمر، (228).

([4]) النويري، نهاية الأرب، (ج92/3)؛ عاشور العصر المملوكي، (ص303)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص215).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج464/3)؛ المقريزي، خطط، (ج105/1)؛ لبيب، التجارة الكارمية، (ص30)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص215).

وجدير ذكره أن تجار الكارمية هؤلاء كانوا يقرضون سلاطين أسرة قلاوون؛ وذلك لشدة ثرائهم، فأقرضوا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأقرضوا ابنه الصالح([1])، فكما قال المقريزي: " كانت تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة"([2])، وكان لهم أعمال تجارية، وتعليمية، وذلك مثل: بناء الفنادق، والخانات، والمدارس، فيذكر أن كارميا بنى مدرسة من ربح يوم واحد من متجره([3]). وربما يكون هذا مبالغا فيه؛ ولكن يشير إلى ثراء تجار الكارمية. وكان لتجار الكارمية ثقلهم السياسي، حيث كان لهم أثر كبير في علاقات دولة أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) بالدول الأخرى، وخاصة اليمن، حفاظا على مصالحهم، ففي سنة 707هـ/1307م، وقعت أزمة بين مصر، واليمن؛ وذلك أن صاحب اليمن منع الهدية المقرر إرسالها كل سنة إلى مصر، فقرر السلطان لناصر محمد إرسال قوة إلى اليمن، فتدخل تجار الكارمية، وطلبوا تأجيل الحملة، وذهبوا إلى صاحب اليمن حاملين رسالة من السلطان الناصر محمد، يحذروه من عواقب الأمور، فوافق صاحب اليمن، واستقرت الأمور([4]).

وقد استخدم تجار الكارم المعاملات المالية الشخصية في مصر في المعاملات المالية، والتجارية، وعرفوا التعامل بالنقد، والائتمان المصرفي في نقل الأموال، وعقد القروض للسلاطين في مصر، وغيرهم، فكان لهم مصرفهم الخاص، وكان فندقهم في القاهرة يقوم بهذه العمليات المالية، وكانت بنوك الكارمية تعطي القروض لسلاطين أسرة قلاوون، والأفراد، في مقابل خطابات الضمان، كما كانت هذه البنوك تضمن عمليات المقارضة بين الكارمية والأجانب([5]).

وكان لتجار الكارمية علاقات تجارية كبيرة مع الهند واليمن ومصر، وحكامهم، وقد تأثر حكام هذه البلاد بهذه العلاقة، حيث قويت علاقاتهم ببعضهم البعض، حيث كان يرسل حكام الهند الهدايا إلى سلاطين أسرة قلاوون(678-783هـ/1279-1382م) مع تجار الكارم([6]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج470/2)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج478/1)؛ سالم، البحر الأحمر، (ص37).

([2]) السلوك، (ج470/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (328).

([3]) ابن شاهين، زبدة كشف المماليك، (ص41)؛ لبيب، التجارة الكارمية، (ص29).

([4]) العيني، عقد الجمان، (ج463/4)؛ الخزرجي، العقود، (ج308/1)؛ الشاوي، تجارة الكارم، (ص40).

([5]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج271/10-272)؛ فهمي، طرق التجارة الدولية، (ص344-345).

([6]) أبو الفداء، المختصر، (ص101)؛ الشاوي، تجارة الكارم، (ص41).

وكذلك كانت هناك علاقة قوية بين تجار الكارمية والأوروبيين، وهيئاتهم التجارية حتى قامت بينهما شركات مقارضة، كان فيها رأس المال للكارمية، والجهد للأوروبيين([1]).

وقد ازدهرت تجارة الكارمية في عهد سلاطين أسرة قلاوون(678-783هـ/1279-1382م)، وكان السبب في ذلك: أنها كانت متوارثة من جيل إلى جيل، فيتم تدريب الأجيال الكارمية بإرسالهم للأسواق الكبرى في مصر، والحجاز، واليمن، والهند، وبلاد التكرور، وغيرها، كما كانوا يتخذون الوكلاء، والعبيد وسيلة لجلب بضائع تلك البلاد التي يذهبون إليها، ويروجون لتلك البضائع التي يجلبوها من تلك البلاد، إلى أهل هذه البلاد لبيعها عندهم([2]).

ويتضح مما سبق أن من عوامل النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون تحقيق الازدهار الاقتصادي، حيث شمل: تحقيق نهضة تجارية، فحرصت أسرة قلاوون على استمالة التجار الشرقيين والغربيين إلى مصر؛ رغبة بالنفع الناتج من وراء تجارتهم، واجتذاب رأس المال الخارجي إلى القاهرة، ودمشق، والتي أدت إلى نجاح المماليك في عهد أسرة قلاوون بالحرب الاقتصادية، والتي حاولت البابوية من خلالها تحقيق النصر بعد فشلهم سياسيا، وعسكريا، وكانوا يهددون الغرب بمنع الوصول إلى الأماكن المقدسة، أو قطع منتجات الشرق عن أوربا إذا لم يكف الأوربيون عن حرب الإبادة ضد المسلمين؛ ليس هذا فحسب؛ بل إن التهديد وصل أيضًا المغول. فعملت على توفير المستلزمات اللازمة للحفاظ على سلامتهم، ورعايتهم، والاهتمام بهم، وعمل سلاطين أسرة قلاوون على انتشار الأسواق في بلاد الشام، وظهور مختلف الأسواق، كأسواق المواد الغذائية، وأسواق الملابس ، وأسواق لوازم السفر، وأسواق أخرى، ومن النتائج الهامة: عقد المعاهدات التجارية بين الدول ودولة أسرة قلاوون.

([1]) المقريزي، السلوك، (ج2/103-104)؛ فهمي،طرق التجارة ، (ص338).

([2]) أبو الفداء، المختصر، (ص101)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/103-104)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج10/271-272)؛ لبيب، التجارة الكارمية،(ص25)؛ فهمي،طرق التجارة ، (ص338).

ثانيا : تحقيق النهضة الزراعية والصناعية

أ- الزراعة: تعتمد الزراعة في مصر على نهر النيل كأهم مصدر من مصادر المياه في مصر، مما دفع ابن بطوطة للقول: " ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ... وأول ابتداء زيادته في حزيران، وهو يونيه..." ([1]).

فقد أولى حكام مصر في القديم الحياة الزراعية؛ كونها مصدر ثروة البلاد، فأنشأوا الجسور، وشقوا الخلجان، والترع؛ لسقي الأراضي التي تعذر وصول المياه إليها، وجاءت سلاطين أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ونجد أن نهر النيل قد حظي باهتمامهم([2])، واهتموا بالجسور، والخلجان، والترع، فعنوا بإنشاء العديد من الجسور، وشق الخلجان، واستصلاح أراضٍ كانت مهجورة([3]).

أما عن الجسور([4])، فانقسمت إلى قسمين: الجسور السلطانية، والجسور البلدية.

أ- الجسور السلطانية: وهي الجسور التي تكون عامة النفع، ويكون السلطان مشرفًا عليها إشرافًا مباشرًا، وقد بلغ مصروف هذه الجسور زمن السلطان محمد بن قلاوون ربع خراج([5]) الإقطاعيات([6]). ووصف ابن مماتي هذه الجسور بأنها" جارية مجرى سور المدينة الذي يجب على السلطان الاهتمام بعمارته، والنظر في مصلحته، وكفاية العامة أمر التفكير فيه"([7]).

([1]) ابن بطوطة، رحلة، (ج207/1)؛ العزام، الزراعة في مصر، (ص153).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج293/3)؛ العزام، الزراعة في مصر، (ص153).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج115/1)؛ العزام، الزراعة في مصر، (ص153).

([4]) الجسور: مفرده جسر، وهو القنطرة ونحوه مما يعبر عليه، والجمع أجسُر، والجسر هنا الطريق المبني على حافة النهر، أو الترعة لحفظ المياه، وضبطها لأغراض الري، ولوقاية البلاد المجاورة من الفيضان. ابن منظور، لسان العرب، (ج137/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج638/1).

([5]) الخراج: هي الضريبة السنوية التي تجبى من الأراضي التي فتحت عنوة، أو صُلحًا وأقر أهلها عليها. إسماعيل، النظم المالية، (ص156).

([6]) ناصر، الحياة الاقتصادية في مصر، (ص172).

([7]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص232).

ب- الجسور البلدية: وهي الجسور التي يكون نفعها خاصًا بناحية دون ناحية، ويتولى عمارتها، والعناية بها أصحاب الإقطاعات من أموال إقطاعاتهم([1]).

وقد اهتم سلاطين أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) ببناء الجسور؛ حيث وصف المقريزي اهتمام الناصر محمد بن قلاوون، بالقول: " وفيها اهتم السلطان بعمارة جسور نواحي أرض مصر، وترعها، وندب عدة أمراء([2]) لرعاية هذه الجسور([3]).

ومن أمثلتها: الجسر من بولاق إلى منية الشيرج، ويذكر المقريزي أن " السبب في عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته في سنة (723ه/1323م)، حتى أغرق من ناحية بستان الخشاب، ودخل الماء إلى جهة بولاق، وفاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر، وبساتين الخور، فهدمت عدّة دور كانت مطلة على البحر، وكثير من بيوت الكورة"([4]). أما الخلجان([5]) فقد عني سلاطين أسرة قلاوون(678ه-783ه/1279م-1382م) بالخلجان لما لها من أهمية في زيادة واردات الدولة، وذكرت المصادر عدة خلجان شقها سلاطين أسرة قلاوون([6]).

([1]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص232)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج449/3).

([2]) ندب الأمير عز الدين أيدمر الخطيري إلى الشرقية، والأمير علاء الدين أيدغدي شقير إلى البهنساوية، والأمير شرف الدين حسين بن حيدر إلى أسيوط، ومنفلوط، والأمير سيف الدين آقول الحاجب إلى الغربية، والأمير سيف الدين قلي أمير سلاح إلى الطحاوية وبلاد الأشمونين، والأمير بدر الدين جنكلي بن البابا إلى القليوبية، والأمير علاء الدين التليلي إلى البحيرة، والأمير بدر الدين بكتوت الشمسي إلى الفيوم، والأمير سيف الدين بهادر المعزي إلى أحميم، والأمير بهاء الدين أصلم إلى قوص. المقريزي، السلوك، (ج138/2).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج138/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج33/9).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج293/3)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج33/9).

([5]) الخلجان: كلمة خليج مأخوذة من فعل خلج؛ أي انتزع، وقد عرفه ابن منظور" بأنه نهر يقتطع من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه"، وعرفه المقريزي" أن الخليج جمعه خلجان، وهو نهر صغير يختلج من نهر كبير أو من بحر". ابن منظور، لسان العرب، (ج156/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج248/3).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج138/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج33/9).

وقسم المقريزي الخلجان إلى قسمين:

-القسم الأول: الخلجان التي شقت من النيل، وهي: خليج منف، خليج المنهي، وخليج أشمون صناح، وخليج سردوس، وخليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وبحر أبي المنجا([1]).

-القسم الثاني: الخلجان التي بظاهر القاهرة، وهي: خليج مصر، وخليج فم الخور، وخليج الذكر، والخليج الناصري، وخليج قنطرة الفخر([2]). وتركزت هذه الخلجان في منطقة الوجه البحري؛ بسبب اتساع أرضها، وانبساطها مقارنة ببلاد الصعيد التي تمتد أرضها الزراعية ضمن شريط ضيق من الأرض الخصبة المنتشرة على ضفاف نهر النيل([3]).

أما القناطر([4])، ذكر المقريزي: " أعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة، وعلى خليج الذكر، قنطرة واحدة، وعلى الخليج الناصري خمس قناطر، وعلى بحر أبي المنجا قنطرة عظيمة وبالجيزة عدة قناطر"([5]).

والخلاصة أن إنشاء الجسور، والخلجان، والقناطر، كان في عهد الناصر محمد([6]). وكان لفيضان النيل أثره الكبير على الزراعة، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر؛ لأن مصر تعتمد في سقي الأراضي الزراعية على نهر النيل، باستثناء بعض المناطق([7]).

وجدير ذكره أنه عند فيضان النيل فإنه يغمر مساحات من الأرض فتزرع، وهناك أرض لا تغمرها مياه النيل، فلا تزرع، فكان من اللازم معرفة مساحة الأرض المزروعة بين فترة وأخرى([8]).

([1]) الخطط، (ج56/1).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج248/3).

([3]) ابن مماتي، قوانين ، (ص206)؛ المقريزي، الخطط، (ج132/1)؛ كوكش، المقريزي مؤرخا، (ص59).

([4]) القنطرة: الجسر، وهو أزج يبنى بالأجر، أو الحجارة على الماء يعبر عليه. ابن منظور، لسان، (ج118/5).

([5]) الخطط، (ج259/3).

([6]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج142/9).

([7]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج142/9)؛ العزام، الزراعة في مصر، (ص150).

([8]) المقريزي، الخطط، (ج248/3)؛ المناوي، نهر النيل، (ص184).

الأراضي الزراعية في عهد أسرة دولة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) المملوكية:

كانت الزراعة منذ القدم، وحتى عصر دولة قلاوون المملوكية، وخاصة في مصر وبلاد الشام هي عصب الحياة الاقتصادية، ولهذا أقبل المصريون والشاميون على الزراعة، ففي مصر تميزت تربتها بالخصوبة؛ لأنها أرضها تتجدد دائمًا من خلال الطمي الذي يحمله مياه النيل عند الفيضان([1]).

وهذا أدى إلى تنوع الأراضي الزراعية، وبالتالي انعكس ذلك على تنوع المحاصيل الزراعية، كما أن الأرض الزراعية تختلف باختلاف ما يزرع فيها من محاصيل، وكانت للظروف الطبيعية أثرها في تحديد جودة الأرض الزراعية، ونوع المحاصيل الزراعية، وعلى هذا الأساس قسم المعاصرون الأرض الزراعية إلى أصناف عدة، هي: الباقي([2])، ري الشراقي([3])، البروبية أو البرايب([4])، البقماهة أو السقماهية([5])، الشتونية([6])، شق شمس السلايح([7])، البرش

([1]) المقريزي، الخطط، (ج100/1)؛ العزام، الزراعة في مصر، (ص150)؛ المبارك، الناصر محمد، (73).

([2]) الباقي: وهي خير الأرض وأغلاها قيمة، وأوفاها سعرًا، وهي التي زرعت قرط، ومقاثي(الخيار والبطيخ وما شابهها)، وتصلح لزراعة القمح، والكتان في العام التالي. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، |(ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([3]) ري الشراقي: وهي الأرض التي شرقت في العام الماضي، فلما رويت.ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([4]) البوبية أو البرايب: وهي الأرض التي زرعت قمحًا أو شعيرًا في السنة الماضية، فإن زرعت كما السابق لم تنجب، وأصلح ما يزرع في هذه الأرض القرط، والقطاني؛ لراحة الأرض فتصير باقٍفي السنة التي تليها. ابن مماتي، قوانين ، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح ، (ج516/3).

([5]) البقماهة أو السقماهية: وهي الأرض التي زرعت كتانًا، فإن زرعت قمحًا في السنة الجديدة، كان نتاجها حبًا صغير الحب أسود اللون؛ نظرًا لما يترتب على زراعة الكتان من تعب للتربة. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([6]) الشتونية: وهي الأرض التي رويت وبارت في العام المنصرم، وهي دون ري الشراقي، قال القلقشندي عن هذه الأرض: " وأهل زماننا يقولون الشتاني". ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3، 518).

([7]) شق شمس السلايح: وهي الأرض التي رويت ثم بارت، فحرثت، وتركت مكشوفة للشمس، وهي مثل: ري الشراقي ، فإن زرعت خرج نتاجها. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

النقـاء([1]). الوسـخ المـزروع([2])، الوسـخ الغالـب([3]). ومنهـا أيضـا: الخـرس([4])، الشـراقي([5])، السباخ([6]).

النظام المتبع في الري: وقبل الحديث عن النظام المتبع في الري، نتحدث عن إصلاحات قام بها السلطان قلاوون في الري، حين فتح قناة الطيرية، إذ قام في سنة 682هـ/1283م بحفر الخليج المعروف بالطيرية(وهو ترعة تخرج من النيل عند قرية الطيرية)، فجاء طوله 6500 قصبة؛ أي حوالي 23400 متر، وعرضه ثلاث قصبات، وعمقه أربع قصبات، فحصل بسببه نفع عظيم، ورويت الأراضي التي لم تكن تروى من قبل، ثم كان لهذه الترعة فوائد جمة للفلاحين؛ وخاصة في مصر، استمرت زمنًا طويلًا([7]).

([1]) البرش النقاء: وهي الأرض التي خلت من أثر ما زرع فيها في العام المنصرم، ولم يبق بها ما يمنع زراعتها من أنواع المحاصيل. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([2]) الوسخ المزروع: وهي الأرض التي استحكم وسخها، ولم يتمكن المزارعون من إزالته كله؛ بل حرثوا الأرض وزرعوا فيها، فجاء الزرع مختلطًا بالحلفاء ونحوه. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([3]) الوسخ الغالب: وهي أرض حصل فيها من نباتات منع كثرته من زراعتها، وصارت مراعي. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([4]) الخرس: وهي الأرض التي لا يصلح فيها زراعة؛ أي نوع من المحاصيل، وتستخدم مراعي للدواب. بن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([5]) الشراقي: وهي الأرض التي لم يصل إليها الماء لقصور مياه نهر النيل، أو ارتفاعها، أو لسد طريق الماء عنها، وغير ذلك. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([6]) السباخ: وهي كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت، ولم ينتفع بها في زراعة الحبوب، وربما زرع فيما لم يستحكم منها: الهليون، والباذنجان، والقصب الفارسي. ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص201، 449)؛ المقريزي، الخطط، (ج188/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3).

([7]) المقريزي، السلوك، (ج712/1)؛ المقريزي، الخطط، (ج177/1).

وقد كان النظام المتبع في الري ؛ ري أراضي بلاد الشام، ومصر، وخاصة مصر نظام الحياض؛ وذلك لتباين تضاريس الأرض الزراعية منها:

المرتفعة، ومنها: المنخفضة، وقسمت الأرض إلى أحواض صغيرة، وكبيرة بين (2000–5000) فدان[1].

وتصل إليها المياه بواسطة إحدى القنوات، أو عند فيضان النيل، ويوجد في نهاية الأحواض مصاريف تفتح عند الحاجة للتخلص من المياه الزائد[2].

وكانت تروى بعض الأراضي بطريقة السواقي التي تدار بواسطة الحيوانات؛ لقربها من مجرى النيل، كأرض الدلتا الواقعة بين فرعي النيل، وفي بلاد الصعيد في سنين الجدب[3]، وتزرع هذه الأرض بالمحاصيل الصيفية التي تحتاج إلى الماء دوما، ولا يزرع في مصر على الأمطار إلا القليل بأطراف البحيرة[4].

أما في بلاد الشام كانت الزراعة تعتمد في ريها على الأمطار، أما الأنهار والسواقي فتكون الحاجة إليها في فصل الصيف فقط، وكانت كمية الأمطار التي تهطل كافية حينها لسقي المزروعات، وتوفير إنتاج زراعي جيد، خلا بعض سنين القحط التي لا تؤخذ كقاعدة، وليس في بلاد الشام أنهارًا كنهر النيل في مصر، حيث أكبر أنهار الشام هو نهر الأردن بروافده المختلفة؛ ولكنه صغير مقابل نهر النيل، ولذلك كانت مشاريع الجسور عليه ليست بحجم مشاريع مصر على نهر النيل[5].

---

[1] الفدان: مقياس المساحة المصري، كان يساوي (400) قصبة مربعة، والقصبة تساوي (399سم) لذلك تقدر مساحة الفدان في العصور الوسطى ب (6368) متر مربع. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج513/3).

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، (ج516/3)؛ ناصر، الحياة الاقتصادية، (ص177).

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، (ج344/3)؛ قاسم، النيل والمجتمع المصري، (ص21)؛ شطناوي، دولة المماليك، (182).

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، (ج344/3)؛ قاسم، النيل والمجتمع المصري، (ص21)؛ شطناوي، دولة المماليك، (182).

[5] المقريزي، الخطط، (ج103/1)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص332).

المحاصيل الزراعية

1- المحاصيل الزراعية في بلاد الشام: كان في بلاد الشام عدد من المدن تزرع فيها النباتات العطرية، والفواكه، والخضراوات، والبقول، والحبوب، وهي نوعان: الزراعات: وهي ما يسقى، والنباتات، وهي ما يسقيها الله سبحانه وتعالى، ومنها:

أ- النباتات العطرية: وهي كثيرة جدا، ولها استخدامات طبية، منها: اليانسون، الآس، الأفيون، وهو عصارة الخشخاش، البابونج، البنفسج، البلوط، البيلسان، الترمس، التمر حنَّة، الشونيز، وهي الحبة السوداء، الحلبة، الخشخاش([1]). ومن النباتات: الخروع، الدفلي، الريباس، الريحان، الزعفران، الزيزفون، الزعتر، الزعرور، السوس، السماق، القرطم وهو العصفر، الكراوية، والكمون، المحلب، النعناع، الورد، والياسمين([2]).

ب- الفواكه: تعد بلاد الشام من أغنى بلاد العالم في الفواكه، وذلك من حيث الكمية، والجودة، والتنوع. وذكر أحدهم أنه زار الغوطة، فوجد فيها: شجرة تحمل المشمش، والخوخ، والتفاح، والكمثرى، كما وجد شجرة عنب تحمل: العنب الأبيض، والأحمر، والأسود([3]). من أجل ذلك قال الرحالة بنيامين الطليطلي الرحالة اليهودي: "إنني لم أجد مثل فاكهة دمشق وأشجارها في العالم"([4]). ومن أشهر الفواكه في الشام: العنب، البطيخ الهندي، السفرجل، التين، العناب، التوت، الخوخ، المشمش، الكمثري، التفاح، الرمان([5]).

ج- الخضار والحبوب: كثرت الخضار والحبوب في بلاد الشامن ومنها الصيفين والشتوي، وأشهرها: القرع، أو اليقطين، والكمأة، والعدس، واللوبيا، والأرز، والباذنجان، والكراث، والسبانخ، والكرفس، والكزبرة، والحمص، والفول، والبازلاء، واللفت، والخرشوف، والقمح، والشعير، والسمسم، وقصب السكر، والزيتون، واللوز، والجوز، والصنوبر، والبندق، والفستق الأخضر،

([1]) ابن البيطار، تحفة ابن البيطار، (ص118).

([2]) شيخ الربوة، نخبة الدهر، (ص266)؛ القزويني، عجائب المخلوقات، (ج161/1)؛ ابن البيطار، تحفة ابن البيطار، (ص118).

([3]) البدري، نزهة الأنام، (ص91).

([4]) رحلة بنيامين، (ص270).

([5]) القزويني، عجائب المخلوقات، (ج148/1)؛ ابن الجوزي، مختصر لقط المنافع، (ص32-35)؛ ابن البيطار، تحفة ابن البيطار، (208، 214، 237).

والقطن، والذرة الشامية البيضاء، والليمون([1]). وجدير ذكره أن بعض المصادر لم تذكر بعض الخضراوات، مثل: البندورة، والفراولة، وهي خضار حديثة العصر بدمشق، لم تعرف إلا في القرن التاسع عشر، وقد نقل الصليبيون عدد كبير من المزروعات، مثل: قصب السكر، الليمون، البطيخ، المشمش، والكمثرى، والخوخ، والذرة الشامية، والسمسم، والخرنوب، والأرز([2]).

2- المحاصيل الزراعية في مصر: انقسمت المحاصيل الزراعية في مصر إلى قسمين: محاصيل صيفية، ومحاصيل شتوية، وكانت المزروعات على شتى أنواعها في الصيف، وفي الشتاء، وهذه الأنواع ما يلي:

أ- المحاصيل الشتوية: وهي المحاصيل التي يكون موسم زراعتها في فصلي: الخريف والشتاء، ويجنى ثمارها في نهاية فصل الربيع، وبداية فصل الصيف، ومن أهم هذه المحاصيل: القمح، والشعير، والفول، والعدس، والحمص، والجلبان، والكتان، والقرط، والبصل، والثوم، والترمس([3]).

ب- المحاصيل الصيفية: وقد سميت بهذا الاسم؛ لأنها تزرع في فصل الصيف، ويكون جني ثمارها في نفس الفصل، ومن أهم المحاصيل الزراعية التي تزرع في الصيف: البطيخ الأصفر، والأخضر، والسمسم، والقطن، وقصب السكر، والقلقاس، والباذنجان، والسمسم النيلي، والنيلة، والفجل، واللفت، والخس، والكرنب، والبصل([4]).

ج- أشجار الفاكهة: انتشرت زراعة الأشجار المثمرة، والفواكه في جميع أنحاء مصر، مع غلبة أصناف معينة في كل وجه، حيث تزرع النخيل في أنحاء مصر، وقدرت المساحة المزروعة في بلاد الصعيد ألف فدان([5])، ومن المراكز المهمة لزراعة النخيل مدينة أسوان([6])، حيث يبلغ

([1]) ابن الجوزي، مختصر لقط المنافع، (ص32-35)؛ ابن البيطار، تحفة ابن البيطار، (208، 214).

([2]) ابن البيطار، تحفة ابن البيطار، (208، 214، 237)؛ جميعان، المؤثرات الثقافية، (ص176).

([3]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص259-264)؛ المقريزي، الخطط، (ج190/1-191)؛ كوكش، المقريزي مؤرخًا، (ص66-67)؛ بحر، القرية المصرية، (ص182).

([4]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص265-270)؛ المقريزي، الخطط، (ج191/1-193).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج350/1)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص53).

([6]) أُسْوَانُ، بالضم ثم السكون، وواو، وألف، ونون، من ثغور النوبة وهي مدينة كبيرة، وكورة في آخر صعيد مصر، وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج39/1)، اليعقوبي، البلدان، (ص172)؛ خسرو، سفر نامة، (ص80)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج191/1-192).

إنتاجها السنوي حوالي ثلاثين ألف أردب([1])، ويكثر النخيل في مدينة إسنا([2])، وأشار ابن بطوطة والمقريزي بأن مدينة إسنا اشتهرت" بالبساتين الواسعة، التي كانت تزرع منذ القدم بشجر النخيل، وكروم العنب، حتى أن إنتاجها بلغ في إحدى السنوات أربعون ألف إردب تمر، واثنا عشر ألف إردب زبيب([3]).

أما العنب فإنه يأتي بالمرتبة الثانية بعد النخيل من حيث الانتشار، حيث بين القلقشندي: " كانت مدينة قوص مصدرة للعنب، فطبيعتها الحارة ساعدت على وفرة إنتاجها من الحبوب، والبقول، والعنب"([4]). من هنا نشير إلى أن مدينة قوص([5])، وإسنا التي يبلغ إنتاجها اثنتي عشر ألف إردب من الزبيب([6])، ويزرع العنب في منطقة الواحات([7]).

وهناك أنواع أخرى من الفواكه كانت تزرع، مثل: التين، والمشمش، والخوخ، والبرقوق، والقراصيا، والكمثرى، والتفاح، واللوز الأخضر، والتوت، والفرصاد، والموز، الجوز، الفستق، البندق، وأشجار الزيتون([8]).

وقد اهتم سلاطين أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) بإنشاء البساتين، حيث بلغ عدد البساتين التي أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما يقارب 150 بستانًا([9]).

([1]) ابن دقماق، الانتصار، (ج34/2)؛ أبي الفداء، تقويم البلدان، (ص113).

([2]) مدينة إسنا بغربي النيل، وهي من المدن القديمة من بناء القبط الأول، وبها بقايا بنيان للقبط وآثار عجيبة. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج129/1)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج189/1)؛ اليعقوبي، البلدان، (ج171/1).

([3]) ابن بطوطة، رحلة، (ج229/1)؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، (ج160/1، 437).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج411/2)؛ ناصر، الحياة الاقتصادية، (ص263).

([5]) تم التعريف بها سابقا. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج128/1)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ج288/1)؛ الحميري، الروض المعطار، (ص15).

([6]) ابن دقماق، الانتصار، (ج30/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج374/2)؛ ناصر، الحياة الاقتصادية، (ص263).

([7]) ابن دقماق، الانتصار، (ج12/2)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص54).

([8]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج344/3)؛ العمري، مسالك الأبصار، (ص83).

([9]) المقريزي، الخطط، (ج235/3)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (55).

وفي قرية النحريرية([1])، أنشئ فيها أكثر من ثلاثين بستانًا في عصر الناصر محمد بن قلاوون([2])، وكان في القاهرة وضواحيها الكثير من البساتين، منها: بستان السراج في أرض اللوق([3])، وتكثر البساتين في مدن مصرية عديدة، مثل: إسنا، وأسوان، وبلبيس([4])، والروضة([5])، ولفاكهة مصر نكهتها، ومحاسنها، وإن النفس تنتظر هذه الفواكه بشغف، وقدومها يمثل بهجة على النفس([6]).

إعادة توزيع الأراضي في عهد المماليك(الروك([7]) الناصري):

وفي زمن أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)، أوجب على كل سلطان جديد توزيع الإقطاعات كلما دعت الحاجة لذلك، وتكون على نطاق محدود، أو على نطاق شامل حسب الحاجة([8]).

إن عملية مسح الأرض، وحصرها، وإعادة توزيع الإقطاعات عرفت باسم الروك، وقد اصطلح على استعماله في مصطلح الإدارة المالية في مصر والشام في العصور الوسطى([9])،

([1]) النحريرية: قرية من أعمال الغربية أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدي، نقيب الجيش في أيام الناصر محمد بن قلاوون، وبالغ في عمارتها، فبلغت في أيامه عشرة آلاف درهم فضة، ثم خرج عنها، فعمرت للسلطان. المقريزي، الخطط، (ج1/417).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج1/417).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج3/207) ؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (55).

([4]) مدينة بمصر على طريق الشام بالقرب من الفسطاط. ياقوت، معجم البلدان، (ج1/479).

([5]) أبي الفداء، تقويم البلدان، (ص115)؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (ج1/231)؛ ابن دقماق، الانتصار، (ج2/30)؛ المقريزي، الخطط، (ج1/350) ؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (55).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج3/345)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (55).

([7]) الروك كلمة قبطية أصلها روش، ومعناها الحبل، ثم استعملت لتدل على قياس الأرض بالحبل، ومشتقة من اللفظ (روخ)، ومعناها تقسيم الأرض، وفي كتب المؤرخين مصدر الفعل الثلاثي راك، ومعناها مسح الأرض الزراعية في بلد من البلدان؛ لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت مال المسلمين. المقريزي، السلوك، (ج1/841)؛ طرخان، النظم الإقطاعية، (ص96).

([8]) طرخان، النظم الإقطاعية، (ص95).

([9]) المقريزي، السلوك، (ج2/146)؛ طرخان، النظم الاقتصادية، (ص96).

وفي زمن الفتح الإسلامي[1]، ثم زمن أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)، فقد جرى مسح الأرض مرتين: مرة زمن السلطان المنصور حسام الدين لاجين[2]، والمعروف بالروك الحسامي، ولم يحقق الغاية التي قام من أجلها؛ بسبب الأخطاء التي ارتكبها السلطان المنصور لاجين، ونائبه منكوتمر[3]. وكان هذا الروك الحسامي سببا في مقتل لاجين ونائبه[4]. أما الروك الناصري، وهو الروك الثاني في عصر أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)، فقد أمر به السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 715هـ/1315م، وكان من أسباب قيام بهذا الروك هو الصراع على السلطة بين المماليك الذي أوجده الروك الحسامي، التابع للمنصور حسام الدين لاجين[5].

ب- الثروة الحيوانية: كان اهتمام سلاطين أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) بالثروة الحيوانية لا يقل أهمية عن اهتمامهم بالزراعة؛ وخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد كان جيد المعرفة بأنسابها، وكان يرغب بالخيول العربية أكثر من خيول برقة، على العكس من والده المنصور قلاوون، الذي كان يفضل خيول برقة[6].

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج146/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج74/8)؛ طوسون، مالية مصر، (ص196-197)؛ طرخان، النظم الإقطاعية، (ص96).

(2) لاجين (المنصور) حسام الدين ابن عبد الله المنصوري: من ملوك دولة المماليك البحرية بمصر والشام. كان مملوكا للمنصور قلاوون، وإلى نسبته. وتقدم إلى أن ولي نيابة السلطنة في أيام العادل " كتبغا " ثم خلع العادل وولي السلطنة سنة 695 هـ/1296م، وتلقب بالملك المنصور، أبطل كثيرا من المكوس، وقتل في قصره لفساد نائبه منكوتمر. المقريزي، السلوك، (ج820/1-865)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج85/8).

(3) منكوتمر، الأمير سيف الدِّين الحساميّ، التُّركيّ، نائب السَّلْطَنَة. [المتوفى: 698 هـ/ 1299م]، قُتِل صبرًا فِي بُكرة الجمعة حادي عَشْر ربيع الآخر، وكان قد أسرف فِي استئصال كبار الأمراء وجهل وغرّته السّلامة، فدُهي من حيث لم يحتسب. وكان شابّا لم يتكهّل، وله مدرسة بالقاهرة، قتلوه بعد سلطانه حسام الدين بن عبد الله المنصوري لاجين. الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج884/15)؛ الصفدي، أعيان، (ج455/5-456).

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج78/8)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، (ص32).

(5) ضومط، الدولة المملوكية، (ص138).

(6) المقريزي، الخطط، (ج391/3).

وكان الناصر محمد يدفع مبالغ طائلة في شراء الخيول العربية، يقول المقريزي: " كان يبالغ في إكرام العرب، ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك"([1]).

كما اهتم الناصر محمد بتربية الأغنام، والأبقار، وتحسين سلالاتها، وبلغ من اهتمام الناصر بالإكثار من إنتاج الأغنام أنه صار يتبع مراعيها في عيذاب، وقوص، كما جلب الأغنام من بلاد النوبة، واليمن([2]).

والخلاصة: أدرك معظم السلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد، بوصفها عماد الثروة القومية، لذلك عنوا بها عناية فائقة، فأنشأوا الجسور، وشقوا الترع؛ لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها . كما اهتموا بالثروة الحيوانية التي كان لها دور رئيسي في إنجاح الزراعة، وإنعاش الحالة الاقتصادية للدولة وأسواق مصر.

ج- الحرف والصناعات: ازدهرت الصناعة في العصر المملوكي، وبخاصة في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)؛ وذلك لاهتمامهم الكبير بها، وحرصهم على سد حاجة المجتمع منها، وتوفر الأيدي العاملة، والمواد الخام([3]). كما كان للنشاط التجاري بين مصر والبلدان المجاورة لها؛ فضلا عن علاقاتها مع الهند، والصين شرقًا، والأندلس غربًا أثر في تطور، وازدهار الصناعة، كما أدى مرور السلع التجارية بالأراضي المصرية إلى زيادة ثراء مصر، وتأثرها في الفنون الصناعية في البلدان الأخرى([4])، كما وكانت لهجرة الكثير من أرباب الحرف والصنائع، من إيران، والعراق، وبلاد الشام؛ بسبب الغزو المغولي في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى مصر أثرًا في وفرة الصناع الأكفاء([5])، كما كان

([1]) المقريزي، الخطط، (ج3/391).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج3/399)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص294)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص79).

([3]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج2/334)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص295)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص81).

([4]) العمري، مسالك .الأبصار، (ج3/429)؛ عليوة، دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر في عصر المماليك، (ص90).

([5]) العمري، مسالك .الأبصار، (ج3/429)؛ آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، (ص377-378).

لتنظيمات الصناع(النقابات)، والطوائف الحرفية في عصر المماليك دور كبير في تطور الصناعة في مصر([1]).

وجدير ذكره أن اهتمام سلاطين أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) في الزراعة، وتطورها له أثر كبير في تطور ، وازدهار الحرف الصناعية؛ وذلك بتوفير مواد الخام اللازمة لها، كالقطن، والكتان، وقصب السكر، وغيره من المواد التي تدخل في التصنيع؛ إضافة للدور الذي لعبه الاستقرار السياسي الذي تمتعت به دولة المماليك في عهد سلاطين أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) مما أدى إلى ازدهار الصناعة. ونتيجة لهذه العوامل؛ وصلت صناعات مصر، وفنونها في عصر المماليك إلى درجة كبيرة من التقدم، والرقي، وذكر ابن فضل العمري عن لطائف الصنائع في مصر بالقول: " من أحسن البلاد، وبها من محاسن الأشياء، ولطائف الصنائع ما تكفي شهرتها، وبها من أنواع الصناع من الأسلحة، والقماش، والزركش، والمصوغ، والكفت([2])، وغير ذلك مما يكاد يعد تفردها به، والرماح التي لا يعمل في الدنيا أحسن منها([3])، وعد ابن إياس الصناعة من محاسن مصر([4]). وقد اشتهرت مصر بالعديد من الحرف التي كان لها تأثير كبير على الحياة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، وذلك من خلال زيادة واردات الدولة، ورفد التجارة بالمواد المعدة للتصدير، وديمومتها، ومن أشهر الصناعات:

أ- **صناعة المنسوجات:** اشتهرت عدة مدن مصرية بصناعة المنسوجات([5]) على اختلاف أنواع هذه المنسوجات: الصوفية، والحريرية، العمائم المطعمة بنسيج الذهب، والمنسوجات

([1]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج334/2)؛ عليوة، دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر في عصر المماليك، (ص90-91).

([2]) الكفت: ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة. السيوطي، حسن المحاضرة، (ج334/2).

([3]) العمري، مسالك .الأبصار، (ج429/3).

([4]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج45/1).

([5]) من هذه المدن: مدينة شطا بجوار دمياط، وقرية دبيق تابعة لدمياط، ومدينة تنيس جزيرة بين الفرمان ودمياط، ومدينة الإسكندرية حيث اشتهرت بصناعة المنسوجات الكتانية، والحريرية، والبهنسا التي اشتهرت بمنسوجاتها الصوفية، واشتهرت أسيوط في صناعة الأقمشة الصوفية والعمائم، ووجدت في المدن دار الطراز مثل: مدن الصعيد القيس والبهنسا. خسرو، سفر نامة، (ص77)؛ المقريزي، الخطط، (ج328/1).

الكتانية([1]). وفي بلاد الشام اشتهرت صناعة المنسوجات، ففي بيت المقدس اشتهرت المنسوجات القطنية، والحريرية، وكان في طرابلس 4000 عامل يعملون في صناعة الحرير، واشتهرت صور بصناعة الثياب، ومدينة صفد بالثياب أيضا، حتى قيل: الثياب الصفدية، وفي صفد اشتهرت بصناعة الحُصر المصنوعة من نباتات البابير، والحلفاء، والبردي، ونسيج الحرير، والصوف([2]). وبرعت الشام بالصناعات القطنية، حتى أنها صدرت منها إلى مصر، وقد زادت أصناف المصنوعات النسيجية في دمشق، وحلب، وطرابلس على مائة صنف، منها: عشرة أصناف في صناعة النسيج القطني، وأربعون صنفًا للحرير الذي كانت دمشق تشتهر بصناعته، وإنتاجه، كما تعددت أنواع المنسوجات في حلب في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) المملوكية سواء المنسوجات الحريرية، أم الصوفية، أم القطنية، إضافة إلى البسط، والحصر، والسجاد، والخيم، كما وظهرت صناعة الثياب القطنية في سرمين، وحلب، ودمشق، وبعلبك([3]).

ب- صناعة المواد الغذائية: اشتهرت عدة صناعات غذائية في العصر المملوكي، منها:

1- صناعة السكر: وقد اهتمت أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م) بهذه الصناعة، فجعلوا لها جابي خاص يسمى مقرر الأقصاب، والمعاصر، يقوم بأخذ الضرائب من مزارعي قصب السكر، ومن معاصر قصب السكر([4]).

2- صناعة الحلوى: حيث كانت هذه الصناعة منتشرة في عهد أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، فأشار المقريزي أن أهل الصعيد يتغذون بتمر النخل، والحلاوة المعمولة من قصب السكر([5]).

3- صناعة الزيوت: فكانت تستخرج من بذور بعض النباتات، مثل: السلجم(اللفت) الذي كثرت زراعته في أسيوط، وجرجبا، وكان يستخرج الزيت من السمسم، والكتان الذي يستخرج منه الزيت

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج545/3)؛ المقريزي، الخطط، (ج303/1).

([2]) العمري، مسالك الأبصار، (ص84)؛ ابن شاهين، زبدة، (23)؛ الحنبلي، الأنس، (ج52/2).

([3]) ابن شاهين، زبدة، (23)؛ العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، (ص237)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص236).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج168/1).

([5]) المصدر السابق، (ص84).

الحار[1]. وفي بلاد الشام اشتهرت مدينة القدس بصناعة الزيت، ومن ثم صناعة الصابون الذي كان يصدر إلى المدن المجاورة، مثل: يافا، وكان يصدر منها إلى مصر، والبلدان المختلفة، وقد ضمت الكثير من العمال، وكانت العائدات مربحة من صناعة الزيوت، ثم الصابون[2].

4- صناعة التمر: كان لها دارًا خاصة بهذه الصناعة، وكانت تعرف بصناعة التمر، وكان إيرادها يستعمل لإطلاق سراح أسرى المسلمين الذين بيد الفرنجة[3].

5- صناعة طحن القمح: انتشرت طواحين القمح في مناطق مختلفة من مصر، ذكر المقريزي: " أنه في منية الأمراء كان حوالي ثمانون طاحونة لطحن القمح"[4]، وهذا العدد من الطواحين يدل دلالة كبيرة على انتشار هذه الصناعة. ووجدت هذه الطواحين في دير أبي النعنان[5]. وفي بلاد الشام، وفي صفد اشتهرت بطحن الحبوب، حيث وجدت العديد ممن الطواحين المتخصصة، وخاصة في ولايتي الشاغور، وصور[6].

ج- صناعة المعادن والزجاج والخزف: ازدهرت صناعة المعادن في مصر، فاستخدم النحاس بشكل واسع في العصر المملوكي، وصار يصنع منه الأواني المنزلية كالأباريق، والصحون، والطسوت، والشربات[7]، وانتشرت صناعة تكفيت[8] المعادن في مصر؛ بل تعدت شهرتها خارج مصر، وأصبح عليها طلب من الأوروبيين؛ وذلك لدقة صناعتها، وجمالها[9].

---

(1) المقريزي، الخطط، (ج84/1)؛ زيادة، دراسات عن المقريزي، (ص103).

(2) المقريزي، السلوك، (ج512/1)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج183/4).

(3) المقريزي، الخطط، (ج144/3).

(4) المصدر السابق، (ص233).

(5) المصدر السابق، (ج426/4).

(6) المقريزي، الخطط، (ج99/2)؛ العمري، مسالك الأبصار، (ص84، 85، 93).

(7) المقريزي، الخطط، (ج144/3)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص292)؛ عليوة، دراسة لبعض الصناع والفنانين، (ص96).

(8) التكفيت: هو تطعيم المعدن بمادة .أقيم، وأثمن منه، كتطعيم النحاس بالذهب، أو تطعيم الفضة بالذهب. المقريزي، الخطط، (ج190/3).

(9) المقريزي، الخطط، (ج144/3)؛ الهواري، رسالة، (ص56)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص173).

وقد احتوت دار الآثار العربية على مجموعة كبيرة من التحف، والأواني، والأدوات التي يتبين من خلالها مدى تقدم صناعة التكفيت في مصر، منها جامة ذات حافة من الرسوم النباتية مأخوذة من زخارف طست كبير صنع للسلطان الناصر محمد بن قلاوون([1]).

وازدهرت صناعة الذهب والفضة في عصر المماليك، صنع الصناع من الذهب الثريات، والنوافذ لبيوت سلاطينهم، والدليل على ذلك قول المقريزي في بناء الناصر حسن بن محمد بن قلاوون قاعة البيسرية سنة 761هـ/1359م، فقال: " أنه كان بها تسع وأربعون ثريا برسم وقود القناديل، جملة ما داخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مائتا وعشرون ألف، كلها مطلية بالذهب، وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ثمانية وثمانين ذراعًا، وعليها برج مطعم بالعاج، والأبنوس، وبها شبابيك من الذهب الخالص، وفيها قبة مصوغة من ذهب، صرف فيها ثمان وثلاثون ألف مثقال من الذهب"([2]).

وازدهرت صنعة الحديد في مصر؛ حيث برعوا في صناعة أنواع الأسلحة، والدروع التي كانت من الصلب بأنواعها المختلفة([3])، وتميزت أسلحة السلاطين والأمراء المماليك باحتوائها على الزخارف الفنية، والكتابات المكفتة بالذهب والفضة، أو ترصيعها بفصوص خاصة من معادن نفيسة، أو أحجار كريمة، وبعضها مكتوب عليها أسماء سلاطين المماليك، وأمرائهم وألقابهم، وبعضها يحمل أسماء الصناع الذين صنعوا هذه الأسلحة، وكانت هذه الأسلحة المزينة تحمل في مواكب السلاطين والأمراء([4]).

وعرفت مدينة بيت المقدس صناعة المشغولات الفضية، والمشغولات الذهبية، حتى كان هناك سوقًا للصاغة، وللمقادسة شهرة في صناعة التحف، والأثريات، وأدوات الزينة، حيث كانت تلاقي إقبالًا من الحجاج، وكثيرًا ما يرد في الوثائق اسم: السقطيون، وهم: تجار التحف، والأثريات، والخرضواتيون، وهم: تجار حاجات صغيرة متنوعة([5]). وفي العصر المملوكي كانت صناعة الزجاج في قمة التطور، ومما يدل على ذلك ما وُجد في دار الآثار العربية من

([1]) المقريزي، الخطط، (ج3/144)؛ آرنولد، تراث الإسلام، (ص31).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج3/369).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج2/97)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (308).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج2/97)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (308)؛ عليوة، دراسة، (ص97).

([5]) العمري، مسالك الأبصار، (ص78–79)؛ المقريزي، الخطط، (ج2/105).

مشكاوات تعود لفترة المماليك، ففي هذه الدار مشكاة من زجاج غير ملون في عنقها زخارف، وعلى البدن كتابة حمراء نصها: " مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان"، وهذا دليل على أنها عملت برسم تربة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون([1])، كما ضمت الدار مشكاة تعود لزمن الناصر محمد بن قلاوون، عليها كتابات قرآنية، وعلى بدنها اسم السلطان محمد بن قلاوون، وكانت زخارفها بالمينا الزرقاء، وعليها رسوم طيور كثيرة، ونص كتابتها: " عز مولانا السلطان الناصر. ناصر الدنيا والدين محمد عز نصره"([2])، كما ازدهرت صناعة الزجاج الملون، حيث كان يصنع من الزجاج الملون شبابيك الجص، واستعمل هذا الزجاج في بعض محاريب المدارس ، ومحاريب الجوامع([3]). أما صناعة الخزف([4]) فقد أخذت بالتطور منذ العصر الطولوني([5])، وفي عصر المماليك أخذت بالتطور، وذلك من خلال نماذج القطع الخزفية التي وجدت في متحف الفن الإسلامي في القاهرة، وفي دار الآثار العربية، عليها كتابات جميلة تدل على أنها من العصر المملوكي، مثل: (عز مولانا، ومما عمل برسم الجناب)، وهذه العبارات كانت تستعمل في العصر المملوكي([6]).

د- **الصناعات الخشبية:** تعد الأخشاب من المواد الضرورية في حياة الإنسان، حيث دخلت في كثير من الصناعات، وازدهرت في العصر المملوكي حيث دخلت في صناعة السقوف والأبواب، ومصاريع الشبابيك، والكراسي، والمنابر، والدكك، والمشربيات([7])، والصناديق،

([1]) الهواري، رسالة، (ص105).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج105/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (311).

([3]) استعمل الزجاج الملون في محراب المدرسة الأقبغاوية، ومحراب جامع أحمد بن طولون. الهواري، رسالة، (ص103-104)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص312).

([4]) الخزف: هو ما عمل من الطين، ووضع بالنار. حتى شوى فصار فخارًا. ابن منظور، لسان العرب، (ج67/9)؛ حسن، كنوز الفاطميين، (ص147).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج185/3)؛ آرنولد، تراث الإسلام، (ص38-39).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج185/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (314).

([7]) المشربيات: مجموعة من الخشب المخروطي الدقيق الصنع، تتفاوت فتحات عيونها في الاتساع، وتملأ أحيانًا بالخشب المخروطي؛ لتكون كتابات، أو رسوم، وذلك يترك العيون الأخرى واسعة كأرضية تظهر منها الرسم، أو الكتابة. المقريزي، الخطط، (ج185/3)؛ فييت، دليل موجز، (ص58).

والخزائن، والأسرة([1])، واستخدم المصريون النقش على الخشب بطريقة الحفر في عهد المماليك، وبلغت هذه الصناعة ذروتها في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي تميز عهده بظهور المصنوعات الخشبية البديعة([2])، كما شاع تطعيم المصنوعات الخشبية بالعاج، والأبنوس- الخشب الأحمر والقصدير- فقد وجد باب في دار الآثار العربية يتكون من مصراعين به حشوات من خشب نبق منقوشة، ومحاطة بأشرطة رقيقة من السن، عثر عليها بتربة السلطان قلاوون المبنية سنة 684هـ/1285م، كما يود بالدار كرسي من خشب مكسو بالفسيفساء الرقيق، وجد في جامع أم السلطان شعبان([3]). وفي بلاد الشام، وفي صفد وُجد سوق متخصص بهذه الصناعة، حتى أن البيوت في هذا السوق تحولت إلى دكاكين لمحترفي مهنة النجارة، وعرفت بيت المقدس صناعة السلال من سعف النخيل([4]).

هـ- صناعة السفن: عرف المصريون صناعة السفن منذ أقدم العصور، وفي العصر المملوكي كانت تصنع نوعان من السفن: النيلية، والحربية، وكانت هناك عدة دور لصناعة السفن، منها: دار صناعة الروضة، دار صناعة مصر (الفسطاط)، دار صناعة المقس، ودار صناعة بولاق، ودار صناعة الجزيرة الوسطى([5]). وفي عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون اهتم بإنشاء أسطول قوي، ولما بلغت عدة الأسطول ستين مركبا أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية، والرجال، واستعرضها في جزيرة الروضة في يوم حافل([6]). وعني السلطان محمد بن قلاوون بالاحتفاظ بأسطول قوي لمصر، فأنشأ في سنة 702هـ/1302م الشواني، وجهزها بالآلات، والمعدات الحربية([7])، وفي عهد السلطان الأشرف شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون اهتم الأتابك يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري بصناعة السفن البحرية؛ لغزو الفرنجة([8]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج185/3)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص295).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج185/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص317).

([3]) الهواري، رسالة، (ص46، 50)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص318).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج97/2، 105، 194)؛ العثماني، تاريخ صفد، (ص234).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج342/3-344)، السيوطي، حسن، (ج303/2).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج341/3)، سرور، دولة بني قلاوون، (ص315).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج341/3).

([8]) المقريزي، الخطط، (ج326/3)؛ ابن حجر،الدرر، (ج209/6).

واهتم سلاطين المماليك بزراعة الأشجار لتوفير الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، والاهتمام بالحراج وحراستها، إلا أن الإنتاج المحلي لم يكن ليسد حاجتهم، فيضطر الحكام لاستيراد الخشب من عدة أماكن، مثل: بلاد الشام، آسيا الصغرى، غرب أوروبا والبندقية([1]).

و- صناعات أخرى: ومن الصناعات التي برزت في العصر المملوكي، وتطورت صناعة السروج، وصناعة المهاميز، وكان يصنع من الذهب والفضة، أو من الحديد المطلي بالذهب والفضة([2])، ومن الصناعات التي تطورت صناعة الشموع([3])، وصناعة الحصر([4])، وصناعة البسط([5])، وصناعة الشارات (الرنوك)([6])، وقد جرت العادة أن يتخذ أصحاب المنشآت، أو المؤسسات من السلاطين، أو الأمراء لونًا معينًا لطلاء داره ومؤسسته ومختلف أملاكه، كما كان يتخذ شارة رمزًا تعرف هذه الشارة باسم (رنك)([7])، ومن الصناعات التي تطورت في عهد المماليك صناعة الورق([8])، وصناعة الخيام، وكانت تصنع من أنواع مختلفة من الأقمشة([9])، وتكون بألوان، وأشكال متعددة، ومطعمة بالسندس، والطميم، وهي على أنواع([10]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج326/3)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص316).

([2]) المقريزي، الخطط،(ج177/3-178)؛القلقشندي، صبح،(ج144/2).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج175/3)؛ كوكش، المقريزي مؤرخًا، (ص114).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج344/1).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج366/3).

([6]) الرنوك: جمع رنك، وهي لفظ فارسي معناه اللون، واستخدم بمعنى الإشارة، أو الشعار، أو الرمز الذي يتخذه السلطان. طرخان، مصر في دولة المماليك، (ص327)؛ أحمد، الرنوك الإسلامية، (ص48).

([7]) طرخان، دولة الجراكسة، (ص325)؛ عدرة، الرنوك المملوكية، (ص61).

([8]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج8/4)؛ العبادي، الحياة، (ص153)؛ آشتور، التاريخ ، (ص117)؛ ضومط، الدولة المملوكية، (ص172).

([9]) من هذه الأقمشة: الديبقي، الخسرواني، البهنساوي. المقريزي، الخطط، (ج307/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص300).

([10]) من هذه الأنواع: المفيل وهو الذي نقشت عليه صورة فيل، والمسبع الذي نقشت عليه صورة سبع، والمطوس الذي نقشت عليه صورة طاووس، وغيرها من صور الوحوش، والطيور، والآدميين. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج8/4)؛ المقريزي، الخطط، (ج307/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص300).

وعرفت الشام صناعة الجلود والدباغة، واستُخدمت في صناعة الأحذية، والسروج، والمقاعد. وجدير ذكره أن مصر والشام اشتركتا في صناعات معينة، وهي صناعات مشهورة تكاد تختص بهما فقط، وهذه الصناعات، هي: صناعة القماش، والزركش المصبوغ، وصناعة تكفيت المعدن، وصناعة الأسلحة والرماح([1]).

ويبدو أن من عوامل النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون الاهتمام بالزراعة والصناعة، وتمثل الاهتمام بالزراعة، النتائج التالية: الإصلاحات التي قامت في عهد أسرة قلاوون، من حيث إنشاء الجسور، والقناطر، وشق الخلجان، والاهتمام بالثروة الحيوانية، حيث شغف سلاطين أسرة قلاوون بامتلاك الخيول، ومختلف الحيوانات المفيدة للزراعة. أما عن الاهتمام بالصناعة، فلم يغفل عنها سلاطين أسرة قلاوون؛ لأنها موردًا رئيسًا للدولة، وكان من أهم النتائج للاهتمام بالصناعة: شهرة بعض المدن المصرية في صناعة النسيج، وكان للسلاطين دور صناعة تسمى دور الطراز الخاص تصنع فيها الخلع التي تمنح للرجال، وانتشرت صناعة السكر، والصناعات الغذائية، مثل: صناعة الزيت، والتمر، والحنطة، صناعة الأواني المعدنية، وصناعة التكفيت، وصناعة الزجاج الملون، وصناعة الورق، وعرفت صناعة الرنوك أي صناعة الشارات، وقد جرت العادة أن يتخذ أصحاب المنشآت، أو المؤسسات من السلاطين، أو الأمراء لونًا معينًا لطلاء داره ومؤسسته ومختلف أملاكه، كما كان يتخذ شارة رمزًا تعرف هذه الشارة باسم (رنك).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج2/97، 105، 194)، حسن، فنون الإسلام، (ص467، 504).

المبحث الثاني : دور الاقتصاد في دعم المؤسسة العسكرية

تعد **الموارد المالية** من أهم الركائز التي تقوم عليها الدولة، ولهذا ازدادت عناية الدولة بها، وعملت على الإكثار منها، فقسمت هذه الموارد المالية إلى: المال الخراجي([1])، والمال الهلالي([2])، وقسمت تقسيمًا أخرًا، وهو: موارد شرعية، وموارد غير شرعية([3])، وكانت الموارد الشرعية تتمثل في عدة ضرائب منها: الزكاة، وضريبة الأرض أو الخراج، والجوالي، والمواريث الحشرية، وما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة، والمعادن المستخرجة من أرض مصر ([4])، أما الموارد غير الشرعية، يقصد بها: الضرائب التي فرضها المماليك على مختلف أنشطة الدولة، وأطلق عليها تسمية المكوس، وكانت الدولة تلجأ إلى ذلك لتغطية نفقات الحروب ضد التتار، وبقايا الصليبيين بالمشرق، وكذلك كانت هناك ضرائب تفرضها الدولة على رعاياها؛ لتنفقها على مرافق الدولة المختلفة، ولم تكن جميع المكوس التي كانت في عصر المماليك من ابتكارهم؛ إنما كانت بعضها مورثا من العصور التي سبقتهم([5]).

أولا: الموارد الشرعية: وتتمثل في عدة موارد، مثل: الزكاة، الخراج، الجوالي، المواريث الحشرية، ما يتحصل من المعادن، دار الضرب. وسنناقش كل مورد على حدة من الموارد الشرعية لدولة أسرة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م).

([1]) المال الخراجي: المال الذي يؤخذ من الأراضي التي تزرع مسابقة من الأراضي التي تزرع حبوبًا، ونخلًا، وعنبًا، وفاكهةً، وما يؤخذ من الفلاحين هدية، مثل: الغنم، والدجاج، وغيرها. المقريزي، الخطط، (ج194/1).

([2]) المال الهلالي: هو ما يتأدى مشاهدة كأجر الأملاك المسقفة، والحوانيت، والحمامات، والأفران، والطواحين، وغيرها. المقريزي، الخطط، (ج200/1).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج39/3)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص155)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص310).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج164/1)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص310-313)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص156-184،186).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج39/3)؛ المقريزي، الخطط، (ج164/1)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص156-184،186).

أ- **الزكاة**([1]): معناها في الشرع، من وجبت عليه الزكاة، سواء يدفعها للإمام، أو يفرقها بين الفقراء بنفسه([2]).

والدليل على مشروعيتها، قوله تعالى: " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ"([3])، وقوله تعالى أيضًا: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"([4]).

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلقمة بن ناجية الخزاعي – رضي الله عنه – حين أسلم: " من تمام إسلامكم أن تؤدوا زكاة أموالكم" ([5]).

وفي عصر دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) كانت الدولة تأخذها، وكانت تسمى زكاة الدولة، إلا أن أبطلها السلطان قلاوون، حيث أشار إلى ذلك المقريزي: " ولما ملك المنصور قلاوون مملكة مصر أبطل زكاة الدولة"([6])، فصار مؤدين الزكاة يفرقوها بأنفسهم، ولم يبق للدولة ما يؤخذ منه زكاة إلا شيئان: زكاة التجارة، زكاة العدد، أما زكاة التجارة: فكانت تؤخذ من التجار على ما يجلبونه للبلاد من ذهب، وفضة، فكان يؤخذ على كل مائتي درهم درهم، كما كان يؤخذ من متاجر الكارم، ما مضى عليه سنة، أما زكاة العدد كما ذكر القلقشندي زكاة العدد من ضمن الأموال الشرعية، وكانت تؤخذ من مواشي أهل برقة من الغنم، والإبل عند وصولها إلى البحيرة من أجل الرعي، وكان يقتطع لبعض الأمراء([7]).

([1]) الزكاة: البركة والنماء والطهارة، وصفوة الشيء، وفي الشرع: هي حصة من المال ونحوه يوجب الشرع دفعها للفقراء، ونحوهم بشروط خاصة. مصطفى، المعجم الوسيط، (ج397/1).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج529/3)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص310).

([3]) البقرة: 43.

([4]) التوبة: 60.

([5]) ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، (ج309/4)؛ الطبراني، المعجم الكبير، (ج8/18).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج199/1)؛ ماجد، نظم دولة المماليك، (ص76).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج529/3-531)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص310)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص162).

ب- **الخراج:** هو الضريبة السنوية التي يحيى على الأرض المزروعة([1])، وفي مصر يختلف قيمة الخراج، وهي اختلاف الأرض، ونوع المحصول، ذكر ابن مماتي بأن الباق، وهي أفضل أنواع الأراضي، ويزرع فيها القمح، فكان يؤخذ عن كل فدان ثلاثة أرادب([2])، والدليل على الخراج قوله تعالى:" قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ **خَرْجًا** عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا"([3])، وقوله تعالى: "أَمْ تَسْأَلُهُمْ **خَرْجًا** فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"([4])، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الخراج بالضّمان"([5]).

وفي عصر دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)([6])، وكان لوفاء النيل تأثير على الخراج، فعندما لم يوف النيل تعفى الأرض من الخراج، حيث كان الحد المطلوب للزراعة في بداية عصر دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ستة عشر ذراعًا، وتزرع معظم الأراضي، أما إذا زاد عنه فتروى جميع الأراضي([7])، وجرى العرف على أن الخراج يستحق إذا بلغ مقياس النيل ستة عشر ذراعًا، وتسمى ماء السلطان([8]). وقد قسم النويري الخراج في عصر دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) إلى نوعين، هما: خراج الزراعة، وخراج الراتب([9]).

- **خراج الزراعة:** هو مقدار معين من الغلة، أو المال، فرض من قبل دولة قلاوون المملوكية على الأرض الزراعية، ومحاصيلها، وكان يؤخذ من بعض الأراضي، مثل: أرض الجزيرة([10])

([1]) الماوردي، الأحكام السلطانية، (ص181)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص156).

([2]) الإردب: هو ما يساوي 71 كيلو غرام، إذا كان المزروع قمحًا. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج188/4)؛ (ج512/5)؛ أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، (ص236)؛ الصالح، النظم الإسلامية، (ص420).

([3]) الكهف: 94.

([4]) المؤمنون: 72.

([5]) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، حديث رقم: 2243، (ج754/2).

([6]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (259)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (124).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج320/3)؛ العزام، الأزمات الاقتصادية، (ص135).

([8]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج320/3)؛ المبارك، الناصر محمد، (ص46).

([9]) نهاية الأرب، (ج248/8-253).

([10]) وهي أرض من أعمال قوص في مصر. النويري، نهاية الأرب، (ج249/8).

على شكل غلة، وكا ن مقدارها يتراوح بين ثلاث أرادب إلى سدس الأردب حسب نوع الأرض، ومن بعض يؤخذ بالدراهم، ومقدارها يتراوح بين أربعة دراهم إلى درهمين([1]).

- الخراج الراتب: وهو خراج السواقي والبساتين والنخيل، ولا يكون نقدًا عينًا([2])، أو فضة([3]).

ج- الجوالي (الجزية): فرض الإسلام الجزية على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وحتى المجوس، قال تعالى: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"([4])، وتوجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء، ومقدارها في العصر الإسلامي كان على ثلاثة أصناف من الأغنياء، ثمانية وأربعون درهمًا، والأوسط يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهمًا، والفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهمًا([5])، وأشار ابن مماتي أن العليا ومقدارها 4 دنانير في السنة، والوسطى ومقدارها ديناران في السنة، والدنيا ومقدارها دينار واحد في السنة([6]).

وقد قل وارد الجوالي في عصر دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م)، ويعزى المقريزي سبب لنقص الى كثرة من دخل في الإسلام من النصارى حيث قال: " .. وتعرف في زمننا بالجوالي .. وكان يتحصل منها مال كثير فيما مضى.... وأما في وقتنا هذا فإن الجوالي قلت جدًا؛ لكثرة إظهار النصارى للإسلام في الحوادث التي مرت بهم "([7])، وكان لهذه الضريبة ناظر الجوالي في المدن المصرية، وكان يساعده في جباية الضريبة ممثل عن النصارى وآخر عن اليهود([8]).

د_ المواريث الحشرية : وهي مال من يموت، وليس له وارث من أصحاب الفروض أو العصبية أو ذوي الأرحام ، وقد درت على الدولة أموال جزيلة، وكانت في عصر دولة

([1]) النويري، نهاية الأرب، (ج8/248-249).

([2]) العين ما ضرب من الدنانير، النويري، نهاية الأرب، (ج8/252).

([3]) النويري، نهاية الأرب، (ج8/253).

([4]) التوبة: 29.

([5]) الماوردي، الأحكام السلطانية، (ص181-183)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج8/234، 347).

([6]) قوانين الدواوين، (ص318)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص132).

([7]) المقريزي، الخطط، (ج1/201).

([8]) المقريزي، الخطط، (ج1/208)؛ ماجد، نظم المماليك، (ص 75).

قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) المملوكية من جملة أموال السلطان، وكان لها ناظر يولي من قبل السلطان([1]).

وتنقسم إلى قسمين: في حاضرة الديار المصرية، وماهو خارجها([2]).

- **ما بحاضرة الديار المصرية:** فكان لها ناظر، وله معاونين، وبإشراف الوزير، وكان متحصلها يحمل الى بيت المال([3]).

- **ماهو خارج الديار المصرية:** فلها مباشرون يحصلون على التركة ويحملونها إلى الديوان السلطاني([4]).

هـ- ما يتحصل من المعادن: إلى جانب الموارد السابقة كان هناك مورد آخر كانت يدر على دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) المملوكية أموال طائلة ، وهو استخراج المعادن من باطن الأرض، ومن هذه المعادن الزمرد، والنطرون، والشب([5]). قد احتكر استخراجه سلاطين المماليك وذالك لزيادة الطلب عليه من قبل الأوروبيين، وباعوها بأسعار مرتفعة تصل إلى ضعف أثمانها([6]). قال القلقشندي: "وليس لأحد أن يبيعه، ولايشتريه سوى الديوان السلطاني"([7]).

و- دار الضرب : وهي دور سك العملة، وكان يضرب بها ثلاثة أنواع من المعادن: الذهب ، والفضة، والنحاس، وكانت في مصر ثلاثة دور للضرب: في مصر، وفي الإسكندرية، وفي قوص، وكانت تدر هذه الدور أموالًا طائلة على دولة قلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) المملوكية، وذالك من خلال فرض مبلغ معين، أو نسبة معينة من المعدن المضروب

([1]) المقريزي، الخطط، (ج208/1)؛ القلقشندي، صبح، (ج532/3)؛ ابن مماتي، قوانين الدواوين، (319).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج532/3)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص168).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج532/3)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص168).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج533/3)؛ ماجد، نظم المماليك، (ص76)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص126).

([5]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (328-334)؛ العمري، مسالك الأبصار، (ج415/3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج526/3-527).

([6]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (328-334)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج526/3-527).

([7]) صبح الأعشى، (ج526/3-527).

على أصحاب الأموال مقابل قيام الدولة بسك معادنهم، وتحويلها إلى نقود بعد ضبط عيارها([1])، قال عنها المقريزي: " وكانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير"([2]).

ثانيا: الموارد الغير الشرعيـة: يقصد بالموارد المالية الغير شرعية، الضرائب التي فرضتها دولـة أسرة قـلاوون(678هـ-783هـ/1279م-1382م) المملوكية على مختلف أنشطة الدولـة، وأطلق عليها تسمية المكوس، وكانت تلجأ الى ذالك لتغطية نفقات الحروب ضد التتار، وبقايا الصليبين بالمشرق، وكذلك كانت هناك ضرائب تفرضها الدولة على رعاياها، لتنفقها على مرافق الدولـة المختلفـة. ولـم تكـن جميـع المكوس التـي كانـت فـي عصـر دولـة قـلاوون المملوكيـة مـن ابتكارهم؛ إنما كانت بعضها موروثًا من عصور سابقة لهم([3]).

وقد فرضت دولة المماليك الأولى المكوس على كل شيء في دولتهم في أرض مصر، وكذلك فـي بـلاد الشـام، وعلـى كافـة مرافق الدولـة، وعروض التجارة، والصـناعة، وعلـى الأموال المسـقوفة، والحوانيـت، والحمامـات، والأفـران، والطـواحين، والأسـواق، والأسـماك، والمراعـي، ومعامل الفروج، والمغاني، والأفراح، ودار الضرب، ودار العيار، والمعادن، والغلال، وغيرها([4]).

وقد أبطل السلطان قلاوون وأولاده عدة مكوس كانت مفروضة على أقاليم مصر، فألغى السلطان المنصور كثيرًا من الضرائب التي كانت تُفرض على الناس، وأبطل كثيرًا من المظالم التي عانى الشعب منها([5])، فكان أول مرسوم داخلي أصدره إبطال مرسوم الدولبة، وهذه الرسوم كانت تؤخذ في عصر الملك الظاهر على المشتغلين بالدولاب؛ أي الآلات، والعجلات في الري، والغـزل، والصـناعة، فهـي ضـريبة تؤخـذ علـى الآلات الصـناعية، والزراعيـة، وهـي ممـا يعـرف بالرسوم العُرفية؛ أي التي لا أساس لها في الشرع([6]).

([1]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (331)؛ المقريزي، الخطط، (ج206/1-207)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج623/3)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص311-312).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج206/1-207)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص126).

([3]) المقريـزي، الخطـط، (ج164/1)؛ القلقشـندي، صـبح الأعشـى، (ج39/3)؛ إسـماعيل، الـنظم الماليـة، (ص186)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص127).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج198/1-199)؛ ماجد، نظم المماليك،(ص73).

([5]) المنصوري، مختار، (ص71)؛ ابن كثير، البداية، (ج564/17-565).

([6]) ابن الفرات، تاريخ الدول، (ج10/7)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص27).

وألغى السلطان المنصور قلاوون ضريبة زكاة الدولة، وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا، ولو عدم منه، وإذا مات يؤخذ من ورثته، وأبطل ما كان يجبى من أهل إقليم مصر كله إذا حضر مبشر بفتح حصن، أو نحوه، فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر على قدر طبقاتهم، ويجتمع من ذلك مال كثير، وأبطل ما كان يجبى من أهل الذمة، وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الأجناد في كل سنة، وأبطل مقرّر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة، وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر من كل تاجر دينار، وأبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى وحلوى وفاكهة في المقياس، وجعل مصر ذلك من بيت المال، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط. وأبطل الملك الناصر، محمد بن قلاون عدّة جهات قد ذكرت في الروك الناصري ([1])، وارتبط اسم الأشرف خليل بن قلاوون بإسقاط المكس الذي كان يؤخذ على باب الجابية([2]) بدمشق([3])، وكان مقداره خمسة دراهم عن كل حمل جمل من القمح([4])، وقام بإلغاء مكس الصالحية([5])، وعمل الناصر محمد على رفع المظالم عن الناس؛ رحمة بهم، وبأحوالهم، وتمثل ذلك في أمور عدة:

1- ففي سنة (715هـ/1315م) ألغى الناصر محمد أربعًا وعشرين ضريبة اجتماعية، بالرغم أن هذه الضرائب كانت مصدرًا من مصادر الدخل في الدولة، من ذلك: مكس ساحل الغلة الذي عمل الناصر محمد على إلغائه لينقذ الناس مما يعانونه من جراء دفع هذه الضريبة([6])، وعلى ذلك نزل سعر القمح منذ لحظة إلغاء مكس ساحل الغلة([7])، ولاشك أن في هذا عونًا كبيرًا للفقراء من الشعب لتدبر أمر معيشتهم([8])، وأبطل الناصر محمد العديد من المكوس في مصر،

([1]) المقريزي، الخطط، (ج1/199،167)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/45-48).

([2]) تم التعريف به سابقًا. ابن كنان، المواكب الإسلامية، (ج1/208-209).

([3]) العيني، عقد الجمان، (ج3/207)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/27)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/366).

([4]) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (ج8/166)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/247).

([5]) البرازلي، المقتفى، (ج1/330)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل، (ص169).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج2/507)؛ حجي، السلطان الناصر محمد، (ص35).

([7]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/44).

([8]) المقريزي، السلوك، (ج2/507)؛ حجي، السلطان الناصر محمد، (ص35).

فأصبح الشعب المصري سعيدًا وممتنًا للناصر، الذي أبطل هذه الضرائب، فأراح الناس من كثير من المظالم، التي كانت تنتهك حقهم([1]).

2- عندما زار السلطان الناصر محمد بن قلاوون مكة والمدينة حاجًا؛ ألغى جميع المكوس التي كانت تؤخذ في بلاد الحرمين الشريفين، وجدير ذكره أنه ألغى أيضًا المكوس المفروض على المواد الغذائية في مكة ([2]).

وذكر المقريزي: "وآخر ما أدركنا إبطاله ضمان الأغاني، وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون"([3]) ، وبالرغم من تلك المكوس الملغاة، التي كانت مفروضة على التجار، فقد ذكرها المقريزي بالتفصيل، وهي على ما يبدو أكثر من 70 نوعًا من الرسوم، فكان كل سلطان من أسرة قلاوون يفتتح عصره بإلغاء المكوس، وإسقاطها، ثم لا تلبث وأن تعود من جديد([4]).

والمكوس نوعان: الأول: المكوس التي كانت تجبى في القاهرة، ومصر، وثغور مصر البحرية، والبرية، وتكون هذه لصالح دار السلطان، وحاشيته، والثاني: هي المكوس المفروضة على سائر المرافق، وعروض التجارة، والصناعة في الديار المصرية والتي تمنح كنوع من الإقطاع للأمراء والأجناد([5]).

النوع الأول: المكوس لدار السلطان: هي المكوس التي تجبى لسلاطين دولة قلاوون المملوكية، فكانت ممالكهم في مصر تطل على البحر الأحمر من الشرق، وعلى البحر المتوسط من الشمال، جعل لها منافذ بحرية وبرية، ما أدى لجباية المكوس عن البضائع الواردة إليها، فكانت هناك موانئ على البحر المتوسط، من أبز هذه الموانئ: الأسكندرية، ودمياط، ورشيد، فكانت تجبى المكوس من السلع القادمة من أوروبة، وكان يفرض الخمس عليها([6]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج154/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج50/9).

([2]) الفاسي، شفاء الغرام، (ج997/2)؛ الجزيري، درر الفرائد، (ج393/1).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج200/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج45/9-48).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج281/1)؛ القحطاني، تأثير الحج المصري، (ص99).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج536/3-539)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص168).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج2/3-4)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص182).

وهناك أربع موانئ على البحر الأحمر، منها: عيذاب، والقصير، والطور، والسويس، كانت تجبى منها المكوس على بضاعة تجار الكارم، وعلى السلع القادمة من الهند، عن طريق اليمن والحجاز([1]).

كما كان هناك مركز تجاري بري في منطقة قطية([2])، كانت تفرض مكوس على البضائع القادمة من الشرق عن طريق البر، وخاصة من الشام والعراق، وهو أكثر الجهات تحصلًا، وأشدها على التجار تضيقًا، وكانت على بعض السلع المحددة تجبى ضرائب([3]).

النوع الثاني: المكوس التي تجبى للديوان السلطاني: وهي المكوس التابعة للإقطاع، لصالح الديوان السلطاني، أو لصالح الأمراء، أي صاحب الإقطاع، وكانت أرض مصر وبلاد الشام إقطاعًا للسلطان، يعطيها للأمراء، والعسكر مقابل ما فرض عليهم من خراج إقطاعاتهم([4]).

وكان يشرف على جميع المكوس أنواع خاصة من الدواوين، يكون تابع للوزارة([5])، وأبرز ضرائب المكوس خلال عصر دولة قلاوون المملوكية(678هـ-783هـ/1279م-1382م):

1- مكس ساحل الغلة: كانت تحصل مبالغ ضخمة من هذا المكس، مكس ساحل الغلة، وهو مبلغ مقرر على بيع الغلال بنسبة درهمين على كل إردب للسلطان، ويلحقه نصف درهم سوى ما كان ينهب ويسرق، وعرف مكان البيع باسم " خص الكيالة " بساحل بولاق حيث كان يجلس الموظفون(نظار ومستوفون وكتاب) ومعهم ثلاثون جنديا، وتحمل الغلال إلى هذا المكان ولا يسمح ببيعها فى غيره، ثم تحول " خص الكيالة " إلى ديوان للإشراف على البيع، وتحصيل المكس، وكان إيراده للسلطان سنويا 604 آلاف درهم، وانتفع بهذا الإقطاع 400 جندي سوى الأمراء، وبلغ إقطاع الجندي الواحد من 3 إلى 10 آلاف درهم سنويا، أما الأمير فكان بين 10

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج3/536-539)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص129).

([2]) قطية: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. ياقوت، معجم البلدان، (ج4/378).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج3/538)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص129).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج1/182)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/51)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، (ح2/282).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج1/182)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/51)؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، (ح2/282).

إلى 40 ألف درهم سنويا. وقد تطور مكس الغلة بين الإقرار والإلغاء والإعادة عدة مرات، فمثلا أبطله الناصر محمد بن قلاوون ضمن ما أبطله من مكوس، ثم عاد([1]).

2-مقرر السجون أو مكوس السجون: هو أفظع ضريبة، وهى نوع من السخرة كان على المسجون أن يدفعه للسجان وهو ستة دراهم غير الغرامة، فلو تخاصم رجل مع امرأته، أو ابنه ووصل الأمر للوالي .. وهو يماثل مدير الأمن الآن .. أودعه الوالي فى السجن، حيث يدفع مقرر السجون حتى ولو تم الإفراج عنه بعد ساعة من سجنه، ويحصل هذا المقرر فى جميع السجون، وأقبل الكثيرون على شرائه من الدولة، وكانوا يعرفون بالضامنين، أي يضمنون للدولة تحصيل ذلك المكس، ويشترونه ثم يقومون بالتحصيل بالزيادة، ويوفون لأصحاب الإقطاع المنتفعين بهذا المكس حقوقهم فيه، ويحتفظون بالباقى لأنفسهم([2]).

3-مقرر طرح الفراريج: هو حق احتكار تجارة الدجاج ، وكان يشتريه الضامنون بمبالغ ضخمة، ويتصرفون فى فرضه على الناس، بحيث لم يكن لأحد الحق فى شراء أو بيع أي دجاج إلا من خلال الضامن، وكان ينال الناس من ذلك بلاء عظيم، فإن عثر على أحدهم أنه باع واشترى دجاجا من سوى الضامن " جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت"([3]).

4-مقرر نصف السمسرة: أحدث هذا المكس والى القاهرة ناصر الدين الشيخى فى سلطنة الناصر محمد، فمن كان يبيع شيئا عليه أن يدفع 2 % من قيمة البيع للسلطان درهم، والباقي للدلالين وأصحاب الانتفاع من هذا المكس، فتضرر الكثير من الناس من هذا المكس([4]).

5- رسوم الولاية: وهو مبلغ يقوم بجبايته الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق ، ولهذه الرسوم ضامن وتحت يده عدة صبيان، وعليها جنود وأمراء يستفيدون من هذا الإقطاع، قال ابن تغري بردي: " وكان فيها من الظلم والعسف، وهتك الحرم، وهجم البيوت، وإظهار الفواحش ما لا يوصف"([5]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج1/167-168)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/150).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج2/151)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/47).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج1/168)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/151)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/46).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج1/167)؛ طرخان، النظم الإقطاعية، (ص79).

([5]) النجوم الزاهرة، (ج9/48).

6- مكس الجراريف([1]): فكان يجنيه الولاة والمهندسون من القرى حيث يقومون ببناء الكباري والجسور على النيل والترع ، وكان يستفيد من هذا الباب كثيرون من جنود الدولة([2]).

7- مقرر الحوائص والبغال: فهو مبلغ مقرر على الناس، ويقوم بجبايته الولاة والمقدمون لتوريده إلى بيت المال ويقدر بمبلغ 300 درهم للحياصة، و500 درهم بدل ثمن البغل، ولكثرة إيراد هذا المكس كان عليه الكثير من المستفيدين، " فكان فيها من الظلم بلاء عظيم"([3]).

8- ضمان القراريط: ضريبة بيع الأبنية، وقدرها 2% تفرض على البائع، وكان مكسًا يؤخذ من كل من باع دارًا، ذكر المقريزي: " كان يؤخذ من كل باع ملكًا عن كل ألف درهم، عشرون درهمًا"([4])، ولو تكرر بيعها في الشهر الواحد مرارًا، فلابد أن يؤخذ أيضًا مكس معلوم، ولا يستطيع أحد من الشهود أن يكتب توقيعه في مكتوب دار حتى يرى الختم في المكتوب؛ أي على عقد البيع([5]).

9- مكوس المراعي: المراعي وهو الكلأ المطلق المباح الذي أنبته الله تعالى لرعي دواب بني آدم، وكان لمكوس المراعي ديوانا وعاملا جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعي، أو يشتروها؛ إلا بدفع ضريبة مقررة، وكان يأخذ على عدد الماشية التي ترعى([6]).

10- مكوس المصايد: المصايد فهي ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر، وأوّل من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر، وصير لها ديوانا واحتشم من ذكر المصايد، وشناعة القول فيها، فأمر أن يكتب في الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك، فاستمرّ ذلك، وكان يندب لمباشرتها مشدّ وشهود وكاتب إلى عدّة جهات، مثل: خليج الإسكندرية، وبحيرة الإسكندرية، وثغر دمياط، وثغر أسوان، فيخرج الصيادون عند هبوط النيل، ورجوع الماء من المزارع إلى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد أغلقت، وأبواب القناطر قد سدّت عند انتهاء زيادة النيل، كما يتراجع الماء، ويتكاثف مما يلي المزارع، ثم تنصب شباك، وتصرف المياه، فيأتي السمك،

([1]) الجراريف: جمع جرافة، وهي آلة تستعمل لرفع الأتربة والطين. النويري، نهاية الأرب، (ج32/231).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج1/168)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/152).

([3]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج9/46)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص134).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج1/200) ؛ زناتي، معجم مصطلحات، (ص254).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج1/200)؛ المقريزي، السلوك، (ج3/417)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/167).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج1/201-202)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص132).

وقد اندفع مع الماء الجاري، فتصدّه الشباك عن الانحدار مع الماء، ويجتمع فيها فيخرج إلى البر، ويوضع على أنخاخ، ويملح، ويوضع في الأمطار؛ فإذا استوى بيع، وأما بحر النيل فما صيد منه يحمل إلى دار السمك بالقاهرة، فيباع ويؤخذ منه مكس السلطان([1]).

11- مكوس الفرسان: وهي ضريبة يدفعها الفلاحون للولاة كهدية، فكان الفلاح يُستغل ويؤخذ منه ثلاثة أضعاف الضريبة([2]) المقررة، قال ابن تغري بردي: " وهو شيء تستهديه الولاة والمقدمون من سائر الأقاليم، فيجى من ذلك مال عظيم، ويؤخذ فيه الدرهم ثلاثة دراهم من كثرة الظلم"([3]).

12- مكوس قصب السكر ومعاصره: كان يزرع في مصر قصب السكر، وكان هناك عدد من المعاصر لصناعة السكر([4])، وفرضت الضريبة على إنتاج قصب السكر، والمعاصر التي تنتج السكر([5]).

13- مكوس حماية المراكب: وهي عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرّر الحماية وكانت هذه الجهة أشدّ ما ظلم به الناس، فيؤخذ من كل من ركب البحر للسفر، أو حتى المسافرين القادرين، والفقراء منهم([6]).

14- مكوس الأتبان: وهي ضريبة تفرض على الأتبان، فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام: قسم للديوان، وقسم للمقطع، وقسم للفلاح، فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم، ويؤخذ في التبن عن كل مائة حمل: أربعة دنانير وسدس دينار، فيحصل من ذلك مال كثير، ومكوس الأتبان لها موظف يقال له: موظف الأتبان([7]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج202/1)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص132).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج151/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج47/9).

([3]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج47/9) ؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص133).

([4]) ابن مماتي، قوانين الدواوين، (ص266)؛ المقريزي، الخطط، (ج429/1) .

([5]) المقريزي، السلوك، (ج151/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج47/9).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج152/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج168/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج47/9)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص198).

([7]) المقريزي، السلوك، (ج152/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج207/1)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج230/32).

15- **مكوس المشاعلية:** وهي الضريبة التي كانت تؤخذ مقابل تنظيف البيوت والحمامات، قال المقريزي عن المشاعلية: " ومقرّر المشاعلية وهو عبارة عما يؤخذ عن كسح الأفنية، وحمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان، فكان إذا امتلأ سراب جامع، أو مدرسة، أو مسمط، أو تربة، أو منزل من منازل سائر الناس، لا يمكنه ولو بلغ من العظمة ما عسى أن يبلغ التعرّض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة، ويقاوله على كسح ذلك بما يريد، وكان من عادة الضامن الإشطاط في السوم، وطلب أضعاف القيمة؛ فإن لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن وإلا تركه وانصرف، فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطرّ إلى سؤاله ثانيا، فيعظم تحكمه ويشتدّ بأسه إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه ورفع ما هنالك من الأقذار"([1]).

16- **مكوس العبي:** وهي الضرائب التي كانت تؤخذ على العباءات(نوع من الأقمشة) التي كانت تباع في مصر([2]).

17- **مكوس أهل الذمة:** وكانت تجبى من أهل الذمة، ومقدارها دينار سوى الجالية برسم نفقة الأجناد في كل سنة([3]).

18- **مكس المبشرين:** وهي الضريبة التي كانتى تجبى في مصر والقاهرة([4])، إذا حضر مبشر، يبلغ بانتصار الجيش، أو فتح حصن، أو سلامة الحجاج، وكان يجمع من الناس على قدر طبقاتهم([5]).

19- **مكوس وفاء النيل:** ما كان يجبى عند وفاء النيل من الناس، لعمل به الشواء، وشراء الحلوى، والفاكهة للاحتفال بالوفاء، ويكون الاحتفال عند المقياس([6]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج152/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج168/1)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص133).

([2]) المقريزي، السلوك، (ج152/2)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج230/32).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج152/2)؛ المقريزي، الخطط، (ج199/1).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج199/1)؛ المقريزي، السلوك، (ج664/1)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص135).

([5]) المقريزي، السلوك، (ج191/1)؛ المقريزي، الخطط، (ج199/1)؛ إسماعيل، النظم المالية، (ص191).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج199/1)؛ العبيدي، الحياة الاقتصادية، (ص135).

20- مكوس حول التجارة عبر الثغور: كان موقع مصر له فائدة كبيرة، عاد عليها بالأموال الكثيرة، حيث كانت معبر للتجارة بين الشرق والغرب، فقد فرضت الضرائب على التجارة التي تمر عبر ثغورها، وكانت هناك موانئ على البحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط، وتمر بضائع التجار عبرها، فقد ذكر القلقشندي: " واعلم أن المقرر في الشرع أخذ العشر من بضائعهم التي يقدمون بها من دار الحرب إلى بلاد الإسلام إذا شرط ذلك عليهم، وينقص عنه إلى نصف العشر للحاجة، وأن يرفع ذلك عنهم رأسا إذا رأى فيه المصلحة"([1]).

ويبدو أن من عوامل النصر والتمكين لدولة قلاوون وجود موارد شرعية لدعم المؤسسة العسكرية ، ومنها: الزكاة، والخراج، ودور الضرب لصك العملات، وموارد غير شرعية، مثل: فرض المكوس، ونتج عنه: وجود أنواع عديدة من المكوس في دولة قلاوون، مثل: مكس ساحل الغلة، مكوس السجون، رسوم الولاية، ومكوس المراعي، وألوان عديدة من المكوس.

فقد تحقق للسلطان قلاوون وأولاده النصر، والتمكين، وظلت فترة حكم المماليك البحرية مائة عام ونيف، قال تعالى: " وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "([2]).

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج3/536).

([2]) التوبة: 105.

الفصل الرابع

العوامل العسكرية لنصر وتمكين الدولة المملوكية

المبحث الأول: تحقيق الأمن والاستقرار الداخلي

عقد السلطان قلاوون وأولاده العهد، والاتفاقيات، والصلح مع الأعداء: المعاهدات هي تلك الاتفاقات أو العهود أو المواثيق الَّتي تعقدها الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول في حالتي السلم والحرب، وتُسَمَّى المعاهدة في الحالة الأخيرة موادعة أو مصالحة أو مسالمة، ويُقَرَّرُ بمقتضاها الصلحُ على تَرْكِ الحرب، لقوله تعالى: " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ"([1]) .

وقد أَكَّدَتِ الآياتُ القرآنية وأحاديثُ الرَّسولِ على وجوب الوفاء بالعهد، ومن ذلك قول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ"([2])، وقوله تعالى: "وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا "([3]) وأيضًا قوله تعالى:" وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً"([4]).

وأمَّا ما جاء في أحاديثِ الرَّسولِ فمنه ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: " أَرْبَعُ خِلاَلٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا "([5])، وعن رسول الله قَالَ: "أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "([6]).

أولا: العهد والاتفاقيات في عهد السلطان قلاوون، والصالح علي، والأشرف خليل:

أ- الهدنة مع الإسبتار([7]) 680هـ/1281م: استفاد السلطان قلاوون من الفترة التي قضاها مع

([1]) الأنفال:61.

([2]) المائدة:1.

([3]) الأنعام:152.

([4]) الإسراء: 34.

([5]) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: 3178، (ج102/4).

([6]) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم: 3052، (ج170/3).

([7]) الإسبتارية: لفظ أطلقه المؤرخون على جمعية فرسان الهسبتالين التي تأسست سنة(493هـ/1099م) على يد بلسيد جيرارد بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، فهم طائفة دينية عسكرية مسيحية، أنشئت في بيت المقدس، ومركزها عكا، قضى بونابرت عليها نهائيا. ياقوت، المشترك، (ص136)؛ الصوري، الحروب الصليبية، (ج103/3)؛ سميث، الإسبتارية، (ص322)؛ عوض، الحروب الصليبية، (ص31).

الظاهر بيبرس في تجديد الأحلاف، والمعاهدات مع عدد من الإمارات والممالك الأوربية، فعندما كان السلطان قلاوون لحرب مع الغول في 679هـ/1280م، طلبت جماعة الاسبتارية تجديد الهدنة، والزيادة على الهدنة الظاهرية، وقد تضمنت بنود الهدنة في معظمها بنودًا اقتصادية، وتجارية، وسياسية، وعسكرية، وأمنية([1]). وكانت مدة المعاهدة 10 سنين و10 شهور و10 أسابيع، وكانت البلاد المشمولة في المعاهدة: جميع بلاد السلطان، والممالك، والحصون من الفرات إلى النوبة، مع بلاد الفرنجة–الصليبيين– بعكا، ومن أهم بنودها: أن لا يشيد الإسبتارية خارج مدينتهم، ولا في البلاد التي وقعت عليها المعاهدة بناء ذا صفة دفاعية، وكذلك السلطان قلاوون([2]).

ب– الهدنة مع طرابلس 680هـ/1281م: بدأها الظاهر بيبرس، وكانت مدة الهدنة 10 سنين، وتوفي الظاهر قبل انقضاء مدة المعاهدة([3])، واستكملها السلطان المنصور قلاوون، ومعظمها في البنود الاقتصادية، وشابهت هذه الهدنة، الهدنة مع الإسبتارية([4]).

ج– تجديد الصلح مع البيزنطيين 680هـ/1281م: كان السلطان قلاوون، وأسرته المملوكية (678هـ–783هـ/1279م–1382م) يسيرون على سياسة الملك الظاهر بيبرس في التقرب من أعداء أعدائه لإيجاد سد منيع بين المغول في الشرق، والصليبيين في الغرب، فأبرم السلطان قلاوون اتفاقًا شاملًا مع الإمبراطورية البيزنطية، ونص في مجمله على تأكيد أواصر المودة، والتعاون بين سلطنة قلاوون وأولاده، والإمبراطورية البيزنطية، وتثبيت العهود بدوام علاقات السلم، والأمان، وتأمين سلامة التجار مع إمكانية إلغاء الضرائب بين الطرفين، وتسهيلات أخرى بين الطرفين، واستمرت هذه العلاقة التي سادها الود والتعاون في عهد الملك الأشرف خليل، والناصر محمد([5]).

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص20)؛ المنصوري، زبدة الفكر، (ص191)؛ العسقلاني، الفضل المأثور، (ص141)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج7/204).

([2]) النويري، نهاية، (ج31/73)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج7/204)؛ ابن تغري بردي، النجوم، (ج7/255) .

([3]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص145)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج31/74).

([4]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج9/209)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج7/262).

([5]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص54، 207)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج7/229–230)، الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، (ص45–47).

د- الصلح بين صاحب عكا والسلطان قلاوون سنة 680هـ/1281م: طلب صاحب عكا الصلح من السلطان قلاوون سنة 680هـ/1281م، فأجابه، وحدد شروطه([1])، وقد تضمنت شروط قلاوون كل الجوانب الاقتصادية، والأمنية، والعسكرية، والجغرافية، والمدة الزمنية، والتحالفات، إلا أن هذه الاتفاقيات لم تشمل التطبيع الثقافي، وفي ذلك مراعاة لمصالح المسلمين، وخاصة أن المنطقة، وسكانها يحتاجون إلى الأمن في حال الحصاد، فلا يمكن الاستمرار في القتال بدون أمن غذائي، واقتصاد قوي([2]).

هـ- الهدنة مع الداوية(جمعية فرسان المعبد)([3]) في طرسوس 681هـ/1282م:

وكان طرفي الهدنة، هما: السلطان قلاوون وولده الملك الصالح علاء الدين علي، وبين المقدم فرير كليام ديباحوك مقدم بيت الداوية بالساحل وعكا، وجميع أفراد بأنطرطوس، وكانت مدة المعاهدة 10 سنين، و10 شهور([4]). وقد تضمنت بنود الهدنة في معظمها بنودًا سياسية، وعسكرية، وأمنية([5])، ومن شروطها: لا يتخطى أحد من أنطرطوس، وبلادها إلى بلاد السلطان قلاوون وأولاده، ولا إلى قلاعها، وحصونها، مما عين في الهدنة، وما لم يعين. وتكون أنطرطوس، وبلادها المعينة في الهدنة، ومن بها من الفرسان، والإخوة، والرعايا القاطنين، والمترددين آمنين، مطمئنين من السلطان قلاوون وأولاده، ولا يتخطى أحد من بلاد السلطان إلى أنطرطوس، وبلادها بغارة، أو مكروه حتى انقضاء الهدنة، ولا يتجدد حصن، ولا برج، ولا قلعة في بلاد أنطرطوس([6]).

([1]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص106)؛ الجزار، النظام العسكري في دولة المماليك، (ص124).

([2]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص106)؛ غوانمة، معاهدات الصلح، (ص131)؛ الجزار، النظام العسكري في دولة المماليك، (ص124).

([3]) تمت الترجمة سابقا. انظر: ياقوت، معجم البلدان، (ج264/2)؛ دهمان، معجم المصطلحات التاريخية، (ص73).

([4]) ابن الفرات، تاريخ، (ج204/7-229)؛ زكار، حروب الفرنجة، (ص220)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج249/2-250)؛ أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، (ص23).

([5]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص22).

([6]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص20-22)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج204/7-229)؛ ابن علي، الفضل المأثور، (ص141-148)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج255/7).

و- عقد الاتفاقيات مع الصليبيين: ففي خامس شهر ربيع الأول من 682هـ/ 3 يونيو سنة 1283م عقدت الهدنة بين السلطان قلاوون وبين حكام الصليبيين بمملكة عكا، وصيدا، وبلادها، وهم: اودو بول يشيان نائب مملكة بيت المقدس الصليبية. وقد حضر معه كل من مقدم الداوية، والإسبتارية، وبعض كبار الأمراء الصليبيين، واتفقوا على أن تكون الهدنة لمدة عشر سنين، وعشرة أشهر، وعشرة أيام وعشر ساعات[1]. وفي سنة 688هـ/1289م تم عمل هدنة مع الصليبيين، وبعدها لجأ السلطان قلاوون للفقهاء في قضية نقض الهدنة، وذلك لتكرر اعتداءات الصليبيين على المسلمين، فأخذ بالاستعداد للحرب؛ لكنه أحاط على هذه الاستعدادات ستارًا من السريةحتى تجهز بجيشه[2]. ونلاحظ أن السلطان قلاوون كان يعقد الاتفاقيات، والهدن مع كل إمارة صليبية على حده؛ ليسهل حرب غيرها من الإمارات، وحتى يحاربها نفسها لا يدافع عنها غيرها، وهي سياسة فرق تسد، وكانت الهدن التي عقدها قلاوون؛ إنما هي نتيجة لانتصاراته الكبيرة على المغول، حيث انتبه الصليبيون لقوته، فتجنبوا قوته من خلال عقد الاتفاقيات والهدن معه[3].

ز- الهدنة مع صاحب سيس 684هـ/1285م: كان السلطان قلاوون يطلب باستمرار من صاحب سيس مدينة بهنسا[4]، وهو يماطل، وبالرغم من ذلك بعث إلى السلطان قلاوون يطلب الهدنة معه عن طريق كبير الداوية، وفيها طلب كبير الداوية العفو عن صاحب سيس، وبعد مد وجزر وافق السلطان قلاوون على الهدنة مع صاحب سيس، بشروط، ومنها[5]:

دفع مليون درهم للسلطان قلاوون كل سنة، مع دفع مليون عاجلة، وهدايا من الجياد والبغال، وكمية من الأقمشة، وإطلاق سراح من عنده من تجار المسلمين وأسراهم، وإعادة أموال المتوفين منهم، وانتظم الصلح على ذلك، واشترط صاحب سيس ما يلي: أن قلعة الروم، وخليفة الأرمن المقيم في قلعة الروم، وما يتعلق بهم من رهبان، وفلاحين داخلين ضمن نطاق الهدنة، مثلما كان الحال عليه أيام الملك الظاهر، فتم إطلاق سراح الأرمن وغلمانهم من دمشق والقاهرة من

---

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف، (ص34)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج262/7)؛ المقريزي، السلوك، (ج986/1).

(2) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص143)؛ العسلي، الظاهر بيبرس، (102، 104).

(3) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص106)؛ الجزار، النظام العسكري في دولة المماليك، (ص125-126).

(4) مدينة بمصر من الصعيد الأدنى، مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة تصنع بها ثياب الصوف الجيدة. ياقوت، معجم البلدان، (ج261/3)؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (39).

(5) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص34، 93-103).

طرف السلطان قلاوون، ولم يطلق صاحب سيس المسلمون من قرمان، فطلب السلطان قلاوون إطلاق سراحهم لأنهم تحت طاعته، ويستنصون به([1]).

ح- الهدنة مع مملكة صور 684هـ/1285م: كانت بين ملكة صور مارغريت والسلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل، واستمرت مدة عشر سنوات حتى 694هـ/1295م، وكانت تشمل كل بلاد السلطان وكل من عليها، ويكون للسلطان خمس قرى من أفضل ضياع صور، وهي: قانا ومزرعتها القروية، أصريفيا ومزرعتها، حانا بكاملها، المجادل بكاملها، كفرد بين بكاملها، ولا يشارك السلطان أحد في هذه القرى، وتأخذ الملكة مارغريت عشرًا من ضياع برج صور، ولا تبني الملكة في بلادها قلعة ولا سورًا ولا خندقًا، ويمنع السلطان من التعدي على أراضي الملكة المذكورة سابقًا، وبدورها تحفظ الملكة بلادها من كل عدو للسلطان أو متآمر، ولا تحالف أيًّا من ملوك الفرنجة ضد السلطان، ولا تبطل الهدنة بوفاة أحد طرفيها؛ بل تستمر عشر سنوات حسب الاتفاق([2]).

ط- الصلح مع ملك أراغون وأخيه صاحب صقلية 689هـ/1290م: كان الصلح بين السلطان قلاوون وملك أراغون وأخيه صاحب صقلية، يلتزم فيه الملك وأخواه بتثبيت قواعد الود والصفاء بين ممالك السلطان وولده، وممالكهم، وهي: بلاد أرغن وثغورها، ومارقية وأعمالها وبلادها، بلنسية وأعمالها وبلادها، بلاد برشلونة وأعمالها، صقلية وجزيرتها وبلادها، مانسة وبلادها، أربسويات وأعمالها([3]). وأن ما سيفتحه ملك أراغون من بلاد أعدائه تكون هذه الممالك آمنة من جهة السلطان وولده وعساكره، وإن تعرض السلطان قلاوون وأولاده لأي أذى، أو مضرة من البابا بروما، أو من ملوك الفرنجة، أو من جميع أجناس النصارى، يمنعهم الريداراغون، ويقاتلهم في البر والبحر، كذلك يسمح السلطان لمن يقوم بزيارة القدس من جهة ملك الريدراغون وحلفائه، وعلى يده كتاب منه، وخاتمه، وإذا خرج أحد من الفرنجة بعكا، وصور، وبلاد الساحل عن شروط الهدنة، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يُعينهم ملك الريدراغون ولا إخوته، وإذا طلب البابا بروما، أو ملوك الفرنجة، أو غيرهم من ملك الريدراغون وحلفائه إنجادًا أو معونة لا يوافقهم

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص34، 93-103)؛ المقريزي، السلوك، (ج986/1)؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، (ج262/7-270)؛ ابن علي، الفضل المأثور، (ص261)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (233-236)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص65-66).

([2]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص103-110).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج207/5، 230)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص65-66).

على ذلك، ولا تنقض المعاهدة بموت أحد الطرفين؛ بل تستمر على ذلك، وحرر ذلك في 17 ربيع الآخر 689هـ/23 نيسان 1289م، وتم الحلف، وإرسال نسخ الهدنة إلى الطرفين([1]).

ي- تجديد الصلح بين قلاوون وصاحب برشلونة سنة 689هـ/1289م: وصلت رسل صاحب صقلية، وصاحب برشلونة بتجديد العهد، وإعادة الصلح مع السلطان قلاوون، وابنه الملك الأشرف خليل، وإعادة المودة بين الطرفين في كل بلادهما، الذي كان على أيام الملك الكامل الأيوبي، وكانت بداية الهدنة من يوم الثلاثاء 13 ربيع الآخر سنة 689هـ/ 7 نيسان 1289م، ونصت المعاهدة: إذا تعرض السلطان قلاوون وأولاده لمضرة، أو أذى من البابا، أو أحد من ملوك الفرنجة، أو حلفاؤهم من الفرنج بعكا، وصور، وبلاد الساحل، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يعينهم ملك الريدراغون وحلفائه وجنوده بسلاح، أو رجال، أو مال، ويُسمح لرعايا الريدراغون الذين يحملون كتبًا بخاتمه؛ ليقوموا بزيارة القدس الشريف يُسمح لهم بذلك، ويساعدهم رجالًا كانوا أو نساءً، ويتعاون الطرفان عسكريًّا في حال اعتداء طرف ثالث على أيٍّ منهما، ولا تنقض المعاهدة بوفاة أحد أطرافها، ويطلق كل ملك أسرى الآخرفي دولته، ثم حلف كل منهما على تطبيق هذه المعاهدة في 689هـ/1289م([2]).

ك- الهدنة مع جنوة 689هـ/1290م: التمس حكام جنوة إمضاء معاهدة مع قلاوون وولده الأشرف خليل؛ وذلك بسبب تعدي بعض القراصنة من جنوة، وقرصنتهم على الثغور الإسلامية، وعلى السواحل المصرية، مثل: نبيت زكريا، وردًا على ذلك ألقى السلطان قلاوون القبض على جميع رعايا جنوة في بلاده، فبادر حكام جنوة إلى السلطان قلاوون بإعادة ما تم سرقه، وأخذه من القراصنة إلى السلطان قلاوون، وحلفوا أن عمل نبيت زكريا لم يكن يعلموا به، وتم توقيع الهدنة في القاهرة سنة 689هـ/1290م([3]).

ويتضح مما سبق أن المعارك التي خاضها السلطان قلاوون، والسلطان الأشرف خليل تحتاج إلى تخطيط، وحنكة سياسية، واقتصادية، ودهاء عسكري، وهذا ما تمتع به السلطان قلاوون، والسلطان الأشرف خليل، ففي المعاهدات التي كان يعقدها السلطان قلاوون، هو الذي

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص159-161، 164) ؛ منصور، تصفية، (ص65-66).

([2]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص159-161، 164) ؛ المقريزي، السلوك، (ج985/3)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص65-66).

([3]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص103)؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، (ج34/2).

يحدد وقتها، ويحدد زمن انتهائها، فكان الطرف الأقوى في تلك المعاهدات، وكان يستغل أي عمل يقوم به الفرنج، ويفسره بأنه اختراق للهدنة، وبذلك يقرر مهاجمتها، بحيث لا يستطيع أحد مساعدتها، وبذلك سقطت إمارات الفرنج، ولا يمكن حدوث ذلك إلا بالمعاهدات التي أبرمها السلطان قلاوون، أو السلطان الأشرف خليل، فقد كبلت تلك المعاهدات حركة الفرنج تجاه المماليك، ومن أهم تلك المعاهدات: الهدنة مع الإسبتار، طرابلس، بيزنطة، الداوية في طرطوس، عكا، وصيدا، وعثليث، والهدنة مع السيس، ومع صور، ومع أرغونة، وصقلية، وبرشلونة، ثم مع جنوة.

ثانيًا: العهد والاتفاقيات، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، في زمن (الفترة الثالثة من حكمه) (709-741هـ/1309-1340م):

ازدادت قوة المماليك، وخاصة دولة قلاوون وأولاده، وعلى وجه الخصوص أيام الناصر محمد بن قلاوون، واتسع نفوذها، وكان لها مكانة بين ممالك أوربا الغربية، فتم عقد العديد من الاتفاقات والهدن بين الدول الإسلامية، والناصر محمد، وبلاد النوبة والحبشة مع الناصر محمد، والمغول والناصر محمد، والمغول والناصر محمد، وأرمينية الصغرى والناصر محمد، والصليبيين والناصر محمد، والاتفاقات مع الدول الأوروبية، من ذلك:

أ- الاتفاقات، وتوطيد العلاقات بين الدول الإسلامية والناصر محمد: جرى التواصل بين العديد من الدول الإسلامية بالناصر محمد، وعقد الاتفاقات معهم، ومن تلك الدول:

- **الحجاز:** حيث زار الأمير عطيفة بن أبي نمى مصر سنة 731هـ/1331م، وأبلغ الناصر محمد بالقحط الذي أصاب الحجاز نتيجة انقطاع المطر، حتى وصل إردب القمح مائتين وخمسين درهمًا. فبادر السلطان الناصر بإرسال ألفي إردب من الغلال حتى وصل سعر إردب القمح إلى مائة درهم، وعم الرخاء تلك المدينة، بالرغم من قلة إنتاج أرضها([1]).

([1]) المقريزي، السلوك، (ج238/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون في مصر، (ص127).

– **الـيمن:** دار صـراع طويـل بـين حكـام الـيمن فيمـا بيـنهم، وبـين أئمـة الزيديـة([1])، فأرسـل المتنازعون إلى السلطان الناصر محمد لفك هذا الصراع، والنزاع بين أمراء مناطق اليمن، حتى استطاع الناصر محمد بن قلاوون بسط نفوذه، وأخذت اليمن ترسل الأتاوة لمصر، وكانت تجارة الشرق ترد إلى الناصر محمد ومن جاء من بعده من أولاده دون أن ينالها أي سوء([2]).

– **الهند:** حيث كان حاكم الهند محمد بن تغلق 725هـ/1325م يهدف إلى إضعاف المغول، وإبعادهم عن دولته، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة 733هـ/1333م يطلب مساعدته، كما أخذ محمد بن تغلق في إرسال الهدايا، والتحف الهندية الفاخرة، وتجديد العلاقة، والاتفاقات مع مصر؛ في حين كان هم أسلافه نقاذ الهند من شر المغول([3]).

–**المغـرب:** كـان لحكـام المغرب علاقـات مـع الناصـر محمـد، فمـنهم الأميـر أبـو يحيـى زكريـا الحفصي([4]) جيث أرسل إلى السلطان الناصر محمد لاستعادة نفوذه على تونس([5])، كما تبودلت الهدايا، والرسل بين الناصر محمد وبين يوسف بن عبد الحق سلطان المغرب الأقصى([6])،

([1]) الزيدية هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة، أن يكون إماما واجب الطاعة، سواء كان من أولاد الحسن، أو من أولاد الحسين رضي الله عنهما. وكان قد بايعه جموع من الشيعة، ثم قالوا له: تبرأ من الشيخين – يعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: معاذ الله، وزيرا جدي، فتركوه ورفضوه، وأرفضوا عنه، فسموا الرافضة، والنسبة رافضي. الشهرستاني، الملل والنحل (ج154/1)؛ السفاريني، لوامع الأنوار (ج85/1).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج52/5)؛ (ج337/7–338)؛ المقريزي، السلوك، (ج238/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون في مصر، (ص127).

([3]) أبو الفدا، المختصر، (ج101/4)؛ المقريزي، السلوك، (ج422/2)؛ الشوكاني، البدر الطالع، (ج180/2).

([4]) وهو الأمير أبو يحيى زكريا الحفصي، ولد في تونس سنة 651هـ/1253م، كان عالما، وشاعرا، وكاتبا، ومحدثا، استولى على السلطة سنة 711هـ/1312م، هرب من بلاده سنة 718هـ/1318م إلى الأسكندرية حتى توفاه الله فيها سنة 727هـ/1327م، وقيل توفى 729هـ/1329م . ابن كثير، البداية والنهاية، (ج129/14–130)؛ ابن حجر، الدرر، (ج113/2–114)؛ أبو الفدا، المختصر، (ج187/3–190).

([5]) الشوكاني، البدر الطالع، (ج351/1)؛ التجاني، رحلة، (ص327)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص143).

([6]) تولى السلطة سنة 685هـ/1286م إلى سنة 706هـ/1307م. ابن خلدون، المقدمة، (ج420/5–421)؛ سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، (ج89/1).

وظلت الصداقة بين السلطان الناصر وبين السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، الذي كان حريصا على التقرب إلى السلطان الناصر محمد، فأرسل إلى السلطان الناصر يخبره بفتح بجاية([1])، والانتصار على تلمسان([2]) سنة 737هـ/ 1337م([3]).

ب- اتفاقيات بلاد النوبة والحبشة مع الناصر محمد: كان للناصر محمد سياسة حازمة إزاء بلاد النوبة، فقد تدخل في تعيين ملوكها، إلى أن أصبحت لمصر مكانتها في تلك البلاد، فحرص ملوكها على دفع الأتاوة المقررة عليهم، وأخذ خطباء أولاد كنز الدولة([4]) الذين اعتلوا عرش بلاد النوبة يدعون للسلطان في مصر، السلطان الناصر محمد([5]).

وفي الحبشة أخذ ملوكها بالتودد لسلاطين مصر، ويبعثون بالرسل مزودين بالهدايا، ومن هؤلاء "جبره مصقل" الذي تولى زمام الأمور (712-744هـ/1312-1344م)، فأنفذ كتابا مع بعض رسله إلى الناصر محمد سنة 726هـ/1325م يطلب فيه إعادة ما خرب من الكنائس بالديار المصرية، كما التمس معاملة النصارى بالحسنى([6]). وخلف جبره مصقل ابنه كرستس سنة (744هـ-773هـ/1344-1372م) وكان شديدًا في معاملته للتجار المصريين، ويمنع القوافل المصرية من دخول بلاده، فتدخل السلطان لدى ملك الحبشة ليمهد للقوافل المصرية سبيل سيرها كما كانت الحال من قبل([7]).

ج- اتفاقيات، وعلاقات المغول مع الناصر محمد: كان المغول صنفين: مغول فارس، ومغول القفجاق، وسنناقش علاقات واتفاقات الناصر محمد مع كل منهما.

([1]) بجاية من مدن المغرب الأدنى، وموقعها على ساحل البحر المتوسط شمال قسنطينة بالجزائر. ياقوت، معجم البلدان، (ج339/1).

([2]) تلمسان تقع بالمغرب الأوسط، قامت بها مملكة تحد شرقا بأفريقية، وغربا مملكة فاس. ياقوت، معجم البلدان، (ج339/1). ياقوت، معجم البلدان، (ج44/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج149/5).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج395/7)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص144).

([4]) أولاد الكنز أصلهم من ربيعة، هاجر كثير منهم إلى مصر سنة(240هـ/845م)، في خلافة المتوكل العباسي، ونزلوا بأعالي الصعيد، وبسطوا نفوذهم على أسوان، وكنوا بكنز الدولة على يد الخليفة المتوكل، وأصبحت ربيعة تكنى ببني كنز. المقريزي، البيان والأعراب، (ص50،48).

([5]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج278/5)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص155).

([6]) النويري، نهاية الأرب، (ج66/31)؛ المقريزي، السلوك، (ج270/2).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج308/5-309)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص158).

أ- **مغول فارس:** أخذ السلطان الناصر محمد يعد العدة لطرد المغول من الشام، وأرسل إلى نواب القلاع في الشام يطلب منهم حماية قلاعهم، وأخبرهم بنيته للعودة إلى الشام، وكتب لقبجق الذي ولاه قازان نيابة السلطنة في دمشق، وبعلبك، وحمص أن ينضم إليه فأجابه إلى طلبه([1]). ودارت بين السلطان الناصر وبين غازان الرسائل؛ لكنها لم تأت بأي نتيجة، وخلف غازان على العرش أولجايتو بن أرغون([2])، فتحسنت العلاقات بين السلطان محمد بن قلاوون والمغول، وتم تبادل الهدايا، والرسائل بين الناصر محمد والمغول([3]). ولم تستمر هذه العلاقة، وتوفى أولجاتيو سنة 716هـ/1316م، وتولى ابنه بوسعيد، ورأى أنه من الحكمة خطب ود الناصر، والصلح، بشروط أهمها([4]):

1- عدم دخول الإسماعيلية([5]) بلاد المغول.

2- لا يعهد سلطان مصر إلى العرب أو التركمان بالإغارة على بلاد المغول.

3- تأمين طريق التجارة بين دولتي الناصر محمد والمغول.

4-أن يكون سير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز، وهو يرفع علم سلطان مصر مع علم بوسعيد([6]).

وبذلك ساد الوئام بين الناصر محمد والمغول، وجاء رسول بوسعيد يطلب من الناصر محمد إعداد السنجق السلطاني حتى يذهب مع المحمل إلى بلاد الحجاز، فوافقه على ما أراد،

([1]) المقريزي، السلوك، (ج899/1-900)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص186).

([2]) هو الخان أولجايتو خدا بنده محمد، تولى من (703هـ-716هـ/1304-1317م)، نشأ على المسيحية دين أمه، وتعمد باسم نيقولا؛ لكنه ما لبث أن اعتنق الإسلام بعد وفاتها، تحقيقا لرغبة زوجته. العمري، مسالك الأبصار، (ج199/3)؛ سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، (ج483/2).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج6/2)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص204).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج209/2-210)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص22).

([5]) الإسماعيلية فرقة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر، ويثبتون له الإمامة. وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض يقوم بأمر الناس، وأنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالإمامة من بعده، وقلدهم ذلك له، وأخبرهم أنه صاحبه، والإمام لا يقول إلا الحق. فلما ظهر موته، علمنا أنه قد صدق، وأنه القائم، وأنه لم يمت. الشهرستاني، الملل والنحل (ج191/1)؛ الباكستاني، الشيعة والتشيع (ج229/1).

([6]) المقريزي، السلوك، (ج209/2-210)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص207).

وكتب لصاحب مكة بأن يكرموا حاج العراق، وأن يمنعوا العرب من التعرض لحجاج العراق، هذا وقد أصبح يدعى لبوسعيد بعد الدعاء لسلطان مصر السلطان الناصر محمد على منابر مكة([1]). وتغيرت الحال بعد بوسعيد، وتولى بعده عدة حكام، وتوفى الناصر محمد وتولى بعده أولاده، ثم أحفاده، وحدثت من جديد المناوشات بين المغول ودولة أبناء الناصر محمد وأحفاده([2]).

ب- مغول القفجاق: كان لملك القفجاق علاقة متينة مع الناصر محمد فأرسل إليه سفارة سنة 704هـ/1305م، ومحتواها: هدية، وكتاب يبدي فيها استعداداته لمساعدة الناصر في محارية غازان، ورد عليه الناصر بأن الله سبحانه وتعالى كفاه غازان، وأن أخاه أولجاتيو وافق على الصلح([3]).

وبعث ملك القفجاق طقطاي مرة أخرى إلى الناصر للاستيلاء على بلاد غازان، وأخبرة الناصر مرة ثانية أنه عقد صلحًا مع أولجاتيو في فارس، وظلت الصداقة مستمرة بين الناصر محمد، وبين مغول القفجاق، إلى أن تولى أزبك سنة 713هـ-741هـ/1313-1340م([4])، وتطورت إلى المصاهرة بينهما([5])، وتطورت العلاقة في عهد ابن أزبك جاني بك، وابن السلطان الناصر محمد الملك الناصر حسن بن محمد سنة 756هـ/1355م([6]).

د- اتفاقيات، وعلاقات أرمينية الصغرى مع الناصر محمد: كانت العلاقات متوترة بين أرمينية والناصر محمد بن قلاوون، ولم يتم بينهما اتفاقات طويلة، ولم يتم بينهما الهدن كما كانت الدول

([1]) المقريزي، السلوك، (ج2/211-212)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص208).

([2]) النويري، نهاية الأرب، (ج31/78، 86)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج5/560-561)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج5/363)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/283-284، 297)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج5/137)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص209-217).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج2/27)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص218).

([4]) النويري، نهاية الأرب، (ج31/137-138)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/204-205)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص220).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج31/137-138)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/204-205)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص220).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج7/295)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص221).

الإسلامية تعقد الهدن مع الناصر محمد بن قلاوون؛ وذلك لتأمين حدود بلاده من خطر الأرمن في الشام، وفي مصر([1]).

هـ– اتفاقيات الدول الأوروبية مع الناصر محمد: تنامت قوة الناصر محمد ، واتسع نفوذ بلاده، وحازت على مكانة مرموقة بين ممالك أوروبة الغربية، وحرصت فرنسا على التودد للسلطان محمد، وأرسلت سفيرها بصدد ذلك؛ لكنها تمادت حين طالبت بإعادة بيت المقدس إلى الصليبيين، فرفض الناصر محمد طلبهم وبشدة([2])، ويضاف إلى هذه العلاقات علاقات الناصر محمد مع البابوية التي تضمنت تبادل التطمينات حول حسن المعاملة لرعايا المسلمين والمسيحيين كل في بلد الآخر([3]). وقد حاول الفرنج بعد أن اتضحت نية السلطان الناصر محمد العمل على الانتقام بعد حملة الفرنج على الإسكندرية أن يهادنوه، فأرسلوا وفدًا للمفاوضة في تجديد الصلح، وفتح كنيسة القيامة في بيت المقدس؛ ولكن الأمير يلبغا رفض مطالبهم، وأصر على أن يبدأ ملك قبرص بطلب الصلح، ولما رأت الممالك الأوربية إصرار الملك الناصر أخذت الممالك الأوربية ترسل وفودها للناصر محمد تطلب الود والسلام معه، منهم ملك جنوة، والبنادقة، حيث أطلق ملك جنوة سراح ستين أسيرًا، وهدايا للملك الناصر محمد، والأمير يلبغا، وبعثوا برسله إلى السلطان أيضًا أن يمكن تجارتهم من القدوم للإسكندرية، فأجاب طلبهم([4])، وعندما شعر بطرس بابتعاد الصليبيين عنه، وتنكرهم لما قام به من اعتداء على الإسكندرية استجاب لطلب الأمير يلبغا، وأرسل وفدًا عنه إلى مصر محملًا بالهدايا في محاولة للوصول

([1]) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، (ج36/4–37، 45، 78، 88، 99، 119)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج24/3)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج430/5)؛ المقريزي، السلوك، (ج17/2).

([2]) رأى فيليب السادس ملك فرنسا (729هـ–651هـ/1328–1350م) أن يلجأ إلى سياسة المسالمة مع سلطان مصر لعله يستطيع أن يستعيد نفوذ الصليبيين في بيت المقدس، فأرسل سفارة للناصر محمد تتألف من مائة وعشرين رجلًا، أبحروا من عكا، ثم قدموا للقاهرة سنة(731هـ/ 1330م)، حيث مثلوا بيدي السلطان محمد، وكان معهم التماس من ملكهم طلب فيه إعادة بيت المقدس وبلاد ساحل الشام إلى الصليبيين، فرفض السلطان الناصر طلبهم، وأظهر استياءه من ملك فرنسا، وأمر بإعادتهم لبلادهم من حيث أتوا. النويري، نهاية الأرب، (ج80/31، 104)؛ المقريزي، السلوك، (ج286/2–287)؛ حسن، تاريخ المماليك البحرية، (ص187–188)؛ طقوش، تاريخ المماليك، (287–292).

([3]) النويري، نهاية الأرب، (ج80/31، 104)؛ المقريزي، السلوك، (ج286/2–287)؛ حسن، تاريخ المماليك البحرية، (ص187–188)؛ طقوش، تاريخ المماليك، (287–292).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج51/3–52، 58)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (195/5) .

إلى اتفاق ودي مع المماليك، فطلب السلطان الناصر محمد إطلاق سراح الأسرى المسلمين، فاستجاب بطرس لطلب السلطان الناصر محمد، وأرسل ما تبقى من الأسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضته([1]). وأخذ التوتر بين القبارصة بطرس الأول والسلطان الناصر من جديد، وذهب بطرس الأول ضحية المؤامرات ضده التي دبرها نبلاؤه؛ لكن وفاته لم يكن لها أي أثر في إحداث تغيير في سياسة القبرصيين تجاه لمن جاء من بعد الناصر محمد بن قلاوون([2])، ولما رأى سلطان مصر والشام قلة إيراداته من التجارة، وما حل به من الوباء، والمجاعة التي أصبت دولته في مصر والشام، لجأ للدخول في مفاوضات الصلح مع القبارصة، كما رحب برسل الفرنجة، وخلع حين قدموا للقاهرة لطلب الصلح سنة 772هـ/1370م، وأوفد معهم برسله ليحلفوا لملكهم على الوفاء بشروط الصلح، حتى أن الفرنجة بعثوا للسلطان أحفاد الناصر بالأسرى الذين كانوا في بلادهم، وتم عقد الصلح بين القبارصة، والسلطان سنة 772هـ/1370م، وأعيد فتح كنيسة القيامة للحجاج المسيحيين، واستعاد المسيحيون حريتهم في مصر والشام([3]).

ويبدو أن تحقيق الأمن والاستقرار داخل دولة أسرة قلاوون، كان من عوامل النصر والتمكين لدولتهم ، وذلك من خلال عقد الاتفاقيات، المعاهدات، والصلح مع الأعداء، قال تعالى : " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"([4]) ، مثل: الهدنة مع الإسبتار، وتجديد الصلح مع البيزنطيين، والهدنة مع الداوية، وعقد الاتفاقيات مع الصليبيين، واتفاقيات عديدة مع مختلف الدول، حيث أوضحت الدراسة أن سلاطين أسرة قلاوون يرون أنفسهم، ويراهم المسلمون مسؤولين عن جميع المسلمين في العالم، فالسلطان قلاوون، وحتى السلطان الأشرف خليل، والسلطان الناصر محمد وعلى الأخص قلاوون كانوا يحذرون من عمليات الإبادة ضد المسلمين في مختلف المناطق في الغرب والشرق.

([1]) النحل: 91 .

([2]) النويري، الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية، (ج3/60-61)؛ المقريزي، السلوك، (ج3/67-68) .

([3]) المقريزي، السلوك، (ج3/71)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص258).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج3/71)؛ سرور، دولة بني قلاوون، (ص258).

المبحث الثاني: التخطيط والتنظيم العسكري

كان الجيش هو الدعامة الأولى التي يستطيع بها تحقيق أهدافه القاضية بضرب الصليبين، وأعداء الإسلام، وإرجاع ماكانوا قد استولو عليه من بلاد المسلمين في الشام؛ والدليل على ذلك قوله تعالى: " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"([1]).

لذلك أولى السلطان قلاوون الجيش عناية كثيرة، وعمد لتقويته، والإكثار من شراء المماليك الذين أخذ يعدهم إعدادا حسنا بترتيبهم، والإشراف على شئونهم الخاصة([2])، حتى قدر عدد مماليكه باثنتي عشر ألف مملوك اختار منهم ثلاثة آلاف، وأسكنهم أبراج القلعة، وعرفوا فيما بعد باسم المماليك البرجية([3]).

وعُرف عن الأشرف خليل اهتمامه بالجيش، فكان يهتم بشكل كبير بعدتهم، وعتادهم، وملابسهم([4])، ويشاركهم المناسبات، فكثير ما كان ينزل الميدان ويشاهدهم وهم يتبارون، أو يشاركهم اللعب، ويجزل العطايا على الفائزين([5])، ويكون قد لبس ملابس عسكرية، يقال لها: قرقل([6])، في عمل أشبه ما يكون سياقا لاختبار القدرات([7]).

أ- بناء الجيش: وقد قام السلطان قلاوون وأولاده بعملية بناء الجيش من أولئك المماليك، فقد قاموا بدور مهم في عملية بناء الجيش الملوكي آنذاك، والوقوف بوجه الخطر المغولي، والصليبي الذي كان يهدد منطقة الشام؛ نظرا لحسن تدريبهم، وتربيتهم إذ كان جيشا مدربا على

([1]) الأنفال:60.

([2]) المقريزي، الخطط، (ج213/2)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج236/6).

([3]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج120/1)؛ حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، (ص47).

([4]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص134)؛ المنصوري، زبدة الفكر، (ص293).

([5]) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج134/8)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج253/31).

([6]) القرقل: نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد، وتغطى بالديباج الأحمر والأصفر. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج143/2)؛ (ج11/4)؛ البقلي، التعريف بمصطلحات الأعشى، (ص273).

([7]) النويري، نهاية الأرب، (ج253/31)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص20) .

فنون القتال المختلفة التي كان يشرف عليها قلاوون بنفسه، بالاضافة الى التربية الدينية المعروفة في ذلك الوقت([1]).

ب- ديوان الجيش: كذلك اهتم قلاوون بديوان الجيش، وهو يعادل وزارة الدفاع اليوم تمامًا، وكان يرأسه ناظر الجيش، وهو من أبناء البلد، وليس من المماليك، وهو الذي يتولى نظر الإقطاعات في مصر والشام، وهو المورد الأساسي للضباط والعسكر، ويدون كل شيء في سجلات خاصة على درجة عالية من الدقة والإحكام، وكان لدى دولة المماليك البحرية ديوانيين: ديوان الجيش المصري، وديوان الجيش الشامي([2]).

ج- فرق الجيش وجنسيتهم: واهتم قلاوون وأولاده بفرق الجيش، وجنسيتهم، فقد كان الجيش المملوكي موزعًا بين السلطان في معسكرات القلعة، وبين أقطار الدولة في مصر والشام، وكان الجيش يتكون من فرق نظامية كل أفرادها من المماليك، وهذه الفرق هي: المماليك السلطانية، المماليك القراصنة، المماليك السلطانية الخاصكية، أجناد الحلقة(مثل الجنود المتطوعين اليوم)، ومماليك الأمراء([3]).

وكان الرقيق أقل من المماليك، وكانوا بمثابة الجيش الاحتياطي، تدعى في حالة الحرب، وتتقاضى الرواتب الثابتة على مدار العام في الحرب، والسلم، أما عن جنسية الجيش فكان من قوميات مختلفة، وأغلبهم من: الأكراد، التركمان([4]). أما أولاد البلد ، أي العرب، فكان منهم في الجيش: النظَّار، والأئمة، والقضاة، والمتعيشة، والصناع، وكلهم من غير المقاتلين؛ إضافة إلى فئة محدودة كانت تبرز في القتال، والحصار بصورة غير عادية، مثل: تسلق الأسوار، أو مخترعي الأجهزة الحربية الجديدة([5]).

د- أعداد الجيش: كذلك اهتم قلاوون وأولاده بأعداد الجيش: ذكر المقريزي أن عدد قادة الجيش المصري كان 24.630 رجلًا من جميع الطوائف، وهم: كبار الضباط الأمراء، وعدد مماليكهم 2424 رجلًا، منهم: 24 ضابطًا في مصر فقط من الضباط الأمراء، وأمراء المئات:

([1]) ابن الفرات، تاريخ، (ج7/152-157)؛ السيد، قيام دولة المماليك الثانية، (ص13).

([2]) ابن الفرات، تاريخ، (ج7/152-157).

([3]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص128)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/14-16).

([4]) المنصوري، مختار الأخبار، (ص27).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج3/ 378-379)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/120).

وهم دون الفئات، وعدد أتباعهم 820 فارسًا، وأمراء العشرات، ومماليكهم وعددهم: 2200 فارسًا، وولاة الأقاليم 77 أميرًا، ومقدمو الحلقة والأجناد 11.176 فارسًا، ونقباء الضباط الأمراء"الألوف" 24 نقيبًا، ومماليك السلطان وأجناد الحلقة: 8.932 فارسًا([1]). أما ابن شاهين الظاهري، فكان له رأي آخر، فذكر ما يلي: عدد الجنود والضباط في كل مصر: 2400 فارس، أما في الشام، فكانوا: أجناد الحلقة ومماليك النائب والأمراء بدمشق 15000 فارس، وفي حلب 8000 فارس، وفي طرابلس 5000 فارس، وفي صفد 2000 فارس، وفي غزة 1000 فارس([2]).

هـ- أسلحة الجيش: واهتم قلاوون وأولاده بأسلحة الجيش: كان منها السلاح الفردي، والأسلحة الجماعية، وسلاح الهندسة العسكرية([3]).

1- السلاح الفردي: وتمثل في: السيف، الخنجر، والبلطة، والفأس، أو الطبر، وحملة الفأس" الطبردارية"، الدبوس، الأقواس، الرمح، وهناك المقالع، والحراب، وقوارير النفط المملوءة بالنفط، والصبر، وبذور القرطم(العصفر). وسنناقش التعريف بهذه الأسلحة كل على حدة.

- **السيف:** وهو مأخوذ من قول ساف إذا هلك؛ لأنه به يقع الهلاك، وأصل الحديد الذي يصنع منه السيف صاعقة تنزل إلى الأرض فتصير حديدًا، ويحفر، وتخرج فتطبع سيوفًا، ومنه: الطويل، والقصير، والعريض، والدقيق، وكان المماليك يعلقونه في الجنب([4]).

- **الخنجر، والبلطة، والفأس، أو الطبر، وحملة الفأس" الطبردارية"**([5]).

- **الدبوس:** كما استخدموا الدبوس، وهو آلة حادة من الحديد([6]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج3/ 378-379).

([2]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، (ص103-105).

([3]) أبو الفداء، المختصر، (ج4/25)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج5/430).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج2/149).

([5]) هم الحراس المختارون للسلطان يلازمونه حيثما تحرك، وهم طائفة من الأكراد، بأيديهم الأطبار، والطبر هي تبر التركية بمعنى سلطة، وآلة حرب قديمة. العمري، مسالك الأبصار، (ج3/434).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج2/149).

- **الأقواس:** استخدمه المماليك في إطلاق السهام على الأعداء عن بعد، وكان يسمى المقبض، والنشاب، والنشابة: يطلق عليها اسم السهم، أو النبل، وجمعها نشاب، وتصنع من أنواع معينة من عود الشجر، وأحسنها ما يكون مصنوع من التبغ، والأخشاب الصلبة، ولا تستعمل إلا مع القوس لأنها تكمله([1])، ومن أنواع الأقواس: قيس الزيار، وهو نوع من أنواع الخشب، كان المماليك يصنعونه بأنفسهم، ويتألف القوس من: البدن والوتر، والمحسب، وهو مقبض الرامي، ويصنع الوتر من خيوط مفتولة، أو شراك جلد، ويصنع من الحديد، وكان له وعاء يوضع فيه، وقد تميز الأتراك بالرمي بالقوس، وكانت لهم مقدرةٌ كبيرةٌ على حملها، وقد تميز القوس بالخفة، وكان هو السلاح الرئيسي للأتراك بجانب السيف([2]). والقوس يجعل الجندي المملوكي بمأمن من أعدائه، واحتمال موته أقل لو كان في صدام مباشر مع الأعداء([3]).

- **الرمح:** كان الجندي المملوكي يحمل الرمح كسلاح احتياطي([4])، فالرمح: عود طويل في رأسه حربة، يتراوح طوله من خمسة أذرع إلى سبعة، وهو خاص بالفرسان، فكان يطلق على الرماح القصيرة مربوعات، وعلى الرماح الطويلة (الطوال)، ومنها المتشعب والعريض، والرفيع، والمستوي، والمموج وغيرها، وقد تميز الرمح بالخفة مما ساعدهم كثيراً على سرعة الضرب والحركة، وكان الرمح التركي أخف وزنًا، وحملًا من الرمح الفرنجي؛ وقد كانت تنصب الرءوس على الرماح([5]).

- **وهناك المقالع، والحراب، وقوارير النفط المملوءة بالنفط، والصبر، وبذور القرطم(العصفر)**([6]).

2- السلاح الجماعي: ويقصد بها الأسلحة، والآلات التي يستخدمها أكثر من شخص؛ لثقلها، وصعوبة نقلها، ومن أهم الأسلحة الجماعية:

([1]) ابن منظور، لسان، (ج4420/6)؛ ابن الجوزي، المنتظم، (ج125/16).

([2]) ابن واصل، مفرج، (ج140/4)؛ الراوندي، راحة الصدور، (ص205، 206)؛ ابن الجوزي، المنتظم، (ج125/16)؛ سميل، الحروب الصليبية، (ص77).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج151/2).

([4]) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، (ص6-11).

([5]) ابن واصل، مفرج، (ج137/3)؛ سميل، الحروب الصليبية، (ص77)؛ الشامي، الحضارة، (ص99).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج430/5).

- **المنجنيق**[1]**:** كان النظام العسكري في عهد أسرة قلاوون اعتمد على المنجــــنيق بشكل كبير في حروبهم ضد الصليبيين؛ لأن المدن في العهد الصليبي كانت محصنة، مما جعل استخدام المنجنيق أساسيًّا في اقتلاع جذور الصليبيين من الشام، وكانت أسرة قلاوون تتابع صناعة المناجيق حول المدن بأنفسهم[2].

- **الترسان، والدروع، والجواشن:** وتكون كالحصن المانع من النبال لا يؤثر فيه شيء من السلاح، وهناك ترس في باطنه قوس، وبيد حامله سيف، فيخرج سهم من نفس الترس، فيقتل الخصم، والترس آلة يتقي بها الندي المملوكي الضرب والرمي، وتسمى المُجنة بضم الميم، ويمكن أن تكون من خشب، أو حديد[3]، وأما الدروع والجواشن فهي زرديات يلبس عليها ثياب قد بسط فوقها، تمنع وتكسر السيوف، وأما الجواشن فتؤخذ من جلود الإبل، وتنقع في اللبن إلى أن يتقشر شعرها، ويبيض لونها، كما وجد الدرع وهو جبة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل المملوكي لوقاية نفسه من السيوف والسهام[4].

- **مكاحل البارود:** كان لجيش أسرة قلاوون المكاحل التي تجرها العجلات، ويقصد بها المدافع، وكانت تسمى مكاحل البارود، وهي المدافع التي يرمي فيها النفط، ويصنع المدفع من نحاس، ورصاص، ويصل مداه بعيدًا[5].

- **الدبابات والأبراج والستائر:** ومن الأسلحة الوقائية الدبابات والأبراج والستائر، وهي آلات تستخدم في ثقب الأسوار، وما شابهها، وهي سترة للرجال يمكنها أن تحمي من حجارة المنجنيق المعادي حين يتقدمون؛ لاختراق المسافة بين المكان الذي يقفون فيه للحصار، وأسوار المدن المحاصرة لتدميرها[6].

---

(1) من أشهر الأسلحة الثقيلة، وأشدها تأثيرًا، وبخاصة في الحصار. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (ج5/182)؛ ابن الجوزي، المنتظم (ج10/171)؛ ابن منظور، لسان (ج6/41)؛ ابن تغري بردي، النجوم (ج5/132)؛ الصوري، وليم، "تاريخ الحروب الصليبية" (ج2/569).

(2) المقريزي، السلوك، (ج2/19-20).

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج2/152-153)؛ نسيم، العدوان الصليبي، (ص157).

(4) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، (ص114)؛ الجزار، النظام العسكري، (ص136).

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج2/153)؛ نسيم، العدوان الصليبي، (ص157).

(6) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، (ص18)؛ الجزار، النظام العسكري، (ص136).

- **المثلثات:** استخدم جيش أسرة قلاوون المثلثات في حروبه المختلفة، والمثلثات هي قطع حديدية دفاعية تلقى في طريق الأعداء، وهي بمثابة ألغام، وهي تسقط الخيول بمن عليها، وتهلك من أصابها، وتلقى على الأرض التي يسير عليها الأعداء، فتدخل قدم الفرس، فينقلب على أحد المثلثات على الأرض، فتصيبه إصابات بالغة؛ لأنها مدببة وشوكية([1]).

3- سلاح الهندسة العسكرية: ومن الأسلحة المهمة في الجيش المملوكي سلاح الهندسة العسكرية، وهو الجهاز الذي يتألف من المهندسين، والحجارين، والعمال الأخصائيين، ومن مهماته: شق الطرق الجديدة أمام تقدم الجيش، وصيانتها، وبناء القناطر، وحفر الممرات، وفتح التحويلات، ومد الجسور فوق الأنهار والوديان، وإصلاح القلاع المخربة، والمتصدعة، وإنشاء الترع، والسدود، وإنشاء مستودعات الشؤون الإدارية المختلفة ولا سيما مستودعات الأسلحة والذخيرة([2]).

و- الأسطول ودار الصناعة: واهتم قلاوون وأولاده بالأسطول، ودار الصناعة ، ففي عهد الأشرف خليل بن قلاوون قد تم بناء أسطولًا ضخمًا في دار الصناعة بالروضة ، مؤلفًا من خمسين قطعة بحرية، كما كان في الفسطاط والإسكندرية ودمياط مصانع للسفن. وكان في كل سفينة برج، وقلعة، وكانت تضم أنواع السفن المختلفة من: الشواني([3])، والحراريق([4])، والطرائد([5]).

([1]) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، (ص19-20)؛ الجزار، النظام العسكري، (ص 137).

([2]) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (ص303-307)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج148/2-154)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج25/4)؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص77، 149).

([3]) فهي سفن حربية كبيرة، بها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتجهز بالسلاح والنفط، والجنود الماهرين في السباحة، والغطس، والقتال، وفي أسفلها ملاحون بالمجاديف التي تبلغ 140 مجدافًا. المقريزي، الخطط، (ج341/3)؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، (ص100)؛ البقلي، التعريف بمصطلحات الأعشى، (ص211).

([4]) هي سفن كبيرة تستعمل في حمل الأسلحة النارية، وقد نجحت مع الشواني في فتح وتحرير جزيرة أرواد. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج115/15-116)؛ المقريزي، السلوك، (ج327/1)؛ (ج114/5).

([5]) هي سفن حربية سريعة الحركة تستخدم لحمل الخيل، والفرسان، وكانت تسع ما بين 40 و80 فارسًا. المقريزي، السلوك، (ج164/1، 549)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص48).

ومنها أيضا: الأغربة[1]، البطس[2]، والقراقير[3]، والعشاريات[4]، والفلاك[5]، والقياسية[6]، والحمالة[7]، والمرمة[8].

وعُرف عن الأشرف خليل حُبه لمشاهدة الشواني، فكان ينزل بنفسه إلى دار الصناعة[9]، ويأمر مماليكه بصنعها حسب مواصفاته، ثم يجهزونها، وتحمل فيها العدد من السلاح، والمماليك المقاتلة[10]، وتدار الشواني، وقد صُنع فيها الأبراج، والقلاع، والنفط،

([1]) المقريزي، السلوك، (ج283/4، 284، 298، 301)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص48).

([2]) مفردها بطسة، اقتبسها المماليك من الصليبيين، وهي سفن كبيرة الحجم، تستخدم لحمل المجانيق، وما شابهها. النويري، نهاية الأرب، (ج247/1)؛ (ج338/14)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص48).

([3]) القراقير، ومفردها القرقور، كان صاحبها يسمى بلغة الفرنج قبطان، ويسمى بالعربية رئيس المراكب، وكان بعضها مكونًا من ثلاثة طوابق، وحمولتها تقارب ما يحمل مائتين من الإبل، وهي سفن إمداد وتموين للأسطول تزوده بالماء والسلاح والرجال. النويري، نهاية الأرب، (ج247/1)؛ (ج338/14)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص147)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص48).

([4]) هي الزوارق والمراكب النيلية. النويري، نهاية الأرب، (ج247/1)؛ (ج338/14)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص48).

([5]) جمع فلوكة وهي: القوارب. النويري، نهاية الأرب، (ج247/1)؛ (ج338/14)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص48).

([6]) القياسية: وهي سفينة مصممة للإبحار في المياه قليلة العمق كشواطئ البحار، وتكون عريضة المساحة، وقليلة الارتفاع، وبطيئة السير. المقريزي، السلوك، (ج77/1)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص147).

([7]) الحمالة: مركب مخصص لحمل الغلال وآلات الحرب، والحصار من الأخشاب، والدبابات، وأبراج الزحف، ومعدات الأسطول الأخرى. النويري، نهاية الأرب، (ج323/29)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص147-148).

([8]) المرمة: سفينة مصفحة من الحديد، وتبلغ مساحتها خمسمائة ذراع. ابن إياس، بدائع الزهور، (ج152/4)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص148).

([9]) دار الصناعة : اسم أطلقه العرب في العصور الإسلامية عللى مركز بناء وصناعة السفن، وعرف أيضًا باسم دا الترسانة. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج115/15-116)؛ المقريزي، السلوك، (ج327/1)؛ (ج114/5)؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، (ص172).

([10]) ابن عبد الظاهر، الألطاف الخفية، (ج56/3-57)؛ المقريزي، الخطط، (ج13/3)؛ العيني، عقد الجمان، (ج186/3)؛ رزق، عصر سلاطين المماليك، (مج47/8).

والمكاحل، ويُظهر كل مركب أسلوبًا حربيًّا يفتخر به، وينافس به المراكب الأخرى([1])، في موقف أشبه ما يكون بمناورات عسكرية تقوم بها المراكب أمام الأشرف([2]).

وقد استطاع الناصر محمد بن قلاوون بالسفن السابق ذكرها أن يدرك جزيرة رودس رأس الحربة الصليبية على المسلمين([3]).

ز- القلاع والخطط الدفاعية([4]): إن أي نظام عسكري في التاريخ الإسلامي، وخاصة عهد أسرة قلاوون المملوكية يتطلب نظام حماية لإفشال أي هجوم عسكري على الدولة المملوكية، فاهتم قلاوون وأولاده ببناء القلاع العالية، والحصينة، وتجهيزها بجميع المستلزمات للحماية. وكانت سلاطين أسرة قلاوون المملوكية تتابع بنفسها الثغور، وتحصيناتها، ومراقبة جهة البحر، ومعاقبة المقصرين، والمهملين عقابًا عسيرًا، وتقوم بإصلاح القلاع وإعمارها إذا حدث لأي قلعة تخريب وهدم، وذلك من خلال ديوان الجيش، والإقطاع والغنائم([5]).

ومن القلاع التي تم إعمارها، وتجهيزها للقتال:

تجديد بناء قلعة دمشق: أدخل نائب دمشق الأمير علم الدين سنجر الشجاعي كثيرًا من التغييرات على القلعة بأمر من السلطان الأشرف خليل، فقد قام بتخريب ما كان بها من دور الملوك، وخرب الطارمة([6])، وأعاد بناءها، وزاد في ارتفاعها، وبنى عليها قبة زرقاء([7])، كانت في غاية الحسن والجمال، وأعاد تجديد الرواق والقاعة داخل قلعة دمشق، ثم رسم بإعادة زخرفة سقف القلعة، وشرع ببناء دار عالية عظيمة للسلطان([8]).

([1]) العيني، عقد الجمان، (ج186/3)؛ ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، (ص117).

([2]) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، (ص19).

([3]) النويري، نهاية الأرب، (ج247/1)؛ (ج338/14).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج13/3)؛ جندي، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، (ص20) .

([5]) المنصوري، مختار الأخبار، (23-24) .

([6]) الطارمة: لفظ فارسي الأصل، ويقصد بها بيت من خشب، يبنى سقفه على هيئة قبعة لجلوس السلطان. المقريزي، الخطط، (ج35/1)؛ (ج444/2).

([7]) ابن أيبك الصفدي، تحفة ذووي الألباب، (ج189/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج41/14).

([8]) النويري، نهاية، (ج222/31)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج140/1)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج128/8).

ويبدو أن بناء الدار لم يكتمل بسبب عزل السلطان للأمير الشجاعي عن نيابة دمشق(1). أما خارج القلعة فقام بتوسيع الميدان من ناحية الشمال، حتى وصل نهر بردى(2)، وعلى إثر ذلك قام بتخريب الحوانيت، وجسر الزلابية وما على نهر بانياس(3) من بنايات(4)، كانت مقامة هناك، كما وقام بتخريب دار الصناعة(5)، وحمام الملك السعيد(6)، ودور الضيافة، وقيل: إن قيمة ما صرفوه على هذا البناء في قلعة دمشق، وخارجها بلغ أربعة آلاف مثقال(7) من الذهب(8). وقد أشاد الكثير من المؤرخين بهذا الإنجاز، في بضعة شهور تم الهدم والبناء(9).

قلعة حلب: قام هولاكو بتخريب قلعة حلب عند احتلاله لها عام(658هـ/1259م)(10)، وبقيت على حالها من الخراب، حتى أمر السلطان المنصور قلاوون الأمير قرا سنقرا بعمارتها(11)، إلا أن عمارتها لم تكتمل، وأكملت في عهد الأشرف خليل، وكتب عليها اسم السلطان الأشرف خليل، وألقابه بالذهب، وذلك عام (691هـ/1292م)(12).

---

(1) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، (ج1/117-118)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج15/471).

(2) نهر بردى: نهر في دمشق ينبع من قرية الزبداني، وعين أخرى بقرية تسمى الفيحاء. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/95).

(3) نهر بانياس: أحد فروع نهر بردى، وينقسم إلى قسمين: قسم يدخل إلى قلعة دمشق، وقسم آخر يمر للجامع. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج4/95).

(4) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، (ج1/60).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج14/40).

(6) هو حمام بناه الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس في دمشق. ابن كثير، البداية، (ج14/40).

(7) المثقال: وحدة قياس النقود، وفي سوريا كان المثقال يساوي 4.46-4.62غم. هنتس، المكاييل، (ص13).

(8) ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج1/140)؛ المقريزي، السلوك، (ج2/231).

(9) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، (ج1/60)، ابن كثير، البداية والنهاية، (ج14/140)؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، (مج/129)؛ العيني، عقد الجمان، (ج3/80).

(10) ابن سباط، صدق الأخبار، (ج1/499)؛ العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، (ص538).

(11) ابن الوردي، تتمة، (ج2/338)؛ ابن حبيب، درة، (ج1/ ورقة 159)؛ الغزي، نهر الذهب، (170).

(12) النويري، نهاية الأرب، (ج31/223)؛ الطباخ الحلبي، إعلام النبلاء، (ج2/274-275).

قلعة الروم: بعد تحرير قلعة الروم، رسم الأشرف خليل للأمير الشجاعي نائب دمشق بإصلاحها؛ لخبرته المسبقه في العمران([1])، وذلك بسبب ما تعرضت له من خراب أثناء الفتح([2])، واعتمد عليه الأشرف في عمارة وترميم الكثير من الأبنية في دمشق([3]).

قلعة الشوبك: قام الأشرف خليل بهدمها، وعلق الكثير من المؤرخين على هذا الأمر([4]).

وقد اشتهر حصن الكرك بمنعته، وكان يسمى بحصن الغراب، وبهذا الحصن كانت ملوك أسرة قلاوون تتحصن فيه، وتلجأ إليه في النوائب، فالناصر محمد قلاوون لجأ إلى حصن الكرك عندما تولى الحكم في بداية عهده وهو صغير سنة (693-694هـ/1293-1294م)([5])؛ لأنه ولي الحكم وهو صغير، فجمع قواه، وعاد إلى مصر، واسترد الحكم مرة ثانية، وكانت تلك سلطنته الثانية، التي استمرت من سنة (698 -708هـ/1298-1308م)([6]).

ح- نظام الاستخبارات(الجواسيس والعيون)([7])**:** واهتم قلاوون وأولاده بوضع نظام أمني يضمن الحفاظ على الدولة المملوكية من أي خطر يهددها، وهو نظام الاستخبارات(الجواسيس والعيون). ومن ذلك وضع سلاطين أسرة قلاوون الجواسيس والعيون في مختلف البلاد، وكانوا من نفس تلك البلاد التي كانت تابعة لدولتهم لمعرفة أخبار أعدائهم، وما يحيكونه ضدهم([8]).

وقد كان للسلطان المنصور قلاوون عيون في عكا مع أنه لم يكن له عام واحد في الحكم([9]). ومن الحوادث الدالة على نظام الاستخبارات الذي وضعته أسرة قلاوون ما رواه ابن

([1]) أشرف على بناء المدرسة المنصورية، والبيمارستان، والقبة المنصورية أيام قلاوون. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، (ص55-56).

([2]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص288)؛ البرزالي، المقتفى، (ص282)؛ العيني، عقد، (ج3/116).

([3]) النويري، نهاية، (ج31/222)؛ الصفدي، تحفة ، (ج2/189)؛ ابن حبيب، تذكرة، (ج1/140).

([4]) النويري، نهاية، (ج31/251)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/15).

([5]) الصفدي، أعيان العصر، (ج5/78-79)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج1/394).

([6]) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، (ص6-7).

([7]) ابن الفرات، تاريخ، (ج7/152-157)؛ السيد، قيام دولة المماليك الثانية، (ص13).

([8]) العسقلاني، الفضل المأثور، (87،118)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص49-50).

([9]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج9/185).

عبد الظاهر: أنه في سنة 681هـ/1282م بلغ المنصور قلاوون أن ملك الكرج/ جورجيا حليف التتار، والعدو الأول للسلطان قلاوون، واسمه كلباري، ومعه رجل، ومترجم بنيته الوصول إلى بيت المقدس سرًّا ، وقد علم المنصور قلاوون بواسطة عيونه قبل تحركه للقدس، فأمر الولاة بحفظ الطرق عليه، وظل يراقبه بواسطة العيون حتى وصوله للقدس، حتى أُلقي القبض عليه، وأُحضروا للقاهرة، وأدخلوا السجن([1]). وعندما قدم الشيخ عبد الرحمن برسالة من ملك التتار المسلم أحمد خان بن هولاكو، وكانت مهمته سلميه، استقبله الأمير جمال الدين أقوش الفارسي في حلب، وعدل به عن الطريق حتى وصل دمشق سنة 682هـ/1283م، فاعتقله في القلعة، وكان معه 150 من كبار قومه، وبقوا كذلك حتى قابلهم السلطان، وذلك حتى لا يطلعوا على مؤسسات الدولة ومرافقها، وطرقها([2]).

ط- الخيل: يعد الخيل من العناصر الهامة في الجيش الإسلامي، وخاصة في جيوش سلاطين أسرة قلاوون، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم"([3])، وكان المملوك في عهد أسرة قلاوون يجهز الفرس للحروب، ويتسابقون؛ كي يبقى المملوكي متمرسًا على ذا قدرة على خوض الحروب([4])، ومن مستلزمات الفرس الحربية الكنبوش([5])، واستخدم الجندي المملوكي المهماز([6]). وقد حرصت سلاطين أسرة قلاوون على اختيار أفضل، وأجود أنواع الخيول، وألا يحضر منها العجفاء([7]) ، والعاجزة([8])، وحتى جند الجيش المملوكي كانوا يركبون الخيل ذات الأثمان الباهظة([9]).

([1]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص34)؛ المنصوري، زبدة الفكر، (ج230/9).

([2]) النويري، نهاية الأرب، (ج99/31)؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، (ج279/7).

([3]) البخاري، صحيح البخاري، (ج28/4)؛ مسلم، صحيح مسلم، (ج1492/3).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج12/2)؛ الجزار، النظام العسكري، (ص137).

([5]) الكنبوش: هي البردعة تعل تحت سرج الفرس. المقريزي، السلوك، (ج531/1).

([6]) المهماز: وهو آلة حادة من الحديد في رجل الفارس فوق كعبه، فوق الخف، ومؤخره إصبع محدد الرأس، إذا أصاب جانب الفرس تحركت. وأسرعت في المشي، ويمكن أن تكون من الذهب المحض، أو من الفضة أو من الحديد المطلي بالذهب. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج144/2).

([7]) العجفاء: الضعيفة الخالية من الشحم. مالك، موطأ مالك، (ج687/3).

([8]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص121).

([9]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص121)؛ البيومي، النظم المالية، (ص55).

وجدير ذكره أن الخيل التي يستخدمها جنود سلاطين أسرة قلاوون على ثلاثة أنواع، النوع الأول: العراب، وهي أفضلها، في البلاد العربية، والثاني: العجميات المجلوبة من بلاد الأتراك، والثالث: المولد بين العراب والعجميات([1]).

وقد كانت الخيول سببا في النصر، أو الهزيمة([2])، وظهرت إبداعات الجيش المملوكي في عهد سلاطين أسرة قلاوون في قيادة الخيول؛ وخاصة في الحروب، حيث كان الجندي المملوكي يلبس ما يحميه من الحرق، ويلبس فرسه ما يحميها من الحرق، حيث كانت تطلى الملابس بمادة غير قابلة للاشتعال، ثم يدخل الفارس بفرسه داخل جموع الأعداء، حاملًا النيران، والنفوط المشتعلة؛ ليضرم النيران في أمتعة، وملابس الأعداء، فيحرقهم، ولا يتأثر هو، مما يجعل ليل الأعداء خوفًا، ورعبًا لا مثيل له، وكانت معظم الاقتحامات تحدث ليلًا، لتحدث الخوف والرهبة لدى الأعداء([3]). ويمكن تشبيه استخدام الخيل في عهد قلاوون في المعارك الحربية بطائرات الإف 16 في العصر الحديث، وهذا يدل على قوة الجيش المملوكي، وقدراته.

ي- ملابس جنود سلاطين أسرة قلاوون: اختلفت ملابس جنود سلاطين المماليك، ففي عهد السلطان المنصور قلاوون كان زي هم إذا دخلوا إلى الخدمة بالأقبية التترية، والكلوتات([4]) فوقها، ثم القباء الإسلامي فوقها، وتشد المنطقة والسيف، ويتميز الأمراء والمقدمون أعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك، وتكون غالبها من الصوف الملطي الأحمر، وتضرب ويلف فوقها عمائم صغار، ومن زيهم لبس المهماز على الأخفاف، ويعمل في الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن، وكان معظم العسكر يلبسون الطراز، ولا يكفت مهمازه بالذهب، وفي الشتاء يلبس العسكر الصوف الملون، والنصافي المصقول في الصيف([5]).

([1]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج17/2).

([2]) القرماني، أخبار الدول، (ج288/2).

([3]) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، (ص22).

([4]) الكلوتات مفردها الكلوتة بتشديد اللام، وهي طاقية صغيرة من الصوف مضربة بالقطن. المقريزي، الخطط، (ج217/2)؛ ابن آجا، العراك، (ص77).

([5]) المقريزي، الخطط، (ج217/2)؛ السيوطي، حسن المحاضرة، (ج111/2) .

وجدير ذكره أن السلطان قلاوون هو الأكثر ظهورًا واهتمامًا بمسألة الأزياء في العصر المملوكي، فأوجد زيًّا أفضل وأروع([1])، وكثير من الملابس والأزياء كانت عبارة عن خلع وهدايا من السلطان للفرسان الذين يظهرون انتماء، وانتصارات يفرح السلطان من أجلها([2]).

وجاء الملك الأشرف من بعد والده السلطان قلاوون فغير لون الكلوتات من الصفرة إلى الحمرة، وأمر بالعمائم من فوقها، وبقيت حتى حج الملك الناصر محمد بن قلاوون، فحلق رأسه، وتغيرت العمامة فصغرت، وأما الثياب فلبسوا الأقبية التترية، والتكلاوات فوقها، ثم القباء الإسلامي فوق ذلك يشير عليه بالسيف من جهة اليسار، والصولق، والكزلك من اليمين([3]).

وكان زي الفارس المملوكي عبارة عن عمامة مزركشة، إضافة إلى لبس دراعة([4]) بنفسجية اللون، وطوق ذهب، وله عدة سيوف لواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران، وترس، وقدم له فرس أشهب في عنقه مشدة (الرقبة) سوداء، وعليه كنبوش أسود([5]).

وقد كان الملبس في فصلي الصيف والشتاء يختلف عن بعضه، ففي الصيف كان جميع القماش من الفوقاني، وغيره أبيض من النصافي ونحوه، وتشد فوق القباء الإسلامي المنطقة وهي الحياصة، ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب، وترصع باليشم، وفي الشتاء كانت فوقانياتهم ملونة من الصوف النفيس والحرير الفائق تحتها فراء السنجاب الغض، ويلبس أكابر الأمراء السمور، وفي أرجلهم لبسوا الخفاف الأبيض في الصيف، وإن كانوا في الشتاء لبسوا الخفاف الصفر، ويشدون المهاميز المسقطة بالفضة، ومن كان له إقطاع في الحلقة يكفت مهمازه بالذهب، وبالنسبة للخيل فيركبون الخيل المسومة النفيسة الأثمان، خصوصًا الأمراء أما الغلمان تركب البغال([6])، وحتى الخيول كانوا يلبسونها بركستوان([7]).

([1]) السيوطي، حسن المحاضرة، (ج111/2) ؛ ابن دقماق، النفحة المسكية، (ص85).

([2]) المقريزي، الخطط، (ج524/2-525)؛ طرخان، النظم الإقطاعية، (ص163).

([3]) القلقشندي، صبح الأعشى، (41/2).

([4]) الدراعة: جبة مشقوقة المقدم، ولا تكون إلا من صوف. المقريزي، السلوك، (ج531/1).

([5]) الكنبوش: هي البردعة تجعل تحت سرج الفرس. المقريزي، السلوك، (ج531/1).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (42/4).

([7]) البركستوان: غطاء أو درع يوضع على ظهر الفرس. ابن آجا، العراك، (ص51).

وظهر في عهد أسرة قلاوون لباس للرأس باسم الشربوش، فكان يميز الأمير، لا يلف بمنديل، وكان الشربوش خلعة من سلاطين أسرة قلاوون لمرتبة الفروسية([1]).

وفي الحرب كانت أسرة قلاوون المملوكية يلبسون زيًّا مناسبا كي يحافظوا على حياتهم كالدروع، والجواشن، والخوذ، وفي الأعياد كانوا يلبسون ملابسًا خاصة، ونجمل القول بأن ملابس أسرة قلاوون المملوكية كانت على درجة من حسن الرونق، وبديع التنسيق، حتى أصبح هندامهم مضرب الأمثال في الملابس، وأزيائهم الفريدة([2]).

ك- التموين والإقطاع العسكري: كان التموين في ظل أي نظام عسكري ناجح ضرورة، وخاصة في النظام العسكري لسلاطين أسرة قلاوون المملوكية، حيث تابعت الولاة بخصوص حفظ مصادر المياه، وخاصة بين مصر والشام([3]). وقد كانت سلاطين أسرة قلاوون تحرص على إطعام الجيش المملوكي أفضل الأطعمه، وحتى إمداد أفراد الجيش المملوكي في مختلف المناسبات، والأعياد([4]). أما عن الإقطاع العسكري، فينقسم الإقطاع إلى قسمين: إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال، ومن هذا النوع ما أطلق عليه بعض الباحثين الإقطاع العسكري أو الحربي، وذكر الماوردي في حديثه عن إقطاع الاستغلال أن "أهل الجيش هم أخص الناس بجواز الإقطاع"([5]).

وفي دولة أسرة قلاوون المملوكية وما سبقها اتخذت من الإقطاع أساسًا لتيسير الأمور، وجعلت الإقطاع يتناسب مع أهمية كلا من الأمراء، والفرسان، والجنود، ومنحوا الأرض المحررة لمن أبلى بلاءً حسنًا ، ووصل الأمر لأن يقطع للأمير قرية، أو مدينة بأكملها، أو يتقاسم أميران قرية([6]). فكان نظام الإقطاع في دولة أسرة قلاوون ومن قبله يمنح للأمير أو الجندي ليستغله طوال فترة حياته، أو عمله بالجندية، وفي حال العزل أو الوفاة يخرج الإقطاع عنه([7]). وكانت

([1]) المقريزي، الخطط، (ج99/2).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (42/4)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج142/8).

([3]) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص121).

([4]) المقريزي، الخطط، (ج216/2).

([5]) الماوردي، الأحكام السلطانية، (ص195).

([6]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص55).

([7]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج15/4).

الإقطاعات توزع حسب رتبة الفارس، فالأمير الكبير يعطى ما بين قرية إلى عشرة قرى، والمملوك يحصل على قرية ونصف القرية، أما الجندي يحصل على نصف قرية([1]).

وبالرغم من نظام الإقطاع في دولة سلاطين أسرة قلاوون المملوكية، إلا أنه أضعف الدولة المملوكية، فأصبح صاحب الحظوة والمكانة من عامة الناس عند السلطان له إقطاعات، وحتى العلماء نال جانب كبير منهم إقطاعات من سلاطين أسرة قلاوون، ومن جاء بعدهم([2]).

وعلى ذلك يمكن القول أن نظام الإقطاع مرة بمرحلتين: الأولى منها لخدمة النظام العسكري في دول أسرة قلاوون ومن تلاها، والثاني بفترة تدهور كبيرة لمن جاء بعد سلاطين أسرة قلاوون([3]).

ل- أساليب دولة أسرة قلاوون القتالية، والتعبئة العسكرية: كانت الأساليب القتالية الموجودة في عهد دولة أسرة قلاوون المملوكية موجودة من قبل، واستخدمها المسلمون من قبل، مثل: قتال الخميس، وهو تقسيم الجيش إلى خمسة فرق: الفرقة الأولى المقدمة، الثانية المؤخرة، الثالثة الميمنة، الرابعة الميسرة، الخامسة القلب([4]). ومن الأساليب الأخرى في القتال، وكانت موجودة في عهد المسلمين الأوائل: القتال في صفوف، قتال الكر والفر، كما كانت طريقة للقتال، وهي: الكراديس([5]).

وسبب استخدام طريقة الكراديس لبث الرعب النفسي لدى الأعداء، بحيث لا يستطيعوا معرفة عدد الجيش المكردس([6]).

([1]) المقريزي، الخطط، (ج2/216-219)؛ البيومي، النظم المالية، (ص238).

([2]) اليوسفي، نزهة الناظر، (ص207)؛ . عيسى، العالم الإسلامي، (ص106).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج2/219).

([4]) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (ج4/474).

([5]) الكراديس جمع كردوس، ومعناها الخيل العظيمة، والكراديس الفرق منها، وهي كتائب الخيل. والكراديس طريقة قتال، وهي عبارة عن مجموعات كل مجموعة لها قائد وجنود، ويتكاتفون مع بعضهم البعض حتى لا يفر أحد من المعركة، فمن الصعب الاستمرار في المعركة إذا انسحب صف بكامله. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (ج2/336)؛ (ج4/474)؛ ابن منظور، لسان العرب، (ج6/195)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج6/222).

([6]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج10/93)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج1/272-273)؛ ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية الكبرى، (ص367).

وقد دمج جيوش أسرة سلاطين قلاوون المملوكية كل الخطط مع بعضها في غزوة، أو عدة غزوات، واستخدموا الحرب النفسية لقتال الأعداء، وخاصة الصليبيين، والمغول([1]). ومن المعارك التي شهدت استخدام طريقة الكراديس معركة حمص بقيادة السلطان المنصور قلاوون ضد التتار سنة (680هـ/1281م)، حيث بلغ عدد جند المماليك خمسين ألفًا والتتار مائة ألف، وحينما كاد التتار ينتصرون حيث كسروا ميمنة الجيش المملوكي، استطاع المماليك تغيير نتيجة المعركة باستخدام نظام الكراديس([2]). ومن أساليب القتال والتعبئة العسكرية لدى الجند وجود السلطان داخل المعركة بنفسه، فكثيرا ما وجد السلطان المنصور مع جنوده، وكذلك الأشرف خليل، والسلطان الناصر محمد مع الجيش المملوكي، وبرفقتهم العلماء ليحثوا الجند على القتال، وبث آيات الجهاد في نفوس المقاتلين([3])، مثل: قوله تعالى: " وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ "([4]). فكان الجنود والقادة في جيوش سلاطين أسرة قلاوون يضعون نصب أعينهم إما النصر، أو الشهادة([5]). واللافت للنظر أن مرحلة سلاطين أسرة قلاوون شهدت فكرًا، وتأليفًا عن الجهاد بشكل كبير، حيث ظهرت كتابات حول الجهاد وفضائله، والحروب وفنونها، وصناعة الأسلحة([6]).

م- نظام الأطلاب وأصناف الجيش: وقد عرف الجيش المملوكي في ظل أسرة قلاوون نظام الأطلاب([7])، وأصناف الجيش حسب سلاح كل صنف، وكان يقصد بالأطلاب تنظيم الجيش،

([1]) المنصوري، التحفة، (ص61)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج274/1)؛ المقريزي، السلوك، (ج933/1).

([2]) اليافعي، مرآة الجنان، (ج191/4).

([3]) المقريزي، السلوك، (ج19/2-20).

([4]) الحج: 78.

([5]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج160/8).

([6]) من الكتب التي حثت على الجهاد، والفروسية، وصناعة الأسلحة: ابن النحاس، مشارع الأشواق في مصارع العشاق(في فضائل الجهاد)، العز بن عبد السلام، أحكام الجهاد وفضائله، الطرسوسي، تبصرة الألباب في كيفية النجاة من الحروب، كتاب الفروسية لابن القيم الجوزية.

([7]) الطلب هو الفرقة من الجيش، والأطلاب بلغة الترك الأمير والمقدم له علم معقود، وبوق مضروب. المقريزي، الخطط، (ج85/1)؛ (ج213/2-214)؛ ابن أجا، العراك، (ص45).

وتقسيمه إلى فرق، تتقدم إلى المعركة حسب الخطة، وكان لكل طلب خواص تتميز بها، وهذا التميز يظهر باختلاف نوع السلاح التي يتجهز بها الطلب، ولا يمكن لأي جيش التحرك، وممارسة العمليات العسكرية مالم يتم التنسيق والتنظيم([1]). وجدير ذكره أن أصناف الجيش المملوكي في ظل أسرة قلاوون ومن سبقه، ومن تبعه صنفان أساسيان، هما:

الصنف الأول: الفرسان(الخيالة): وهو عصب الجيش المملوكي، ومهمته القتال، والاستطلاع، والاستكشاف، ويمتاز بسرعة الحركة، وهي فرقة خاصة لها مهمات خاصة، تنفذ مهماتها بدقة، وينسحبون إلى قواعدهم، وهذه الفرقة منوط بها تقديم المعلومات حول الجيش المعادي، مما يؤهل النظام العسكري المملوكي لأن يكون صاحب المبادرة في الحرب، بناء على المعلومات المقدمة لديه([2]).

الصنف الثاني–المشاة (الرجالة): وهم الرجالة من الجند الرماة، وقد اتخذوا من شتى العناصر التي كونت الجيش المملوكي في ظل سلاطين أسرة قلاوون، كما كان الجيش الأيوبي في عهد خلفاء صلاح الدين، وقد اعتمدوا في تكتيكاتهم العسكرية كما ذكرنا على الحرب الخاطفة، والمطاردة والمناوشة، وضرب مؤخرة العدو، وعلى حرب العصابات، والشوارع بين الأشجار والبساتين. كما أنهم لعبوا دورًا مهمًا، وأساسيًا في الحصار، وتزويد الجيش بالمؤن والمعدات، والحرب في المناطق الوعرة، وأحياناً كانوا يندمجون مع الفرسان، فيرافق الفارس جندي من المشاة، وكانت أهميتهم في الجيش تأتي بعد الفرسان، والدليل على ذلك أن مشاة الجانب الخاسر في المعركة كان مصيرهم الذبح([3]).

ن– المتطوعون في جيوش سلاطين أسرة قلاوون: كان في الجيش المملوكي التابع لأسرة قلاوون متطوعين([4]) من عرب أهل مصر والشام، حيث شاركوا في تحرير عكا، كان عددهم

([1]) المنصوري، التحفة ، (ص44)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج296/7)؛ ابن أجا، العراك، (ص91).

([2]) ابن واصل، مفرج، (ج29/3، 96–97)؛ الأصفهاني، البرق، (ج72/3، 166)؛ (ج114/5، 147)؛ أبو شامة، الروضتين، (ج152/1، 184، 188، 305)؛ (ج47/2).

([3]) أبو شامة، الروضتين، (ج188/1، 305)؛ سميل، الحروب، (ص81–86).

([4]) المتطوعون: مفردها المتطوع، جاءت من الفعل تطوع؛ أي تبرع، والمطوعة الذين يتطوعون للجهاد. الرازي، مختار الصحاح، (ج168/1)؛ ابن منظور، لسان العرب، (ج243/8).

يفوق الجيش المملوكي([1])، كما شارك المتطوعون العرب في معركة طرابلس، حيث هاجمها الصليبيون بالمراكب، كان عددها مائتي مركب، وقتل الصليبيون حاميتها من الجند، واجتمع المتطوعون من العرب في الشام، وتمكنوا من تحرير طرابلس، وقُتل العديد من الصليبيين([2]).

وقد اشتهر من العربان المتطوعين بني كلاب، وآل بشار، وكان الناصر محمد بن قلاوون قد أمر عليهم سليمان بن مهنا، وأقطعهم جعبر وما والاها([3]).

س- الفرق الطبية التابعة للجيش المملوكي: كان الجندي المملوكي في ظل دولة سلاطين أسرة قلاوون يجدون العناية الفائقة، وهناك العديد من الجنود المماليك قد أصيبوا في معارك خاضها السلطان المنصور قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد، فوجدوا العناية الطبية من قبل السلاطين، حيث الأطباء، والجراحين، وأطباء العظام، والصيادلة، ومختلف التخصصات الطبية، وكانت هناك مستشفيات مجهزة بكافة المعدات، وأدوية، وأدوات، ونقالات لحمل الجريح، والمريض، وعُرف أيضًا المستوصف المتنقل داخل خيام العسكر، ويمكن لأي مريض أو جريح النوم فيها بأمان، وتحت مراقبة الفرق الطبية([4]). ومن أهم السلاطين الذين اهتموا بالطب في دولة المماليك، السلطان قلاوون الذي بنى البيمارستان، وقام بعمارته سنة 682هـ/1282م، وأتمه سنة 684هـ/1284م([5]).

ع- فرق الموسيقى العسكرية: كان للعهد المملوكي في دولة قلاوون وأسرته الموسيقى العسكرية، والتي منها: الطبول، والأصوات المصاحبة لصوت الخيول، والسيوف، وكان جيش السلطان قلاوون وأسرته يستخدمون دق الطبول لبدء الحرب([6])، وكانوا يطلقون على الموسيقى

([1]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج8/8)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج463/5).

([2]) الحموي، التاريخ المنصوري، (ج261/1)؛ السيد، التتار والمغول، (ص147-148).

([3]) قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديما تسمى دوسر، فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له: جعبر . ياقوت، معجم البلدان، (ج142/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج28/1)؛ الدمشقي، المواكب الإسلامية، (ج97/2-98).

([4]) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج586/1)؛ ابن الفرات، تاريخ الفرات، (ج22/8-25)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج340/14)؛ الحنبلي، شذرات الذهب، (ج239/4).

([5]) ابن دقماق، النفحة المسكية، (ص79)؛ المنصوري، التحفة الملوكية، (ص111).

([6]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج172/8).

العسكرية مصطلح كوسات([1])، وقد أرهبت الطبول، والكوسات الأعداء، وتلاحقهم وقت انسحابهم من المعركة([2])، وكان جيش قلاوون وأسرته إذا هزموا بمعركة يبطلوا الكوسات، وإذا انتصروا يأمرون بدق الكوسات، وبعد انتهاء المعركة كانت تسكن الكوسات، وتبطل الطبلخانات([3])، فكانت الطبلخاناة هي المنشور الإخباري العاجل الذي ينشر خبر الانتصار، وإن لم يدق فهو خبر الهزيمة.

ف- حملة الرايات والأعلام: كان للراية والأعلام دور كبير في الحروب، ففي التاريخ الإسلامي استخدمت الرايات، والأعلام في الحروب، فقد عرف المسلمون الأوائل الأعلام والرايات([4]).

وفي عهد أسرة قلاوون المملوكية عرفت الرايات، والأعلام، فهي رمز الانتصار، وإشارة للجند بالاستبسال، ودائمًا لكثرة الرايات، وألوانها رموزًا معينة، ودلالات يفهمها أفراد الجيش([5])، وكان لسلاطين أسرة قلاوون ثلاثة أعلام، أحدها من الحرير الأصفر المطرز بالذهب، ينقش عليه ألقاب السلطان، واسمه، ويسمى العصابة([6]). ويحمله العلم دار([7])، والثاني كبير أبيض تعلق في أعلاه خصلة من الشعر، ويسمى الشاليش([8])، وكانت أسرة قلاوون يطلقون هذا اللفظ على طليعة جيشهم([9])، والثالث راية صفراء صغيرة تسمى السنجق([1])، ويحملها السنجقدار، وفي

([1]) الكوسات: هي صنوج تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج9/4).

([2]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج162/8).

([3]) الطبلخانات: وهي ما نسميه في عصرنا الحالي موسيقى الجيش، وهي لفظ فارسي، كما كانت تستخدم في الحروب، ولاستقبال ضيوف السلطان. دهمان، معجم الألفاظ، (ص106)؛ سالم، دراسات في تاريخ مصر، (ص259).

([4]) الأصبهاني، حلية الأولياء، (ج108/1)؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (ج151/2).

([5]) ابن خلدون، المقدمة، (ج259/1).

([6]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج456/5-457)، ابن طولون، مفاكهة الخلان، (ج69/2).

([7]) العلم دار: لفظ يتركب من العلم وهو لفظ فارسي معناه الراية، والثاني دار معناه حامل، والمعنى العام حامل الراية. القلقشندي، صبح الأعشى، (ج456/5-457).

([8]) الشاليش: راية واحدة عظيمة، وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر، وهي شعار السلطان المملوكي. ابن خلدون، المقدمة، (ج260/1).

([9]) المقريزي، الخطط، (ج433/2).

حالة الحرب كان يخرج السلطان في جيشه بالأعلام الثلاثة معًا([2])، كما عرف ما يسمى الشطفة وهي شارة ملكية تحمل كما يحمل اللواء على رأس أمير الجيش([3]).

ص- البريد: وجدير ذكره أن الجيش المملوكي في عهد قلاوون عرف البريد، شأنه في ذلك شأن أي نظام في الجيوش، وذلك لإحداث الاتصال والتواصل بين الجند والقادة، ثم الحكام([4]).

ق- معاملة قلاوون وأولاده الأسرى في دولة المماليك: قال تعالى: " ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا"([5])، ومصير الأسرى شرعًا عادة في الغالب، إما المن عليهم، بإطلاق سراحهم بدون مقابل، أو مفاداتهم أي تبادل الأرى، وإطلاق سراحهم بمقابل؛ لقوله تعالى: " فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها"([6])، ولذلك فإن الدولة الإسلامية عبر دورتها التاريخية، ومنها دولة المماليك البحرية بقيادة قلاوون وأولاده أثبتت أنها عاملت الأسرى والجرحى والمرضى، والقتلى معاملة حسنة([7]).

ر- الفرق الاستطلاعية والاستكشافية: لعبت الفرق الاستكشافية، والاستطلاعية في النظام العسكري المملوكي في عهد السلطان قلاوون وأسرته دورًا هامًا في تحقيق الكثير من الانتصارات الحربية على الصليبيين، والمغول، إذ كانت الفرق الاستطلاعية ترصد حركاتهم، وأنواع الأسلحة التي يستخدمونها، ورصد تحركاتهم، وإعطاء الأعداء معلومات خطأ بطريقة أو بأخرى([8]).

([1]) السنجق: جمعها سناجق، وهو لفظ تركي بمعنى العلم، أو الراية، وبمعنى الرمح، أو اللواء، وقد كان لكل فرقة من الجيش راية تعلق على رأس الرمح سمي سنجق. أبو شامة، أخبار الروضتين، (ج1/228).

([2]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص95)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج1/260).

([3]) ابن أجا، العراك، (ص94).

([4]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج14/413-419).

([5]) الإنسان: 8.

([6]) محمد: 4.

([7]) المقريزي، الخطط، (ج4/108، 129)؛ الزحيلي، أحكام الحرب في الإسلام، (ص39)؛ شلبي، الجهاد والنظم العسكرية، (ص124).

([8]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص98)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/515).

ومن أشهر سلاطين أسرة قلاوون الذين شجعوا، وزادوا الفرق الاستطلاعية السلطان المنصور قلاوون، حيث كان لا يخرج إلى معركة إلا بعد الحصول على معلومات استطلاعية دقيقة، وخاصة في حروبه مع التتار[1]. ومن مهام الفرق الاستطلاعية اكتشاف الجواسيس والعملاء لصالح الأعداء، فقد اعتقل أحد أفراد عرب زبيد، وكان متهما بالجاسوسية لصالح الفرنج في عهد أسرة قلاوون[2].

ش- الخطط العسكرية وإدارة المعارك: لا تنفصل الخطط العسكرية عن الفرق الاستطلاعية، فبناء على تقارير الفرق الاستطلاعية يتم وضع الخطط العسكرية، وإدارة المعارك، وكانت سلاطين أسرة قلاوون تعتمد على الفرق الاستطلاعية للتخطيط للعمليات العسكرية، وكانت أسؤرة قلاوون لا تعتمد على خطط عسكرية إلا من خلال مجلس شورى، فالسلطان المنصور قلاوون كان يعقد مجلس شورى مع أمرائه في أي حرب كان يخوضها، من ذلك حربه مع المغول، حيث قرر مجلس الشورى أن يقاتلوا بالقرب من دمشق لاحتمال عدم النصر، وقد أدلى أمير بدلوه[3]. وأحيانًا كانت تصل الأمور بالنظام العسكري في ظل دولة أسرة قلاوون أن يدمر المدينة على أصحابها، حتى تظل نفوس الصليبيين تخشى المسلمين، ففي سنة 683هـ/1289م، وبعد حصار لطرابلس دام أربعة وثلاثين يومًا تم إحراق المدينة بالكامل، ومن ثم عمرت مدينة غيرها بالقرب منها[4].

ت- الرتب العسكرية، وتعيين القادة: كانت الإمرة لجيش المماليك، ومن حق أي مملوك من خلال التدرج في الترقي[5]. ففي عهد السلطان المنصور قلاوون كان يمكن للجندي البسيط الانتقال بأمر من السلطان إلى الطبلخاناة، أي يكون أميرًا لأربعين[6]، ومن ثم يمكن لأمير

---

(1) ففي معركة حمص سنة (680هـ/ 1281م)، علم المنصور قلاوون أن المغول علموا بأمر الخزينة السلطانية التي مع الجيش، وأنها محملة على مائة بغل، وعلى كل بغل صندوقان، في كل واحد 5000 دينار ذهب عينًا، وأن التتار قرروا الاستيلاء عليها، فعمد السلطان إلى تفريغ الأموال في أكياس، ووزعها على الأمراء، وكتب أسماءهم. العسقلاني، الفضل المأثور، (ص54)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج272/7).

(2) المنصوري، مختار الأخبار، (ص20).

(3) العسقلاني، الفضل المأثور، (ص67).

(4) القرماني، أخبار الدول، (ص274).

(5) المقريزي، الخطط، (ج220/2).

(6) المقريزي، الخطط، (ج315/2)؛ دهمان، معجم الألفاظ، (ص22).

الطبلخاناة أن يصبح أمير سلاح ليقود فرقة كاملة من الجيش كالميمنة، أو الميسرة، أو على مستوى الجيش المملوكي كله([1]). ولا غرابة في ظل دولة أسرة قلاوون أن يترقى جنديًا، أو تأمير النائب أو المقدم بناء على مراقبة مستفيضة، والذي يتم اختياره في منصب يكون من أفضل القادة، وخاصة في المناصب الهامة كنائب الثغور؛ لأن الثغور هي البوابة المواجهة للأعداء([2]). ومن الرتب المعروفة في جيش أسرة قلاوون المملوكية أمير الحج، وهي مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، وتقرن عادة بلقب مقدم ألف، فيقال: أمير مائة مقدم ألف، والمقصود أن يكون بحوزة هذا الأمير مائة مملوك، وهو في نفس الوقت مقدم في الحرب على ألف جندي([3]).

وجدير ذكره أن النظام العسكري تدهور بعد فترة من الزمن نتيجة البذل والبرطلة، يروى أن أحد الأمراء المماليك صار بالبذل أحد المقدمين، ووظيفة أمير سلاح صارت تمنح بالهدايا والأموال، وبالرشوة أصبحت الترقيات في الجيش متاحة لمن يبذل المال، والأعطيات([4]).

فقد كان للجيش المملوكي دوره المميز في حكم أسرة قلاوون (678هـ-783هـ/1279م-1382م)، من ذلك:

أ- كان الجيش هو الدعامة الأولى التي يستطيع بها تحقيق أهدافه القاضية بضرب الصليبيين، وإرجاع ماكانوا قد استولو عليه من بلاد المسلمين في الشام؛ لذلك أولاه قلاوون عناية كثيرة، وعمد لتقويته، والإكثار من شراء المماليك الذين أخذ يعدهم إعدادا حسنا بترتيبهم، والإشراف على شئونهم الخاصة، حتى قدر عدد مماليكه باثنتي عشر ألف مملوك اختار منهم ثلاثة آلاف، وأسكنهم أبراج القلعة، وعرفوا فيما بعد باسم المماليك البرجية.

ب- وعُرف عن الأشرف خليل اهتمامه بالجيش، فكان يهتم بشكل كبير بعدتهم، وعتادهم، وملابسهم، ويشاركهم المناسبات، فكثير ما كان ينزل الميدان ويشاهدهم، وهم يتبارون، أو يشاركهم اللعب، ويجزل العطايا على الفائزين، ويكون قد لبس ملابس عسكرية، يقال لها: قرقل، في عمل أشبه ما يكون سباقا لاختبار القدرات. وعُرف عن الأشرف خليل حُبه لمشاهدة الشواني، فكان ينزل بنفسه إلى دار الصناعة، ويأمر مماليكه بصنعها حسب مواصفاته، ثم

([1]) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج16/2).

([2]) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج400/11-401).

([3]) المقريزي، الخطط، (ج215/2).

([4]) السخاوي، الضوء اللامع، (ج44/3)؛ عبد الرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، (ص53).

يجهزونها، وتحمل فيها العدد من السلاح، والمماليك المقاتلة، وتدار الشواني، وقد صُنع فيها الأبراج، والقلاع، والنفط، والمكاحل، ويُظهر كل مركب أسلوبًا حربيًّا يفتخر به، وينافس به المراكب الأخرى، في موقف أشبه ما يكون بمناورات عسكرية تقوم بها المراكب أمام الأشرف.

ج- ويرى السلطان محمد بن قلاوون أن تجهيز جيش المسلمين هو من الجهاد، والجهاد فريضة على كل مسلم، ولا يقتصر الجهاد على المشاركة في المعركة بالنفس فقط؛ بل هو بالنفس، والمال، واللسان، فيهدد ويتوعد مكتنزي الأموال من أهل اليمن الذين لا يجعلون في أموالهم نصيبًا لتجهيز جيش المسلمين ، فيأمر أن يكتب لهم ما يردعهم عن ذلك.

وقد قال الدواداري عن تفقد السلطان الناصر محمد للجيش: " فمن كان قد كبر وعجز عن الخدمة، وكان له في الإسلام سابقة وقدمه، فإن كان له ولد صالح للخدمة الشريفة، أنعم عليه بخبز أبيه، ويتصدق على الشيخ براتب يمونه لتقر به عيونه، ومن صلح للزيادة زاده، ومن كانت سيرته ذميمة، وأحواله غير مستقيمة، قطعه، وأنعم بإقطاعه على مستحقه، وخرج المقطوع يقلب كفيه، ولم يلق من حنين غير خفيه، فكان هذا العرض كيوم العرض، هذا قد فاز بحسناته، وهذا قد ندم على سيئاته"([1]). حيث كان يجلس السلطان الناصر محمد، وبين يديه الأمراء، متخذًا الشخص صاحب الخبرة والمعرفة، بأمور الجيش، وأخباره، ومعرفة الجندي الجيد، ودونه، والقديم، والمستجد، لمعرفة المستحق من غيره([2]).

ويرى الباحث إن تجهيز الجيش والقوة العسكرية أمر من الله سبحانه وتعالى، للدفاع عن الإسلام وأراضيه، ونلمس هذا على أرض الواقع الفلسطيني، فلولا السلاح لأصبحت أرضنا مستباحة. وذلك لقوله تعالى: " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"([3]). فبناء جيش قوي لدولة المماليك في عهد أسرة قلاوون، ووجود الأسلحة الفردية والجماعية لدى الدولة، والاهتمام بالأسطول، ودار الصناعة، والاهتمام بأساليب القتال، والتهيئة النفسية للجيش المملوكي، كان له الدور الأساسي في عوامل النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون.

([1]) كنز الدرر، (ج239/9).

([2]) الدواداري، كنز الدرر، (ج239/9) ؛ أبو بكر، صورة السلطان محمد بن قلاوون، (ص110).

([3]) الأنفال: 60.

المبحث الثالث: الجهاد العسكري الإسلامي على الثغور (معارك حاسمة)

خاض السلطان قلاوون وأسرته حروبًا ضد المغول، والصليبيين دفاعًا عن الراية الإسلامية، والدين الإسلامي، والأمة الإسلامية، فأي أرض إسلامية احتلت، أو اغتصبت يجب على الأمة الإسلامية استردادها، وحتى الأرض التي لم يسبق أن احتلها المسلمون أو فتحوها – وبالأصح الأرض التي لم يسبق أن فتحها المسلمون، تحريرها من سلطة الطغاة المستكبرين واجب شرعي لقوله تعالى في عدة آيات نذكر منها: قال تعالى : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"([1])، وقوله تعالى: " أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"([2])، وقوله تعالى: "إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"([3])، وقوله تعالى: "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"([4])، وقوله تعالى: " وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"([5])، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"([6])، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا"([7]).

([1]) البقرة:246.

([2]) الأنبياء: 105.

([3]) الأعراف: 128.

([4]) التوبة:24.

([5]) الحج:78.

([6]) البخاري، صحيح البخاري، رقم: 2783 ، (ج14/4).

([7]) البخاري، صحيح البخاري، رقم: 2843 ، (ج27/4).

أولًا: الجهاد العسكري الإسلامي في عصر المنصور قلاوون: شارك المنصور قلاوون في كثير من الأعمال قبل توليه الحكم، مع الظاهر بيبرس، وسنذكر بعضًا من الأعمال التي قام بها قلاوون خلال العشرين عامًا التي سبقت حكمه بإيجازٍ شديدٍ:

– ففي سنة (660هـ/1262م) بنى الظاهر "فم بحر أشموم"[1]، وعين قلاوون مسئولًا عنه[2].

– وفي جمادى الأول سنة (663هـ/1265م)، شارك مع الظاهر في فتح قيسارية، وعثليث[3].

–وشارك في فتح قرقيسيا[4]، في رمضان من العام (663هـ/1265م)[5].

– وفي رجب من العام (663هـ/1265م) شارك في فتح أرسوف[6]، وفي آخر شعبان سنة (664هـ/1266م)، قام قلاوون، وجماعة بالإغارة على عكا، وصور[7]، وغرقد[8]، وطرابلس[9]، وحصن الأكراد في يوم واحد[10].

---

(1) شرع السّلطان الظاهر بيبرس في حفر بحر أشموم في (شوّال عام 663هـ/ يوليو 1265م)، بجوار دمياط، وكان حاجزًا بين الصليبيين وبين المسلمين عندما خرجوا من دمياط في عام (13 شعبان 647هـ/ 20 تشرين الثاني 1249م) وساروا على البر بينما سفنهم في بحر النيل توازيهم، وقاتلوا المسلمين هنا وهناك حتى وصلوا في(15 رمضان 647هـ/ 21 كانون الأول 1249م) إلى ضفة بحر أشموم. ابن خلكان، فوات الأعيان، (ج5/90،80)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج11/15)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج10/213).

(2) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص41).

(3) اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر، كان فيما فتحه الملك الناصر يوسف بن أيوب سنة 583هـ/1187م. ياقوت، معجم البلدان، (ج4/85)؛ صفي الدين، مراصد الإطلاع، (ج2/920).

(4) مدينة سورية، بالجانب الشرقي من الفرات. الإدريسي، نزهة، (ج2/657)؛ ياقوت، معجم ، (ج2/75).

(5) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص30).

(6) المقريزي، السلوك، (ج1/529).

(7) مدينة مشهورة عظيمة القدر كانت من ثغور المسلمين مشرفة على البحر المتوسط، بينها وبين عكة ستة فراسخ، شرقيّ عكة. صفي الدين، مراصد الإطلاع، (ج2/856).

(8) وهو نبت وهو كبار العوسج وبه سمّي بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة. ياقوت، معجم، (ج4/194).

(9) طرابلس الشام على شاطئ البحر، وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، وهي كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين جليلة. ياقوت، معجم البلدان، (ج4/25).

(10) حصن الأكراد حصن منيع– مقابل حمص. ياقوت، معجم، (ج2/264). اليونيني، ذيل، (مج2/337).

– وفي شوال (664هـ/1266م) شارك مع الظاهر في تحرير صفد[1]، وفي ذي القعدة من العام (664هـ/1266م) انطلق من دمشق مع الملك الظاهر نحو قاعدة الأرمن "سيس"[2] التي تم تحريرها، وتدمير قلعة الداوية[3] فيها[4]، وفي سنة (666هـ/1268م) كان تدمير يافا[5]، وفي رمضان من العام نفسه كان تحرير أنطاكية معقل الصليبيين، والذي كان حربة في جسم دولة المماليك[6]، ثم كان تحرير بغراس[7]، وجبلة[8] سنة (666هـ/1268م)[9].

– وفي سنة (669هـ/1271م) كان تحرير حصن عكار[10]، وحصن الأكراد[11].

([1]) الصفد: العطاء، وكذلك الوثاق، وصفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. ياقوت، معجم البلدان، (ج3/412)؛ حيث أشار اليونيني بأنها كانت قمة الفتوحات. انظر: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (مج2/338).

([2]) سيس: هي عاصمة أرمينة الصغرى، بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشاميّة بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة. ياقوت، معجم البلدان، (ج3/297، 338)؛ الغزي، نهر الذهب، (ج3/141).

([3]) ويقال عنه: الدّيويّة، حصن حصين بنواحي الشام، والداوية قوم من الأفرنج يحبسون أنفسهم لقتال المسلمين ويمنعون أنفسهم من النكاح وغيره. ياقوت، معجم، (ج2/264)؛ الصوري، الحروب الصليبية، (ج2/345)؛ (ج3/68).

([4]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص62).

([5]) المصدر السابق.

([6]) أنطاكية مدينة من الثغور الشامية معروفة، فتحها الظاهر بيبرس في رمضان سنة (666هـ/1267م) . الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج2/644-645)، البكري، معجم، (ج1/200)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ص284).

([7]) بغراس قلعة شمالي حلب على نحو أربع مراحل منها، القلقشندي: صبح الأعشى (ج4/126).

([8]) جبلة قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال اللاذقية قرب حلب. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج2/644-645)؛ المهلبي، المسالك والممالك، (ص83)؛ صفي الدين، مراصد الاطلاع، (ج1/ 312).

([9]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص64).

([10]) يقع على مسافة يوم من مدينة طرابلس نحو الشرق، سمي باسم بانيه محرز بن عكار رده بيبرس من الإفرنج سنة (669 هـ/1271م). أبو الفدا، المختصر، (ج4/6)؛ ابن كثير، البداية، (ج13/322).

([11]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج2/447).

- وفي سنة (671هـ/1273م) وأثناء تحرير البيرة[1]، تقدم قلاوون، ورمى بنفسه في الفرات، وهو على فرسه، وتبعه الجيش حتى حلوا بالبر الشرقي، وتم تحريرها، وقد منحه الظاهر بيبرس 3000 دينار لشجاعته[2]. وفي سنة (673هـ/1274م) تم تحرير المصيصة[3]، ودربند[4]، وفي سنة (675هـ/1276م) قاتل التتار مع الملك الظاهر عند النهر الأزرق، وقتل من التتار مقتلة عظيمة، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة[5]. ولما تولى المنصور قلاوون الحكم كانت له صولات، وجولات في جهاده ضد الصليبيين والمغول، نذكرها بالتسلسل الزمني:

أ- معركة حمص، جهاد المنصور قلاوون ضد المغول سنة (680هـ/ 1281م): في السابع والعشرين من جُمَادَى الآخرة سنة(680هـ/1281م) وصل الخبر بقدوم منكوتمر بن هولاكو بجيشه إلى عنتاب، فخرج إليه السلطان وعسكر في حمص، واستقدم سنقر الأشقر وقوَّاته، ودخل التتار حماة فخرَّبوا فيها، ثم وصلوا إلى حمص حيث التقى الجمعان في موقعة حمص في (14 من رجب 680 هـ=30 من أكتوبر 1281م)[6]؛ حيث اضطربت ميمنة المسلمين في البداية، ثم الميسرة، وثبت السلطان ومَنْ معه ثباتًا عظيمًا؛ مما حمل الأمراء والقادة على الانقضاض على التتار وكسروهم كسرة عظيمة، وجرحوا ملكهم، وقتلوا منهم الكثير، وكانت مقتلة تفوق الوصف، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين انتصارًا مظفَّرًا، ودخل السلطان المنصور دمشق في أُبَّهة النصر في 22 من شعبان، وبين يديه الأسرى حاملين رءوس قتلاهم على الرماح، ثم تحسَّنت العلاقات نسبيًّا بين دولة المغول والمماليك بعد أن تولَّى الحكم تكودار بن هولاكو خلفًا لأخيه أبغا، وأعلن إسلامه، وكان شديد الرغبة في إقامة علاقات وديَّة مع المماليك، لكنَّ هذا التحسُّن لم يدم طويلاً؛ فسرعان ما أطاح به وبآماله "أرغون" ابن أخيه عن

---

(1) على شطِّ الفرات: من بلد الجزيرة، فوق جسر منبج. صفي الدين، مراصد الإطلاع، (ج1/240-241).

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج3/3).

(3) المصيصة، فهي مدينتان على ضفتي نهر جيحان وبينهما قنطرة من حجارة واسم المدينة الواحدة المصيصة والأخرى كفربيا، ونهرها جيحان يخرج من بلاد الروم. الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج2/645-646)، اليعقوبي، البلدان، (ص160، 205)؛ المهلبي، المسالك والممالك، (ص86، 103).

(4) يقال لها باب الأبواب، وهي على بحر طبرستان، وهي مدينة أكبر من أردبيل ياقوت، معجم، (ج1/303).

(5) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص80).

(6) المنصوري، مختار الأخبار، (ص82-83)؛ النويري، نهاية الأرب، (ج31/32-34).

حُكْم المغول، وعاد التوتُّر بين الدولتين من جديد، دون أن يحسم قلاوون أمره مع المغول، فظلُّوا خطرًا محدقًا بدولته، وإن نجح في كبح جماح هذا الخطر([1]).

ب- تحرير المرقب (682هـ/1283م)جهاد المنصور قلاوون ضد الصليبيين: لم يصبر قلاوون على انتهاء المعاهدة التي عقدها مع الصليبيين، وكانوا لا يزالون خطرًا على الدولة، يحتلُّون أجزاءً من أراضيها، ولا يحترمون عهدًا ولا ذمَّة إذا ما سنحت لهم فرصة، أو اشتدَّت بهم قوَّة، فأقدم السلطان المنصور قلاوون سنة 682هـ/1283م كتمهيد لفتح المرقب على تحرير المناطق التالية: فتح قلعة قطيبا([2]).

أيضا فتح حصن الكختا([3])، وفتح مدينة أياس([4]). ودخل السلطان قلاوون أياس بالسيف لأن ملك الأرمن في سيس هاجم حلب، وأحرق مساجد فيها، وبذلك خالف شروط الهدنة مع السلطان، وأبدى عداءه للسلطان، وغنمت رجال قلاوون الكثير، دون أن يفقد المسلمون رجلا واحدا([5]).

وقد هاجم السلطان قلاوون المرقب([6]) سنة 684هـ/ 1285م، وهو من أمنع الحصون الصليبية في الشام؛ ونجح في الاستيلاء عليه، وقد حاول صلاح الدين، والظاهر بيبرس من

([1]) المقريزي، السلوك، (ج211/2).

([2]) هي جملة قلاع آمد- ديار بكر، وكانت تابعة لها، ثم صارت تابعة لبيزنطة، ثم انتقلت إلى المغول، وقد رأى قلاوون إزالة هذه القلعة، فحاصرها، واستسلموا، وعجز المغول عن إنجادها، وتسلمها نواب قلاوون، ودعمها السلطان ونوابه، حتى أصبحت من أقوى القلاع. ابن عبد الظاهر، تشريف، (ص27)؛ المنصوري، التحفة، (ص108)؛ المقريزي، السلوك، (ج714/1).

([3]) وهو حصن قريب من حصن قطيبا، وكركر، ويتصل بالحصن قلعة كبيرة، وبجانب القلعة مدينة فيها أبراج، وعدد كبير من الشراريف، وفتح السلطان قلاوون هذا الحصن بالحيلة، لتعذر فتحه بالقوة. وأصبحت حصنا إسلاميا قويا على الفرات على غرار حصن قطيبا، وذلك سنة 682هـ/1283م. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص28)؛ المقريزي، السلوك، (ج716/1).

([4]) تم التعريف بها سابقا. ياقوت، معجم البلدان، (ج25/4)؛ الغزي، نهر الذهب، (ج144/3).

([5]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، (ص32).

([6]) المرقب قلعة حصينة مكينة في طرف جبل على البحر، فتحت على يد الملك المنصور سيف الدين قلاوون بالأمان في يوم الجمعة 19 ربيع الأول سنة (648هـ/1250م)، وكان أبو الفداء ممن حضر حصار هذا الحصن، وكان عمره اثنتي عشر سنة . أبو الفداء، المختصر، (ج21/4)؛ الذهبي، العبر، (ج354/3)؛ الذهبي، تاريخ، (ج14/51)؛ ابن الوردي، تاريخ، (ج226/2)؛ ابن شاكر، فوات الوفيات، (ج204/3).

بعده فتحه، فلم يستطيعا، وكان هذا الحصن لا يصل إليه النشاب، ولا حجارة الممنجنيق، وكان فيه من الضرر على المسلمين ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، استطاع السلطان قلاوون فتحه بعد محاصرته ثمان وثلاثون يوما، حيث هيأ السلطان قلاوون جيشا قويا، ومجهزا بكل آلات القتال، وأخذت المنجنيقات المملوكية تدك سور المرقب الحصين، حيث نجح المهندسون بإحداث فجوة تحت برج الأمل، في نهاية الزاوية الشمالية للقلعة، ووضعوا بها الأخشاب سريعة الاشتعال، فأخذ البرج يهوي، ولم يسع رجال الحامية إلا الاستسلام، وبعد الاستيلاء على الحصن، تفرغ السلطان قلاوون لحصن مرقية في سواحل حمص([1]) الذي كان تابعًا لفرسان المعبد الداوية، فاستطاع هدمه سنة 684هـ/1285م([2]).

ج- تحرير اللاذقية سنة 686هـ/1287م: لم يبقَ للصليبيين من إماراتهم سوى طرابلس التي يحكمها أمراء النورمان، وعكا([3]) التي أصبحت مقرَّ مملكة بيت المقدس بالإضافة إلى بعض الحصون؛ مثل: حصني المَرْقَب، وطَرَسُوس. ولم تكن الجبهة الصليبية متماسكة البناء؛ بل كانت الخلافات تَفْتِكُ بها، فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة للانقضاض على الإمارات الصليبية المتبقِّية، فأرسل حملة عسكرية تمكَّنت من الاستيلاء على اللاذقية سنة 686هـ/1287م([4])، حيث اشتكى تجار حلب للسلطان المنصور قلاوون بأنهم لا يرتاحون لإرسال بضائعهم إلى الميناء الصليبي في اللاذقية، ثم وقع زلزال في اللاذقية ألحق ضررا بأسوارها، فوجد السلطان أن الفرصة قد تهيأت لتحرير اللاذقية، عندها أعلن صاحب طرابلس أن هذه المدينة ممولة بالهدنة؛ لأنها تابعة لأنطاكية، وليس لطرابلس، ويبدو أن قلاوون لم يعترف بذلك إذ أرسل الأمير طرنطاي لاحتلالها، فسقطت بيده من دون عناء([5]).

([1]) حصن مرقية قلعة حصينة في نواحي حمص. ياقوت، معجم البلدان، (ج128/5).

([2]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج241/4).

([3]) مدينة عكة كبيرة واسعة الأرجاء، أصبحت بيد الإفرنج سنة (497هـ/1103م)، واستعادها، منهم: صلاح الدين بن أيوب سنة (583هـ/1187م)، ثم أخذها الإفرنج بعد ذلك في سنة (587هـ/1191م). الإدريسي، نزهة ،(ج365/1-366)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج144/4)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ج257/1- 258).

([4]) اللاذقية مدينة عامرة آهلة، وأهلها قوم من يمن من سليح وزبيد وهمدان ويحصب، من أعمال حمص. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج645/2)؛ اليعقوبي، البلدان، (162)؛ المهلبي، المسالك والممالك، (103).

([5]) ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج108/1)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج205/7).

د- تحرير طرابلس سنة 688هـ/1289م: وبعد سنتين خرج السلطانُ بنفسه إلى طرابلس[1] سنة 688هـ/1289م على رأس قوَّة كبيرة قوامها أكثر من أربعين ألف جندي، وحاصرها أربعة وثلاثين يومًا استسلمت بعدها في (ربيع الآخر 688 هـ/ أبريل 1289م)، وعلى إثرها سقطت المدن الأخرى المجاورة؛ مثل: بيروت، وجبلة، وانحصر الوجود الصليبي في عكا، وصيدا، وصور، وعيليت، بعد أن كانت الممالك الصليبية تمتدُّ على طول الساحل الشامي للبحر المتوسط، وتُوُفِّيَ السلطان المنصور قلاوون في ست من ذي القعدة سنة 689هـ/1290م، ودفن بالمنصورة[2]، دون أن يتحقَّق أمله في فتح عكا آخر الإمارات الصليبية، غير أن الأقدار شاءت أن ينال ابنه خليل قلاوون شرف إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، بعد أن نجح في اقتحام أسوار عكا المنيعة في 17 من جُمَادَى الآخرة 690 هـ= 18 من مايو 1290م، وبعد عكا سقطت بقية المعاقل الصليبية في الشام، وطُوِيَتْ آخر صفحة من صفحاتها[3].

ويرى الباحث أن عبقرية السلطان قلاوون العسكرية، وتربيته العسكرية منذ أن كان مملوكا صغيرا على يد الظاهر بيبرس، ومشاركته مع الظاهر في فتح الكثير من الأماكن، ولما أصبح سلطانا شارك في فتح الكثير من المدن التابعة للصليبيين والمغول.

---

(1) مدينة عظيمة عليها سور من حجر منيع ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة. الإدريسي، نزهة المشتاق،(ج372/1)؛ ابن بطوطة، رحلة، (ص265)؛ السيد عبد العزيز، طرابلس الشام، (ص13).

(2) القرماني، أخبار الدول، (ج274/2).

(3) القرماني، أخبار الدول، (ص200)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج316/13)؛ ابن خلدون، العبر، (ج403/5)؛ القلقشندي، صبح الاعشى، (ج498/3)؛ العصامي، سمط النجوم، (ج20/4).

ثانيا: الجهاد العسكري الإسلامي في عصر الأشرف خليل بن المنصور قلاوون:

تربيته على الجهاد في سبيل الله: نشأ السلطان خليل بن قلاوون في مصر في وقت كان الاحتلال الصليبي يخيم على كثير من بلاد المسلمين، وما زال الناس يتنفسون ريح النصر، وتحرير بيت المقدس، والقضاء على الحملة الصليبية التي استهدفت مصر، والقدس في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وفي العهد القريب كانت معركة عين جالوت في (25 رمضان سنة 658هـ/ سبتمبر 1265م)، والتي قضى فيها المماليك على جيش التتار[1]، وكان والده الملك المنصور قلاوون مجاهدًا للصليبيين، فنشأ على الجهاد والعزة ولم يرتض الذلة، فقد استفتح ملكه بالجهاد في سبيل الله حتى أنهى على الوجود الصليبي في الشام؛ ففي عام تسعين وستمائة ربيع الأول(690هـ/1291م) أمر السلطان الأشرف خليل قلاوون بتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا، وافتتحها، وافتتح الساحل كله [2]، فلم يبق بالسواحل –ولله الحمد– معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين، وأراح الله منهم البلاد والعباد[3]. وفي السنة الثانية من توليه السلطنة، نازل قلعة الروم، وحاصرها، وافتتحها[4]، وخرج لمنازلة بلاد الأرمن في السنة الثالثة، فجاءته مفاتيح قلاعهم وهو بدمشق[5].

أولا– فتح عكا وتحريرها: كان سبب فتح عكا هو نقض الهدنة مع حكومة عكا الصليبية، وهو أن عدد من التجار المسلمين أهينوا، وقتلوا، وكان الفرنجة قد كثر طمعهم، وفسادهم، وقطعهم الطريق على التجار[6]. وهناك روايات أخرى لعدد من المؤرخين عن سبب فتح عكا[7].

([1]) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، (ج7/41–42)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج17/399)؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، (ج8/49).

([2]) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص126)؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج1/137) .

([3]) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج13/ 378–379).

([4]) النويري، نهاية الأرب، (ج31/226)؛ العيني، عقد الجمان، (ج3/109).

([5]) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، (ج1/148)؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، (ج1/ورقة 174).

([6]) الدواداري، كنز الدرر، (ج3/301) .

([7]) المقريزي، السلوك، (ج1/528)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، (ج2/235)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج7/255)؛ المنصوري، التحفة الملوكية، (126–127).

وعند وفاة السلطان المنصور قلاوون سنة 689هـ/1290م، أنفذت حكومة عكا الصليبية وفدًا للتعزية للأشرف بوفاة والده المنصور قلاوون كبادرة صلح مع الأشرف خليل برئاسة فيليب ماينبيق الذي كان يحسن العربية، ومعه اثنان من الفرسان، ومحاولة تجديد ما سبق من علاقات طيبة؛ لكن الأشرف رفض مقابلة الوفد، وأدخلوا إلى السجن، ولم يخرجوا منه بعد ذلك([1]).

وقد استغاث الصليبيون سكان عكا بأوربا الغربية، ووصل عدد من الفرسان الإنجليز، وغيرهم، وكان عدد الجيش المملوكي 60 ألفًا من الفرسان، و160 ألفًا من المشاة، وفاق عدد المتطوعة هذا العدد، وكان يتقدمهم 92 منجنيقًا تم تجهيزها في دمشق، وكان فيها منجنيقات ترمي قذيفة زنتها حوالي 300 كغ، وعرادة تسمى الغاضبة، وغير ذلك([2]). وهذا هو أكبر عدد من المنجنيقات كان في يد المسلمين على الإطلاق، ووصلت هذه المنجنيقات يوم الخامس من ربيع الآخر 690هـ/1291م([3]). وقبلها بيومين وصل الملك الأشرف إلى عكا، وأقام مخيمه قبالة برج المندوب البابوي، الذي جاء إلى عكا لتوزيع البركات على المقاتلين، وكان جيش حماة الذي أتى للمشاركة في الحرب ضد الصليبيين تجاه برج الداوية، وجاءت باقي الحصون التابعة للأشرف خليل في الشام للمشاركة في المعركة المنتظرة([4]).

وعن المعركة قال أبو الفداء أحد المؤرخين الذي عايشوا المعركة: " كنا على جانب البحر، والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكانوا يقاتلوننا من المدينة ومن البحر، وكان يرمي علينا منجنيق ضخم من سفينة ضخمة في البحر، ثم أغرقت السفينة، والمنجنيق، فكان في ذلك فرج كبير لنا"([5]). وأخذت المنجنيقات الإسلامية تقذف عكا ليل نهار، وكان منها 15 منجنيقًا من طراز "إفرنجي"، وهي منجنيقات ضخمة بالإضافة إلى المنجنيق المنصوري العملاق، واستمر الحصار والرمي من المنجنيقات حتى هدمت أعالي الأبراج ، ويقول المنصوري، أحد المؤرخين وشاهد عيان: " كان الصليبيون يقاتلون قتالًا شديدًا، وأثناء ذلك لمحت برجًا من أبراج عكا قد

([1]) المقريزي، السلوك، (ج762/1)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج694/3).

([2]) أبو الفداء، المختصر، (ج31/7)؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، (ج93/8)؛ البرزالي، المقتفى، (ج222/2).

([3]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج26/5)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج694/3).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج42/1)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج698/3).

([5]) المختصر، (ج31/7).

أثرت فيه المجانيق، فعملت ستارة ونصبتها تجاه البرج المذكور، وتقدمت بها، فقذفوها بالمجانيق، فلم تعمل فيها شيئًا، ولم تنفذ فيها السهام، وشرعنا في ردم الخندق الذي بين السورين، فصار طريقًا سالكًا، وسمع السلطان فأعجبه"(¹).

وقد سقطت عكا في 17 جمادى الأولى 690هـ/18 أيار 1291م، ودام الحصار والقتال حول عكا مدة 43 يومًا، ثم اقتحمها الجنود وهم يكبرون ويهللون؛ واستعصت على الأشرف خليل وجنوده الداوية والإسبتارية ، وتحصن الأرمن في أربعة أبراج شواهق وسط البلد، وحفروا حولها، وأعلنوا العصيان(²). وحاولوا قتل بعض المسلمين، ونجحوا في ذلك؛ وفي 28 جمادى الأولى 690هـ/29 أيار 1291م، نزل من البرج من فيه بالأمان، وقد عمد الكثير من الفرنج إلى الهرب؛ لكن الأشرف خليل تعقبهم، وضرب رقاب الرجال، وتعقبهم المسلمون قتلا وأسرا(³). ودخل السلطان الأشرف دمشق في جمادى الآخرة 690هـ/ أيلول سبتمبر 1291م، وفرح الناس به فرحًا شديدًا، وصلى بالجامع الأموي، وغادر دمشق في رجب 690هـ/حزيران يونيو 1291م، ووصل إلى قلعة الجبل في القاهرة في شعبان 690هـ/تموز يوليو 1291م، ودخل من باب النصر(⁴). ولقد عزا بعض المؤرخين هزيمتهم في عكا إلى إهمال أهلها فروض الدين، والقانون والفضيلة الخاصة بالصليبيين، وانغماسهم في حياة الرذيلة(⁵).

ثانيًا: تحرير الساحل السوري:

أ- تحرير صور(19 جمادى الأولى 690هـ/19 أيار 1291م): صور مدينة قديمة تقع جنوب بيروت، أسسها الفينيقيون، وحررها العرب من البيزنطيين سنة 15هـ/636م في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، سيطر عليها الفاطميون سنة 370هـ/980م، وبعدها في سنة 518هـ/1124م سلمها حاكمها الفاطمي للصليبيين مقابل مبلغ من المال، ولم يستطع صلاح الدين، والعادل، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون فتحها، وفتحها الأشرف خليل، فعندما توجه الملك الأشرف خليل إلى تحرير عكا، جهز جماعة من الجند، ووجههم نحو صور، فلما فُتحت

([1]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج9/280) ؛ سالم، تاريخ الأيوبيين والمماليك، (ص274).

([2]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج5/27)؛ منصور، تصفية الوجود الصليبي، (ص99).

([3]) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، (ج1/45).

([4]) المقريزي، السلوك، (ج1/769).

([5]) النويري، نهاية الأرب، (ج31/203)؛ المقريزي، السلوك، (ج1/767).

عكا، وعلم أهل صور بذلك، هربوا، وأخلوا صور، فسيطر عليها جيش الأشرف خليل سنة 690هـ/1291م([1]).

ب- تحرير صيدا(18 رجب691هـ/17 تموز 1292م): صيدا مدينة فينيقية كانت تدعى صيدون، ويعود تاريخها إلى سنة(4000 ق.م) سنة 47هـ/667م، تقع جنوب بيروت، فتحها العرب في عصر معاوية بن أبي سفيان، بعد أن كانت تحت الحكم البيزنطي، وبعدها احتلها الصليبيون سنة 505هـ/1111م، ثم حررها صلاح الدين سنة 583هـ/1187م، وبعد فترة من الزمن عاود الصليبيون احتلالها وكان ذلك سنة 625هـ/1228م. ولما قرر جيش الأشرف خليل تخليص صيدا من الصليبيين، توجه الأميران علم الدين سنجر الشجاعي نائب دمشق، ومعه زين الدين كتبغا لحصارها، إلى أن حرروها يوم الإثنين 20 جمادى الأولى سنة 690هـ/1291م([2]). وفي اليوم التالي وصلت الأخبار بفتحها إلى دمشق([3]).

والتجأ أهلها إلى جزيرة فيها برج غاية في القوة، والمنعة لا يصله حجرًا لمنجنيق، واستمر الحصار على هذا البرج والجزيرة قرابة شهرين، وفي 18 رجب 690هـ/1291م أحرق الفرنجة الجزيرة، وصعدوا إلى المراكب، ودخل المسلمون، وأحرقوا القلعة، ودمروها عن بكرة أبيها([4]). وذكر بعض المؤرخين أن مدينة صيدا سقطت بأيدي جيش الأشرف خليل بن قلاوون المملوكي في 15 رجب 690هـ/1291م([5]).

ج- تحرير حيفا في (2 شعبان 690هـ/31 تموز 1291م): تعد مدينة حيفا مدينة فينيقية عريقة، ورد اسمها في التلمود، باسم: حيفة، سكيمينوس، ولم يرد ذكرها في التوراة، وسماها الصليبيون كيفا، فتحها العرب أيام الفاروق عمر بن الخطاب، احتلها الصليبيون سنة 494هـ/ 1110م، وأصبحت تحت إمرة تنكريد، وبنوا فيها قلعة حصينة، وتحررت على يد صلاح الدين سنة 583هـ/1187م، وأمر بتدميرها وإحراقها، وفي سنة 587هـ/1191م استعادها الصليبيون

([1]) المقريزي، السلوك، (ج761/1-765)؛ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، (ج45/1).

([2]) ابن الأثير، الكامل، (ج430/10)؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، (ج121/8)؛ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، (ج53/1)؛ البرزالي، المقتفى، (ج244/2).

([3]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج25/5)؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، (ج121/8).

([4]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج25/5).

([5]) ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، (ج53/1)؛ البرزالي، المقتفى، (ج244/2).

مع عكا، وتأسست فيها رهبانية الكرمل سنة 609هـ/1212م، وحررها الظاهر بيبرس سنة 663هـ/1265م، ثم احتلها الصليبيون مرة ثالثة، وحررها الأشرف خليل بن قلاوون سنة 690هـ/1291م بدون مقاومة، وقتل رهبانها، ودمرها، وفي القرن العشرين أعيد بناؤها، وازدهرت وأصبحت مدينة لها مكانة في التاريخ الجغرافي ، بعدما كانت قرية حقيرة([1]).

د- تحرير بيروت(23 رجب 690هـ/22 تموز 1291م): مدينة بيروت موغلة في القدم ، فتحها المسلمون سنة 19هـ/640م، وأصبحت منذ ذلك التاريخ الميناء الرئيسي لدمشق سياسيا، وإداريا، احتلها الصليبيون مرتين: المرة الأولى سنة 504هـ/1110م، وبنوا فيها كنيسة مار يوحنا التي تحولت فيما بعد إلى الجامع العمري، حررها صلاح الدين سنة 583هـ/1187م، ثم المرة الثانية عاود الصليبيون احتلالها بعد عشر سنين([2]).

وكان أهل بيروت متمسكين بالهدنة مع الأشرف خليل؛ لكنهم آووا من هرب من الفرنج من عكا، وغيرها، فخالفوا شروط الهدنة، كما طُلب منهم أن يضموا مراكبهم إلى مراكب المسلمين أثناء حصار عكا، فرفضوا، ففرض عليهم حصار بحري، ثم أُخرجوا منها، واستولى جيش الأشرف خليل على القلعة في 23 رجب 690هـ/1291م، وكانت القلعة امتنعت قليلًا، فتم التفاهم مع صاحبها، فاستسلم، وأُسر من في القلعة والبلد من المقاتلين، والفرسان([3]).

وقد أمر الأشرف خليل نائبه الشجاعي بفتح بيروت، فلما وصل إلى بيروت رحبوا أهلها بالشجاعي وجيشه، وأنزلوه في القلعة، فلما استقر بها، أمر أهلها نقل أولادهم ونساءهم إليها ففعلوا، وذهب إلى المقاتلين فقيدهم، وألقاهم في الخندق، وكان ذلك رد محين الشجاعي نائب الأشرف خليل على ما فعله الصليبيون بأمراء التنوخيين الذين غدروا بهم وقتلوهم في 23 رجب 690هـ/1291م([4]).

هـ- تحرير عثليث أو عتليت (شعبان 690هـ/آب 1291م): عثليث أو عتليت قرية جنوب حيفا عند جبل الكرمل، عُرفت بالحصن الأحمر، حررها المسلمون من البيزنطيين على يد

([1]) المقريزي، السلوك، (ج527/1)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج312/3)؛ البستاني، دائرة معارف البستاني، (ج278/7).

([2]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج30/5)؛ البستاني، دائرة معارف البستاني، (ج744/5-753).

([3]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج30/5).

([4]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج30/5)؛ ابن الفرات، تاريخ، (ج121/8)؛ ابن الجزري، تاريخ، (ج54/1).

معاوية بن أبي سفيان، واحتلها الصليبيون مرتين: المرة الأولى سنة 504هـ/ 1110م، وحررها صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ/ 1187م، ثم سقطت ثانية بيد الصليبيين سنة 614هـ/1217م، أقام فيها فرسان الداوية قلعة حصينة تعرف بقلعة الحُجاج، ثم ضاعفوا من تحصينها حتى أصبحت القاعدة الأولى لفرسان الداوية في أرض الشام(1).

وقد حاول الملك المعظم عيسى(2)، فتحها سنة 617هـ/1220م؛ لكنه لم ينجح، ثم كرر الملك الظاهر المحاولة سنة 633هـ/1265م؛ لكنها استعصت عليه، وفي سنة 690هـ/1291م هرب سكانها لانهيار الصليبيين، فهدم المسلمون الحصن، ووصلت أخبار النصر دمشق يوم 16 شعبان سنة 690هـ/1291م(3).

واختلف المؤرخون في يوم تحرير عتليت؛ لأنه كان يضرب بها المثل في حصانتها؛ لأن البحر يحيط بها من سائر جهاتها؛ ولكن التوفيقات الإلهية كان لها الدور الأكبر في تحريرها، فعندما علم أهل عتليت بفتح صور، وصيدا، وبيروت، وغيرها، فما كان من أهل عتليت إلى أن أحرقوا أشياء كثيرة، وقتلوا خيولهم، ودمروا مراكبهم، وهربوا منها ليلة الأحد 15 شعبان 690هـ/1291م(4).

و- تحرير جُبيل (شعبان 690هـ/آب 1291م): جبيل مدينة قديمة، تقع بين طرابلس وبيروت، كانت تسمى أفايا، وسماها الكنعانيون جيبال، وسماها اليونانيون بيبلوس، فتحت في عهد عمر بن الخطاب على يد يزيد بن أبي سفيان سنة 13هـ/634م، ثم أعاد الروم احتلالها،

---

(1) المقريزي، السلوك، (ج528/1)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج262/2).

(2) هو شرف الدين عيسى، ابن العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي بن مروان، ابن والد الملوك نجم الدين أبي الشكر، الأيوبي، الكردي، الفقيه، الحنفي، صاحب دمشق؛ كانت ولادته في سنة(576هـ/ 1180م)، على الأرجح. كان عالي الهمة حازماً شجاعاً مهيباً فاضلاً جامعاً شمل أرباب الفضائل محباً لهم، وكان حنفي المذهب، متعصباً لمذهبه، وله فيه مشاركة حسنة. توفى في ذي القعدة من سنة (624هـ/ 1226م). الدواداري، الدر المطلوب، (ج148/7)؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان، (ج550/8)؛ المقريزي، المقفى، (ج729/8-730) ؛ السلوك، (ج154/1-155. ص167 ، 224).

(3) ابن الجزري، تاريخ، (ج54/1).

(4) المنصوري، التحفة الملوكية، (ص55)؛ المقريزي، السلوك، (ج528/1)؛ ابن الجزري، تاريخ، (ج54/1)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج30/5)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج262/2).

واستعادها معاوية منهم، وفي سنة 353هـ/964م، احتلها الروم 13 سنة([1]). وفي سنة 497هـ/1104م سقطت بأيدي الصليبيين، وفي سنة 583هـ/1187م، حررها صلاح الدين، وفي سنة 593هـ/1197م سقطت مرة ثانية بيد الصليبيين، وبقيت حتى عصر الأشرف خليل بن قلاوون، ولما سقطت عكا، أمر السلطان الأشرف خليل بهدم قلعة جبيل، وأسوارها، ثم جاء الأمير علم الدين الشجاعي وسواها بالأرض في شعبان سنة 690هـ/1291م([2]).

ز- تحرير طرطوس (5 شعبان 690هـ/1291م): أنطرطوس، أو أنطرسوس، أو طرسوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص([3]).

وقد فتحها العرب المسلمون بقيادة عبادة بن الصامت سنة 17هـ/638م، وحصنها معاوية بن أبي سفيان، سيطر البيزنطيون عليها فترة من الزمان، ثم أُخرجوا منها، وفي سنة 495هـ/1102م احتلها الصليبيون بقيادة ريموند أمير تولوز، وأقام فيها الداوية([4]).

وقد حررها صلاح الدين سنة 584هـ/1188م، بعدما دمر أبراجها الحصينة، وأبقى كنيسة العذراء المشهورة، وبعد فترة أعاد الصليبيون احتلالها حتى عصر الأشرف خليل بن قلاوون. وجدير ذكره أن طرطوس وقعت معاهدة صلح مع الملك المنصور قلاوون سنة 681هـ/1282م، وكان يتبعها حصن العريمة، وميعار، وفي الخامس من شعبان 690هـ/3 آب 1291م هاجمها الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، فهرب أهلها إلى جزيرة أرواد، ودخلت جيوش الأشرف خليل المدينة وخربتها([5]).

ح- تحرير قلعة الروم(قلعة المسلمين) (11 رجب 691هـ/1292م): كان الملك الأشرف خليل يدرك تحالف الأرمن مع الصليبيين والمغول معًا، وكان يخطط لاجتياح العراق، وتدمير

([1]) ابن الجزري، تاريخ، (ج340/1).

([2]) ابن الجزري، تاريخ، (ج55/1)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص179).

([3]) ياقوت، معجم البلدان، (ج270/1).

([4]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج31/5)؛ ابن الجزري، تاريخ، (ج55/1)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص180).

([5]) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج31/5)؛ ابن الجزري، تاريخ، (ج55/1)؛ النهار، تاريخ المماليك، (ص180).

من يحتلها من المغول الذين تفرغوا للكيد للمسلمين حيث كان دولة الأشرف خليل حصنهم الأول، والمدافع عنهم، ولذلك قرر الأشرف توجيه ضربة قاضية للأرمن من خلال فتح قلعة الروم التي صارت فيما بعد قلعة المسلمين. والقلعة غاية في الحصانة، تقع على الضفة اليمنى للفرات مقابل البيرة، وهي في وسط بلاد المسلمين، وفيها مقام بطرك الأرمن، وتحيط بها الجبال الشاهقة، وحولها أودية وخنادق، وفيها من الأرمن عصابات، ومثلهم من التتار[1].

نودي في القاهرة بالنفير العام للجهاد في سبيل الله[2]، عملا بقوله تعالى: " انفروا خفافا وثقالا"[3]، وعملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"[4]. وتم تجهيز الجيش المملوكي بقيادة الأشرف خليل، بالنقابين، والزراقين، والعدد الوافرة، وآلات الحرب، والسير نحو القلعة، ووصلت الجيوش إلى القلعة المنشودة يوم 8 جمادى الآخرة سنة 691هـ/1292م[5]. وتم حصارها، وبعد حصار محكم، ومعارك دامية، كان للأسلحة الثقيلة الدور الحاسم فيها، استسلمت القلعة بعد 33 يوما من الحصار يوم 11 رجب 691هـ/1292م، وحاول التتار مساعدة الأرمن؛ لكنهم أخفقوا، وحاول خليفة الأرمن الاعتصام بالقلعة، ولكنه استسلم هو وقومه، ورضوا بالأسر[6]. وكلف الأشرف خليل الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بترميم القلعة وأسوارها، فحصنها ورممها، وعمر المدينة، فصارت بعدها قلعة المسلمين بحق[7]. واحتفل المسلمون بهذا النصر المؤزر في دمشق، وفي القاهرة عندما وصلها الأشرف خليل احتفالا عظيما، وتم عزل علم الدين الشجاعي وهو في دمشق، وتعيين عز الدين أيبك الحموي[8].

---

(1) ياقوت، معجم البلدان، (ج4/443)؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (ج5/44-47).

(2) المقريزي، السلوك، (ج1/777).

(3) التوبة: 41.

(4) البخاري، صحيح مسلم، (ج4/23).

(5) الدواداري، كنز الدرر، (ج3/323)؛ البرزالي، المقتفي، (ج2/278) .

(6) المنصوري، زبدة الفكر، (ج9/288)؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، (ج8/136).

(7) أبو الفداء، المختصر، (ج7/35).

(8) المقريزي، السلوك، (ج1/779).

ط- تحرير بهنسا ومرعش وتل حمدون(رجب 692هـ/1293م): فقد حضرت رسل الأرمن من لدن صاحب سيس، عاصمة الأرمن، وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على أن يسلموا للسلطان الأشرف خليل ثلاث قلاع من أحسن حصون صاحب سيس، هي: بهنسا، ومرعش، وتل حمدون، وكان ذلك تمام الفتح، وتم في رجب سنة (692هـ/1293م)، وكانت بهنسا مدينة إسلامية، سلمها هولاكو إلى الأرمن، فجعلوها رأس حربة لقتال المسلمين، كما تم تسليم الأمير طوغان والي بر دمشق الذي كان أسيرًا لديهم([1]).

وكان تحرير بهنسا ومرعش وتل حمدون هي آخر أعمال الأشرف العسكرية، حيث قُتل شر قتلة في يوم الخميس الثاني عشر من المحرم سنة 693هـ/12 ديسمبر 1293م([2]).

ونستنتج مما سبق أن السلطان الأشرف خليل كان قائدا عسكريا فذا، بالرغم من فترة حكمه القصيرة، والتي كانت من (690-693/1291-1293م)، ففقد استطاع تحرير عكا بعد أن عجز عن فتحها صلاح الدين، والسلطان قلاوون، واستطاع تحرير الساحل الشامي(السوري) من الصليبيين، فحرر كل من: صور، صيدا، حيفا، بيروت، عثليث ، جبيل، طرطوس، واستطاع إخراجهم من ديار الإسلام، وحرر قلعة الروم ثم حرر بهنسا، ومرعش، وتل حمدون.

فقد ظلمه الكثير من المؤرخين العرب والمسلمين، وكذلك ظلمه المؤرخون الأجانب، وربما كان حقد المستشرقين غلى الأشرف خليل بالذات هو سياسة الإبادة الجماعية لأسرى الصليبيين، وهو ما لم يفعله قائد من قبل، وهناك قلة قليلة من المؤرخين ذكروه، وأثنوا عليه هو وأبيه السلطان المنصور قلاوون، حيث استطاعوا بدهائهم السياسي والعسكري تخليص الأمة الإسلامية والمسلمين من الصليبيين، والمغول.

([1]) الدواداري، كنز الدرر، (ج340/3).

([2]) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، (ج155/8).

ثالثا: الجهاد العسكري الإسلامي في عصر الناصر محمد بن قلاوون: عاش الناصر محمد حياة عصيبة، حيث ولد وأبوه يحارب الصليبيين في بلاد الشام، وتم له الاستيلاء على حصن المرقب([1])؛ وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره؛ وحظي بعطف، وحنان، ورعاية أخية الملك الأشرف خليل، وأخذ يعلمه كباقي المماليك، فحفظ القرءان الكريم، وتأدب بآداب الشريعة، وداوم على الصلاة، كما تعلم الخط، وتلقن الناصر أساليب الحرب، وفنون السياسة([2]). اعتلى العرش للمرة الأولى سنة 639هـ/1293م، وتلقب بالناصر([3])، كل هذه الأمور أثرت في نفسية الناصر، حيث كانت للناصر محمد بن قلاوون مواقف عديدة مشهودة له ضد الصليبيين والمغول، منها: لقائه الملك محمد غازان([4])، ودخوله بلاد سيس. كذلك دخوله مدينة اياس، وجزيرة أرواد([5])، وغيرها، حيث عصفت في هذه الحقبة، –حقبة تولي الناصر محمد للمرة الثانية أمور السلطنة– أمور عصيبة([6])، ألا وهي زحف التتار، فتولى الناصر محمد قتالهم، ففي المرة الأولى انهزم، وفي المرة الثانية أعد لهم العدة، وانتصر عليهم([7]). وبعد انهزام التتار وصفت فترة حكم الناصر محمد بن المنصور قلاوون بالسلم إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى([8]).

وفي المرة الثالثة من حكمه (709–741هـ/1309–1340م)([9])، عمل الناصر بحزم وقوة، والعمل دون تهاون، ودون رحمة أو شفقة، والإطاحة بكلّ ما يواجهه، وأوقف الزحف

([1]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج243/3)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج408/8).

([2]) أبو الفدا، الختصر في أخبار البشر، (ج22/4)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، (ج243/3)؛ حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، (ص61).

([3]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج41/8).

([4]) المنصوري، مختار الأخبار، (ص128–130)؛ الصفدي، أعيان العصر، (ج85/5–88)؛ ابن حجر الدرر، (ج292/3–294)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (ج163/8–170)؛ ابن إياس، بدائع الزهور، (ج403/1 –413).

([5]) تم التعريف بها سابقا. الإدريسي، نزهة المشتاق، (ج375/1)؛ ياقوت، معجم البلدان، (ج162/1).

([6]) المقريزي، الخطط، (ج239/2)؛ المقريزي، السلوك، (ج421/2)؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، (ص6–7).

([7]) ابن إياس، بدائع الزهور، (ج403/1 –413).

([8]) ابن دقماق، الجوهر الثمين، (ص366).

([9]) المقريزي، السلوك، (ج103/2)؛ الشجاعي، تاريخ، (ص7).

المغولي، وأبعد خطر الصليبيين، ومن دلائل عظمة هذا السلطان أن العرش ظل لأبنائه، وأحفاده إلى نهاية عهد دولة المماليك البحرية ، فقد حكم منهم اثنا عشر سلطاناً، وقد كان ذلك بسبب طول فترة حكم الناصر وحب الرعية له([1]).

وشهدت الساحة المملوكية في عهد الناصر عدة معارك، كانت حاسمة في التاريخ الإسلامي، نوجزها فيما يلي:

أ- معركة مجمع المروج سنة (699هـ/1299م): قبل الحديث عن هذه المعركة، لابد من الإشارة أن عداء المغول، والصليبيين ضد الإسلام، والمسلمين واحد، فقد ذكر المؤرخون أن التعاون بين المغول والصليبيين في عهد (غازان)([2]) قائد جيش المغول، وأنشط حكامه، كان على أوجه، وكان الهدف الرئيس القضاء على الإسلام والمسلمين، وتواترت الأخبار من حلب في سنة 698هـ/1298م بعزم غازان على دخول الشام، فتجهز السلطان الناصر لقتاله، وتعرض السلطان الناصر لمؤامرة كادت أن تودي بحياته، فاستطاع القضاء عليها، ثم عادر دمشق إلى حمص، فأعلمه كشافته أن التتار نزلوا سلمية([3])، فتحرك باتجاههم، والتقاهم عند مجمع المروج، المعروف بوادي الخازندار بين حمص وحماة شرقي حمص، وكانت أعدادهم قرابة المائة ألف، بينما كان عدد جيش الناصر محمد 25000 فارس؛ لكن الجيش المملوكي مني بالهزيمة لعدم الاستعداد الكافي للقتال([4])، وصادر غازان الخزينة السلطانية بكاملها في حمص، فتقوى بها هو وأصحابه، ثم انسحب إلى دمشق، فدخلها غازان، وأعاثوا فيها فسادا، ثم انتقلوا إلى الأغوار، وبيسان ونهبوها، ثم أغاروا على بيت المقدس، وغزة، وأذلوا أهلها، وقتلوا العديد من الرجال([5]).

([1]) الجبرتي، تاريخ، (ص34)؛ طرخان، مصر، (ص1)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص126).

([2]) محمد بن أرغون بن أبغا. بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان، ويقول العامة قازان، جلس على تخت الملك سنة (693هـ/1294م)، توفى سنة (703هـ/1303م) إثر هزيمة جيوشه في مرج الصفر سنة (702هـ/1302م) قرب مدينة دمشق. ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج292/3-294).

([3]) سَلَمِيَّة: من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين وكانت تعد من أعمال حمص. ياقوت، معجم، (ج240/3).

([4]) أبو الفداء، المختصر، (ج52/7)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص49)؛ حسين، تاريخ الأيوبيين والمماليك، (ص189).

([5]) المنصوري، مختار الأخبار، (ص111)؛ المقريزي، السلوك، (ج882/1-889).

ب- تأديب أهل كسروان(699هـ/1300م): وفي سنة 699هـ/1300م، وبعد هزيمة مجمع المروج انقض سكان الجبل في لبنان على العساكر الإسلامية المنسحبة من المعركة، وكان أشد فتكا من التتار، فقصدهم الأمير جمال الدين آقوش الأفرم في عساكر الشام، واستدعى عساكر الحصون الإسلامية، وطرابلس، وحشد الحشود، وأحاط بهم من كل جانب، فقتل العديد منهم، وسبى العديد من النساء، وأسكن من بقي في مساكن التركمان([1]).

ج- تحرير أرواد (702هـ/1303م): وهي آخر معقل للصليبيين في الشام، وقاعدتهم التي يحاولون منها العودة إلى احتلالها، وهي بقرب طرطوس، كما اجتمع بها كثير من الفرنج، وبنوا فيها سورًا وتحصنوا، وكانوا يقطعون الطريق على المسلمين([2])، فقرر الناصر محمد، وجيشه المملوكي تحريرها، وجهزوا لذلك حملة، وعُين الأمير جمال الدين آقوش العلائي قائدًا عامًا للحملة، التي قاتلت حتى استطاعت فتح جزيرة أرواد في المحرم سنة 702هـ/1303م، ووصل الخبر دمشق، فدقت الأفراح والبشائر مدة أيام([3]). واختلف المؤرخون في سنة حدوث هذه المعركة، منهم من قال في صفر، ومنهم من قال في المحرم([4]).

د-معركة شقحب(مرج الصفر) سنة (702هـ/1303م): استطاع الناصر محمد استمالة أمراء المماليك الذين نصبهم غازان، وبذلك عاد الهدوء إلى بلاد الشام؛ لكن المغول استمروا في سياستهم العدائية للمماليك، واستمرت المناوشات بين الطرفين في بلاد الشام، وأراد غازان القضاء على دولة المماليك نهائيا، وكان موقف السلطان الناصر محمد ضعيفًا، وسرعان ما تدارك الناصر الأمر، واتفق مع الأمراء على أن يلتقوا عند عقبة شحورا، بين دمشق والكسوة، واتفقوا على لقاء المغول عند شقحب، تحت جبل غباغب من أرض مرج الصفر، فوقف السلطان في القلب ومعه بيبرس الجاشنكير، وسلار، ووقف حسام الدين لاجين في الميمنة، والأمير سيف الدين قبجق بالعربان، وعساكر حماة في الجناح الأيمن من الميمنة، أما الميسرة فوقف فيها الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، وقرا سنقر وغيرهما([5]).

([1]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج387/9)؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، (ج365/4).

([2]) أبو الفداء، المختصر، (ج57/7).

([3]) ابن حبيب، تذكرة النبيه، (ج253/1)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج57/7)؛ المقريزي، السلوك، (ج928/1).

([4]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج366/9)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج57/7)؛ العمري، مسالك الأبصار، (ج491/27)؛ المقريزي، السلوك، (ج928/1).

([5]) المنصوري، زبدة الفكر، (ج375/9)؛ العلبي، معارك المغول، (ص138).

ووقف الغلمان صفا واحدا وراء العسكر، وقيل لهم: إذا خرج من الجند أحد اقتلوه، ولكم سلاحه وفرسه، وكان جنود الميمنة لما قتل قادتهم انهزموا، كما حصلفي معركة حمص سنة 680هـ/1281م، فتبعهم المغول، وهرب الناس، وظنوها الهزيمة، وسرقوا الخزائن السلطانية، ودخلوا دمشق، وظن الجميع أنها الهزيمة[1].

وأعاد الناصر محمد تنظيم الجيش الإسلامي ودارت رحى الحرب بين الطرفين في (مرج الصفر) سنة (702هـ/1302م) قرب مدينة دمشق من جديد، وعندها تمكن الناصر محمد بجيشه الكبير من سحق جيش المغول، وقتل المسلمون من المغول مقتلة عظيمة، ولاذ من بقي بالفرار، فتبعهم المسلمون ووصلوا إلى الفرات[2]، وأرسل لغازان يحقره ويهينه، ولم يحتمل الأخير مرارة الهزيمة، فمات حزنًا وكمدًا سنة (703هـ/1304م)[3].

وماتت مع غازان مخططاته، ودخلت العلاقات المغولية المملوكية مرحلة جديدة من الود والتعاون والصفاء بدءًا من عصر أبي سعيد بن أولجايتو ابن عم غازان الذي أسلم، وحسن إسلامه[4].

هـ- آمال الصليبيين في حملات صليبية ضد المشرق الإسلامي:

أدرك السلطان الناصر محمد ما يحاك للمشرق الإسلامي من مؤامرات؛ وبالرغم من ذلك وصل السلطان الناصر محمد وفد من الكرج، وسألوه أن يعيد إليهم كنيسة لهم في القدس تدعى الكنيسة المصلبة، جعلها المسلمون مسجدا، فأفتى السلطان القضاة، وأفتوه بإعادة الكنيسة لهم، وذلك سنة 705هـ/1306م[5]. وفي سنة 707هـ/1307م كان في آفنيون حيث مركز البابا الجديد، مقدم الداوية، ومقدم الإسبتارية، فطلب إليهم البابا تقديم خطط عملية للقيام بحملة صليبية جديدة، فاقترحا احتلال الساحل السوري، وفرض حصار اقتصادي على دولة الناصر

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، (ج27/492).

(2) المنصوري، مختار الأخبار، (ص123)؛ العلبي، معارك المغول، (ص138).

(3) زقلمة، المماليك، (ص48)؛ عاشور، العصر المماليكي، (ص50)؛ لينبول، سيرة القاهرة، (ص177). قيطاز، "الهجمات المغولية على الشرق العربي وموقف حماة النضالي" (ص147)؛ فياض، الغزو، (ص67)؛ حسين، تاريخ الأيوبيين والمماليك ، (ص190-191).

(4) ابن حجر، الدرر الكامنة، (ج3/294)؛ العلبي، معارك التتار، (ص145).

(5) المنصوري، مختار الأخبار، (ص106)؛ أبو الفداء، المختصر، (ج7/43-45).

محمد المملوكية[1]. بالقبض على وقد رد السلطان الناصر بإرسال حملة بحرية سنة 715هـ/1315م نحو ملطية في شما سورية بقيادة نائب دمشق الأمير تنكز الناصري الذي فتح مالطية، ونهبها، واحتل صاحب قبرص الأسكندرية بطرس الثاني بجيش من قبرص، وجنوة، ورودس، وفرنس، والبندقية، ودخلوا المدينة، وقتلوا من أهلها كثيرا، فرد السلطان على ذلك جميع من بديار مصر، وبلاد الشام من الفرنج، وألزم البطريرك والنصارى بجميع المال لفكاك أسرى المسلمين، وتتبع ديارات النصارى في مصر، والشام، فاضطر بطرس الثاني التراجع، وأطلق من بيده من الأسرى، والمنهوبات، وعقد معاهدة سلام مع الناصر محمد سنة 763هـ/1360م[2].

رابعا: الجهاد العسكري الإسلامي في عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده:

استمر الجهاد في عهد أولاد الناصر محمد وأحفاده، ففي عهد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة 761هـ/1359م، حيث استعاد سيس، وأذنة بالأمان وطرسوس عنوة، وحرر المصيصة، وقلاعًا أخرى[3].

ولم يذكر التاريخ معارك حاسمة لأولاد الناصر أو أحفاده ضد الصليبيين، أو المغول التتار، كما كان عليه السلطان قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد. فقد خاضوا معارك طاحنة مع المغول، والصليبيين الذين أرعبوا الدول في ذلك الزمان، وانتصروا عليهم، وحموا الإسلام والمسلمين من شرورهم، وتحطيم المجانيق المصنوعة في دمشق مجانيق الصليبيين، ودك حصونهم رغم التقدم المذهل للصليبيين في بناء الحصون والمعاقل والقلاع، وتجديد القلاع، مثل: قلعة دمشق، وحلب، وقلعة الروم، وقلعة الشوبك.

وهكذا فإن أسرة المنصور قلاوون استطاعت الأخذ بعوامل النصر والتمكين التي نجحت من خلالها في بناء دولة عظيمة سادت رقعة جغرافية مهمة وانتصر على أعتى القوى السياسية والعسكرية في ذلك الزمان؛ لتجد لنفسها مكانًا بين الأمم الناجحة التي خلدها التاريخ وافتخر بها الأحفاد، وشهد لها الأعداء والأسياد.

---

(1) النويري، نهاية الأرب، (ج24/30)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج725/3-728).

(2) المنصوري، زبدة الفكر، (ج383/9)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج725/3-728).

(3) القرماني، أخبار الدول، (ج287/2).

الخاتمة

وقد تضمنت عددا من النتائج والتوصيات

أولًا: النتائج: لقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، هذه أهمها:

– كان المماليك رقيقًا، يشترون، ويستخدمون لأغراض في المجتمعات منذ القدم، وأن دولة المماليك في مصر قامت بعد وفاة صلاح الدين، وأن المماليك كان لهم الدور الأكبر في التصدي للصليبيين(الحملة السابعة).

– اهتم سلاطين أسرة قلاوون بالتربية الدينية، من خلال التربية على الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة الأعداء، وبالجيش وإعداده، وتجهيزه بالمعدات العسكرية، وكان ذلك من العوامل الحاسمة في التصدي لأعداء المسلمين، فكان من أسباب النصر والتمكين لدولة أسرة قلاوون.

– حرصت أسرة قلاوون على التنمية الخلقية في المجتمع المملوكي، من خلال رفع الظلم، ومعاقبة من ساءت أخلاقه، وحماية المظلومين، وإلغاء جميع المكوس، والضرائب من البلاد، وبذل أسرة قلاوون المال، والإنفاق على البلاد في مصر، والشام، والتعامل مع أهل الذمة كما نص الشرع الإسلامي.

– التمسك، والحفاظ على مبادئ الإسلام الثابتة، وذلك من خلال محافظة سلاطين أسرة قلاوون وأولادهم، وأحفادهم على شعائر الإسلام.

–اهتمام سلاطين أسرة قلاوون بالعمران المدني، وتمثل في: إنشاء المدارس، والبيمارستانات، والمساجد وغيرها.

– الاهتمام بتنمية الحياة الفكرية، وتمثل في: إنشاء المؤسسات العلمية، كالمساجد، والمدارس، والبيمارستانات، والخانقاوات، والزوايا، والربط، والمكتبات، وتشجيع المؤلفين للتأليف، والكتابة في مختلف المجالات، وخاصة الحث على الجهاد، وتحرير الأرض الإسلامية.

– اهتمام سلاطين أسرة قلاوون بتنظيم الدولة، وإدارتها بكفاءه، وتمثل في: إنشاء الدواوين، والوظائف، وتعيين القضاة، والاهتمام بنظام البريد، ووسائل الاتصال.

–تحقيق الازدهار الاقتصادي، حيث شمل: تحقيق نهضة تجارية، فحرصت أسرة قلاوون على استمالة التجار الشرقيين والغربيين إلى مصر؛ رغبة بالنفع الناتج من وراء تجارتهم، واجتذاب رأس المال الخارجي إلى القاهرة، ودمشق، والتي أدت إلى نجاح المماليك في عهد أسرة قلاوون

بالحرب الاقتصادية، والتي حاولت البابوية من خلالها تحقيق النصر بعد فشلهم سياسيا، وعسكريا.

-عقد المعاهدات التجارية بين الدول ودولة أسرة قلاوون، والاهتمام بالزراعة والصناعة، وتمثل الاهتمام بالزراعة، النتائج التالية: الإصلاحات التي قامت في عهد أسرة قلاوون، من حيث إنشاء الجسور، والقناطر، وشق الخلجان، والاهتمام بالثروة الحيوانية، حيث شغف سلاطين أسرة قلاوون بامتلاك الخيول، ومختلف الحيوانات المفيدة للزراعة.

-أما عن الاهتمام بالصناعة، فلم يغفل عنها سلاطين أسرة قلاوون؛ لأنها موردًا رئيسًا للدولة، وكان من أهم النتائج للاهتمام بالصناعة: شهرة بعض المدن المصرية في صناعة النسيج، وكان للسلاطين دور صناعة تسمى دور الطراز الخاص تصنع فيها الخلع التي تمنح للرجال.
- انتشار صناعة السكر، والصناعات الغذائية، مثل: صناعة الزيت، والتمر، والحنطة، صناعة الأواني المعدنية، وصناعة التكفيت، وصناعة الزجاج الملون، وصناعة الورق، وعرفت صناعة الرنوك أي صناعة الشارات.

- اهتمام دولة أسرة قلاوون بالاقتصاد لدعم المؤسسة العسكرية، نتج عنه: وجود موارد شرعية، ومنها: الزكاة، والخراج، ودور الضرب لصك العملات، وموارد غير شرعية، مثل: فرض المكوس، ونتج عنه: وجود أنواع عديدة من المكوس في دولة قلاوون.

-تحقيق الأمن والاستقرار داخل الدولة المملوكية في عهد أسرة قلاوون، وذلك من خلال عقد الاتفاقيات مع مختلف الدول ، والمعاهدات، والصلح مع الأعداء.

- أوضحت الدراسة أن سلاطين أسرة قلاوون يرون أنفسهم، ويراهم المسلمون مسؤولين عن جميع المسلمين في العالم.

- بناء جيش قوي لدولة المماليك في عهد أسرة قلاوون، ووجود الأسلحة الفردية والجماعية لدى الدولة، والاهتمام بالأسطول، ودار الصناعة، والاهتمام بأساليب القتال، والتهيئة النفسية للجيش المملوكي.

- خاض سلاطين دولة قلاوون العديد من المعارك الطاحنة مع أعداء الأمة الإسلامية، والانتصار عليهم، وحماية الإسلام والمسلمين من شرورهم.

-تجديد القلاع، مثل: قلعة دمشق، وحلب، وقلعة الروم، وقلعة الشوبك.

ثانيًا: التوصيات: أما عن توصيات الدراسة فإن الباحث يوصي بـ:

-دراسة عوامل النصر والتمكين لسلاطين الدولة المملوكية كل سلطان على حدة.

-دراسة عوامل النصر والتمكين لكل الشخصيات المؤثرة في التاريخ الإسلامي والتي استطاعت تحقيق الرقي والازدهار في عهدها والانتصار على عدوها.

-الأخذ بعوامل النصر والتمكين التي سار عليها حكام المسلمين وجعلها نبراسا يضئ لنا الطريق نحو العزة والسؤدد.

-عمل موسوعة متكاملة عن عوامل النصر والتمكين في التاريخ الإسلامي ليستنير بها قادتنا وحكامنا ويستفيدوا من التجارب الناجحة للحكام المسلمين.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

ابن آجا الحلبي، محمد بن محمود(1986م). *العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة يشبك من مهدي الدوادار*،(د.ط). دمشق: دار الفكر.

آرنولد، توماس وكريتي وبريغز، مارتن(1984م). *تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة*، ترجمة: زكي محمد حسن، (د.ط)، دمشق: دار الكتب العربية، طرابلس: مكتبة السائح.

آشتور. آ. (1985م). *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*، ترجمة: عبد الهادي أبو عبلة، مراجعة: أحمد غسان سبانو، (د.ط)، (د.م)، دار قتيبة للطباعة والنشر .

إبراهيم، ليلى علي، أمين، محمد محمد(1990م). *المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية*، (د.ط)، القاهرة: دار النشر بالجامعة الأمريكية.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني.(1995م). *الكامل في التاريخ*، تحقيق: عبد الله القاضي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.

أحمد، أحمد عبد الرازق (1979م). *البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك* (دراسة عن الرشوة)، (د.ط)، (د.م)، الهيئة العامة للكتاب.

أحمد، أحمد عبد الرازق(2001م). *الرنوك الإسلامية*، (د.ط)، القاهرة، (د.ن).

أحمد، سعد مرسي(1974م). *تاريخ التربية والتعليم*، (د.ط)، القاهرة، (د.ن).

ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة القرشي، ضياء الدين (د.ت). *معالم القربة في طلب الحسبة*، (د.ط)، كمبردج: دار الفنون.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف. (1988م). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ط1، بيروت: عالم الكتب.

الأدفوي، كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي(1914م). *الطالع السعيد*

الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، المحقق: سعد محمد حسن، (د.ط)، (د.م): الدار المصرية.

الأزهري، محمد بن أحمد بن الهروي أبو منصور(2001م). *تهذيب اللغة*، المحقق: محمد عوض مرعب، (د.ط)، بيروت: الناشر دار إحياء التراث العربي .

إسماعيل، البيومي(1998م). *النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك*، (د.ط)، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الأشقر، محمد عبد الغني(د.ت). *أتابك العساكر في القاهرة عصر المماليك الجراكسة*، (د.ط)، مصر، القاهرة: مكتبة مدبولي.

الأصفهاني عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد الكاتب(1987م). *"البرق الشامي"*، تحقيق فالح حسين، ط1، عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان.

الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد الكاتب (1980م). *تاريخ دولة آل سلجوق*، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الأصفهاني، الفتح بن علي بن محمد البنداري. (1979م). *سنا البرق الشامي اختصار البرق الشامي* للأصفهاني 562هـ/1166م– 583هـ/1187م. تحقيق: فتحية النبراوي، (د.ط)، مصر : مكتبة الخانجي للنشر.

ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي(د.ت). *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*، المحقق: الدكتور نزار رضا، (د.ط)، بيروت: دار مكتبة الحياة.

صفي الدين، عبد المؤمن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي (1991م)، *مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع*، ط1، بيروت: دار الجيل.

إقبال، عباس (1989م). *تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القلجارية (205ه/820م– 1343ه/1925م)*. ترجمة: عن الفارسية وتعليق محمد علاء الدين منصور، راجعه السباعي محمد السباعي، (د.ط)، القاهرة: دار الثقافة والنشر والتوزيع.

الألباني، محمد ناصر الدين(د.ت). *صحيح الترغيب والترهيب*، الطبعة الخامسة، الرياض: مكتبة المعارف.

ابن إياس: زين العابدين محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الناصري القاهري، (1972، 1974، 1982م، 1984م). *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الأول القسم الأول ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الجزء الأول القسم الثاني ، دار نشر فرانز شتاينرفسبادن، الجزء الثاني (دار نشر فرانز شتاينرفسبادن ، الجزء الثالث، والرابع، والخامس، (د.ط)،(القاهرة: نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب).

ابن أيوب، تاج الدين، (د.ت). *"منتخبات من كتاب التاريخ"*، مطبوع فى ذيل كتاب النوادر السلطانية، المحاسن اليوسفية لابن شداد ، د.ط، بيروت: دار الفكر.

باسلامة، حسين عبد الله(1999م). تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدنتها، (د.ط)، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

الباشا، حسن(1978م). *"الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار"*، (د.ط)،القاهرة، (د.ن).

الباشا، حسن وآخرون(2000م). *القاهرة تاريخها فنونها . أثارها*، (د.ط)، القاهرة: كلية الآداب، جامعة القاهرة.

بحر، مجدي عبد الرشيد(1999م). *القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك(648-923هـ/1250-1517م)*، د.ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي(2008م). صحيح *البخاري*، الطبعة الأولى، الجيزة: مكتبة ألفا للنشر والتوزيع، وطبعة دار الريان للتراث.

بخش، جواد صلاح الدين(1960م). *الحضارة الإسلامية*، ترجمة: علي حسين الخربوطلي، (د.ط)، مصر: دار الكتب الحديثة .

بدران،العلامة عبد القادر(1985م). *منادمة الأطلال*، تحقيق: زهير الشاويش، ط2، بيروت: نشر المكتب الإسلامي.

البدري، عبد اللطيف(2001م). *التعليم الطبي في الإسلام*، مجلة المجمع العلمي العراقي، محور

التاريخ الإسلامي، (د.م)،عدد فبراير، (د.ن).

بدوي، أحمد أحمد(د.ت). *الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام*. (د.ط)، القاهرة: مطبعة نهضة مصر.

البرزالي، علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الدمشقي(2006م). *المقتفى على كتاب الروضتين(تاريخ البرزالي)*، ط1، (د.م)، الناشر: المكتبة العصرية.

البستاني، بطرس(د.ت). *دائرة معارف البستاني*، (د.ط)، بيروت: دار المعارف.

البطاوي، حسن أحمد(2007م). *أهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك*، ط1، (د.م)، عين للدراسات والبحوث.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي. (1984م). *رحلة ابن بطوطة المسماه بـ تحفة النظار في غر ائب الأمصار وعجائب الأسفار*. تحقيق: علي المنتصر الكتاني، ط4، بيروت: مؤسسة الرسالة للنشر.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي. (1996م). *تاريخ بغداد وذيوله*، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

البقلي، محمد قنديل(1983م). *التعريف بمصطلحات صبح الأعشى*، (د.ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أبو بكر، منال أحمد خليل(2012م). *صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693هـ-741هـ) في أدب العصر المملوكي الأول*. رسالة ماجستير. جامعة النجاح: كلية الدراسات العليا.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي. (1992م). *المسالك والممالك*، تحقيق وتقديم: ادريان فان ليوفن ، واندري فيري، (د.ط)، تونس: الدار العربية للكتـــــاب.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي. (1983م). معجم *ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، الطبعة الثالثة، بيروت: عالم الكتب.

بهنسي، عفيف(1980م). *الشام لمحات آثارية وفنية*، (د.ط)، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة

والإعلام: دار الرشيد للنشر.

بهنسي، عفيف(1986م). *الفن الإسلامي*، (د.ط)، (د.م)، دار طلاس للنشر.

بولياك. ا.ن. (1948م). الإقطاعية *في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان*، نقله عن الإنكليزية،عاطف كرم، ط1، بيروت: منشورات دار المكشوف.

بيطار، أمينة(1984م). *التعليم في الشام في العصر الأيوبي*، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة السادسة، العدد السابع، شهر: أغسطس(آب).

ابن البيطار، عبد الله بن أحمد المالقي، ضياء الدين، أبو محمد(د.ت). *الجامع لمفردات الأدوية والأغذية*، (د.ط)، (د.م)، (د.ن). نسخة من مكتبة الشاملة الإلكترونية.

تدمري، عمر عبد السلام(1933م). *خطط طرابلس وآثارها في عصر المماليك*، مجلة تاريخ العرب والعالم، تصدرها دار النشر العربية، السنة الثالثة عشر، العدد:144.

التطيلي الأندلسي، بنيامين بن يونه(1365هـ/1945م). *"رحلة بنيامين"*، ترجمة: عزرا حداد، (د.ط)، بغداد: المدرسة الوطنية.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي. (1979م). *الدليل الشافي على المنهل الصافي*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الخانجي لطباعة والنشر.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي. (د.ت). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. (د.ط)، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي للنشر.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي(1997م). *مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة*. تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، (د.ط)، القاهرة : دار الكتب للنشر.

التونجي، محمد(2001م). *معجم أعلام النساء*، ط1، (د.م)، دار العلم للملايين.

تونجي، محمد (2009م). *المعجم الذهبي في الدخيل على العربي: عربي – عربي* ، (د.ط)، (د.م)، مكتبة لبنان .

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الحنبلي الدمشقي

(د.ت). *الحسبة في الإسلام*، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، ط1، (د.م)، دار الكتب العلمية.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الحنبلي الدمشقي (1995م). مجموع *الفتاوى*، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (د.ط)، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

الثعالبي، أبو منصور (1981م). *التحفة البهية والطرفة الشهية*، ط1، لبنان، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

جبران، نعمان محمود(1981م). *مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول (1174-1381م)*. رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية: كلية الآداب.

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (1978م). *تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار*، ط2، بيروت: دار الجيل.

ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبر الكناني الأندلسي(د.ت). *رحلة ابن جبير*. تحقيق وتقديم: الدكتور محمد مصطفى زيادة، (د.ط)، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

الجزار، هاني فخري عطية(2007م). *النظام العسكري في دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)*. رسالة ماجستير، غزة: الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار.

ابن الجزري: محمد بن محمد بن يوسف، شمس الدين أبو الخير (1419 هـ/ 1998م). *تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري*، 3 أجزاء، تحقيق : أ.د عمر عبد السلام تدمري، ط1، صيدا- بيروت: المكتبة العصرية.

الجزيري، عبد القادر بن محمد.(1983م). *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة*، أعده للنشر: أحمد جاسر، (د.ط)، الرياض: دار اليمامة.

الجعفري(د.ت)، *أنهج الطرايق*، (مخطوط في باريس ومصور في الجامعة الأردنية،(تحت العسكري فيرقم:341).

الجلعود، محماس بن عبد الله بن محمد(1407 هـ/1987م). *الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية*، الطبعة الأولى، (د.م)، دار اليقين للنشر والتوزيع.

جميعان، ميخائيل(1983م). *المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية*. المطبعة الاقتصادية.

جندي، فلسطين تيسير إبراهيم(2013م). *السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وسياسته الخارجية والداخلية(689-693هـ/1290-1294م)*، رسالة ماجستير منشورة، الخليل: جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا.

ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي(1421هـ- 2000م). *سر صناعة الإعراب*، الطبعة الأولي، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(1987م). مختصر *لقط المنافع*، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق،(د.ط)، دمشق، بيروت: دار المأمون للتراث.

الجوهري الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد. (1987م). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت: دار العلم للملايين.

ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج(د.ت)، *المدخل*، (د.ط)، (د.م)، دار البنترا،(د.ن) .

الحافظ، محمد مطيع(2001م). *دار الحديث الأشرفية بدمشق*، ط1، دمشق: دار الفكر المعاصر.

ابن حبيب، الحسن بن عمر (1976،1982م،1986م):

"تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"، تحقيق: محمد محمد أمين، الطبعة الأولى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن حبيب الحلبي، بدر الدين الحسن بن عمر(2014م). *درة الأسلاك في دولة الأتراك*، (د.ط)، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

حجازي، فايزة عبد الرحمن(1992م). *أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك.

حجازي، عبد الحميد(1977م). موسوعة *العالم الإسلامي*، إعداد: مركز الأبحاث والدراسات الدولية في دار الرأي العام، (د.ط)، القاهرة: دار الرأي العام.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد(1389هـ/1969م). *إنباء الغمر بأبناء العمر*، المحقق: د حسن حبشي، (د.ط)، مصر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (د.ت). *"الدرر الكامنة في أعيان المئة الثانية"*، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، (د.ط)، بيروت، (د.ن).

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (2000م) . *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. الطبعة الثالثة، الرياض: مكتبة دار السلام. دمشق: مكتبة دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع.

الحجي، حياة ناصر الحجي(2002م). *بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك*، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية. الرسالة (189)، الحولية (23)، (د.ط)، الكويت: جامعة الكويت.

الحجي، حياة ناصر الحجي(1982م). *السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده*، ط1، الكويت: مكتبة الفلاح.

الحجي، حياة ناصر الحجي(1989م). *من مظاهر نظام التعليم في مصر زمن المماليك*، الجامعة المستنصرية: مجلة آداب المستنصرية، عدد: 17.

الحداد، محمد حمزة إسماعيل(د.ت). *السلطان المنصور قلاوون(تاريخ-أحوال مصر في عهده-منشآته المعمارية)*، (د.ط)، القاهرة: مكتبة مدبولي.

الحداد، محمد حمزة إسماعيل(د.ت). *القباب في العمارة المصرية الإسلامية*، (د.ط)، (د.م)، مكتبة الثقافة الدينية.

الحديدي، فائز علي بخيت محمد(2000م). *الحياة العلمية في بلاد الشام في ظل الزنكيين* ، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الموصل.

الحروب، محمد(1995م). *المماليك الأتراك في الدولة الأيوبية(567-648 /1171-1250)*، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية.

حسن، زكي محمد(1948م). *فنون الإسلام* – الطبعة الأولى، (د.م)، مكتبة النهضة المصري .

حسن، زكي محمود(1937م). *كنوز الفاطميين*، (د.ط)، مصر: مطبعة دار الكتب المصرية.

حسن، سليم(1994م). *مصر القديمة . تاريخ مصر القديمة، تاريخ مصر والسودان*، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حسن، طه صفوان(2010م). *تاريخ الأيوبيين والمماليك*، (د.ط)، عمان: دار الفكر.

حسن، علي إبراهيم(1944م). *دراسات في تاريخ المماليك البحرية، وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص*، (د.ط)، (د.م). مكتبة النهضة المصرية.

حسين، حمدي عبد المنعم محمد(1996م). *دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك*، (د.ط)، (د.م)، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع.

الحسيني، صدر الدين بن علي (د.ت). "*أخبار الدولة السلجوقية*"، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال، (د.ط)، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

حمزة، عبد اللطيف(1968م). *الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول*، (د.ط)، القاهرة: دار المعارف.

حمودة، عبد الرحمن سعيد(1979م). *بيت المقدس في عهد المماليك*، رسالة ماجستير منشورة. القاهرة: جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية ، قسم التاريخ والحضارة.

الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف. (د.ت). *التاريخ المنصوري" تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"* . تحقيق: دكتور أبو العبد دودو، (د.ط)، دمشق: مطبعة الحجاز – مطبوعات مجمع اللغة العربية .

الحميرى، نشوان بن سعيد اليمني (1999م). *شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم*. المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله، الطبعة: الأولى،(بيروت – لبنان): دار الفكر المعاصر، (دمشق – سورية): دار الفكر.

ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم. (1938م) *صورة الأرض*، (د.ط)، بيروت: دار صادر، أفست ليدن.

الخرابشة، سليمان عبد العبد الله(1405هـ/1985م). *مملكة طرابلس في العهد المملوكي*، رسالة

ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم التاريخ.

الخرابشة، سليمان عبد العبد الله(1993م). *نيابة طرابلس في العصر المملوكي*. (د.ط)، (د.م)، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله(1889م). *المسالك والممالك*، (د.ط)، بيروت: دار صادر أفست ليدن.

خسرو، ناصر خسرو. (1983م). *سفرنامه*. تحقيق: يحيى الخشاب، ط3. بيروت: دار الكتاب الجديد للنشر.

الخطيب، مصطفى عبد الكريم(1996م). *معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية*، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي. (1954م). *(تاريخ ابن خلدون) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. ط5. بيروت: دار القلم للنشر.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي. (1900م). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، بيروت: دار صادر.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني(د.ت) . *سنن أبي داود*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، صيدا، بيروت: المكتبة العصرية.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي(1987م). *جمهرة اللغة*، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت: دار العلم للملايين.

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(د.ت). *الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها*، (د.ط)، بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر.

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(1985م). *الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين*، تحقيق: محمد كمال الدين علي، ط1، (د.م)، عالم الكتب.

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(1999م). *نزهة الأنام في تاريخ الإسلام*، تحقيق: سمير طبارة، ط1، بيروت: المكتبة العصرية.

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(1999م). *النفحة المسكية في الدولة التركية*، (د.ط)، بيروت: المكتبة العصرية.

دهمان، محمد أحمد(1990م). معجم *الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي*. (د.ط)، دمشق: دار الفكر.

الدواداري، أبو بكر عبد الله أيبك(1982م). *كنز الدرر وجامع الغرر*، تحقيق: بيرند راتكه، (د.ط)، القاهرة: قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار.

دوزي، رينهارت بيتر آن .(1979–2000م). *تكملة المعاجم العربية*، نقله إلى العربية وعلق عليه(ج1–8): محمد سليم النعيمي، (ج9–10): جمال خياط، ط1، العراق: وزارة الثقافة والإعلام.

الدويهي، البطريك اسطفانوس(1983م). *"تاريخ الأزمنة 1095هـ/1699م"*، تحقيق: بطرس فهد، منشورات، (د.ط)، بيروت: دار لحد خاطر.

ديماند(1954م). *الفنون الإسلامية*، ترجمة: أحمد محمد عيسى، (د.ط)، القاهرة: دار المعارف المصرية.

الديوة، سعيد(1989م). *الموجز في الطب الإسلامي*، ط1، الكويت: (د.ن).

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (1993م). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي.

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (1974م). دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، (د.ط)، القاهرة، د.ن.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (1985م). *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة.

الذهبي(1988م). "المختار من تاريخ بن الجزري"، تحقيق: خضير عباس وخليفة المنشداوي، (د.ط)، بيروت: دار الكتابة العربي.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز(1988م). *المعجم المختص بالمحدّثين*، المحقق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، السعودية، الطائف: مكتبة الصديق.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (د.ت). من ذيول العبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (د.ط)، (د.م)، نشر مطبعة الكويت الحكومية.

الذيابات، آمنة محمود عودة (2006م). *القبائل العربية في بلاد الشام في السياسة المملوكية (658-784هـ)*، رسالة دكتوراة منشورة، مؤتة: جامعة مؤتة، عمادة الدراسات العليا.

الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي(1420هـ/1999م). *مختار الصحاح*، المحقق: يوسف الشيخ محمد، ط5، بيروت: المكتبة العصرية، صيدا: الدار النموذجية.

الراغب الأصفهاني(أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (2007م). *الذريعة إلى مكارم الشريعة*، (د.ط)، مصر: دار السلام للنشر والتوزيع .

رزق، عاصم محمد(2000م). معجم *مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية*. ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي.

رستم، أسد(2014م). *مصطلح التاريخ*، ط4، مصر: مركز تراث للبحوث والدراسات.

رضا، أحمد(1959م). معجم *متن اللغة*، موسوعة لغوية حديثة، ط1، بيروت: دار مكتبة الحياة.

الرفاعي، هالة نواف يوسف (2008م). "*السجون في مصر في العصر المملوكي*، (648-923هـ/1250-1517م) "، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا.

رنسيمان، ستيفن(1969م). "*تاريخ الحروب الصليبية*"، ترجمة: السيد الباز العريني، (د.ط)، بيروت: دار الثقافة.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني،(د.ت). *تاج العروس من جواهر القاموس*. تحقيق : مجموعة من المحققين، (د.ط)، (د.م)، دار الهداية للنشر.

الزحيلي، وهبة(2000م). *أحكام الحرب في الإسلام وخصائصها الإنسانية*، (د.ط)، (د.م)، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع.

الزركشي، محمد بن بهادر(1995م). *إعلام الساجد بأحكام المساجد*، (د.ط)، (د.م)، دار الكتب العلمية.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي. (2002م). " *الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)* "، ط15، بيروت: دار العلم للملايين.

زقلمة، أنور(د.ت). *المماليك في مصر*، (د.ط)، القاهرة: مطبعة المجلة الجديدة .

زكار، سهيل(2001م). حروب *الفرنجة(الصليبية)*، (د.ط)، (د.م)، منشورات جامعة دمشق.

ابن الزيات، شمس الدين محمد(1325هـ/1907م). *الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى*، (د.ط)، مصر: المطبعة الأميرية.

زناتي، أنور محمود(2011م). معجم *مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية*، ط1، الأردن: دائرة المكتبة الوطنية.

زيادة، محمد مصطفى وآخرون(1971م). *دراسات عن المقريزي*، (د.ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

زيادة، نقولا(1978م). *الجغرافية والرحلات عند العرب*، (د.ط)، بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

زيتون، عادل(1992م). *تاريخ المماليك*، (د.ط)، دمشق: جامعة دمشق.

سالم، السيد عبد العزيز، سالم ، سحر عبد العزيز(2004م). *دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك*،

(د.ط)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

سالم، السيد عبد العزيز (1386هـ/1966م). *"طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي"*، (د.ط)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر.

سالم، السيد عبد العزيز (2000م). *محاضرات في تاريخ الحضارة الإسلامية*، (د.ط)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر.

السامرائي، حسام الدين(1989م). *المدارس مع التركيز على النظاميات*، بحث من ندوة التربية العربية الإسلامية، المؤسسات والممارسات، ج2، (د.ط)، عمان: مؤسسة آل البيت.

ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي(1993م). *صدق الأخبار. تاريخ ابن سباط*. المحقق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، طرابلس، ليبيا: دار جروس برس.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قره اوغلي. (1968م). *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان*. تحقيق: علي سويم، (د.ط)، تركيا، أنقرة، (د.ن).

السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي. (1992م). *طبقات الشافعية الكبرى*. تحقيق: محمود الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط2. (د.م)،هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين(1948م). معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وآخرين، ط1، مصر: مكتبة الخانجي.

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد شمس الدين أبو الخير (1414ه /1993م). *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، (د.ط)، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي(1971م). *شرح السير الكبير*، (د.ط)، (د.م)، الشركة الشرقية للإعلانات.

ابن أبي السرور البكري، محمد بن محمد بن أبي السرور شمس الدين البكري الصديقي المصري(د.ت). *قطف الأزهار من الخطط والآثار (مختصر الخطط للمقريزي)(مخطوط)*. (د.ط)، جامعة هارفارد، (د.ن).

سرور، محمد جمال الدين(د.ت). *دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص،* (د.ط)، القاهرة: دار الفكر العربي.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغـــــدادي. (1990م). *الطبقات الكبرى*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

سعيد، مجاهد محمد(2011م). *الحياة العلمية في دولة المماليك البحرية 648-783هـ/1250-1382م*. رسالة دكتوراة، السودان: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية.

السفاريني ، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي(1982م). *لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية*، ط2، دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها.

سليمان، أحمد السعيد(1972م). *تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة*، (د.ط)، (د.م)، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

سليم، محمود رزق(1962م). عصر *سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي*، ط2، (د.م)، المطبعة النموذجية.

السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني (1419هـ/1998م). *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

سميث ، جوناثان رايلي(1989م). *الإسبتارية*، تعريب: صبحي الجابي، دمشق: دار طلاس.

سميل، ريلي(1982م). *"الحروب الصليبية"*، ترجمة: سامي هاشم، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

السيد، محمود(2004م). *التتار والمغول* . (د.ط)، (د.م)، مؤسسة شباب الجامعة .

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (2000م). *المحكم والمحيط الأعظم*، المحقق: عبد الحميد هنداوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (1996م). *المخصص*، المحقق: خليل إبراهم جفال، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (د.ت). *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، صيدا(لبنان): المكتبة العصرية.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (1952م). *تاريخ الخلفاء*، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ط)، القاهرة (مصر): مطبعة السعادة.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (د.ت). *حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة*، (د.ط)، (د.م)،(د.ن).

الشاطر، بصيلي عبد الجليل(1967م). *الكارمية*، المجلة التاريخية المصرية، مج12.

شاكر، محمود(1991م). *"التاريخ الإسلامي"*، ط5، (د.م)، المكتب الإسلامي.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي. (1997م). *الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة.

الشامي، أحمد محمد، حسب الله، سيد(1988م). *المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات*. (د.ط)، الرياض: دار المريخ.

الشامي، علي(1995م). *الحضارة والنظام العالمي، أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب*، (د.ط)، بيروت: دار الإنسانية.

ابن شاهين الظاهري، خليل بن شاهين الظاهري، غرس الدين(1892م). *زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك*، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، (د.ط)، باريس: مطبعة الجمهورية.

ابن شاهين الملطي، عبد الباسط بن خليل(1407هـ/1987م)، *نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين*، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي ، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

الشاوي، عبير كريم عبد الرضا(2005م)، *تجار الكارم أثرهم الاقتصادي والحضاري من القرن الرابع وحتى القرن التاسع الهجري*، أطروحة دكتوراة غير منشورة، بغداد، العراق ،

الشجاعي: شمس الدين(2008م). *تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده*، دراسة وتحقيق: سلطانة بنت ملاح الرويلي، المشرف: الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية.

ابن الشحنة، أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد، (1909م). *"الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"*، وقف على طبعه وعلق حواشيه يوسف بن اليان سركيس الدمشقي، (د.ط)، بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

ابن شداد، علاء الدين محمد بن علي بن إبراهيم. (د.ت). *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*. (د.ط)، (د.م)، (د.ن).

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المشهور بابن شدّار. (1964م). *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية*، تحقيق : جمال الدين الشيال، ط1.(د.م)، (د.ن).

ابن شداد: عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (1983م). *تاريخ الملك الظاهر بيبرس*، باعتناء أحمد حطيط نشر فرانزشتايلر، فيسبادن، طبعة أولى، (د.م)، (د.ن).

شطناوي، منتصر محمود صيتان(2008م). *التربية والتعليم في بلاد الشام في دولة المماليك البحرية 658-784هـ/1260-1382م*، رسالة دكتوراة، جامعة مؤتة، عمادة الدراسات العليا.

شلبي، أحمد(1974م). *الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي*، الطبعة الثانية، مصر: مكتبة النهضة.

شلبي، أحمد(1984م). موسوعة *التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية*، ط7، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الشمراني، أمل بنت صالح بن غصاب(2017م). حجات السلاطين المماليك وآثارها الحضارية في بلاد الحرمين الشريفين. مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج9، العدد 26.

الشهابي، الأمير حيد أحمد(1900م). *الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان*. (د.ط)، (د.م)، مطبعة السلام.

الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. (1948م)، *الملل والنحل*، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي،

(د.ط)، بيروت: دار السرور.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (د.ت). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، (د.ط)، بيروت: دار المعرفة.

الشيال ، جمال الدين (2007م). تاريخ مصر الإسلامية، (د.ط)، (د.م)، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري(1935م). *نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*، تحقيق: مهران، ط1، بطرسبرغ، (د.ن).

الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، جلال الدين العدوي الشافعي(د.ت). *نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة*، (د.ط)، (د.م)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الصافي، محمد حسين(2008م). *العلاقات التجارية بين الشرق والغرب عبر البحر الأحمر القرن 8هـ/14م*، أطروحة دكتوراة غير منشورة، اليمن: جامعة صنعاء.

صبرة، عفاف سيد(1983م). *"العلاقات بين الشرق والغرب "* علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة 1100–1400م، د.ط، القاهرة: دار النهضة.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله(1998م). *أعيان العصر وأعوان النصر*، المحقق: الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، ط1، بيروت – لبنان: دار الفكر المعاصر، دمشق – سوريا، : دار الفكر.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله(1991م). *تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب*، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي، زهير حميدان الصمصام، (د.ط)، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية.

الصفدي، الحسن بن أبي محمد عبد الله بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم الهاشمي العباسي(2003م). *نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك*،

المحقق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت: المكتبة العصرية.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (2000م). *الوافي بالوفيات*، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (د.ط)، بيروت: دار إحياء التراث.

الصلابي، علي(2006م). *الحملات الصليبية والأيوبيون بعد صلاح الدين(الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)*، ط1، (د.م)، دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع.

الصوري، وليم، (1992م). *الحروب الصليبية*. ترجمة: حسن حبشي، (د.ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن الصيرفي: علي بن داود الخطيب الجوهري(1973م). *نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان*، تحقيق: حسن حبشي ، (د.ط)، القاهرة: مطبعة دار الكتب.

أبو صيني، عبد القادر أحمد(د.ت). *دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة*، رسالة دكتواره معهد التاريخ العربي للتراث العلمي في الدراسات العليا.

ضاحي، فاضل جابر(2012م). *محاضرات في منهج البحث التاريخي*، ط4، (د.م)، تموز للطباعة والنشر والتوزيع.

الضلاعين، مروان عاطف(2012م). *السلع التجارية في الأسواق المصرية من دولة المماليك البحرية*، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج6، عدد 2، 2012م.

ضومط، أنطوان خليل(1980م). *الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري*، ط1، بيروت: دار الحداثة .

الطائي، فوزي أمين يحيى(1997م). *الخدمات الوقفية في العراق وبلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين*، رسالة دكتوراه، الموصل.

الطباخ، محمد راغب(1342هـ /1924م). *أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء*، (د.ط)، (د.م)، المطبعة العلمية الأولى .

ابن طباطبا، محمد بن علي ابن الطقطقي. (د.ت). *الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية*. (د.ط)، (د.م)،(د.ن).

الطبري، محمد بن جرير.(1977م). *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، القاهرة: دار المعارف.

الطراونة، طه ثلجي(1981م). *مملكة صفد في عهد المماليك*، ط1، بيروت: منشورات دار الأفاق الجديدة.

طرخان، إبراهيم علي(1960م). *مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة*، (د.ط)، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية .

طرخان، إبراهيم علي(1968م). *النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى*. (د.ط)، القاهرة، (د.ن).

الطرسوسي، إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الواحد ابن عبد المنعم نجم الدين الحنفي(د.ت). *تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك*، المحقق: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، ط2، (د.م)، (د.ن).

الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي(1948م). *"تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام العلم في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء"* ، تحقيق: كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية، عدد (12)، بيروت.

طقوش، محمد سهيل(1999م). *تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام*، ط2، بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

الطنطاوي، علي(1960م). *الجامع الأموي في دمشق*، ط1، سوريا، دمشق: دار المنارة.

ابن طولون، شمس الدين محمد (1418هـ/1998م). *مفاكهة الخلان في حوادث الزمان*، وضع حواشيه: خليل المنصور، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن طولون، شمس الدين محمد(د.ت). *النزهة السنية*، (مخطوطة في باريس، ومصورة في الجامعة الأردنية)، (رقم: 341/ ورقة 57).

ابن ظهيرة، جلال الدين محمد بن محمد بن نور الدين بن أبي بكر بن الحسين ابن ظهيرة(1996م) *الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة*، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، (د.ط)، القاهرة:

طبعة دار الكتب المصرية.

عاشور، سعيد عبد الفتاح(1987م). *بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته*، (د.ط)، القاهرة: عالم الكتب.

عاشور، سعيد عبد الفتاح (1965م). *العصر المماليكي في مصر والشام*، (د.ط)، القاهرة، (د.ن) .

عاشور، سعيد عبد الفتاح(1992م)." *المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك* "، (د.ط)، القاهرة: دار النهضة العربية.

عاشور، سعيد عبد الفتاح(1982م). *مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك*، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية.

العاملي، زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز(1895م). *الدر المنثور في طبقات ربات الخدور*، ط1، مصر: المطبعة الكبرى الأميرية.

العبادي، أحمد مختار(1969م). *قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام*، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية .

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، أبو عمر(1414هـ/1994م). *جامع بيان العلم وفضله*، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط1، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي.

عبد الدائم، عبد الله(1984م). *التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين*. ط5، بيروت- لبنان: دار العلم للملايين.

عبد العزيز، أمير(1403هـ- 1983م). *دراسات في الثقافة الإسلامية (مدخل إلى الدين الإسلامي)*، الطبعة الثالثة ، الخليل: مطبعة الخليل الإسلامية.

ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين، بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري (1961م). *"تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"*. تحقيق: مراد كامل، ط1، القاهرة، (د.ن).

ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين، بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر

السعدي المصري (1976م). "*الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر*"، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، (د.ن).

ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين، بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري(1996م). *الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية*،(د.ط)، القاهرة: أوراق شرقية.

ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين، بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري(د.ت). مخطوط بعنوان: *الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية*. ألمانيا: مكتبة ميونيخ، رقم الحفظ: 405.

ابن عبد المنعم الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (1980م). *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

ابن العبري. أبو الفرج غريغوريوس ابن أهرون (أو هارون) بن توما الملطي. (1992م). *تاريخ مختصر الدول*، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، ط3، بيروت: دار الشرق.

عبد الله، جهاد عزت(1985م). *دور العرب الحضاري في سمرقند من الفتح العربي الإسلامي حتى نهاية نهاية القرن الثالث الهجري*، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب.

عبد المهدي، عبد الجليل حسن(1400هـ/1980م). "*الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي* "، ط1، عمان: مكتبة الأقصى.

عبد الوهاب، حسن(د.ت). *تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة* – بيروت – لبنان: أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع .

العبيدي، طعمه ملح نومي(2016م). *الحياة الاقتصادية في مصر فترة حكم أسرة السلطان قلاوون المملوكي (678-784هـ/1279-1372م)* . رسالة ماجستير منشورة، جامعة آل البيت ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

عثمان، حسن(2000م). *منهج البحث التاريخي*، ط8، (د.م)، دار المعارف.

عثمان، شوقي عبد القرى(1990م). *تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية*، (د.ط)،

الكويت: المجلس الوطني للثقافة.

ابن العجمي، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين، أبو ذر سبط(1996م). *كنوز الذهب في تاريخ حلب*، ط1، حلب، دار القلم.

عدره، رشا(2013م). *الرنوك المملوكية في دمشق*، رسالة ماجستير غير منشورة، سوريا، جامعة دمشق.

ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله. (د.ت). *بغية الطلب في تاريخ حلب*. تحقيق : سهيل زكار، (د.ط)، (د.م)، دار الفكر للنشر.

العرضي(أبو الوفاء العرضي) محمد بن عمر بن عبد الوهاب(د.ت). *معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب(مخطوطة)*. إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية(2217/2). مركز ودود للفهارس وكتب التحقيق. مجلة مركز ودود للمخطوطات.

العريني، السيد الباز(د.ت) " *الشرق الأدنى في العصور الإسلامية*، الأيوبية "، (د.ط)، القاهرة: دار النهضة العربية.

العريني،السيد الباز (1967م). *الشرق الأدنى في العصور الوسطي*، الأيوبيون، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية.

العزام، عيسى محمود(د.ت). *الزراعة في مصر خلال العصر الأيوبي*، مجلة سبأ، العدد الثاني عشر.

العزة، رئيسة عبد الفتاح(1999م). *"نابلس في العصر المملوكي"*، ط1، نابلس: الفاروق.

العسلي، كامل جميل(1402هـ/1981م). " *معاهد العلم في القدس* "، (د.ط)، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية.

العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي(1998م). *سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي*، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود– علي محمد معوض، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

عطا الله، محمود علي خليل(1986م). "نيابة غزة في العهد المملوكي"، ط1، بيروت: دار الآفاق

الجديدة.

عطية الله، أحمد(1963، 1966، 1970م). *القاموس الإسلامي* ، ط1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية .

علام، نعمت إسماعيل(1982م). *فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية*، ط3، القاهرة: دار المعارف.

العلبي، أكرم(2003م). *خطط دمشق*، (د.ط)، دمشق: دار الطباع.

أبو عليان، عزمي عبد محمد(1995م). *مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر المماليك*، ط1، الأردن: دار النفائس للنشر.

ابن علي الكاتب ،العسقلاني، شافع بن علي(1998م). *الفضل المأثور في سير السلطان الملك المنصور*، تحقيق: عمر بن عبد السلام تدمري، ط1، بيروت: المكتبة العصرية.

العليمي، مجير الدين الحنبلي العليمي. (1999م). *الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل*. تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، (د.ط)، عمان: مكتبة دنديس للنشر.

عليوه، حسين عبد الرحيم(1979م). *دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر في عصر المماليك*، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الأول للتصميم والبيئة المصرية الذي عقد بكلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان، في الفترة من 24-26 أبريل 1979م.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح. (1986م). *شذرات الذهب*، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، (د.ط)، بيروت: دار ابن كثير.

العمايرة، خالد محمد سالم(2007م). *موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)*، (د.ط)، الرياض: دارة الملك عبد العزيز.

عمر، أحمد أنور(1983م). *المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ*، (د.ط)، القاهرة: دار النهضة العربية.

العمري، فضل الله العمري شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى(2001م). *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، تحقيق: أ.د محمد عبد القادر خريسات وآخرون، (د.ط)، (د.م)، إصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ.

ابن العميد، مكين جرجس ابن العميد. (د.ت). *أخبار الأيوبيين*، (د.ط)، (د.م)، مكتبة الثقافة الدينية للنشر.

العناقرة، محمد محمود خلف(2006م). *الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)*، (د.ط)، الرياض: دارة الملك عبد العزيز.

عنان، محمد عبد الله(1958م). *تاريخ الجامع الأزهر*، (د.ط)، (د.م)، مؤسسة الخانجي.

عودات، أحمد، بيضون، جميل، الناطور، شحادة(1990م). *تاريخ المغول والمماليك*، (د.ط)، إربد: دار الكندي.

عوض، محمد مؤنس(1999م). *"الحروب الصليبية"*، دراسات تاريخية ونقدية، ط1، عمان: دار الشروق.

عيسى، أحمد(1357هـ/1931م). *" تاريخ البيمارستانات في الإسلام "*، (د.ط)، دمشق، (د.ن).

العيني: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين (1998م). *السيف المهند في سيرة الملك المؤيد*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط2، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

العيني: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين(1987م-1992م). *عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان*، تحقيق: محمد محمد أمين، (د.ط)، القاهرة، (د.ن).

غالب، عبد الرحيم(1982م). *موسوعة العمارة الإسلامية*، (د.ط)، بيروت – لبنان: جروس بريس .

أبو غدة، حسن عبد الغني(1425هـ/ يناير 2005م). *الوقف ودوره في التنمية الثقافية والعلمية*، مجلة الشريعة والقانون، العدد (22)، ذو القعدة .

الغزالي (حجة الإسلام أبو حامد وهو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزَّالي الطوسي، وكنيته

"أبو حامد"، (1967م). *إحياء عوم الدين* ، (د.ط) ، القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه.

الغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي (1999م). *نهر الذهب في تاريخ حلب*، ط2، سوريا، حلب: دار القلم.

الغطاء، السيد محمد آل كاشف(1413هـ/1993م) . *أصل الشيعة وأصولها*، ط2، بيروت: دار الأضواء .

غوانمة، يوسف حسن درويش(1980م). *إمارة الكرك الأيوبية*، (د.ط)، الأردن: منشورات بلدية الكرك.

غوانمة، يوسف حسن درويش(1982م). *" تاريخ نيابة القدس في العصر المملوكي"*، (د.ط)، الزرقاء: دار الحياة.

غوانمة، يوسف حسن درويش(1415هـ/1995م) *معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج*، الطبعة الأولى ، (د.م)، دار الفكر.

فارتيما، فارتيما المعروف بالحاج يونس المصري(1994م). *رحلات فارتيما*، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ. (د.ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (1979م). معجم *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د.ط)، بيروت: دار الفكر.

الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني. (1985م). *شفاء الغرام*

بأخبار البلد الحرام، حققه ووضع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، (د.ط)، بيروت: دار الكتاب العربي.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه ابن أيـــوب، الملك المؤيد، صاحب حماة(1840م). *"تقويم البلدان"*، اعتنى بتصحيحه مطبعة رينود، والبارون ماك كوكين ريسلان، (د.ط)، باريس: دار الطباعة السلطانية.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه ابن أيـــوب، الملك المؤيد، صاحب حماة(د.ت). *المختصر في أخبار البشر*، (د.ط)، القاهـــــرة:

المطبعة الحسينية المصرية.

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن الفرات، *تاريخ ابن الفرات* (1967-1969م، 1970م)، الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع، تحقيق حسن الشماع، طبعة البصرة، العراق، ، والجزء الأول من المجلد الخامس، تحقيق حسن الشماع، (د.ط)، البصرة، (د.ن).

فروخ، عمر(د.ت). *تاريخ الأدب العربي*، (د.ط)، بيروت: دار العلم للملايين.

فكري، أحمد(1969م). *مساجد القاهرة ومدارسها*، (المدخل)، (د.ط)، مصر، (د.ن).

فليح، مناهل فخر الدين(1979م). *التعليم في ظل دولة المماليك*، مجلة آداب الرافدين، العدد (10) جامعة الموصل.

ابن فهد، محمد بن محمد. (1983م). *اتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الخانجي.

فهمي، نعيم زكي(1973م). *طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب*(أواخر العصور الوسطى)، (د.ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فياض، عبد القادر(1996م). *(الغزو المغولي وأثره على العرب)*، مجلة المعرفة، عدد 389، سوريا.

الفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(1426هـ /2005م). *القاموس المحيط*، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط8، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

فييت، جاستون(1939م). *دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية*، (د.ط)، القاهرة، (د.ن).

فييت، جاستون(1998م). *القاهرة ومدينة الفن والتجارة*، ترجمة: مصطفى العبادي، (د.ط)، بيروت: مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر.

قاسم، قاسم عبده (1407هـ/1987م)."*أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، بعض مظاهر الحياة اليومية في مصر في عصر سلاطين المماليك* -مطبوع ضمن موسوعة الحضارة

العربية والإسلامية "، (د.ط)، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

قاسم، قاسم عبده(1978م). *أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك*، (د.ط)، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت.

قاسم، قاسم عبده ، علي، السيد علي(2007م). *في تاريخ الأيوبيين والمماليك،(التاريخ السياسي والعسكري)*. (د.ط)، الإمارات: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

قاسم، قاسم عبده(2012م). *النيل والمجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك*، ط1، الهرم: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي تقي الدين (1977م) ، *تاريخ ابن قاضي شهبة*، تحقيق:عدنان درويش، ط 1، دمشق: منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية .

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين، (1971م). *"الكواكب الدرية في السيرة النورية"*، تحقيق: محمود زايد، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد.

القحطاني، سعد بن صويان(2005م). *تأثير الحج المصري على الحجاز في عهد المماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م)*، رسالة ماجستير غير منشورة، الرياض: كلية الآداب، جامعة الملك سعود.

قراعة، سنية(1958م). *مساجد ودول*، ط1، القاهرة: دار أخبار اليوم.

قرحيلي، نبيل جميل(2010م). *الاحتفالات في عصر المماليك(648-922هـ/1250-1516م)*، رسالة ماجستير غير منشورة، سوريا، وزارة التربية والتعليم: جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

قرعوش، كايد، وآخرون (2001م). الأخلاق في الإسلام ، الطبعة الثانية ، سلطنة عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع .

القرماني، العالم الفاضل أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (1992م). *أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ*. دراسة وتحقيق: أحمد حطيط، وفهمي سعيد، ط1. بيروت: عالم الكتب

للنشر.

أبو قريحة، نايف بن حمود محمد(1998م). *النظم الحربية عند السلاجقة*، رسالة دكتوراة. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. (د.ت). *آثار البلاد وأخبار العباد*، (د.ط)، بيروت: دار صادر.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(2003م). *"عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"*، ط1، المنصورة: مكتبة الإيمان.

القسطلاني (أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: من علماء الحديث (1996م). *إرشاد الساري شرح صحيح البخاري*، ترجمة، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتب العلمية .

قطب، محمد(د.ت) . *دراسات قرآنية* ، (د.ط)، القاهرة: دار الشروق.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري(د.ت). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري. (1985م). *مآثر الإنافة في معالم الخلافة*، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط2، الكويت: مطبعة حكومة الكويت.

القوصي، عطية(1975م). *أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة*، المجلة التاريخية المصرية، مج22.

القونوي، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي الرومي الحنفي(1424هـ/2004م). *أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء*، المحقق: يحيى حسن مراد، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

قيطاز، محمد عدنان(1996م). *الهجمات المغولية على الشرق العربي وموقف حماة النضالي*، دمشق: مجلة التراث العربي، العدد: 62.

الكتبي، محمد بن شاكر. (1980م)، *عيون التاريخ*، تحقيق: حسام الدين القدسي، (د.ط)، القاهرة:

مكتبة النهضة.

الكتبي، محمد بن شاكر. (2000م). *فوات الوفيات*. تحقيق: علي محمد بن يعوض الله، عادل أحمد عبد الموجود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (1988م). *البداية والنهاية*، تحقيق: علي شيري، (د.ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي(1981م). مختصر *تفسير ابن كثير*، المحقق: محمد علي الصابوني، ط7، لبنان: دار القرآن الكريم.

كحالة، عمر رضا(2008م). *أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام*، الناشر مؤسسة الرسالة.

كُرْد عَلي، محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد(1403 هـ - 1983 م)، *خطط الشام*، الطبعة الثالثة، دمشق : مكتبة النوري.

كرمي، مرعي بن يوسف(2012م). *نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين*. (د.ط)، (د.م)، دار النوادر.

ابن كنان، محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي (1992م). *المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية*، المحقق :حكمت إسماعيل، (د.ط)، سوريا: الناشر وزارة الثقافة السورية.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري(2009م). *فضائل مصر المحروسة*، تحقيق: علي محمد عمر، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الخانجي، والهيئة المصرية العامة للكتاب.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري(2003م). *الولاة والقضاة*، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

كوكش، أحمد يحيى(1999م). *المقريزي مؤرخا للحيا الاقتصادية في مصر في عصره*، رسالة ماجستير غير منشورة، الأردن: جامعة مؤته.

كيرة، نجوى كمال(2007م). *الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي، والأيوبي* ، (د.ط)،

القاهرة: مكتبة زهراء البشرق الولى.

لبيب، صبح(1952م). *التجارة الكارمية*، المجلة التاريخية المصرية، مج2، عدد1.

لبيب، صبح(1981–1982م). *سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين والمماليك*، المجلة التاريخية المصرية، مج28–مج29.

لينبول، ستانلي(1950م). *سيرة القاهرة*، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط5، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ماجد، عبد المنعم(1988م). *التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر*. دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ماجد، عبد المنعم(1967م). *نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه)*، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ابن ماجة(الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة)(د.ت). *سنن ابن ماجة*، ط1، بيروت: دار الجيل.

ابن مالك(الإمام) مالك ابن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني(1406 هـ – 1985 م) ، *موطأ الإمام مالك*، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ماهر، سعاد(د.ت). *مساجد مصر وأولياؤها الصالحون*، المحقق: محمد توفيق عويضة، ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الماوردي،(أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، (د.ت) . *الأحكام السلطانية و الولايات الدينية*، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

المبارك، حصة ناصر (1987م). *الناصر محمد بن قلاوون والحياة الاقتصادية في عصره*، رسالة ماجستير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

مبارك، علي(1889م). *الخطط التوفيقية الجديدة مصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة*، ط1، بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية.

محمد، محمد إبراهيم(د.ت). *تاريخ التعليم الطبي عند العرب والمسلمين*، رحلة عطاء وإبداع، (د.ط)، القاهرة: مكتبة المنار.

محمود، شفيق جاسر أحمد(1409هـ/1989م). *المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام*، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة الحادية والعشرون – العددان الواحد والثمانون والثاني والثمانون – المحرم – جمادى الآخرة.

محمود عبد العاطي، عبد الغني(1975م). *التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك*، (د.ط)، (د.م)، دار الدعوة للطبع والنشر.

ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. (2000م). *تجارب الأمم وتعاقب الهمم*، المحقق: أبو القاسم إمامي، ط2، طهران: سروش.

ابن مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب.(د.ت). *تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق*، (د.ط)، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة .

مسلم(الإمام)، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن ورد القشيري النيسابوري. (د.ت). *صحيح مسلم* بشرح الإمام محيي الدين النووي(ت651هـ/1254م) المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج، تحقيق: مأمون شيحا، (د.ط)، بيروت: دار المعرفة.

مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، (استانبول: المكتبة الإسلامية، د.ط، د.م، د.ن).

معلوف، لويس(1997م). *المنجد في اللغة والأعلام*. (د.ط)، دار المشرق، (د.ن).

ابن المغيزل، نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفري(2004م). *ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*، تحقيق: عمرعبد السلام تدمري، ط1، بيروت: المكتبة العصرية.

المقدسي، محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أبو عبد الله(1991م).*أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ط3، القاهرة: مكتبة مدبولي، (د.ط)، بيروت: دار صادر، ليدن.

المقريزي، أحمد بن علي (د.ت)." *البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب*" ، المكتبة الشاملة آلياً، غير موافق للمطبوع، وبدون بيانات.

المقريزي، أحمد بن علي. (2000م). *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

المقريزي، أحمد بن علي. (1997م). *السلوك لمعرفة دول الملوك*. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1. لبنان: دار الكتب العلمية للنشر.

المقريزي، أحمد بن علي (1991م). *المقفى الكبير*، 8 أجزاء، تحقيق: محمد اليعلاوي، (د.ط)، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

المقريزي، أحمد بن علي (1997م). *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن مماتي الأسعد، الوزير الأيوبي(1991م). *قوانين الدواوين*، جمع وتحقيق: عزيز سوريال عطية، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي.

المناوي، محمد حمدي(1967م) . *نهر النيل في المكتبة العربية*، (د.ط)، القاهرة: الدار القومية للطباعة.

منصور، أحمد علي(2010-2011م). *تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام على الصعيدين السياسي والاقتصادي 678-702هـ/1279-1302م*، رسالة ماجستير، سوريا: جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

المنصوري: ركن الدين بيبرس بن عبد الله نائب السلطنة في مصر(1998م). *التحفة الملوكية في الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من 648-711هـ*، (د.ط)، (د.م). الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر.

المنصوري: ركن الدين بيبرس بن عبد الله نائب السلطنة في مصر(2001م). *زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة*، ج 42، تحقيق: دونالد س، ديتشاردز، ط1، بيروت، (1419هـ/1998م)، ج9، تحقيق الدكتورة زبيدة محمد عطا، (د.ط)، (د.م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

المنصوري: ركن الدين بيبرس بن عبد الله نائب السلطنة في مصر (1993م). *مختار الأخبار*، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى عام 702 هـ، تحقيق: عبد الحميد صالح

حمدان، (د.ط)، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الأنصاري الرويفعـــــــــى الإفريقى. (1993م). *لسان العرب*، ط3، بيروت: دار صادر.

مهدي، شفيق(2008م). *مماليك مصر والشام*، (د.ط)، بيروت: الدار العربية للموسوعات.

موير، وليم (د.ت). *تاريخ دولة المماليك في مصر*، ترجمة: محمود عابدين و سليم حسن، (د.ط)، القاهرة: مكتبة مدبولي.

ناجي ، عبد الجبار(1986م). *دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية*، (د.ط)، (د.م)، مطبعة جامعة البصرة.

ناصر، عامر نجيب موسى(2003م). *الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي*، ط1، رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع.

النباهين، علي سالم(1981م). *نظام التربية الإسلامي في عصر دولة المماليك في مصر*، (د.ط)، القاهرة: دار الفكر العربي.

نجم، زين العابدين شمس الدين(2006م). معجم *الألفاظ والمصطلحات التاريخية*، (د.ط)، القاهرة: دار الكتب المصرية.

النسفي: عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص، نجم الدين (1894م). *طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية*،(د، ط)، بغداد: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى.

نسيم، جوزيف(1981م). *العدوان الصليبي على بلاد الشام*، (د.ط)، بيروت: دار النهضة .

النشار، السيد السيد(1993م). *تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي*. تقديم: الدكتور محمد فتحي عبد الهادي، الدكتور جوزيف نسبيم يوسف. (د.ط)، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

النظر، محمد أحمد(2006م). *تاريخ بيت المقدبس في العصر المملوكي*، الطبعة الأولى، عمان: دار البداية.

النعيمي الدمشقي ، عبد القادر بن محمد. (1989م). *الدارس في تاريخ المدارس*. تحقيق: إبراهيم

شمس الدين، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

النهار، عمار محمد(2014م). *تاريخ بالمماليك*، (د.ط)، دمشق: منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

نهايم، سوبر(1969م). *دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الملك الأشرف شعبان"*، نقلها إلى العربية أحمد الشنتاوي وآخرون، ط2، القاهرة: دار الشعب.

نوري، دريد عبد القادر(1978م). *سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام) (679-689هـ/1279-1290م)*، مجلة آداب الرافدين، عدد 9، جامعة الموصل.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(2004م). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية للنشر.

الهروي، علي بن أبي بكر بن علي، أبو الحسن(2002م). *الإشارات إلى معرفة الزيارات*، (د.ط)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

هنتس، فالتر(1970م). *"المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري"*، ترجمة: كامل العسلي، (د.ط)، عمان: منشورات الجامعة الأردنية.

الهواري، حسن محمد(1926م). *رسالة في وصف محتويات دار الآثار*، (د.ط)، مصر: مطبعة الاعتماد.

وادي، لامية (2010-2011م). *دولة المماليك في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(693-741هـ/1293-1341م)*. رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر: وزارة التعليم العالي، والبحث العلمي، بوزريعة، جامعة الجزائر، قسم التاريخ.

ابن واصل، محمد بن جمال الدين محمد بن سالم. (د.ت). *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*.

- الجزء 1-3 ، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة.

- الجزء 4-5، تحقيق: حسن محمد ربيع، القاهرة: مطبعة دار الكتب.

- الجزء السادس، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، (د.ط)، طرابلس: الجامعة اللبنانية.

ابن الوردي، زين الدين عمر.(1996م). *تاريخ ابن الوردي (تتمه المختصر في أخبار البشر)*. ط1. (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

الوشلي، عبد الله قاسم(1990م). *المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ*. (د.ط)، (د.م)، الناشر مؤسسة الكتب الثقافية.

ابن الوكيل، يوسف الملواني (1999م). *تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك و النواب*، تحقيق: محمد الشِشتاوي، ط1، القاهرة: دار الآفاق العربية.

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان. (1997م). *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان*، وضع حواشيه: خليل المنصور، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي(1986م). *المشترك وضعًا المفترق صقعًا*، (د.ط)، بيروت: عالم الكتب.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي(1995م). معجم *البلدان*، ط2، بيروت: دار صادر.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (2001م).*البلدان*، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن يوسف الدمشقي الحنبلي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي(د.ت). *العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية*، المحقق: محمد حامد الفقي، (د.ط)، بيروت: دار الكاتب العربي .

اليوسفي: موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري عماد الدين،(1406هـ/1986م). *نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر*، تحقيق ودراسة أحمد حطيط، بيروت: عالم الكتب.

اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (1992م). *ذيل مرآة الزمان*، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية للأمور الثقافية للحكومة الهندية، ط2، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.